

الأدب العربي بين البادية والحضر

تأليف

الدكتور محمد هاشم عيسى

وكيل كلية اللغة العربية بالمنصورة

١٩٨٣ - ١٤٠٣ هـ

حقوق الطبع محفوظة لمؤلف

الأدب العربي بين البدايات والمحضر

تأليف

الدكتور إبراهيم عيسى

وكيل كلية اللغة العربية بالمنصورة

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إذا كانت دراسة الأدب من خلال المصور الأدبية تقدم تصوراً لمسيرته ، تتضح من المظهر إليه أطواره . فإن صورة الأدب تبدو في هذه الأطوار باهتة ، تتطلب مزيداً من التحديد ، وتثير كثيراً من التساؤلات ، وكان من أبرز هذه التساؤلات ، تساؤل بعض الدارسين من العرب والمستشرقين عن السر في تباين الأدب العربي في الطور الواحد ، بحيث تواجه في العصر الواحد بأدب سهل الألفاظ لينها ، لا خشونة فيه ولا قوهر ، بل ولا جزالة ، كما تواجه في العصر ذاته بأدب جزل الألفاظ قوياً ، مع سهولة ووضوح ، أو مع خشونة وقوهر . مما أثار أكثر من قضية كان من أهمها دعوى السهل والترييف .

لذا كان على - وقد سبق أن قدمت دراسة للأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام - أن أضم إليها دراسة أخرى للأدب العربي في بيئاته المختلفة ، تحرص على تقديم صورة له في البيئة المتقاربة الآثار زمانية ومكانية وثقافية ، بحيث تبدو الصورة متلائمة ، يعكس بها الإجابة على بعض تلك التساؤلات المثارة .

وذلك لأن العصر الجاهلي - مثلاً - قد قام على بيئات عديدة ، منها البيئة ذات الحضارة المادية كما في إمارتي الحيرة والاشام ، والبيئة ذات الحضارة البدوية ، وهي البيئة البدوية التي وفدت إليها بعض المظاهر الحضارية ، فأثرت في أبنائها تأثيراً ما ، والبيئة ذات الحضارة الروحية والفكرية . وهي البيئة البدوية التي جاءت بها حضارة الإسلام الروحية والفكرية فهرت أبنائها هذا أسقط عنهم الكثير من موروثاتهم القديمة . أضف إلى هذه البيئات الثلاثة البيئة البادية التي حرص أبنائها على بداوتهم بكل ما فيها من خشونة وقوة .

فليس شك في أن اجتماع هذه البيئات على أمة واحدة في عصر زمني واحد ،

يجعل دارسى الأدب فى حيرة ؛ فهو أمام ظواهر أدبية لا تقل عن أربع ظواهر ، كل منها تختلف عن الأخريات فى آثارها .

من ثم رأيت أن أقدم دراسة فى الأدب العربى من خلال بيئاته ، لتكون مكتملة لدراسته من خلال عصوره ، تتضح بهما معا صورة الأدب العربى وأطواره .

يبد أن دراسة النثر الجاهلى فى البادية والحاضرة لم تسكن بالأمر اليسور ؛ لتمذر الوقوف على نصوص نثرية موثوق فى صحة نسبتها إلى قائلها . فكان أن تبيعت فنون النثر فى أطواره المختلفة وفقا للبيئة الزمانية فحسب - دون نظر إلى البيئة المكانية - لنتعرف على انعكاس الحضارة الإسلامية عليه ، وأثر ذلك فيه .

وأما كان الجهد المبذول ، فهى خطوات على الطريق ، فى حاجة إلى ما يكملها ، فالمدى واسع ، والأحداث متشابكة ، وفقنا الله وسدد خطانا ، وهى أنا للصواب وهى الصواب لنا .

المؤلف

النسورة فى ٦ من ذى القعدة ١٤٠٠ هـ

١٦ من سبتمبر ١٩٨٠ م

تمهيد

الفصل الأول

الادب

من يتعرض لدراسة الأدب العربي يواجهه في أول أمره سؤال عن المقصود بكلمة « أدب » ، وأصل اشتقاقها ، وأطوار استعمالها منذ الفترة الزمنية التي يتيسر للدارس أن يطل على اللغة فيها حتى عصرنا الذي نعيش فيه .

ولا ريب في أن تلك الفترة الزمنية التي لا يستطيع الدارس أن يتجاوزها في إطلاله على اللغة العربية وآثارها هي ما نمارف عليه الدارسون باسم العصر الجاهلي ، وهو تلك الفترة الزمنية التي سبقت مجيء الإسلام ، وتعد إلى نحو مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام .
مفهوم كلمة أدب :

الناظر في مأثور العرب في العصر الجاهلي يجد أن كلمة « أدب » ومادتها في استعمالات القوم نادرة ، وهي مع هذه الندرة - فيما وصلنا - لم تكن تستعمل بالمفهوم التبعيري الذي نعرفه اليوم ؛ فقد اجتازت في هذا السبيل أطواراً انتقلت فيها معنى إلى معنى ، شأن كلمات اللغة دائماً .

ولعل من أقدم استعمالات مادة « أدب » ما روى على لسان طرفة بن العبد للتوفي سنة ٥٦٩ :

نحن في المشتاة ندهو الجفلى لا ترى الآدب إنما ينتقر^(١)

فالآدب هنا : الداعي إلى الطعام ، يقال : أدب يأدب أدباً - من باب ضرب - دعا إلى الطعام ؛ فالآدب - بسكون الدال - للدعاء إلى الطعام .

(١) انظر القصيدة (٥) بيت (٤٦) من ديوان طرفة ، طبعة آلوارد . والمشتاة : الشتاء ، والدعوة الجفلى : الدعوة العامة ، والآدب : الداعي إلى الطعام ، والانتقار : اختيار أناس دون أناس ، فالدهوة النقرى تقابل الدعوة الجفلى .

ثم ماروى على لسان أعشى قيس ، وهو شاعر مخضرم :

جروا على أدب منى بلا نزق ولا إذا ثمرت حرب بأغمار^(١)

وما جاء فى حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند ، يصف أبا سفيان بن حرب حين خطبها قبيل الإسلام : « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » ، وما جاء فى ردها عليه : « وسأخذ به بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفتي »^(٢) .

يشير إلى أن الكلمة انتقلت من المعنى الحسى السابق إلى المعنى الخلقى .

وقد يكون استعمالها فى المعنيين دون ترتيب ، لكن لم يصلنا ما يدل على ذلك .

حتى إذا جاء الإسلام استعملت الكلمة فى الدلالة على المعنى التعليمى ، مثال ذلك ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاطب وفود العرب على اختلاف لهجاتهم ، فيفهم عنهم ويفهمهم ، فقال له على كرم الله وجهه : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تسكلم الوفود بما لا نفهم أكثره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »^(٣) . ومثاله كذلك ما جاء فى قول كعب بن سعد النخوى للنفوس فى السنة العاشرة قبل الهجرة :

حبيب إلى الزوار غشيان بينه حميل الهيا شب وهو أديب

ثم اطرد استعمالها فى العصر الأموى بهذه المعانى الثلاثة ، وكثر استعمالها فى الدلالة على ما كان يلقى به المعلم إلى طلبته من الشعر والنقص والأخبار والأنساب وكل ما يهذب النفس ويشقفها من مختلف العلوم والمعارف . ومن ثم نشأت مهنة جديدة للجماعة من الناس أطلق عليهم « المؤدبون » ، وهم أولئك المتميزون فى العلم والأدب ، فكانوا

(١) هذا البيت من قصيدة مشهورة تختلف روايتها بالزيادة والنقص ، والتقديم والتأخير ، فى الأغاني ج ٨ ص ٧٩ ، وجمع الأمثال ج ٢ ص ٢٧٦ ، والبلدان ج ١ ص ٨٦ وما بعدها ، وشعراء الجاهلية ص ٣٦١ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ٢٦١ ، ص ٢٦٢ بتحقيق شاكرو .

(٢) الأمل ج ٢ ص ١٠٤

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ طبع القاهرة سنة ١٣١١ هـ .

موضع ثقة الخلفاء والأمراء فسموا إليهم لتأديب أبنائهم وتهذيبهم ، وتلقينهم للأثوار من ألوان التعبير ، وأخذ ألسنتهم بثقاف اللغة على اختلاف اتجاهاتها وننونها .

ومن ثم السمع مدلول كلمة أدب ومشتقاتها ، وأصبحت شاملة كل ما يحقق للإنسان العلم والثقافة من معارف ، وعلوم ، ورواية شعر ونثر ، وظلت على هذا النحو يتسع مدلولها ويضيق وفقاً لتمام استعمالها حتى إذا كان العصر العباسي ، ونمت الحضارة العربية ، وازدهرت النهضة العلمية ، وقويت حركة التأليف والترجمة ، أخذ كل لون في الاستقلال بنفسه عن الأدب ، فأصبحت كلمة أدب تدل على التعبير السكلاي الجيد - شعرا ونثرا - وما يدور في ملكه من شرح وتعليق ونقد . وأصبحت كلمة أدب تدل على من يعالج فيه التعبير السكلاي ، قولاً أو نقداً أو شرحاً . ولم تعد تشمل عالم البلاغة أو النحو أو أصول اللغة كما كان .

يبد أن مادة « أدب » كانت تطلق في بعض الأحيان - مع هذا التخصص - على المعنى العام الشامل لكل ألوان الثقافة ومظاهرها ؛ فقد روى عن الحسن بن سهل الوزير العباسي المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أنه قال : « الأدب عشرة ، ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ؛ فأما الشهرجانية فغضب العبود ولعب الشطرنج ، ولعب الصواج ، فأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس ^(١) . وبهذا المدلول العام استعمل الكلمة إخوان الصفاء ، وعبروا بها عن مختلف العلوم والمعارف في رسائلهم ^(٢) ، وذكر ابن خلدون أنهم إذا أرادوا حديثه الأدب قالوا : « الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف » ^(٣) .

(١) الشهرجانية : نسبة إلى الشهاريج أو الشهارجة ، وهم أشرف الفرس ، والأنوشروانية : نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس من سنة ٥٣١ هـ - ٥٧٩ م . انظر زهر الآداب للحصري ص ١ ص ١٦٤ بتحقيق الشيخ محمد محي الدين الطبعة الثالثة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م .

(٢) انظر الرسالة السابعة من القسم الرياضي من رسائل إخوان الصفاء .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٩٠ طبع كتاب التحرير بمصر سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

وما زال هذان السبيلان يتنازعان الكلمة إلى عصرنا الحديث ، فتارة تستعمل للدلالة على كل ما يحقق الثقافة للإنسان ويهذب عقله وشموره ولسانه ، وأخرى يراد بها الكلام الجيد الذى يعبر به صاحبه عما يحس ويرى شعرا كان أو نثرا .



هذا ويلاحظ أننا فى تتبعنا لاستعمالات كلمة « أدب » واشتقاقاتها كنا خاضعين لما وصلنا من استعمالات العرب قدمائهم ومحدثهم ، مما يلفت النظر إلى أن هذا التدرج اقتراضى ، لا يمكن الجزم به ؛ إذ من الممكن أن يكون العرب الجاهليون قد استعملوا الكلمة فى المعانى التى رأينا أنها جدت عليها . وأصل الكلمة لا يمنع من ذلك ؛ فهى تدل على الدعاء ، سواء كان الدعاء إلى طعام أو رأى أو فكر أو شعور أو خلق .

أياما كانت أطوار الكلمة التى استعملت بها ، فالذى يعيننا فى دراستنا هنا هو أن الأدب العربى الذى سنتناوله بالتأريخ والبحث هو الكلام الجيد الذى عبر به العرب عن أحاسيسهم ومشاعرهم وصوروا من خلاله رؤيتهم للأشياء والأحداث بالقدر الذى يحقق الإمتاع النفسى ، واللذة الوجدانية ، فيحرك المواطن ، ويملك الانفعالات .

أقسام الأدب :

١ - الأدب أدبان : أدب ذاتى ، وأدب موضوعى .

أما الأدب الذاتى فهو ذلك الكلام الذى يعبر به صاحبه عن الأشياء أو الأحداث أو المواطن أو نحو ذلك تعبيرا مباشرا ، وهو ما عرف بالأدب الإنشائى ، وإنما كان هذا اللون من الكلام أدبا ذاتيا لأنه - كما ترى - يعرض لشخصية صاحبه بحيث ترى الحياة من خلال نفسه وعاطفته هو؛ فأنت حين تتلقى قصيدة شاعر أو رسالة كاتب ترى فيها مآرآه هو من خلال تصوراته وحياله ، وتقع فيها تحت سلطان هواطفه وانفعالاته .

هذا اللون من الأدب إذن مرآة لنفس صاحبه ، ولأن نفس صاحبه تلك خاضعة لمختلف المؤثرات البيئية للعصر الذى تعيش فيه؛ نقول أن هذا اللون من الأدب كذلك مرآة لمصره وبيئته .

ومن ثم كان حتميا أن تختلف حول هذا الأدب الآراء ، وتباين الاتجاهات ؛

إذا هو يعتمد بالدرجة الأولى على الذوق الخاص والمزاج الشخصي للأديب ، ولا يمكن أن تصور الناس مصيوبين في قلب عاطفي واحد . ومن ثم كان مولد الأدب الموضوعي . فالأدب الموضوعي هو ذلك الكلام الذي يتناول به صاحبه الأدب الداتي أو المواقف القدائية بالوصف أو الشرح والتحليل أو التاريخ أو الموازنة ، فهو أدب وصفي .
وإعنا كان هذا اللون من الكلام أدبا ولم يكن علما ؛ لأنه لا يمكن لصاحبه أن يعتمد فيه على الحقائق العلمية الخالصة ، بل هو فيه مضطرب إلى أن يجمع بين العلم والفن ، فبينما يقيم عمله على قوانين علمية ثابتة ، تجده مضطربا إلى أن يمزج ذلك بالاعتماد على الذوق الخاص والرؤية الشخصية ؛ فناقده الأدب أو مؤرخه لا يستطيع أن يفقد أو يؤثر ما لم يكن ذا ذوق أدبي ، يدرك به أسرار التعبير وظلاله ، ويتمكن به من موارد نص أدبي بآحر . . إلى غير ذلك الذي يتعرض له ناقده الأدب ودراسة ؛ فهو - في ذلك - يختلف عن غيره من الباحثين في مختلف فروع العلوم الأخرى ، إذ ليس ضروريا أن يكون مؤرخ الثورة ثوريا ، ولا أن يكون مؤرخ السياسة سياسيا ، بخلاف من يؤرخ للأدب ، فلا بد من أن يكون أدبيا .

* * *

٢ - ثم الأدب الداتي (الإنشائي) أدبان ؛ شعر ونثر في .

أما الشعر فتميزه عن النثر ميراث شقي ، مثل الموسيقى المتولدة من الوزن والقافية ، واعتماده على العاطفة أكثر من النثر ، بيد أنهما يشتركان في المقومات العامة للأدب الإنشائي ، التي من أبرزها الفكرة ، والعاطفة ، والخيال ، والصورة ، ثم الأسلوب .
(أ) والفكرة : مر الحدث أو الموقف الذي يؤثر في الأديب ؛ ويوقظ مشاعره وأحاسيسه تمهيدا لتحريك العاطفة المناسبة فيه .

(ب) والعاطفة : هي الاستجابة العاطفية لدى الأديب للموقف أو للحدث الذي أثر فيه ؛ إذ بدون ذلك يفقد الأديب أهم عوامل السجاح الأدبي وهو الصدق الفني ، فيخرج كلامه حامدا حافا لا روح فيه ولا حياة ، فهو مصنوع ملفق .

(ج) والخيال : هو المظهر الشخصي للأديب ، يرى بواسطته الفكرة التي حركت مشاعره وأثارت عواطفه ، فهي رؤيا جديدة للأفكار بعد التأثر بها ؛ فعبث الأيام بنا

وقصاؤها عليا فكرة حركات مشاعر المرى وأثارت عاطفة الأسر والمحزن فيه، فرأى الإنسان أمام الأيام زجاجا قطعته في قوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لكان البسيطة أن يسكوا
تخطئنا الأيام حتى كأننا رجاج ولسكن لا يعادله سبك

(د) والاسلوب : هو ذلك المنهج السكلاى الذى يسير عليه الأديب في صوغ العبارات التى تنقل ما يرى من خلال ذاته ، ليشعر متلقى أدبه بما شعر ، ويحس بما أحس ، ويحد ما وجد . وبواسطة نجاح الأديب في تأليف عبارته موافقة لما في نفسه ، يضمن لعمله لونا آخر من ألوان الموسيقى - بل هو أصمها - وهو تلك الهزات المنظمة المتوافقة في الإيقاع مع أحاسيس الأديب وعواطفه ، والتى تصل متلقى الأدب من ثنسايا عباراته وإيماءاتها . وهذا اللون الموسيقى هو ما عرف باسم الموسيقى الداخلية .

نشأة الشعر والنثر :

كثر الحديث حول أسبقية الشعر للنثر أو أسبقية النثر للشعر ، وقدم كل ما عرز به افتراضه ؛ فالحديث في هذا الموضوع افتراضى حالى ، لا يمكن أن يجزم فيه برأى ، وبالتالي لا يمكن أن يحمل واحد على قبول أحد الرأيين دون الآخر

لكننا نميل إلى أسبقية الشعر بل نؤكد نؤمن بذلك ؛ لأن الشعر بمقوماته وخصائصه هو الفن التيميرى الذى يناسب المرحلة الأولى للأمة في أطوار حياتها الأدبية .

فالأدب المنشور يحمل صاحبه على مزيد معاناة ونذل جهد أكثر في تجميع أمكاره وترتيبها وتقديمها في ثوبها الفنى ، وهذه المعاناة في صياغة الأدب المنشور لا تعادلها المعاناة في الترام الشاعر بالوزن والقافية - كما في الشعر العربى - لأن الوزن والقافية من الأمور التى يسهلها على الأديب الشاعر فطرته التى منحه إلى الموسيقى وتميل نحو التطريب والإيقاع المتسق ، فالزام بموسيقى الشعر ماصعب إلا على أبناء الأطوار اللاحقة والأمم في أطوارها الأولى تنسم حياتها بما يتطلب الشعر ويتوافق معه ، إذ تكون في فترة الصراعات والحروب التى تسبق الاستقرار وما يتولد عنه من تنظيم سياسى واجتماعى إلى آخره . مما يتطلب التفكير والتروى ومعالجة الأمور بلون من التيمير أكثر تعقلا وحكمة .

هذا إلى أن الشعر وليد الخيال والنثر الأدبى وليد العقل، والخيال دائما يسبق العقل

— ١١ —

فى النمو والحركة ، كما يتضح من النظر فى ملوك الأمم البدائية والمتحضرة ، فالخيال لدى البدائيين أقوى من العقل ، على خلاف الحال لدى المتحضرين ، وكما يتضح من النظر فى سلوك الصبي والشاب ، فالخيال لديه أقوى من العقل ، بينما العقل لدى الشيوخ أقوى من الخيال ، فالخيال مصاحب للمراحل الأولى من أطوار الحياة ، ثم يليه العقل .

لهذا أقرر بأن الشعر كان الفن التبرى الأسبق فى حياة كل أمة ، وليست أمة فى ذلك بمختلفة عن أمة

الفصل الثاني

العرب

العرب اسم لإحدى الجماعات السامية ، لم يعرف بمدى وجه التحقيق لهذا الأصل لها ولأحوالها الأخريات ؛ فقد تعددت الأقوال ، واضطربت الافتراضات ، دون الوصول إلى قول حازم يحدد منشأها في عصور ما قبل التاريخ .

والذي يكاد يتفق عليه أن شبه الجزيرة العربية هي موطن الجماعات السامية كلها في العصور التاريخية . استقروا فيها ، وأخذوا منها كثيرا من عاداتهم وأخلاقهم .

وتحت ضغط الحياة في الجزيرة اندفع كثير من أهلها إلى الخروج منها والهجرة إلى حيث الغصب والثراء ، ولكن على فترات متباعدة .

في الألف الثالثة قبل الميلاد خرج الأكديون « الآشوريون والبابليون » من الجزيرة إلى العراق ، وهناك عاشوا في صراع دائم مع المطامع الشخصية تارة ومع الأمم الوافدة - مثل الكشيين والحيثيين - تارة أخرى ، حتى قضى عليهم الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد .

وفي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد خرج السكمانيون من الجزيرة إلى الشام ، وأسسوا هناك مدا تجارية ، مثل صيدا ، وصور ، وبيروت ، وقد أطلق اليونانيون على من أقام من هؤلاء بساحل البحر المتوسط اسم الفسقيين . ولم يلبث هؤلاء السكمانيون أن تشعبوا وانتشروا في المنطقة ، فتغللت طائفة منهم في شمالي سوريا وهم المرومون باسم « الأوجريتيون » ، واستقرت طائفة أخرى في شرقي الأردن ، وهم « المؤابيون » ونزحت طائفة « العبريين » إلى فلسطين .

وفي نحو منتصف الألف الثاني قبل الميلاد خرج الآراميون من الجزيرة العربية ، إلى صحراء النود في بادية الشام والعراق ، وتغللوا فيها حتى وصلوا إلى خليج العقبة غربا وجنوبي الفرات شرقا ، وكونوا لهم إمارة بين بابل والخليج العربي ، عرفت باسم « كلد » ، وسما أخذ اسم السكوانيين .

أما من استقر به المقام في الجزيرة العربية فقد عاش بعضهم في القسم الجنوبي منها ، وعاش الآخرون في القسم الشمالي ، وكل من القسمين طبيعته وخصائصه التي تميز من يعيش فيه .



أما من أقاموا في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية فقد صادفوا في موطنهم من أسباب التحضر ما أعانهم على الهوض ببلادهم ، وإيجاد حضارة مازالت آثارها باقية إلى يومنا هذا ؛ فقد تمكنوا من تشييد سد مأرب لئلا يجفوا في مياه الأمطار ، وبستخدامها بقدر على مدار السنة صفاة لزراعة حصيبة تلي حاجتهم ، وتمدهم بأسباب الثراء والقدم .

ومن ثم راجت في البلاد حركة التجارة الداخلية ، كما راجت حركة التجارة الخارجية التي دعت القوم إلى تسكون لهم علاقات على مختلف المستويات بمن يجاورونهم في مصر والشام والعراق ، وأصبح مألوفا رؤية القوافل التجارية تجوب الصحراء العربية شرقا وشمالا

وقد كشف النقوش التي عثر عليها في منتصف القرن التاسع عشر عن كثير مما كان مجهولا عن حضارة القوم وأنظمتهم الحكومية ؛ فقد تبين أن هذا الوطن العربي كان مقسما خمس ممالك هي مملكة معين وعاصمتها معين في الجوف الغربي ، ومملكة سبأ في جنوبها وعاصمتها مأرب ، ومملكة قتبان في الجنوب الغربي لسبأ وعاصمتها تمع ، والمملكة الأوسانية جنوبي قتبان ، ثم مملكة حضرموت وعاصمتها شبوة .

ونسببت الطامع في شوب حروب كثيرة وصراعات بين هذه الممالك الخمسة ، فقد كان لكل مطمع في أن يسيطر على طرق التجارة ويجعل الأمر كله في يده دون غيره تحقيق ذلك للمعنيين في نحو القرن الماشر قبل الميلاد ، ثم دارت الأيام وتقلب السببوني في نحو القرن السابع فهدوا سلطانهم على الأرض ، وتحولت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية .

وفي نحو سنة ٢٧٠ ق . م أنشأ بطليموس الثاني أسطولا بحريا يجسوب البحر الأحمر ليربط بين مصر والهند وإفريقية الشرقية فاضطربت اقتصاديات السببيين ، مما يسر على ملوك ريدان أصحاب ظفار أن يمارعهم وينلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية نحو سنة ١١٥ ق . م ويقموا دولة الحيريين .

وفي سنة ٢٤ ق . م حاول والى الرومان على مصر (إليوس جالوس) أن يستولى على بلاد الحميريين ، فأعد جيشا كبيرا لذلك ، ولكنه عاد مكللا بالفشل الذريع .

وفي منتصف القرن الرابع الميلادى استطاع ملوك الحبشة أن يستولوا على بلاد الحميريين ، ويطغوا بها نحو عشرين عاما ، استعاد بعدها الحميريون دولتهم ، ولكنها عادت إليهم ضئيلة وانية ، يطمع فيها حيرانها ، فقد أخذ الشماليون فى الإمارة عليها ، كما اضطر كثير من أبائنا إلى الهجرة منها إلى الشمال .

ونحت ضغظ الاضطهاد الرومانى الواقع على اليهود اندفعوا إلى الجزيرة العربية فى نحو القرن الأول الميلادى ، وفى الوقت نفسه توالت البعثات الدينية المسيحية ، حتى اعتنقت نجران المسيحية ، فشب صراع بين متتقى الدينين ، وأحد للصراع أشكالا مختلفة كان أبرزها مناهضة ملوك حمير تغلغل البصرانية فى ديارهم خوفا من أن يسكون وراء ذلك تحرك البيرنطيين . ولعل هذا كان من أهم الدوافع إلى أن يستق اليهودية ذونواس آخر ملوك حمير ، وبحول القضاء على المسيحيين فى نجران ، الأمر الذى دعا البيرنطيين إلى أن يوعزوا إلى النجاشي بنزول اليمن سنة ٥٢٥ م ، فاستولى عليها وضمها إلى الحبشة ، ولم تفلت من قبضتهم إلا بعد نحو خمسين عاما بمعاونة الفرس أعداء بيزنطة ، فانتقلت بذلك إلى سلطات الفرس ، وظلت خاصة لهم حتى سنة ٦٢٨ م حيث اعتنق الإسلام (باذان) عامل الفرس عليها (١) .

* * *

وفى القسم الشمالى كان العرب العدنانيون ، وكانوا يقيمون فى الحجاز ومجد وتمتد عشائريهم وقبائلهم إلى باديتى الشام والعراق . وكانوا يعيشون عيشة بدوية تعتمد على رعى الإبل والتم

ومن ثم لم يكن لهم - فى الغالب - سكنى دائمة إلا حيث توجد بعض الواحات

(١) انظر التاريخ العربى القديم لطائفة من المستشرقين ترجمة فؤاد حسنين ، نشر وزارة التربية والتعليم . وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ٢٧٥ ، ج ٢ ص ٨ وما بعدها ، ج ٣ ص ١٣٦ - ٢١٤ .

في الحجاز ، ولعل هذا من أبرز العوامل التي تسببت في عدم تجمعهم في وحدة سياسية قبل الميلاد .

ولقد نشأت علاقات بين عرب الجنوب وعرب الشمال ؛ ففي تيماء الواقعة شمالي مدائن صالح قامت مستعمرة آرامية تجارية في القرن الخامس ق . م ، كما كان للمميين مستعمرة في ناحية « العلا » شمالي الحجاز ، نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة إلى غير ذلك من مظاهر الالتقاء التي نجد مجال بحثنا هنا لا يتسع لتناولها بالتفصيل .

الفصل الثالث

الوطن العربي

أقصد بالوطن العربي الأرض التي ضمت الجماعات السامية ، والتي عرفت باسم « الجزيرة العربية » ، أو على وجه الدقة « شبه الجزيرة العربية » ، وإعنا أطلق عليها قديما اسم « جزيرة » لإحاطة الماء بها ولأنه يحيط بها من ثلاث جهات حسب هي الشرق والغرب والجنوب ، قيل هي « شبه جزيرة » .

وعلماء الجيولوجيا يرون أن شبه الجزيرة العربية في العصر الجليدي كانت تحرى بها بعض الأنهار ، وكانت تغطي بعض أجزائها مروج حضراء ، ولا يزال يشهد على ذلك وجود بعض الأودية الجافة العميقة بها .

كما يرون أن تلك الأرض كانت تتصل بالقارة الإفريقية في الزمن البعيد الموعول في القدم .

وشبه الجزيرة العربية تمتد لتشغل مساحة كبيرة لاتعادلها شبه جزيرة أخرى عرفت حتى الآن .

واشتهرت عند جغرافيين اليونان والرومان بأقسامها الثلاثة « العربية الصحراوية ، والعربية الصخرية ، والعربية السعيدة » .

فقد كانوا يطلقون اسم « العربية الصحراوية » على المنطقة الشمالية التي تقع بين بلاد العراق والحيرة من الشرق وبين بلاد الشام من الغرب . وفي شمالى هذا الإقليم قامت مملكة تدمر التي حكمتها أسرة « الرباء » المشهورة .

وكأنوا يطلقون اسم « العربية الصخرية » على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها في شمالى الحجاز وحنوبى البحر الميت ، وفي هذه المنطقة قامت مملكة النبط ، وكانت حاصرتها مدينة سلع « بطرا » .

وكانوا يطلقون اسم « العربية السعيدة » على ناطق شبه الجزيرة العربية ، وتشمل وسط الجزيرة وجوبيها .

لسكن الجنرايين العرب قسموها خمسة أقسام هي (تهامة والحجاز ونجد
والعروض واليمن) .

وحدوا تهامة بالمنطقة الساحلية الضيقة التي تطل على البحر الأحمر (بحر القلزم)
المعروفة بإقليم الحجاز ، وهي أرض منخفضة رملية شديدة الحرارة ، كانت
تسمى النور - قديما - لانخفاض أرضها ويقع في شمالها ثمر صغير يعرف باسم (الوجه)
يظن أنه كان ثمر مدينة الحجر المعروفة الآن باسم (مدائن صالح) ، ويقع في جنوبي
(الوجه) قرية الحوراء . وقد قامت بمنطقة تهامة بعض المرافق والنور مثل حدة
ويبيع في الحجاز ، والحديدة في اليمن وتكثر الأودية والمناطق البركانية والحرث (١)
في هذا الإقليم .

وفصل تهامة من هضبة نجد سلسلة جبال السراة التي تمتد في شرقي تهامة من
الشمال إلى الجنوب .

وكما وجدت في هذه المنطقة آبار وعيون كانت دليلا على الحصب وقيام القرى
الكبيرة ، مثل يثرب ووادي القرى - في شمالها - وهو يقع بينها وبين العلا التي
كانت تسمى قديما (دادان) ومن مدن هذا الوادي مدينة (قرح) وكانت تقام بها
سوق عظيمة في الجاهلية ، ومدينة الحجر أو مدائن صالح وحبير وذلك التي نزل بها
اليهود وامتدوا إلى تمام في الشمال ويثرب في الجنوب . وكان ينزل في هذه الجهات
قبل الإسلام قبائل عذرة وبلي وجهينة وقضاعة .

أما الحجر فينبسط شرقا في هضبة نجد الفسيحة التي تنحدر من الغرب إلى الشرق
حتى تتصل بأرض العروض - وهي بلاد اليمامة والبحرين - ويعرف الجزء المرتفع مما يلي
الحجاز باسم (العالية) ، بينما يعرف الجزء المنخفض مما يلي العراق باسم (السافلة) ،
أما شرقها إلى اليمامة فيعرف باسم (الوشوم) ، ويعرف شمالها إلى جبل طيء - أحادسلي -
باسم (تقصيم) ، وهو عند قدم الرمل الذي يثبت النضا (١) ، وإليه ينسب أهل نجد ويسمونه
أهل النضا وأهم مدن الحجاز مكة ، وهي بعد حومة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقي

(١) الحرة : أرض رملية تملوها قمم الراكين .

(٢) انضا ضرب من الأثل .

من مكة تقع الطائف التي أقيمت على ظهر جبل (غزوان) وتحف بها كثير من الأودية والآبار ، مما أتاح للملكة النباتية من قديم أن تزدهر بها .

وتقع شمالى نجد صحراء للنفود ممتدة من واحة تيماء حيث تمتد شرقا نحو ثلاثمائة ميل لتشغل مساحة واسعة تزهر بكثبان الرمال الحمراء ، وتتخللها مراعي فسيحة ، حتى إذا اقربت من العراق مدت ذراعا لها نحو الجنوب فتفصل بين نجد والبحرين متسمية باسم (الدهناء) أو رملة عالج - وهي مارل قبيلتي تميم وضبة - فإذا أحاطت باليمامة انبطحت في الربع الخالي - وهو صحراء واسعة قاحلة ، تفصل بين اليمامة ونجد وبين عمان ومهرة والشحر وحضرموت - وتندمج فيها صحراء الأحقاف التي تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز وهذه الصحارى التي تطرق نجد في الشمال والشرق والجنوب قفار متسعة ، يمتاز من بينها القسم الشمالى بأقطاره الكثيرة التي تسكوه حلة قشبية من النباتات والمراعى . وتقع وراء هذا القسم الشمالى بادية الشام بأوديتها وواحاتها الكثيرة وبادية العراق أو السهولة .

والعروض تشمل اليمامة والبحرين وما والاها ، والبحرين تمتد من البصرة إلى عمان - وهي المعروفة اليوم بالكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر - وكانت تنزل بها قبيلة عبد القيس في الجاهلية .

ونكثّر في هذا الإقليم الآبار والمياه خصوصا في الأحساء . ومن مدن هذا الإقليم القديمة مدينة (هجر) ، و (القطيف) وكانت تسمى (الحط) وإليها تنسب الرماح الخطية . وفي جنوب البحرين عمان ، ومن مدنها (محار ودبا) ، وعرف سكان هذا الإقليم من قديم بالملاحه واستخراج اللآلىء .

واليمن يطلق على جنوبى شبه الجزيرة كله ، ويشمل حضرموت ومهرة والشحر - وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة كما هو معروف اليوم - وتتألف من أقسام طبيعة ثلاثة أحدها ساحل ضيق خصب هو تهامة اليمن ، وثانيها جبال موارية للساحل هي امتداد سلسلة جبال السراة ، وثالثها هضبة تفضى إلى نجد ورمال الربع الخالى ، ولغزارة الأمطار التي تهطل على هذه الهضبة بفضل الرياح الموسمية كثرت بها الأودية والسهول ، فالتسعت بها المزارع الحشوية ، وتنوعت الثمار ، فاجتذبت إليها

السكان المستقرين الذين أقاموا فيها دولا وحضارات منذ الألف الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادي .

والقسم الشمالي من اليمن المجاور للحجاز يسمى (عسير) ، وهو القدي كانت تقطنه قبيلة بجيلة في الجاهلية .

ومن أشهر مدن اليمن عدن وصنعا وزيد ونجران وظفار ، ومن أشهر وديانها تبالة وبشة — وكانت به مأسدة — وحضرموت التي تمتد شرق اليمن على ساحل بحر العرب ، بإقليم مهرة ، والشعر^(١) ، وتنمو في جباله أشجار الكندر وهو اللبان الذي اشتهر به جنوبي بلاد العرب في الجاهلية .

* * *

وعلى العموم تمتاز شبه الجزيرة العربية بمناخ حار شديد الحرارة ، أما الرياح فألطفها الرياح الشرقية للمروفة بالعصا ، وأشدّها ريح السوم التي تهب صيفا على نجد فتشوي الوجوه ، وأبردّها ريح الشمال التي تتحول إلى صقيع في كثير من الأحيان خصوصا في الشرق .

وأما شبه الجزيرة قليلة إلا في الشمال الغربي حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء ، وإلا في الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية صيفا ، فتتحول في كثير من الأحيان إلى سيول جارفة في شمالي الحجاز واليمن ، أما في الداخل فهي قليلة جدا ، يتشوف السكان لنزولها ، ويسعدون بها لأنها تحمل لهم أسباب الحياة ؛ ولذلك سموها الثيث والحيا ، واستنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم . وأصبح احتباس المطر في هذه المناطق فذير الخطر ، تهجر الأرض بسببه خشية الجذب المهلك ، فكثر لذلك عندم الرحلة في طلب العشب والسكّاء ، حيث ترحل القبيلة — حين يحتبس المطر — بإبلها وأغنامها طلبا لمراع جديدة ، يحملون بأرضها ويقيمون فيها .

وشبه جزيرة العرب خالية تماما من الغابات ، وليس بها أنهار جارية ، ولا بحيرات إلا ما يقال من أن في الربع الخالي بحيرة مالحة .

وتضم شبه الجزيرة أنواعا مختلفة من الحيوانات والطيور ، ردد الشعراء أسماء

(١) الشعر في اللغة الجنوبية يعنى الساحل .

— ٢٠ —

أكثرها في شعرهم فذكروا من الحيوانات الخيل والإبل والأغنام ، ومثل القطباء
والأوعال والنعام وحمار الوحش والنزال والزراف ، ومثل الأسد والنمر والضبع
والثعلب والفهد ، ومن الطيور الصقر والسرور والنراب والحدأة والقطا ، وذكروا
كثيرا من الجراد والنحل ، أما الزواحف فذكروا منها الضب والثعبان والمقرب
والورل والحية (١) .

(١) لمزيد من التفصيل راجع تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد طي ج ١ ص ٨٦
وما بعدها طبع بنسداد ، وتاريخ العرب لفيليب حق ج ١ ص ١٥ وما بعدها الترجمة
العربية وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة .

الفصل الرابع

اللغة الغربية

الناظر في تاريخ الأمة العربية وعلاقتها بالجماعات السامية لا يصعب عليه تصور نشوء اللغة العربية ، وإدراك ما بينها وبين اللغات السامية من علاقات ، تبدو في توافق الاشتقاقات وتكون الأفعال والأسماء والحروف ، كما تبدو في الاشتراك في كثير من المفردات .

فاللغة العربية - وهي لغة واحدة من الجماعات السامية - لم تبدأ متميزة هكذا ، لأنها لم تبدأ منفصلة عن أخواتها ، إنما هي وأخواتها تفرعن عن لغة واحدة هي اللغة الأم المعروفة باللغة السامية .

ولا شك في أن هذه اللغة الأم قد تمزجها فتكونت أفعالها وأسماءها وحروفها واشتقاقاتها ومزيداتها قبل أن يفرق أصحابها وتوزعهم الأرض . ولما أخذت الجماعات السامية في النزوح عن شبه الجزيرة العربية - على ما سبق ذكره - نزحت كل جماعة بلهجتها التي كانت فيها بعد لغة مستقلة متميزة فأصبح في العراق اللغة الأكديّة بقسميها « البابلية والأشورية » ، وفي الشام اللغة الأجرينية - وهي لغة نقوش رأس شمرا - والفيدقية ، والعربية ، والآامية وفي شبه الجزيرة العربية بقيت اللغة العربية .

بيد أن هذه اللغة العربية لم تلبث أن تشعبت إلى لهجات ولغات يختلف بعضها عن بعض تبعاً لاختلاف البيئات والطبائع ، وهي لغات الحجاز ، واليمن ، والحبيشة وحق هذه اللغات تفرغت إلى لهجات حيث كان لسكل قبيلة وبطن لهجة تناسب مميزات موطنه الأصغر .

والذي ينبغي منا من هذا كله أن نتحفظ في الحكم على بعض الألفاظ في اللغة بأنها ألفاظ دخيلة ، وأن هذه الكلمة سريانية أو عبرية أو حبشية إلى آخر ما يواجهنا به بعض أسلافنا من الباحثين ؛ فما دامت هذه اللغات مبنية عن أم واحدة فليست واحدة

منها بأولى من غيرها بنسبة لفظة إليها، ومن ثم لا يصح من الباحث أن يتسرع في الحكم
فيذكر أن تلك الكلمة مأخوذة عن السريانية أو عن الحبشية أو عن العبرية .

* * *

وبالنظر فيما بين أيدينا من الشعر الجاهلي ندين أن الشعراء العرب - على اختلاف
قبائلهم ولهجاتهم الخاصة - قد اصطالحوا على لهجة من بين لهجاتهم هي اللهجة القرشية
لتسكون لغة أدبية للعرب جميعاً ؛ وهذا يفسر ما نراه من توحد لغة الشعر الجاهلي
وقيامها على اللهجة القرشية .

ونبحث عن السر في تفوق اللهجة القرشية على سائر اللهجات فنجد لدى قريش
من الأسباب ما هو كليل بأن يشد إليها أنظار وقلوب وعقول العرب جميعاً ؛ فقد
فرضت عليهم ديانتهم أن يخضعوا لنهوض قريش عليهم ؛ إذ كانت حارسه السكبة بيت
عبادتهم كما فرضت عليهم المعاملات الاقتصادية أن تكون لقريش عليهم اليد الطولى ،
فقد كانت قوافلها التجارية تجوب أنحاء الجزيرة ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك
في قوله تعالى : « لإيلاف قريش . إيلافهم رحلتهم الشتاء والصيف .. » . وأعان على
ذلك ماجد من ظروف سياسية دعت مختلف القبائل العربية إلى الاتجاه نحو قريش ،
فقد رأت القبائل العربية ما يهددها من الدولتين المظلمتين المجاورتين (الفرس والروم)
ثم ما تحاوله الحبشة من جهة ثالثة لتفرض سلطانها وسيطرتها عليها ، في مواجهة مكشوفة
تارة ، وتارة أخرى في هجوم ديني على أجزاء من الأرض العربية يحلهم على دينهم
الوثني ، فلم يكن لهم بد إزاء ذلك كله من أن يتجهوا إلى قريش بكل ما أوتوا من
الأسباب والوسائل ، مما هأأ للهجة القرشية السيادة والتسلط على كل اللهجات ، لتصبح
بعد ذلك اللغة الأدبية السائدة ، أو اللغة المفصحة لجميع العرب .

وعلى الرغم من ذلك نجد طائفة من المستشرقين ومن سائر مساهم يحاولون أن
يخرجوا علينا بأراء أخرى قائمة على الافتراض والحدس دون إمسد معقول ، ولعل
الذي أملى على بعضهم هذا المسلك عداوتهم للقرآن والإسلام ومحاولة السكيد له بشق
الأساليب ، على نحو ما زعم هارتمان وفولر من أن لغة الشعر للهجة أعراب نجد والنجامة ،
وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة ، ثم يزعم (فولرز) أن بقية بلاد العرب كانت
تتسكلم لغة مختلفة ، ليقرر ما يراه من أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية غير معربة

على لهجة قريش الدارجة ، وهي لهجة - فيما يزعم - غير معربة ، تختلف عن لهجة
الشعر الجاهلي الخاضعة لقواعد النحوي العربية ، وأن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه
في لغة البدو للعربية .

وهكذا يكشف هذا المستشرق عما يقصد إليه من وراء بحشه الخلف بالعلمية ،
فيقيم على فروض وأحداً هي أقرب إلى شطحات الخرفين ، فليس له من سند على
واحد ، ولهذا رفض رعم هذا رفضاً قاطعاً طائفة من المستشرقين في مقدمتهم (بوهل
وتولنكه وجاير) (١) :

ويكفي أن يذكر (فولرز) بأن قراءات القرآن الكريم توفيقية نقلت كما سمعت
من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا جهد لأحد فيها ، وأن الذين نقلوه عن الرسول
صلى الله عليه وسلم هم صحابته ، ولو كان الأمر على ما صوره له وهمه من أن الرسول صلى
الله عليه وسلم قرأ على الصحابة في لهجة غير معربة لقضى على اللغات العربية من حوله .
هذا إلى أن (فولرز) وقع في خطأ آخر يكشف عن ضلال أوهامه ، إذا لم يعرفه
عن قبيلة من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة حالية من قواعد النحوي والعربية .

ويبد أن (فولرز) وأصرا به من للمستشرقين وجدوا اللغويين حين أخذوا في
جمع مادتهم اللغوية في القرن الثاني الهجري يرحلون إلى قبائل نجدية دون قريش
فتوهموا أن ذلك كان لأن لهجة نجد هي اللهجة المختارة وأنها هي لغة الأدب العامة
في العصر الجاهلي ، وفاتهم أن ذلك إنما كان حرصاً من اللغويين العرب ، فقد كان
معلوم أن اللهجة القرشية سادت وأصبحت لغة الأدب في كل المناطق العربية ، وكان
معلوم كذلك أن قبائل نجد ما زالت سليمة اللغة دون أخواتها اللاتي أثر في انتها ما وجد
عليها من لغات الأعاجم واللواتي الذين كثروا في مكة بمد الإسلام كثرة مفرطة فآثرها
اللغويون من القائل العربية ورحلوا إليها طلباً للغة العربية الخالصة . وفي ذلك يقول
أبو نصر الفارابي : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح بين الألفاظ وأسهلها على
اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس والدين عنهم نقلت اللغة
العربية ، وبهم اقتدى ، عنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم
وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذوا معظمه ، وعليهم اتسكل في الغريب

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية « مادة قرآن » ، وكتاب العربية ليوهان فلك
ص ٣ وما بعدها ، وتاريخ القرآن لبولدكه .

وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كسابة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن
غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري
من كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ إلا من
لحم ولا من جذام مجاورتهم أهل مصر والقيط ، ولا من قضاة وغسان وإياد مجاورتهم
أهل الشام وأكثرهم نصاري يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا
بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر مجاورتهم للقيط والفرس ، ولا من عبد الفيس
وأزد وعمان لأنهم كانوا بالبحرين محالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن الخالطهم
للهند والحشة ، ولا من بني حنيفة وسكان النمامن ولا من ثقيف وأهل الطائف الخالطهم
تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين تقاوا اللغة صادهم
حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم (١) .

(١) الزهر للسيوطي ج ١ ص ١٢٨ طبع صبيح بمصر .

الباب الأول

الأدب العربي

إِفْصِلْ الْأَوَّلَ

البيئة والأدب

مما لا جدال فيه أن الأدب مرآة تعكس صورة أصحابه ، وتكشف عن دخائل نفوسهم ، وتبين ما خفي من أسرار حياتهم ، وتعالل لاتجاهاتهم التعبيرية ، وتنبأ عما يتوقع في المستقبل لهم من اتجاهات منية ومكرمة . كما أنه القالب الذي يصب فيه ناشئة الأمة ، فيشكلهم ويهشيم لما يتضمن من خلق وعادات سلوكية واتجاهات ومذاهب عقيدية .

ومما لا جدال فيه - كذلك - أن الأدب انعكاس لما يعتل في نفوس أصحابه ، وترديد لما يدور في أعماقهم ، وتعبير صادق عن كل ما أثر فيهم على المدى الطويل من أحداث كونية واقتصادية وسياسية وعقيدية . . الخ .

فهو يعنى - بالنسبة للإنسان - الشيء ومصدره ، إذ هو مرآة تعكس صورة البيئة ، وصورة تراءى على سطح مرآة هي البيئة التي تحيط بالأديب وتكتنفه . . أى أن الأدب والبيئة متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالأديب لا يستطيع أن يقطع نفسه عن بيئته التي يعيش فيها ، ولا أن يحول بين أبيه وبين ما يمر به من مواقف ، وما يمانى من مشاعر وانفعالات ، بل إن الأدب هو متنفس الأديب الذي يخفف عنه ضغط الحياة ، وما تنص به من أحداث ومشكلات ، فيقدم لمجتمعه مشكلاته التي يمانى منها مصحوبة بأماله وأمانيه التي يسعى للوصول إليها ، أى أن الأديب يؤثر في تكوين الأدب كما يتأثر به .

حقا قد يستطيع الأديب أن يتحكم - إلى حد ما - في عبارته ليستر شيئا من خصائص نفسه ، ترما على الأحداث ، أو تأييا على مظهر من مظاهر الضعف البشري - وهو الظهور في ثوب الشاكي للتألم - ولكنه مع هذا كله لا يستطيع أن يتحكم في نفسه إلى الحد الذي لا ينم فيه أدبه عن حاله .

ومن ثم أصبح في مقدور بعض الدارسين أن يصلوا إلى الخطوط الرئيسية والمهمة في حياة الأديب الصادق من خلال أدبه ، كذلك أصبح في مقدور بعض الدارسين

أن يتعرفوا على طبيعة الحياة وما فيها من أحداث عامة في عصر ما من عصور الأدب من خلال الإلمام بمختلف الألوان والمنون الأدبية التي قدمها أدباء هذا العصر .

وعلى العكس من ذلك أصبح على من يريد أن يتعرف على مسار الأدب في عصر ما أن يتعرف أولاً على ظروف الحياة في ذلك العصر ، وأن يقف على أبرز الأحداث التي وقعت فيه ، وأن يلم بطبيعة من يفهم العصر ، وما صادفهم من مشكلات واحداث ، وكيفية مواجهتهم لتلك المشكلات والأحداث ، ومدى تأثير هذه المشكلات والأحداث عليهم

وإنما لزم المدارس أن يتعرفوا على كل ذلك ليصبح بين يدي المدارس الباقى الحقيق من وسائل التحقيق والضبط ما يقربه من الحقيقة وبدنيه منها إن لم يقدمها له بكامل هيئتها وأبعادها ؛ إذ هو أمام النتاج الأدبي ، والتاريخ البيئي للجماعة كمن يضع بين يديه العملية الحسائية وميزانها ليتأكد من صحة ما يصل إليه .

وليتمكن هذا المدارس من الوقوف على التفسير المقنع لكثير من التعبيرات الأدبية ، والتعرف على ما يشتمل من صور وخيالات دنية يدهش لها بعض المدارس لما فيها من غرابة ، أو وحشية ، أو سذاجة نسبية .

من ثم كان لزاماً على من يتعرض لأي طور من أطوار الأدب العربي أيما كان أن يتعرف أولاً على طبيعة الحياة العربية في العصر الذي ضم هذا الطور بالقدرة الذي يعينه على تصور الحركة الأدبية فيه ، ويطامسه على اتجاهات مسارها ، إذ من خلال ذلك يستطيع أن يستخلص العوامل التي كان لها التأثير المباشر في نفوس الأدباء العرب فقدموا أديهم على هيئته التي قدموه عليها .

ولاريب في أن هذا النهج فيه من المشقة والجهد ما يربو على منهج الشك من أول الأمر في كل ما ينسب إلى عصر من العصور أو إلى أديب من الأدباء - شاعرا كان أو كاتباً - ثم البحث عما يثبت هذا التراث أو يفيقه ؛ لما يتضمن منهج الشك من شبهة وجود حكم مسبق يسمى صاحبه لإقراره .

يبد أن منهج التحقيق والاستقصاء القائم على البحث في ثمايا البيئة يقدم الباحث من الحقائق ما يشغله عن المشقات والصعاب التي يتجشمها ويماني منها .

ونظرة إلى ما بين أيدينا من أدب الأمم الماضية تقرر ما ندعو إليه من أهمية التعرف على البيئة بكل أبعادها ليصدر حكما على أدب هذه البيئة صادقا أو قريبا من الصدق .

فالبينة - وليس العصر - هي للقياس الصادق، والكشاف الدقيق للأدب المنسوب إلى أبنائها؛ إذ العصر الواحد يضم ألوانا مختلفة من العاصر البشرية التي يتباين فيها كل لون عما عداه من الألوان تباينا غير مستقر، فقد يضيق هذا التباين مشتركات طبيعية أو سياسية أو نحو ذلك، كما قد يوسع هذا التباين ويرده اختلافات طبيعية أو سياسية أو نحو ذلك كذلك. بحيث تصبح الأمة الواحدة في العصر الواحد كأنها عديد من الأمم لكل جماعة منها من الدوازع والأذواق والمزاج ما يمنعها كيما استقلاليا تتميز به عن الأخرى بحيث نسمع صوت الفرد منها فلا تصدق أنه يندرج في المجموعة التي تضم أفراد الجماعة؛ فبينما صوت الواحد هنا يدوب رقة وسلاسة، إذا صوت الواحد هناك يصلك السمع بخشونة ألفاظه ووعورة تراكمه، وقوة إيقاعه .

ولقد اعتاد الدارسون أن يقسموا الأدب إلى عصور، يضم كل عصر طائفة من الأدباء الذين يمثلونه في أديهم، ويمبرون عن أحداثه واتجاهات الحركة الفنية فيه، على الرغم مما قد يكون بين أبناء الجيل الواحد من اختلافات أصيلة توجه بعضهم جهة اليمين، وتوجه البعض الآخر جهة اليسار . . . فإذا ما ووجه الدارس بمثل هذا التباين لجأ إلى البيئة الخاصة يطلب فيها تفسيراً له وتعليلاً .

من ثم كان الطريق الأقرب إلى الواقع، والأوضح في الكشف عن الاتجاهات الفنية لأمة من الأمم هو البحث في أديها من خلال البيئات الأدبية، لتكوين الصورة أشمل وأوضح، وليكون الخلاف للبادئ مسبوفا بما يفسره ويعلمه، وليس محتاجا إلى تفسير وتعليل .



من هذا للنطق أقول - رر أن البيئة الأدبية هي المجتمع المحصوص الذي يفرض على أفرادها اتجاهها معينا موحدا أو متقاربا، يكون أديهم بلون خاص ويميزه من غيره بتميزه يسير بها .

أو هي الوسط البشري الناقل، الذي يستقبل أحداث العصر ويتأثر بها، ويمتصها

ثم يتمثلها فيما يقدم من تعبيرات أدبية، ودون أن يخضع لحدود الزمان والمكان، إذ هو أهم منهما وأوسع انتشارا وتأثرا .

فالبينة الأدبية ليست مقصورة على عصر، ولا محصورة ببجل، ولا محدودة بموطن، بل يمكن أن تراها ماثلة في أعصر عديدة، وأجيال مختلفة، ومواطن كثيرة .

أى أن البينة الأدبية قد تكون مجاورة غيرها من البينات الأخرى، كما قد تكون منفردة، إذ هي تخضع بالدرجة الأولى - لنوع الثقافات، و ظروف الحياة وما يتولد عنها من أحداث، ومدى اتصال الأديب بتلك الأحداث، وكيفية تعامله معها أو استقبالها وتمثلها^(١)

فالأديب يخضع في مساره الأدبي لموامل ومؤثرات متشابكة تتماون حثما في تشكيل أدبه وصبغه بالصبغة التي تتفق مع من يماثله في ظروفه، على الرغم مما قد تكون بينهما من فوارق زمانية أو مكانية .

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم أدباء أى أمة، وتقديمهم في مجموعات بيئية متلائمة تكشف عن أديهم ومدى استجابتهم به لتلك البيئة، وتبين المؤثرات التي خضع لها كل منهم، ولونت أدبه باللون المميز له من غيره من الآداب .

ولأن هذا المنهج فيه من الشمول والتساع التناول ما يجعل النظر ممتدا بين عصور التاريخ على اتساع رقعتها، ليرى أدب البيئة الواحدة في هذه العصور كلها . . . بما قد يصيب الدراسة بنوع من الترا كات . . لهذا رأيت أن أقدم البيئة في عصرها متميزة عن البيئة الأخرى في العصر ذاته، حتى إذا استوعبنا بيئات العصر كله، انتقلنا إلى بيئة العصر التالي . وبذا تتلاقى ما قد يشأ من خلط أو اضطراب .

* * *

ولقد احتلف المدارس من قبل حول الأسس التي يقام عليها تقسيم الشعراء الجاهليين، ويمرض من خلالها شعرهم .

فابن سلام نظر في شعرهم وقومه، واحتار من الشعراء الجاهليين لحولهم، ثم صنف هؤلاء الفحول، ووزعهم على طبقات رتبها ترتيبا تنازليا، بناء تارة على ما يراه من

(١) راجع للمؤلف « في الأدب العربي المعاصر » القسم الثاني ص ٧٩

هلوفى للشاعر، وتارة على كثرة ما روى من شعره، وقتله، ومرة يستبر الفن الشعرى، وأخرى يعتبر الموقع الجغرافى حصرا لما قدمته بمض القرى العربية^(١) من فحول للشعراء، ثم فى النهاية عرج إلى المعقيدة الدينية فجعلها أساسا لإحدى الطبقات .

ويلاحظ أنه على الأساس الأول والثانى والثالث قدم عشر طبقات، ذكر فى كل طبقة أربعة شعراء، ثم على الأساس الرابع والخامس لم يلتزم بعدد محدد على ما التزمه فى الطبقات السابقة .

الطبقة الأولى : امرؤ القيس بن حجر ، والثابتة الديبائى زياد بن معاوية ، وزهير ابن أبى سلمى المزنى ، وأبو بصير الأعشى ميمون بن قيس .

والطبقة الثانية : أوس بن حجر ، وبشر بن أبى خازم الأسدى ، وكعب بن زهير ، والحطيئة أبو مليكة جرول بن أوس .

والطبقة الثالثة : أبو ليلى نابغة بنى جمدة ، وأبو ذؤيب الهذلى، والشماخ بن ضرار، وليبد بن ربيعة .

والطبقة الرابعة : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة ، وعدى ابن ريد . واستثنى هذه الطبقة من منهجه ، فقرر أن موضع شعرائها مع الأوائل ، وإنما أدخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة .

والطبقة الخامسة : حداث بن زهير ، والأسود بن يعمر ، وأبو يزيد النخبل بن ربيعة ، وتميم بن أبى بن مقبل .

والطبقة السادسة : عمرو بن كاثوم ، والحارث بن حازم ، وعنزة بن شداد ، وسويد بن كاهل . وذكر لكل واحد منهم قصيده هى التى ألحقته بهذه الطبقة .

والطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، وحسين بن الحمام المرى، واللتلس وهو جرير ابن عبد المسيح ، والمسيب بن علس . وذكر أن هؤلاء أربعة رهط محكمون^(٢) مقلون ، وفى أشعارهم قلة ، فذاك الذى أحرم .

والطبقة الثامنة : عمرو بن قتيبة ، والسر بن تولب ، وأوس بن خلفاء ، وعوف ابن عطية .

(١) المقصود بالقرى هنا المدن والحواصر .

(٢) محكمون - بضم فسكون فكسر - من إحكام القول .

والطبقة التاسعة : ضانيء بن الحارث البرجمي ، وسويد بن كراع المكلبي ،
والحويدرة قطبة بن حصن ، وسحيم عبد بن الحسحاس .

والطبقة الماشرة ، أمية بن حرثان بن الأسكر ، وحرث بن علفظ ، والسكيت
ابن معروف ، وعمرو بن شاس .

ثم ألحق بتلك الطبقات طبقة أصحاب للرأى ، وذكر فيها : متم بن نورة ،
والخلساء ، وأعشى باهلة ، وكعب بن سعد الغنوى .

وطبقة شعراء القرى العربية :

ذكر من شعراء المدينة : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ،
وقيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسلت .

ومن شعراء مكة : عبد الله بن الزبرى . وأبو طالب بن عبد المطلب ، وأبوسفيان
ابن الحارث ، ومسافر بن أبي عمرو ، وضرار بن الخطاب القهرى ، وأبو عزة الجمحي ،
وعبد الله بن حذافة السهمي ، وهيرة بن أبي وهب .

ومن شعراء الطائف : أبو الصلت بن أبي ربيعة ، وابنه أمية بن أبي الصلت ،
وأبو عجبون الثقفي ، وغيلان بن سلمة ، وكفانة بن عبد ياليل .

ومن شعراء البحرين^(١) : المثقف^(٢) العبدى ، والمزق^(٣) العبدى ، والفضل
ابن معشر السكري^(٤) .

ثم طبقة شعراء يهود : السموأل بن عدياء ، والربع بن أبي الحقيقة ، وكعب
ابن الأشرف ، وثرييح بن عمران ، وسمة بن القريس ، وأبو قيس بن رطاعة ،
وأبو الذئبال ، ودرهم بن زيد .

(١) البحرين : كانت قديما اسم مكان جامع لبلاد على ساحل الهند ، ما بين البصرة
وعمان ، وقسمتها بحر ، أما المعروفة الآن باسم البحرين هي جزيرة يحيط بها البحر
في ناحية البحرين ، وكانت تعرف قديما باسم : أوال « بضم الهمزة وفتحها » كان
فيها نخل كثير وبساتين .

(٢) بكسر القاف المشددة . (٣) بفتح الزاى المشددة .

(٤) بضم النون وسكون الكاف .

وهكذا لم يستقر ابن سلام في عمله على منبج واحد ، فاضطربت تقسيماته ، وتمذر عليها أن تعد الباحث الدارس بالرأى المحدد الواضح ، ولو استقام على واحدة من تلك الأسس لأفاد كثيرا .

أما أبو عبيدة فرأى أن أشعر الناس أهل الور حاصة ، ورتبهم في ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : امرؤ القيس ، وزهير ، والنايفة .

الطبقة الثانية : الأعشى ، ولبيد ، وطرفة .

والطبقة الثالثة : كعب بن زهير ، والحطيئة ، وحداش بن زهير ، ودريد بن الصمة ، وعنترة ، وعروة بن الورد ، والنمر بن تولب ، والشيخ بن ضرار ، وعمر بن أحمد ، والرقش الأصغر وعمر بن حرملة (١) .

وابن رشيقي استعرض طائفة من الآراء التي تفضل شاعرا على الآخرين للمحظ عام تارة ، وتارة أخرى لخصوصية فنية . وعرف في إيحاز شعراء بمس القبايل التي اشتهرت بالشعر مثل ربيعة وقيس وتيم دون أن يرتبهم (٢) .

* * *

وإذا كان الدارسون من قبل قد اختلفوا هذا الاختلاف في تقسيم الشعراء العرب في العصر الجاهلي ، فهو ليس اختلافا في تقسيم الشعراء حسب ، وإنما هو شامل للأدباء عموما شعراء ونائرين ، لكن لما كان الشعر هو الفن الغالب على الأدب في تلك الآونة دار التقسيم حول الشعراء دون غيرهم .

والملاحظ أن هذه التقسيمات على اختلافها لا تقوم على أساس ثابت ؛ فتارة يجد التقسيم مبنيًا على المنهج الزماني ، وتارة أخرى نجده مبنيًا على المنهج المكاني ، و مرة ثالثة نجده مبنيًا على المنهج القبلي ، دون مراعاة للبيئة وأثرها في الأدب والأديب ، على الرغم من وضوح أثر البيئة العربية — على اختلافها — في أدب العرب وضوحا لا يحق لدارس منصف أن ينازع فيه . حتى أصبح العصر الواحد يضم لوني من الأدب على طرفي نقيض ، فهذا لين قريب ، ودالا حوشي غريب ، بحيث ينظر الناظر إليهما مجتمعين فلا يتصور أن يكون هذان ابني عصر واحد .

(١) جمهرة أشعار العرب لإبي زيد بن الخطاب القرشي ص ٤٥ .

(٢) المدة ج ١ ص ٨٦ وما بعدها .

الفصل الثاني

أجناس الأدب العربي

من المقرر أن الأدب العربي - على اختلاف أنواعه ومنوبه - يلتقي مع آداب الأمم الأخرى في المشتركات الإنسانية التي لا تتميز فيها أمة عن أمة ، ولا يختلف فيها فرد عن فرد من انفعالات وعواطف ونزعات ؛ ففي الآداب جميعا ترى صورة الإنسان - أيا كان موطنه - في صراعه مع ما يصادفه من عقبات في حياته تعوقه عن مواصلة المسار . . . لا يختلف في ذلك أدب عن أدب . وفي الآداب جميعا ترى القيم الإنسانية الفطرية تدور حولها الأحاسيس والشاعر والانفعالات رضاها واحتقلا ، أو سحقا عليها ونفورا ، دفاعا عنها وتبشيرا بها أو بر ما بها وتحذيرا منها .

ومن المقرر كذلك أن البيئات - زمانية كانت أو مكانية - تباعد كل أمة عن أخها في أمور كثيرة، من أبرزها - في ميدان الأدب والتعبير عن الأحاسيس والشاعر - الرؤية العقلية والخيالية لما تصادف في الحياة الواقعية ، والإدراك التصوري للعلاقات القائمة بين عناصر موقف من المواقف المجابهة، وكيفية نقل هذا المعنى المرئي والصورة المدركة إلى الآخرين ثم الأسلوب الأنسب في عملية النقل هذه .

فالأبوة والأمومة - مثلا - من العواطف الإنسانية المشتركة التي لا تختلف حول الاحتفاء بها أمة عن أمة ولا بيئة عن بيئة بيد أن تصوير حرص الإنسان عليها ، أو الدعوة إليها ، أو أسلوب الاحتفاء بها يختلف من أمة لأمة ، ومن بيئة لبيئة ، بل من فرد لفرد ، وفقا للزواج العقلي والخيالي الذي يشكل إدراكه التصوري لهذه العاطفة أو لتلك .

من هذا يتقرر أن أدب بيئة ما له من الخصائص ما يتميز به عن أدب البيئة الأخرى وهو تميز تفرضه عليه ظروف البيئة بكل أبعادها من اختلاف في المزاج العام الذي تقوم عليه اتجاهات أفرادها ، وتشكل به منازعهم . فليصح - لذلك - أن يحدد أدب أمة أو جيل لخصائصه ، ويذم أدب أمة أو جيل لخصائصه ؛ إذ هذه الخصائص وتلك من

— ٣٥ —

ضروريات البيئة التي لاجهد لأحد فيها . إنما بحاسب أدباء أمة أو جيل ويندم أدبهم إذا تجاوزوا مآثله عليه يدينهم أو مجاهلوه . خفاء أدبهم غير يمثل لتلك البيئة ؛ لأن أدبهم عندئذ يكون مستخاً مصبوعاً لا يمر عن ذات أصحابه ، ولا يفيدهم في شيء بحيته على نسق آخر ، بل جد التميز والجودة في بيئته .

ودارس الأدب العربي يلاحظ أنه يقوم على جنسيه المعارف عليهما - الشعر والنثر - بيد أن ظاهر الأمر يوحى بأن هذين الجنسيتين لا يكونان على قدم المساوى في جميع البيئات الأدبية ، فبينما يطغى أحدهما في عصر بحيث يبدو أنه الأثير عند أهل ذلك العصر نجد الجنس الثاني يبرز حتى يطغى على الجنس الأول في عصر آخر .

ولا ريب في أن إثار الشعر أو إثار النثر لا يقصد إليه الأديب قصداً ، ولكنه من فعل البيئة وعواملها المتنيرة ، وهي التي تميل بالأديب - من غير قصد منه أو عمد - إلى أن يمر عن مكتون نفسه ، وما يختلج بين جوانحه بهذا الجنس الأدبي أو ذاك .

ولا يفي هذا أن يخلص أدب عصر أو جيل لهذا الجنس دون الجنس الآخر ، فهما دائماً موجودان مائتان في كل بيئة وجيل ، إلا أنهما - كما قررنا - لا يتساويان .

وقد يطرأ على عصر مامن الظروف والعوامل ما يدعو إلى اختفاء أحد هذين الجنسيتين من بين آدابه الماثورة ، سواء كانت هذه الظروف والعوامل أصيلة في البناء الأدبي أو كانت عوامل ناقلة مساعدة . . . فتثور الشكوك حول وجود هذا الجنس أو ذاك كما ثارت حول أدب العصر الجاهلي بجنسيه - الشكوك - .

النثر : ولقد نوهم بعض دارسى الأدب الجاهلي أن هذا العصر خلاصاً من أدب يعبر بالنثر ، فكل ما أثر عن أدبائه قائم على جنس الشعر ، حتى قرر بعض هؤلاء أن العربي في هذا العصر كان لا ينطق إلا للشعر في جميع شئونه ، وليس فقط في مجال التعبير الفني .

كما تشكك بعض الدارسين فيما حفظته كتب الأدب العربي من نثر جاهلي ، وإن أقر بأن أدباء هذا العصر قد عرفوا فنونا من النثر عبروا من خلالها عما أرادوا التعبير عنه ، لكنهم قطعوا بأن شيئاً من هذا النثر لم يصلنا ، وكل ما وصلنا منه منعول .

مصنوع ، قد يكون على نظام ما كان لهم في ذلك العصر ، يقول الدكتور طه حسين :
 « وكل ما يمكننا أن نستخلصه من هذا النثر القدي يضاف إلى الجاهليين إما هو شيء
 واحد ، وهو أن من الممكن أن يكون هذا النثر قد حاول قليلا أو كثيرا تقليد
 ما كان للمرب في جاهليتهم من نثر ، لحفظ لنا صورة مامن هذا النثر الجاهلي ، دون
 أن يحفظ لنا نصا من نصوصه » (١) .

وأنا لاشك في أن العصر الجاهلي قد عرف النثر الأدبي باعتباره وسيلة من
 وسائل البيان . ولا أشك كذلك في أن ماعرفه الجاهليون من فنون النثر لم يكن على
 غرار ماعرفه غيرهم من الأمم ؛ إذ لكل أمة ما يناسبها من فنون المقال وفقا لدواعي
 القول عندها - على ما قررنا - فلا يحق لنا أن نطلب في الأدب العربي من فنون النثر
 ما نجد في الأدب اليوناني أو الروماني أو نحو ذلك ، كما لا يحق لنا أن نطلب في الأدب
 الجاهلي من فنون النثر ما نجد في الأدب الإسلامي أو العباسي أو نحو ذلك من عصور
 الأدب العربي ذات البيئة المختلفة ، والظروف المتباينة .

أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التي يرمون فيها
 أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفني ؛ لأن عرب الجاهلية لو كانوا يجهدون النثر الفني
 لما كان لتحديدهم بالقرآن الكريم قيمة ؛ فالتحدى للمعجز لا يكون عن فقر وجهل بما
 سجل ميدانا للتحدى ، وإنما يكون عن مقدرة دائمة وتمكن مشهور في ذلك الحال .

هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفني لما استطاعوا أن يتذوقوا
 البيان القرآني ويحاولوه المحل المؤثر في نفوسهم ، فيكون سببا في إسلام طائفة من أعلام
 الأدب لديهم كما حدث في إسلام عمر بن الخطاب ، ويكون عاملا من عوامل التشكك
 في نفوس طائفة أخرى على رأسها الوليد بن المغيرة وضربائه من الجاهليين الذين وجدوا
 في القرآن ما يدفعهم إلى التروى في الحكيم عليه ، ومعاودة النظر فيما يدعوم إليه ،
 لولا خوفهم من ثورة قومهم ، وخشيتهم من ضعف سلطانهم المورث .

ولاعك في أن أكثر نثر هذا العصر لم يصلنا ، لعدم تسجيله في كتاب يحفظه ،
 ولصادفته بالقرآن الكريم ، واشتغال العرب به - من أسلم منهم ومن لم يسلم - مما كان له

أبعد الأثر في الانصراف عن أكثر نثرهم الموروث « وضياحه بمرور الوقت وفقد من حفظوه ... ولعل ما حدث في العصر الإسلامي تجاه القرآن الكريم حين استعصر القتل في حفاظه أثناء حروب الردة ... يقرر ما أقول في هأن النثر الجاهلي قبيل ذلك بأعوام قلائل ؛ إذ انتشار الإسلام ، واتجاه الكثيرين من أعلام العرب الجاهليين للدخول فيه أو مقاومته، وقتل من قتل منهم في الحروب التي نشبت بين الجاهليين والمسلمين ... كل هذا كان من أسباب الاشتغال عن النثر الجاهلي .

كما لا أشك في أن القليل الذي وصلنا من نثر هذا العصر يمكن أن يلقي الضوء على هذا الجنس الأدبي عند الجاهليين ... على الرغم مما قد اعتراه من إضافات وتغيرات في بعض عباراته ، وما قد أصابه من تحريف في بعض أصوله ؛ إذ هو — مع كل ذلك — يطلعننا على للفنون السائدة بينهم ، ويعرفنا بكثير من قصايم التي كانت تشغل تفكيرهم ، كما يقفنا على منهجهم البياني في ذلك الفن .

والناظر فيما تناقله الرواة من نثر هذا العصر يلاحظ أنه يدور في محاورين متميزين :

أحدهما : محور التعبير الموجز الذي يعتمد على الإشارات البليانية ، والذاكرة الحافظة في حمل الحدث القصصي ، دون إجهاد في بناء قصص أو في نقل حبرات الأديب بالحياة ، والتعبير عن خلاصة رأيه وعصارة فكره ... وهذا وذلك ما تناقله الرواة تحت اسم (الحكمة والمثل) .

والثاني : محور التعبير الخطابي الذي يعتمد فيه صاحبه على وسائل التأثير الفنية في الوصول إلى عقل المخاطب وحمه ... وهذا هو المعروف بالخطب والوصايا والمحاورات وللناشرات ؛ فهذا كله تعبيري فني ، قصد به الإثارة والتأثير ، حاض في هذا وذالاً المزاج قائله وما تأصل في نفسه من مبادئ وإنكار ، وتأثر به من أحداث بيئته . أما الكتابة الفنية فلم يكن لها دور ملموس في هذا المحور الخطابي ؛ فقد آثروا فيه الخطاب المباشر على الرسائل لصومية وسائل الكتابة الفنية ومتطلباتها ، وليس لجهلهم بها ، فقد استخدموا للكتابة في غير الأدب من شئون الحياة ، كالسياسة والتجارة ، حيث كتبوا مهادتهم ، ودونوا وثائقهم المالية والتجارية .

فالفنون الأدبية التي قدمها النثر الجاهلي هي : المثل والحكمة ، والخطابة ، والوصايا والمحاورات ، وللناشرات . أما ما روى من القصص فلا أستطيع أن أسلكها في ضمن

فنون نثرهم ؛ لأنها من صياغة روائها ، وإن كانت أحداثها جاهلية ... فهي سبج غير جاهل بمالغ قضايا وأحداثا جاهلية ، أو هي أدب غير جاهل بمحوى مضوناجاهليا .
يبد أنها — إلى ذلك — تشير إلى أن الجاهليين صاغوا هذه الأحداث في قصص ، وتداولوها فيما بينهم ، متوسلين فيها بالقص والحكاية (١) .

ويلاحظ الناظر في لنثر الجاهلي أن المثل والحكمة تصير يائى موجز غير منسوب لقائله في النال ، فهو تعبير سائر ، لا يرتبط بصاحبه قدر ارتباطه بمصره أى أنه تعبير فى الخضع للبيئة العامة التى نسب إليها ، أما البيان الخطاى — على أمدده — فهو فى النال منسوب إلى من صدر عنه ، أى أنه تعبير فى الخضع لبيئة قائله الخاصة ويتأثر بما تأثر هو به منها ، على ما سنحاول أن نجليه إن شاء الله تعالى فى بحثنا هذا .

* * *

الشعر : أما الشعر الجاهلي فلقد كان أحسن حفظا من النثر ؛ إذ صادف من أسباب الحفظ والانتقال ماضن له الخلود والبقاء ، وإن لم يسلم من امتد يصيبه بالتغيير والتحريف ، أو شاك متعصب يهمل عليه ما شاء من القطن والتراكات محاولا طمسه وإنكاره .

والشعر الذى وصلنا من العصر الجاهلي يرجع إلى نحو مائة وخمسين عاما قبل الإسلام ، فليس هذا العصر مبتدا قول الشعر العربى ؛ لأن ما وصلنا منه مثلا هذه الفترة الزمنية شعر ناضج مستقيم ، يسير فيه الشاعر وفق منتج تمارف عليه الشعراء من أقصى الجزيرة إلى أقصاها واستساغوه ومرنوا عليه ، وأقام القاد قواعدهم القدية على أصوله المرعية من الجميع ؛ سواء فى ذلك القالب العام — من بناء القصيدة على أبيات ذات وحدة ، واعتمادها على قافية ثابتة لاتغير — والبناء الفنى للقصيدة الذى يلتزم فيه الشاعر غالبا بمطلع يسكن فيه ويصف الأطلال ، وينتقل منه إلى وصف الرحلة فى الصحراء وما يتصل بذلك من حديث عن الناقة وقوتها وضخامة جسمها ، ووصف

(١) انظر ذلك فى نحو أمثال العرب المفضل لضى ، والأغاني لأبى الفرج ، وجميع الأمثال للسيدانى ، وجمهرة الأمثال للعسكري ، والبيان والتبيين .

للطريق وما فيه من مشقات . ثم يخرج من ذلك إلى الفرض من القصيدة - مدحا كان أو حجا ، أو فخرا أو رثاء - فينبى القصيدة بالانتهاء من عرضه .

ولاشك فى أن هذا النظام الذى يقوم عليه الشعر الجاهلى ليس ابن يومه وليتته ، فهو نظام من أطوار ومراحل هذبت فيها حواشيه ، وتساقطت منه كل معوقات العمل الأدبى ، حتى وصلنا إلى ما نراه اليوم من التكامل والتناسق .

لكن متى بدأت تلك الأطوار ؟ وكيف هذب الشعر فيها ؟ وما العوامل التى أثرت فيه ؟ ومن كان له الدور الواضح من الشعراء فى ذلك ؟ إلى غير تلك التساؤلات التى تفرض نفسها وتطفو على السطح فى مواجهة من يدرس من شعر هذا العصر .

الإجابة على مثل تلك التساؤلات من الأمور التى لا يستطيع المدارس الموضوعية أن يقف على جواب لها ، بل ولا يستطيع أن يسلم بالافتراضات التى يجاب بها ، فليس بين أيدينا ما يدل على شيء من ذلك أو يرجعه ، بما كان سبيلا إلى تجرؤ بعض المستشرقين ومن تابعهم من العرب فتشككوا فى صحة وما وصلنا من شعر هذه المرحلة وشككوا فيه - بل بلغ بعضهم الجراءة أن أنكروا - معتمدين على فقدان الأثر المادى الذى يقطع بتلك النسبة مستبعدين ما على الشعر الجاهلى من أعراف فنية معقدة من المعانى والموضوعات ، وفى الأساليب والصيغات المحكمة ، وفى الوزن والقافية .

والملاحظ أن هؤلاء وأولئك بنوا حكمهم أو إنكارهم على افتقاد الشعر الجاهلى الوسيلة المادية التى تقطع بنسبته إلى عصره ، ويقصدون بذلك المكتوبات . . . وهم فى ذلك يريدون أن يخضعوا الجاهليين لأعرافهم فى العصر الحديث ؛ وفاهم أن الجاهليين كانوا لا يثقون فى المدونات والمكتوبات ثقتهم فى المرويات ، لتقديرهم أن شعرهم فى توثقه الرواية أكثر مما توثقه الكتابة ، حتى لقد صرح ابن سلام فى طبقاته بأن وثقته الرواية لا ينفى بما أخذ عن صحيفة (١) .

وأنهم - كذلك - بنوا هذا الشك أو الإنكار على أن ما بين أيدينا من شعر الجاهليين يمثل المرحلة الأولى من هذا الشعر ، ومن ثم فليس مقبولا ، أن تكون تلك المرحلة الأولى على مثل هذا النضج . وفاتهم أن هذا يمثل مرحلة سبقت بمراحل ، غير أن نتاجها الأدبى طوى مع الزمن كما يقطع بذلك العقل السوى .

(١) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٤ بتحقيق شاكر .

وإذا كان منطق العقل السوى يقرر أن ما بين أيدينا من الشعر الجاهلي هو ابن مرحلة سبقتها مراحل، فإن بعض شعراء الجاهلية أشار إلى ذلك في حديثه عن سبقهم من الشعراء . مثل امرئ القيس في قوله :

عوجا على الطلل الحيل لأننا نبكي الديار كما يبكي ابن خدام^(١)
 هابن خدام هذا شاعر سبق امرئ القيس في بكائه ووقوفه . بيد أننا لانعرف شيئا عن ابن خدام هذا أكثر من ذلك الذي جاء في بيت امرئ القيس ، قد يكون أول من يبكي ، وقد يكون بمن تقدموا امرئ القيس إلى البكاء ، ولكنه ليس أولهم ومثل زهير بن أبي سلمى في قوله :

ما أرابنا تقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً
 إذ يقرر أنه في قوله يمتدنى سابقيه ويكرر ما قالوا ، ويستعير منهم . . لكن ما هذا الذي استعاره ؟ ومن هم الشعراء الذين سبقوه إلى القول على هذا الخط ؟ وكيف كانوا يقولون ؟ ومتى وأين كانوا ؟ وهم اتعل هؤلاء بأولئك ؟

لما نجد إجابة شافية على هذه التساؤلات ونحوها ، لأننا حتى يومنا هذا لم نستطع أن نجتاح بالتقيب هذا المصير إلى ماسبقه . وكل مانعل إليه من ذلك هو أن زهيراً يعترف بأنه سبق بشعراء عبيدين استقاموا على الطريقة ، وأنه ومعاصره تتلمذوا على هؤلاء السابقين المحيدين . وهذا يعني - بالتبع - أن سابق زهير المحيدين سبقواهم أيضاً بمن تتلمذوا عليهم ، إذ لا يمتل في تصور الأطوار الفنية إلا أن يكون الأمر هكذا . حتى اصل بالشعر إلى مرحلته الأولى .

ومثل ذلك قرره عنتر بن شداد المسمى في قوله :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرمت الدار بعد قوم^(٢)

(١) عوجا : اعطفا روا حلكا : على الطلل الحيل : الطلل الذي آنى عليه حول فتير ، لأننا - بفتح اللام - لعلنا . انظر ديوان امرئ القيس ص ١١٤ طبع دار المعارف بمصر ، تحقيق محمد أبو الفضل .

(٢) المتردم : الموضع الذي يسترقع ويستصلح لما عراه من الوهن . يقول : هل ترك الشعراء موضعا مسترقعا إلا وقد رقموه وأصلحوه . يعني : لم يترك الشعراء السابقون لنا شيئا نقول فيه قولا جديدا . شرح المملكات السبع للزوزنى ص ١٦٨ طبع صبيح بمصر .

ففترة يستذكر أن يكون الشعراء السابقون قد تركوا لمن لحق بهم - على عهده - شيئاً يقولون فيه ؛ فاللاحقون - ومن بينهم عنترة - يحتذون سابقهم ، وبأخذون عنهم ، ويتلمذون عليهم ؛ لأن السابقين بلغوا من أطوار الشعر - مرحلة مكنتهم من استيعاب الكثير من الفن الشعري ، بحيث يشعر التلميذ - من جيل عنترة - بأنه عاجز عن الابتكار والانطلاق متحرراً من تقليد هؤلاء السابقين .

أى أن واقع الشعراء الجاهليين يبرز ماقرره العقل والمنطق في سنة التطور من أنى العصر الجاهلى يمثل مرحلة ناضجة من مراحل الشعر العربى ، وأن تلك المرحلة سبقتها مراحل متوالية ، تدرج الشعر فيها حتى نما واستقام قبل مبتدأ هذا العصر .

* * *

والناظر في أدب هذا العصر - على عمومه - يلاحظ أن الشعر قد احتل من النشاط العربى مكان الصدارة ، ونال منهم أرقى درجات التقدير ، وسائر الفروسية لديهم ؛ فقد كان لهم الديوان الذى يحفظ تاريخهم وأيامهم ، وكان جهاز الإعلام المتنقل الذى ينشر آراءهم ويذيع أنبياءهم ، وكان المحمس لفرسانهم فى المعارك ، وللوئس لرأعهم وغاديتهم فى وحشة الصحراء ، والتنفس الذى يمتص من أعصابهم السكد والإرهاق ، لم يجتمعون [وبه يسرون .

من ثم كان الشعراء ذوى حظوة فى القبيلة ، فهم الذين يسطقون بلسانها ، ويمبرون عن مشاعرها ، ويحفظون أمجادها ، ويدممون الماديات عنها ، ويرهبون خصومها ، ولذلك حرصت كل قبيلة - لافرق بين البادية فى ذلك والحاضرة - على أن تضم أكثر عدد من الشعراء الذين تسير الركبان بشعرهم ، ضامنا لاتساع سطوتها ، وانتشار سلطانها فوراً ، وللناشئة من أبنائها كل أسباب النبوغ والتفوق ، واحتفت بمولده الشاعر من بليها فكانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أنت للقبائل لتنهئتها بذلك ، ومدت الموائد واجتمع للنساء يلعبن بالزاهر كما يصنعن فى الأعراس ، ويتباشرن الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإعادة بذكركم ، وكانوا لا يهتثون إلا بسلام يولده ، أو شاعر ينبع فيهم ، أو مرس فلتج (١) . فلم تكن تختص بالشعر قبيلة دون قبيلة ، وإن تميزت فيه واحدة عن أخرى بكثرة الشعراء ، وسيورة الشعر .

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٦٥ بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين طبع التجارية بمصر .

ولذلك يجد المدارس نفسه أمام فيض من الشعراء تابع من قبائل العرب - على اختلاف مواطنهم وبيئاتهم - لا يستطيع أن تحبط بهم . فقد كانوا كثيرين متنوعين ، تشرك الرجال فيه النساء ، ويتفوق فيه البدوى كما يتفوق الحضري ويدخ فيه الصعاليك كما يبلغ السادة ... حق يخيل له أن الشعر في هذا المصر كان شغل العرب الشاغل ، وأنه كان ميسورا للكثيرين ، يجري على كل لسان ؛ ولا يكاد يستمع على أحد منهم ... ؟

وهل كان العرب - في مجموعها - ما يشغلهم عن الشعر ؟ لقد كانوا محاطين بظروف اجتماعية وسياسية وبيئية تجردهم للشعر ونحوه من منون البيان ، وتحقيقا لذواتهم ، واستجابة لحاجاتهم الطبيعية . ولقد قرأ ابن قتيبة ذلك في قوله : « والشعراء للمروءون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف وراء عددهم واقف ولو أنشد عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجيئه - وده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحدا من علمائنا استفرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها » (٢) وابن سلام في تدبئه له حول شعراء العرب قدم أربعة وسبعين شاعرا من حول الجاهليين والحضرين ، أربعين منهم في عشر طبقات ، كل طبقة يمثلها أربعة ، وخمسة في المدينة ، وتسعة في مكة ، وخمسة في الطائف ، وثلاثة في البحرين ، وثمانية من اليهود .

والناظر إلى هؤلاء الشعراء يلاحظ أنهم ينطون مختلف البيئات العربية - من بدوية وحضرية - بيد أن القبائل المضرية كان لها أومر نصيب من الشعراء . يتضح هذا من إلقاء النظر في نحو الأغاني والفضليات والأصمعيات . كما يتضح أن القبائل - مضرية أو قحطانية - متفاوتة كذلك في حفظها منهم .

لقد كان للشعر أثره البالغ في حياة العرب ، به يتوسل صاحب الحاجة ، وبواسطته تستل السخائم من النفوس ، وعليه تقوم العلاقات في المجتمع العربي ، روى أن الحارث ابن حازم اليشكري - وكان أبرص - ارتحل بين يدي عمرو بن هند قصيدته التي مطلعها :
آذنتا بينهما أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٦٠ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٦

وكان يلدش من وراء السجف للبرص الذى كان به ، فأمر عمرو برفع السجف بينه وبينه استحسانا لها (١) . روى أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به ، وكانت للمعلق امرأة عاقلة ، فقالت له : إن الأعشى قدم ، وهو رجل مفوه ، محدود فى الشعر مامدح أحدا إلا رفعة ، ولا هجا أحدا إلا وصمه ، فلو سبقت للناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له لرجوت لك حسن العاقبة . فسبق إليه المعلق ، فأنزله ومحر له وسقاه وبالغ فى إكرامه ، ولكن الأعشى عرف بؤس حال مضيقه ، وكثرة بناته ، فقال للأعشى : كفيت أمرهن ، وأصبح بمكاظ يلدش قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بى من سقم وما بى ممشق
وفيها يقول :

نفى الذم عن آل المعلق حفة كجاية الشيع العراق تهق
لمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليداع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمعلق

لما أتم القصيدة إلا والناس يسلون إلى المعلق يهشون ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جريا يخطبون بناته ؛ لمكان شعر الأعشى ، فلم تمس منهم واحدة إلا فى عصمة رجل أفضل من أبها ألف ضعف (٢) .

وقد يكون فى هذه الروايات مبالغة ، لكنها على أية حال تكشف عن تقدير العرب للشعر والشعراء ، حتى لو كانت هذه الروايات مخترعة ، فهي تبين عن تصور مخترعيها لمسكاة الشعر لدى العرب الجاهليين .

* * *

ولا ريب فى أن شعراء العرب كانوا فى مسيرتهم الشعرية خاضعين لمؤثرات بيئتهم للمربية العامة ومتطلباتها ، فتحقق بذلك لشعرهم التميز عن شعر غيرهم من الأمم — دون قصد إلى ذلك — فى قالبه ، وأنواعه ، وصوره ، وأخيلته ؛ وموضوعاته إلى غير ذلك من جوانب الاختلاف البيئى .

(١) للشعر والشعراء ج ١ ص ١٩٧ الطبعة السابقة ، والعمدة ج ١ ص ٤٣

(٢) للعمدة ج ١ ص ٤٨ ، ٤٩

وعلى الرغم من توفر أسباب التميز تلك للشعر العربي في العصر الجاهلي ، نجد طائفة من الدارسين المعاصرين يحرمون على أن ينزروا هذا الشعر بموازين الشعر في البيئات الأخرى ؛ ويقسوه - من ثم - بمقاييس غريبة عليه ، مما يضطرم إلى أن يطلبوا فيه مالا يحق لهم طلبه ، لأنه من نتاج بيئات غريبة على البيئة العربية ، ولقد اشتهر عن الدارسين والنقاد الغربيين أنهم قسموا الشعر منذ اليونان أقساما ثلاثة هي الشعر الملحمي ، والتشيلي ، والغنائي ، ولكل قسم منها سمة ومميزاته .

فالشعر الملحمي - على ما رأى هؤلاء النقاد في شعر أسلافهم - قصة في قصيدة طويلة تتجاوز ألف بيت ، وتعرض أحداثا متوالية تدور حول بطل واحد ، أو يشارك في أدوار ثانوية منها عدة أبطال آخرون ، مثل إلياذة هوميروس من الأدب اليوناني وإنيادة فرجيل من الأدب الروماني ، والرامايانا والمهابارانا من الأدب الهندوسي ، والشهنامة من الأدب الفارسي . وأحداث هذه الملحمة خيالية أسطورية ، تتلى بالآمال الغريبة ، والأمور الخارقة .

والشعر التشيلي لون من الشعر القصصي ، ولكنه يتميز عنه بقيامه على الحوار بدلا من الحكاية ، كما يعتمد على مسرح نثر قوي الأحداث والمواقف .

والشعر الغنائي هو الشعر الذي يعبر فيه الشاعر عن حليجاته النفسية ، ومشاعره للوجدانية ، وأحاسيسه الذاتية ، فهو شعر ذاتي يمثل صاحبه ، ويصور ما يعتل في داخله وما ينعكس على مرآة نفسه من الأحداث والمواقف التي يواجهها في حياته .

ومن الواضح البين أنهم أقاموا هذا التقسيم وتلك التمرينات على أساس مبادئ أو أممهم من إنتاج شعري ، فهي تقسيمات للشعر اليوناني والروماني وما تولد منها . ولما اتصلت دراساتهم وتناولت الأدب العربي - شعره ونثره - نظروا في الشعر العربي بالمنظار الذي نظروا به إلى شعرهم ، وقاسوه بالمقياس نفسه الذي قاسوا به الشعر العربي عديم ، ومن هذه النظرات والمقاييس قرروا أن الشعر العربي شعر ذاتي ليس غير ؛ إذ لم يجدوا فيه القصيدة التي تتجاوز في طولها ألف بيت ، والتي تتكون من أحداث متوالية في منطقية مقننة لتعرض الأساطير اليونانية وما تشتمله من أمور خارقة بالغة الغرابة . كما لم يجدوا في الحوار التشيلي الشخص .

وحاء الدارسون والنقاد العرب على أثر هؤلاء متتلذذين عليهم ، فسار بعضهم على

طريق التريبيين نفسه دون مراجعة وتفهم لطبيعة الشعر هنا وطبيعته هناك ، ومتطلبات القوم هنا ومتطلباتهم هناك ، وطبيعة الحياة هنا وطبيعة الحياة هناك . . إلى غير ذلك من العوامل المؤثرة في الأدب على عمومها ، وفي الشعر والشعراء بخاصة . . . فأجروا التقسيمات الشعرية عند اليونانيين والرومانيين على الشعر العربي ، ونفوا من الشعر العربي ما لم يتطابق مع التقسيمات ، ثم نظروا فلم يجدوا بين أيديهم سوى القسم الثالث - وهو الشعر الثنائي - فقررُوا أن كل الشعر العربي يدخل في هذا القسم دون سواء .

وكان على الدارس الموضوعي المنصف أن ينظر إلى الأدب موق أرضه ، ومن خلال أهله ، وفي إطار بيئته ، ثم يتخذ لنفسه مقاييس عامة يقيس بها العمل الفني في كل بيئة على حسب ما يتناسب معها ، حتى يوفر لرؤيته المداخل الصادق والصادق ، ويضمن لقرارته للمدالة والقرب من الصواب .

وإذا نحن سرنا في تفحصنا للشعر العربي في البيئة الجاهلية على هذا الدرب الموضوعي المنصف كنا خليقين بالمرف على طبيعة الشعر العربي في هذا العصر ؛ وبذلك نستطيع أن نتابع المسار في طريقنا إلى العصر الحديث لنكشف عن أطواره ، ومراحل نموه ، وتكيفاته في تلك الأطوار .

فإذا كان دارسو الأدب العربي القديم قد قسموا الشعر - وفق مارأوا - ثلاثة أقسام ، فليس معنى ذلك أن الشعر في عمومها خاضع لهذه الأقسام الثلاثة لا يخرج عليها ؛ إذ هم إنما ألزموا في تقسيماتهم ما نحت أنظارهم ، ومن ثم فليس حتما علينا أن ندور حيث داروا . ونخضع الأدب العربي لهذه الأقسام دون غيرها .

والذي أراه أن الشعر العربي الجاهلي - وإن يكن خاليا من الملحمة والمثل - ليس غائيا فحسب ؛ لأنه لم يكن مقصورا على تنفى الشاعر بآلامه وآماله وتصوير أحاسيسه الذاتية - كما يقولون - بل كان منه الثنائي القداني الذي يسير على هذا النهج ، ومنه القصص - بالمفهوم العام للقصص - الذي يسير على النهج الموضوعي الخارجى ؛ ليقدّم أحداثا متوالية ، ومنطقية في تحركاتها وانهالاتها ، ليعرض الحكايا التي تتبع من بيئته ونفرضها على خياله وفكره قيم مجتمعه . وكان منه الوصفي القداني الذى يعتمد فيه الشاعر على وصف مرآيته . من خلال ذاته ، ومنه الوصف الموضوعي الذى يبرز الصورة في دقة

الحاذق الملاح . فالشاعر العربي كما توسل بالشعر لينقل لنا ما يهتم في داخله ، توسل به لينقل لنا ما ينمكس على صفحات نفسه من المرائي المحيطة به ، وتوسل به ليحكى لنا من أيام العرب ما يصور البطولات المربية ، مارجا فيه الحقيقة بالخيال . وتوسل به كذلك ليقص علينا من واقعه ما يبرز قيمة ومثله وفضائله ، لكنه - مع ذلك كله - لم يأخذ نفسه بما أخذ به شعراء اليونان والرومان لأنفسهم لا اختلاف البيئات وملاساتها ، ولو صنع الشاعر العربي ما صنع هؤلاء وسار في محاذاتهم لافقد عمله الصدق وأسقط عن قه أهم خصائصه ، ولـ كان مسخا من بناء غربي في زى عربي أو العكس

ونظرة إلى ما وصلنا من شعر هذا العصر بالمناظر الموضوعي المترن تؤكد ذلك الذي نقول ، ويكفي النظر في معلقة امرئ القيس لرى فيها أهم العناصر القصصية ؛ ففي هذه المعلقة لا تكاد تلح شخصية الشاعر بقدر ما ترى فيها حياة طائفة من المجتمع الذي يعيش فيه . إذ بقص علينا طرفا من منامراته التي كانت تلك عليه حياته ، ويخلص من ذلك إلى تصوير إحدى رحلات الصيد التي كانت امتدادا لبعض تلك المغامرات اللسائية . وتبحث عن ذاتية الشاعر بين تلك الأحداث والوقائع ، فلا تجد إلا ما تخلفه قصة من إيماءات وإشارات توحي عما ينطوى عليه من معاناة .

وليس امرؤ القيس وحده هو الذي يمثل هذا الاتجاه ، فعلى غرار تجد الكثرة من الشعراء الجاهليين في بعض ما قدموا ، مثل الأعشى في مقطوعاته التي تحدث فيها عن الملوك والقرون الخالية ، ومثل لقيط بن يمم الإيادي في عينيته التي نمت بها إلى قومه يحذرهم من كسرى وما أعد لهم ، ويستنفرهم فيها ليستمدوا لمواجهة تلك الحرب ، وفي مطلعها يقول :

أبلغ إبادة وحلـل في سرائهم أنى أرى الراى إن لم أعص قد نصما
ومثل عمرو بن كلثوم في مملقته ، ومثل الشنفرى في تأنيته التي يصف فيها إحدى غاراته ، والتي يقول في مطلعها :

وباضمة حمر القسي . امثتها ومن يغز يغنم مرة ويشمت (١)

(١) الباضمة : القاطعة ، ويريد بها رماقه . امثتها : غزوت بها . حمر القسي : يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس ، ويشمت : يخفق .

وفى اللامية المنسوبة إليه ، والتي تتضمن قصة حياته بمراحلها المختلفة ، وفى مطالعها
يقول :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل
بل إن بعض الشعراء استطاع أن يتعمق فى أعوار النفس البشرية فى لحظة من
لحظات صحتها ، ويرز صورها والصراع الدائر فى داخلها فى قالب قصصى متمم ، على نحو
ما صنع حاتم الطائي فى قوله :

وداع دعا بعد الهدو كأمى	يقاقل أهـ وال السرى وتقاتله
دعا يائسا شبه الجون وما به	جنون ، ولكن كيد أمر يحارله
فلما سمعت الصوت أقبلت نحوه	بصوت كريم الجسد حلو شمائله
فأبرزت نارى ، ثم أثقت ضوءها	وأخرجت كلى وهوى البيت داخله
وقلت له : أهلا وسهلا ومرحبا	رشدت ، ولم أهد إليه أسائله
وقمت إلى برك هجان أعده	لوجبة حق نازل أنا فاعله
بأبيض حطت نعله حيث أدركت	من الأرض لم تخطل على حمائله
فقال قليلا وإقانى بخيره	سنا ، وأملأه من التى كاهله
نشر وظيف القرم فى نصف ساقه	وذاك عقال لا يلبسط عاقله

وعلى نحو ما صنع الخطيئة الشاعر المخضرم فى قوله :

وطاوى ثلاث ، عاصب البطن مرمل	بيداء لم يمرف بها ساكن رسما
أخى جفوة ، فيه من الأنس وحشة	يرى البؤس فيهم من شرارسته نعى
وأورد فى شعب عجوزا إزاءها	ثلاثة أشباح تخالهم إيهما
جناة عراة ما اغتذوا خبز ملة	ولا عرفوا للبر مد خلقوا طعما
رأى شبيعا وسط الظلام مراعه	فلما رأى ضيفا تشمـ رواهـ
فقال : هيا رباه ضيف ولا قرى !	بحمك لا تحرمه تا الليلة اللحم
فقال ابنه — لما رآه بحيرة — :	أيا أبت ! اذبحنى ويسر له طعما
ولا تتدريا بالمدم على الذى طرا	يظن لنا مالا فيوسمنا دما
مروى قليلا ، ثم أحجم برهة	وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما
فبينما عنت على البيد عانة	قد انتظمت من حلف مسجلها نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها	على أنه منها إلى دمها أعظما

فأملها حتى تروت عطاشها - فأرسل فيها من كنانته سهما
خرت نحو ص ذات جعش سمينه - قد اكترت لها وقد طبقت شعما
فياشمره إذ جرها نحو قومه - وياشمرم لما رأوا كلها يدي
ويانوا كراما قد قضاوا حق ضيئهم - وما غرموا غرما، وقد عنموا عنما
وبات أبوم من بشاشته أبا - لضيقهم ، والأم من بشرها أما

وما صنع تأبط شرا (ثابت بن جابر الفهمي) في قصته مع النول (١) :

تقول سليبي لجاراتها أرى ثابتا يفسا حوقلا (٢)
لها الويل ، ما وجدت ثابتا ألف اليدين ولا زملا (٣)
ولا رعن الساق عند الجراء إذا بادر الحلة الهضلا (٤)
يفوت الجياد بتقريبه ويكسو هودايا القسطلا (٥)
وأدم قد جيت جلبابه كما اجتات الكعاب الخيملا (٦)
إلى أن أن حدا الصبح أثناءه ومزق جلبابه الأليلا (٧)
على شيم نار تورتما فبت لها مدبرا مقبلا (٨)
فأصبحت والنول لي جارة فيا جارتا أنت أنت ما أهولا
وطالبها بضمها فالتوت بوجهه تهول فاستقولا
فقلت لها : يا انظري كي ترى فقلت فكنت لها أغولا

-
- (١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٣١٣ بتحقيق شاكر .
(٢) اليمن — بفتح الفاء - الشيخ الفاني ، والحوقل : الشيخ إذا فتر عن النكاح
(٣) الزمل : الضعيف الجبان الرذل .
(٤) الجراء : المحاراة ، الهضل : الجيش الكثير .
(٥) القسطل : النبار الساطع .
(٦) الخيملا : الفرو أو قميص لاكم له ، واجتات : لبسته ، يقال : اجتبت القميص
والليل إذا دخلت فيه .
(٧) الليل الأليل . شديد الطلعة .
(٨) الشيم : النظر إلى الدار ، يقال : شام السحاب أو البرق شيا : نظر إليه أين
يقصد وأين يطر

فطار بحقف ابنه الجن ذو سفساق قد أخلق الحمل^(١)
إذا كل أمهيته بالصفاء حمد ولم أره صيلا^(٢)
عطاة قفر لها حلتا ن من ورق الطلع لم تنزلا^(٣)
فمن سال أين ثروت جارتى فإن لها بالوى منزلا
وكنتم إذا ما هممت اعتزمت وأحر إذا قات أن أملا

* * *

لا يستطيع دارس موضوعي بمعنى الحقيقة إلا أن يقرر بأن الشعر العربي في العصر
الجاهلي - شأنه شأن غيره من أشعار الأمم الأخرى - كان له مساره الخاص به، وسماته
التي تميزه من غيره ، والتي فرضتها عليه البيئة العربية ؛ بحيث تختلف أجاسه الفنية عن
أجناس الشعر العربي بالقدر الذي يربط كل شعر ببيئته .

من ثم لا يحق لدارس أن يطلب في الشعر العربي ما يطلبه في الشعر الغربي ، ولا أن
يطلب في الشعر الغربي ما يطلبه في الشعر العربي ولا يحق لدارس - بناء على ذلك - أن
يقارن شعر أمة بشعر أمة أخرى ولو في الجنس الواحد الذي يتفقان عليه ؛ إذ لمنشأ
الجنس في هذا الشعر ما ليس للمنشأ في ذلك . كما لا يحق لدارس أن يلم شعراء أمة
بما ألزم به شعراء أمة أخرى ، ولا يحق لمنصف أن يقيس اتجاهات شعر أمة بما عليه
شعر أمة أخرى ، بل على المنصف أن يقيس هذا وذاك بمقياس عام محدد واضح ، ثم
يخص كل أمة بمقاييس تتلاءم مع متطلبات البيئة فيها بكل أبعادها . فبدلاً من أن
يطلب في الشعر العربي الهيئة القصصية التي كان عليها الشعر اليوناني ، يجب عليه أن

(١) القحف - بكسر القاف - العظم فوق الدماغ وما انقلب من الجمجمة فبان ،
ولا يدعى قحفاً حتى يبين أو ينكسر منه شيء ، ذو سفساق : السيف ، وهي طرائفه
التي يقال لها الفرند ، الواحدة سفسقة بكسر السين .

(٢) أمهيته : أهدوته ورقته ، يقال : أمهى الحديدية : سقاها الماء وأحدها .

(٣) العطاة : دويبة معروفة على خلفة سام أبرص ، أعظم منها شيئاً .

(٤ - الأدب العربي) .

— •• —

يلاحظ ما في الشعر العربي من الأجناس الفنية ، والطرائق البيانية دون مراعاة لما عليه
غير الشعر العربي . . . فإذا وجد الشاعر يقص فلا يطلب منه أن يقص بهذه الطريقة
أو تلك ، إنما عليه أن يتبع قصه وقصص غيره من أداء أمته ، ثم يتفحص مساره
تقيا ، ليحدد منهجه ، ويبين أبعاد القصة لديه ، ويقارن بين القصة عنده والقصة عند
غيره ، بحثا عن الموامل والمؤثرات التي وجهت كلا وجهته الخاصة به^(١)

(١) أنظر الأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام للمؤلف ص ٤٦ - ٥٦ .

الفصل الثالث

مصادر الأدب الجاهلي

لعبت البيئة العربية الجاهلية دورا فعالا في تحديد الوسائل التي تنقل أدبهم إلى الأجيال التالية ، بل لقد كان لها أثرها الواضح في تحديد الوسائل النافذة له من قبيلة إلى قبيلة في الوقت ذاته ؛ إذ طيمة الحياة العربية في ذلك العصر لم تفرض على أهله الكتابة والقراءة إلا في أضيق الحدود ، حيث لم يشعروا بالحاجة إلى المكتوبات إلا في الأغراض السياسية والتجارية . أما بما عدا ذلك فلم تصادفهم فيه ضرورة تلجئهم إلى تدوينه وكتابته ، فالأديب منهم يمشي في كنف القبيلة بفنه البياني الذي يعتمد على الإلقاء أكثر مما يعتمد على أية وسيلة أخرى ؛ لأن العربي كان يشعر بأن صوته بكل أسباده يصفى على ما يقول كثيرا مما يريد أن يبلغه سامعيه ، ولا تستقل الحروف للركبة وحدها بإبعاله . وإذا حدث أمر طارئ ، واحتاجت القبيلة إلى إبلاغ صوتها لمن يقيم خارج حدودها أوفدت من بينها الأدباء من يؤدي هذا الدور بنفسه خطيبا كان أو شاعرا .

ودارس الأدب في هذا العصر حين يتدرج في سلم انتقال آدابهم إلينا من عصور التدوين إلى العصر الجاهلي . . . يلاحظ أن وسائل انتقال النثر تختلف بمصر الشيء عن وسائل انتقال الشعر بما يتناسب مع طبيعة كل جلس ومتطلباته ، بيد أنها لا تخترق في النثر بما يميزها عنها في الشعر .

فإذا كان الشعر سلك في طريقه إليها سبيلين متصلين هياتهما له مكانته في نفوس العرب ، هما سبيل الرواية ، وسبيل التدوين ، فإن النثر - بنوعه المختلفة - قد سلك هذين السبيلين مع شيء من الاختلاف يتضح في استعراضنا مصادرهما فيما يلي .

وإنما سلك الأدب الجاهلي - بحجسه - في طريقه إلينا هذين السبيلين ؛ لأن الكتابة لم تكن عند العرب الجاهليين - بدوهم وحضرم - قد أخذت مكانها معارفهم وآدابهم ، على الرغم من ثبوت معرفتهم بها وشيوعها بينهم في الجاهلية ، وإننا إلى الآن

لم تنف على دليل قاطع يؤكد أن الجاهليين اعتمدوا على الكتابة في حفظ آدابهم وسيرورتها عبر الزمان واللسان ، ولم يثر الباحثون والمقبولون بمد على وثائق جاهلية صحيحة تتضمن شيئاً من الفنون البيانية وكل ما وصلنا من أخبار عن وجود أدب جاهلي مكتوب - إن صحت تلك الأخبار - إنما تتعلق بقطع شعرية تكتب على رحل أو حجر أدرق أو عظم لناية من غايات الإبلان والتلبية ، أو تتعلق ببعض حكم وأمثال مما نسب إلى لقمان على ما روى ابن هشام من أن سويد بن الصامت قدم مكة حاحاً ، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعلى الذى ملكك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى ملكك ؟ قال : محبة لقمان . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعرضها على ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزل الله على ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا القول حسن (١) .

قالعبر لا يفيد أكثر من أنه كان عند العرب في هذا العصر صحيفة بها بعض الحكم والأمثال مما كانوا ينسبونونه إلى لقمان ، ولكه لا يدل على أنهم توسلوا بالكساية في إذاعة بيانهم ونشره . ومناقشة هذه القضية - نغياً أو إثباتاً - تعتمد على الفرض والحدس ، وليس هناك ما يدعوننا إلى مثل ذلك في دراستنا مادامنا لن نستطيع أن نقدم الحقيقة من الواقع المقرر .

أى أننا لا نجد بدا من أن نقرر أن هذا الفيض الأدبي وصلنا من العصر الجاهلي أولاً عن طريق الرواية المنطوقة ، وامتدت - في جملتها - حتى أخريات العصر الأموى وأوائل العصر العباسى ، حيث بدأت الرواية تلتقى بالتدوين

* * *

والناظر في أثر هذا العصر يلاحظ أن رواة يدررون في ثلاثة محاور .
أحدها : العامة ، وهؤلاء هم رواة الحكم والأمثال الذين طوامم الشيوع ، فلم تنسب حكمة أو مثل إلى راو بشخصه ، وإنما هي أقوال كثر دورانها على الألسنة

(١) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٨ طبعة الحلوى .

لا يجازها ، ودقة تركيبها ، وسمو محتواها ، وقوة تأثيرها في نفوس سادحيها ، لما تنطوي عليه من خبرة بالحياة وصدق تجربة .

لقد كان عمل الرواة في نقل الأمثال والحكم لا يعد التمثل والاستشهاد في الموقف المشابه، إذ هي - كما هو معروف - عبارات تصرب في حوادث مشابهة للحوادث الأصلية التي صدرت فيها عن قائلها . فهو يجري على السنة المتمثلين كما جرى على السنة قائله ، بدون أى تغيير فيه ، مهما كانت دواعي التغيير ، كما هو الشأن في بعض الأمثلة التي رويت مخالفة لقواعد النحو والنصريف مثل قولهم . « أجنأوها أبنأوها^(١) » . وقولهم : « أعط القوس باريها^(٢) » وقولهم . « الصيف ضيحت اللبن » بكسر اللام يخاطب به المدكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع ، دون تمييز ، من كل ما يقرر أن راوى المثل ملتزم بحرفه ومبناه ، مما ضمن لهذا الفن البياني انتشارا زمانيا ومكانيا مع الاحتفاظ بصورته الأصلية ، فأصبح - بذلك - أصدق فنون القول ، تمثيلا للأدب الجاهلي .

هذا إلى ما صادفه ذلك اللون الأدبي من اهتمام المدونين ، فسكان في مقدمة مادونه العرب من الأجناس الأدبية ، حيث سارعوا إلى تدوين الحكم والأمثال ، وبدأوا ذلك في أواخر النصف الأول من القرن الهجري الأول على نحو ما صنع صحر العبيدي في عهد معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ) ، وهو أحد اللسائين العرب ، فقد ألف كتابا في الأمثال ، كما ألف معاصره عبيد بن شربة كتابا آخر في ذلك ، ذكره ابن النديم ، وقال إنه رآه في نحو خمسين ورقة^(٣) . فلما كان العصر العباسي ازداد إقبال العلماء والأدباء على جمع الأمثال والحكم وتدوينها ، والتغنى في عرضها ، فوفروا لنا مجموعة من الكتب التي حفلت بالأمثال ، وقامت على ترتيبها وشرحها وتفسير إيماءاتها مثل كتاب أمثال العرب للمفضل الصبي ، وتلاه أبو عبيد القاسم بن سلام فألف كتابا في الأمثال ، شرحه من بعده أبو عبيد البكري تحت عنوان . « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام » ثم توالى المؤلفات في هذا الباب ، وكان

(١) جمع جان وبان ، والقياس الصرفي . جناتها وبناتها ؛ لأن فاعلا لا يجمع على أفعال .

(٢) بتسكين الياء في باريها ، والأصل فتحها .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٢٢ .

من أبرز ما قدم فيه . كتاب « جمهرة الأمثال » لأبي هلال العسكري ، وكتاب « مجمع الأمثال » للميداني ، الذي جمع مادته بالرجوع إلى ما يربو على خمسين كتاباً^(١) .

حقيقة كان للمنهج الذي سار عليه أكثر المدونين في كتبهم أثر كبير في اختلاط الأمثال ، فأصبح من العسير تمييز أمثال الجاهلي من أمثال العصر الإسلامي ، وذلك لأن مدوني الأمثال ركزوا جهدهم في ترتيبها في أبواب على حسب الترتيب الأبجدي دون الاهتمام بذكر عصرها . اللهم إلا ما نسب من الأمثال صراحة إلى قائله ، فإن هذه النسبة تحدد عصره مادام عصر قائله معروفاً .

أضف إلى هذا ما يصاحب الحكمة والمثل - في هذه الكتب - من قصص ترجع إلى العصر الجاهلي ، أو ما يأتي للثل في ثناياه من قصص جاهلي ، فقد ذكر الميداني ثمانية عشر مثلاً وردت في أنهاء قصة الزباء ، مثل : « يدي لا بيد عمرو » و « لا يطاع لقصير أمر » .

وأكثر من نسبت الأمثال إليهم صراحة كانوا من حكماء العصر الجاهلي ؛ إذ أن منهم من يوغل في القدم مثل لقمان الذي رددت اسمه السنة عشرتهم وحكائهم ناسبين إليه الحلم والحكمة ، وفيه يقول الجاحظ : « من القدماء من كان يذكر بالقدور والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والسكران » ، لقمان عاد .^(٢) ، وهو غير لقمان الحكيم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم . كما نص على ذلك المفسرون^(٣) وصرح به الجاحظ^(٤) كما روى طرفاً من تماليم لقمان الحكيم ذات الطابع الديني^(٥) ، واهتم - كذلك - تذكروا وصاياه وحكمه كتب الفقه والتفسير ، مثل موطأ مالك وتفسير أبي حيان . ومنهم من يدنو من العصر الإسلامي ، كما مر بن الظرب السدواني ، وأكرم ابن صبيح النخعي ، وكان من العمرين ، حتى قيل إنه أدرك الإسلام ، ومات وهو في

(١) انظر مقدمة « مجمع الأمثال » للميداني .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٣ وما بعدها .

(٣) تفسير أبي حيان ج ٧ ص ١٨٦ ، وقصص الأنبياء للثعالبي ج ٣ ص ٣٤٠ طبعة القاهرة وانظر في ذلك خزنة الأدب للبغدادي ج ٢ ص ٧٧

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤ .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٩ .

— • • —

طريقه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لإعلان إسلامه^(١) وقد ذكر السيوطي طائفة من الأمثال والحكم للنسوبة إليه نقلا عن ابن دريد في أماليه^(٢)؛ مثل : « لا جاعة لمن احتاف » ، « شر المصرة التمدي » ، « كل ذات بعل ستئيم^(٣) » ، « لا تطمع في كل ما تسمع » .

• • •

ثانيها : القصاص . وهؤلاء هم المسامرون الذين كان يجتمع إليهم أبناء القبيلة طلبا للسمر والتسلية حين يرخي الليل سدوله ، فينهتون إليهم ، ويتابعون ما تنبس به عندهم ، ولا ريب في أن القاص كلما رأى من الحاضرين إنسانا وإقبالا بذل المزيد من الجهد ليظل على تسلطه وتمسكه من السيطرة على الحاضرين ، فيفيض على القصة من خيال ما يهر به سامعيه ، ويتحرك بمواطنهم كيما شاء من الإغجاب إلى الإشفاق ، ومن الحوف إلى الأمان والاطمئنان ، ومن الشفقة إلى القسوة . . .

وظل هؤلاء القصاص على منهجهم يتوارثون ذلك الفن مع إضافة اللاحق على ما خلف السابق بالقدر الذي يلائم أذواق سامعيه ، وهذا لأطوار الحياة فلما كان العصر العباسي لجأ الرواة واللغويون إلى تدوين ما نحت أيديهم من قصص تتضمن في أكثرها أيام العرب وقائعهم ، سواء فيما بين قبائلهم بعضهم مع بعض أو ما كان بين بعض القبائل العربية وغير العرب من الفرس أو الروم أو الأبحاش ، مما نجد في السيرة النبوية لابن هشام ، وفي تاريخ الطبري ، والأغاني ، والأمالى ، وغير ذلك .

ولم يتوقفوا في قصص البطولات عند قصص البطولة العربية ، فقد قصوا - كذلك - عن بطولات من الأمم المجاورة غير العربية ، على نحو ما كان يقصه الضر بن الحارث

(١) أنظر مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ١٤٥ ، وجمهرة الأمثال للمعري على هامش مجمع الأمثال ج ١ ص ١٢٠ والميرين للسجستاني ص ١٠ والأغاني ج ١٥ ص ٧٠ طبعة ساسي .

(٢) الزهر للسيوطي ج ١ ص ١ طبعة الحلبي .

(٣) تشيم : يهلك عنها زوجها .

في مكة بقصد صرف الناس عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تعلم في الحيرة أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وإسفنديار ، فكان إذا جلس محمد صلى الله عليه وسلم مجلسا تذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خافه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله بأعشر قريش أحسن خديشا منه ، فعلم إلى ، وأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار (١) . .

ولم تقتصر قصصهم على البطولات - العربية وغير العربية - فقد قصوا كذلك عن شمراتهم ، وساداتهم ، وكهانهم ، كقصة المرقش الأكبر مع أسماء بنت عوف ، وما حدث له حين تقدم لخطبتها من أبيها ، الذي طلب منه مالا يطيق ، فاحتمل في سبيلها المشقات ، ورحل ليحقق ما طلب منه ، حتى إذا عاد وجدها روجا لغيره . . الخ (٢) .

وقصوا عن الجن والعفاريت والشیاطين والغيلان ، والحيات ، بل لقد صنعوا حرافات عن الحيوانات ، مثل خرافة الحية والفأس . فقد رعموا أن حية قتلت رجلا ، فطلبها أحوه ليقتلها ، فاحتالت حتى صالحها وعاهدته على أن تترك له الوادي ، وكعطيه كل يوم ديناراً ، فلما كثر ماله ، وأصبح من أحسن الناس حالا ، ذكر أحاه ، وما أصابه على يدي الحية ، فأتجه إلى قتلها ، وعمد إلى فأس فأحدها ، ثم قعد للحية ، فلما مرت به تبسها ثم ضربها ، ولسكنه أخطأها ، فلما رآها تنجو من الصربة وتدخل الجحر رمى الفأس بالجبل فوق وقع فوق جحرها فأثر فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدبنار الذي كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوف شرها وندم ، وقال لها : هل لك في أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت ، كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك ، وأنت فاجر لا تبالي بالمهد (٣) ؟

ولا ريب في أن هذه القصص لا تمثل القصة الجاهلية بكل أبعادها ؛ فقد تنسیر أسلوبها ونسقها البياني من قاص إلى آخر ، وقصارى هذه القصص أنها تقدم مضمون القصة الجاهلية وروحها وجانبها كبيرا من ملاحظها وطبيعتها ؛ وما ذلك إلا لأن شيئا من

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٣٢١ طبعة الحلبي .

(٢) راجع القصة في الأغاني ج ٦ ص ١٢٩ وما بعدها طبع دار الكتب

(٣) أنظر أمثال العرب للضي ص ١٠٦

— ٥٧ —

هذه القصص التي تضاف إلى الجاهليين لم يصل إلى المدونين مكتوباً ، ولا بطريق السقعة في الرواية ؛ لأن وكند القاص أن ينقل مضمون القصة في إطار من حياله وألوانه ، دون حرص منه على شيء أكثر من ذلك .

ثالثها : الأمثلة ذاتها ؛ وذلك لأن كثيراً من هذه القصص اعتمدت في روايتها على الإيحاء والإشارة للبيئة من بعض الأمثلة ، فيسكني أن يذكر مثل من هذه الأمثال لتتوارد الأحداث على خاطر السامع ، على نحو ما رأينا في قصة الحية والفسّاس ، وقيامها على المثل السائر . « كيف أعاهدك وهذا أثر فأسلك »

أي أن المثل يقوم في ذلك المجال بدور الراوي الذي يعتمد على الإيحاء والإيحاء . فهو يحزن تحزن طوالياً أحداث القصة

وهذا يعني أن المثل وظيفة أخرى إلى جانب وظيفة البياينة المهودة ، فليقلجاً العرب الجاهليون إليه ، متوسلين به في نقل قصصهم وما تضمنته من أحداث ومواقف لم تتوفر لها في ذلك العصر من وسائل الإداعة سوى مثل ذلك .

أما ما عدا ذلك من فنون النثر كالخطابة واللماعة والوصايا فقد اعتمدت في روايتها على الرواة المخصوصين ، شأنه ذلك شأن الشعر ، بيد أن الشعر كان أيسر في روايته وانتقاله عبر الأزمان والأماكن . على ما سنرى في الصفحات التالية . أما فنون النثر تلك فلم يكن ميسوراً حفظها ونقلها بحالها كما نطق بها الخطيب أو اللوصي ، وإعما كل ما حرص عليه الراوي . فما زى . أن ينقل لنا نظرة قائمها وأهـكاره ، في قالب قريب الشبه بالقالب الأصلي . . .

من ثم نستطيع أن نقرر أن فنون النثر الجاهلي توفّر لها من وسائل الرواية ما يناسب كل فن بحيث تمكن هؤلاء الرواة . على اختلافهم . من أن يربطوا العصر الجاهلي ونثره بما تلاه من العصر . وإن لم يكن بالشر ذاته فهو . على أقل تقدير . صورته العامة التي كان عليها . وعليه فلا حق لمن ينسكرون هذا الجنس الأدبي أو يشككون فيه ، إلا في تلك الحدود التي أو ضحت .

أما الشعر الجاهلي فقد سلك في طريقه إلينا من العصر الجاهلي طريق الرواية الشخصية المنطوقة ، التي امتدت حتى أخريات العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، حيث بدأت الرواية تلتقي بالتدوين .

ولأهمية الشعر في حياة العرب قام على الرواية طائفة من الشعراء أنفسهم ، فقد اعتبرت الرواية وسيلة من وسائل الران على صوغ الشعر ، وأصبح على من يريد التفوق في الشعر أن يلزم شاعراً أو أكثر يأخذ عنه ما يقول ، ويذيع بين العرب ما يأخذ ، ويظل هكذا حتى بلين الشعر على لسانه ويتمكن منه ، ويشتر أمره ومذهبه فيأتي من يتلمذ عليه ، ويروي عنه ، وهكذا راو عن راو في سلسلة متصلة .

فكانت رواية الشعر لهؤلاء شغلهم الشاغل ، وعملهم الذي يقولون أنفسهم عليه ، والذي تدعمهم إليه القبيلة دفعا ، كما نرى اليوم في المدرسة الحديثة حيث تحتوي تلميذها بالتعليم والتلقين ، فإذا أتم تعلمه فيها ، تولى تعليم من يليه من الأجيال .

ولقد حرص العرب على ذكر الصلة بين الرواة في بعض الأحيان ، حتى استطاع الأصمعي أن يقدم لنا في أغانيه بعض ما رقب عليه من تلك السلاسل ، مثل أوس بن حجر التميمي الذي روى شعره زهير بن أبي سلمى المزني ، حتى أجاد الشعر وبرز فيه ثم كان له رويتان هما كعب ابته والخطيئة ، وعن الخطيئة روى الشعر هذبة بن حشرم الندري ، وعن هذبة أخذ جميل بن ممر صاحب ثيمة ، وعن جميل أخذ كثير صاحب عزة (١) .

وبينا نلاحظ أن الرواة في السلسلة السابقة كانوا من قبائل مختلفة ، نخدم مرة أخرى مرتبطين بشاعر القبيلة ، وقد ذكر ابن قتيبة أن الأعشى كان واوية لحاله السيب ابن علس (٢) ، وأن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لمساعدة بن جؤية الهذلي (٣) .

فلما كان عهد عمر رضي الله تعالى عنه الخليفة الثاني وأنشأ الدواوين ، مست الحاجة إلى الرواية والرواة للتعرف على الأنساب لتحديد رواتب الجند على أساسها ، فبدأ

(١) الأغاني ج ٨ ص ٩١ طبع دار الكتب المصرية .

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٧٤ بتحقيق شاكر .

(٣) للرجع السابق ج ٣ ص ٦٥٣ نفس الطبعة .

الرواية تتحول إلى حرفة يحصل لها بعض الأفراد أنفسهم تماماً، ويحملونها عملهم الذي تقوم عليه حياتهم ، وساعد على ذلك ما تميزت به الدولة الأموية ، فقد كانت ذات نزعة عربية متمسكة ، جعلت الخلفاء الأمويين حريصين على حفظ التراث الشعري ، وأقبلوا على الرواة ، وتبعوا وفود القبائل يسألونهم عن بعض الشعراء توطيئاً لسلطانهم على تلك القبائل

ونجدهم مرة ثالثة مرتبطين بوحدة سلوكية تضم أطرانهم ، وتجمع بين أبعادهم ، كما نرى من بعض الصعاليك ، حيث يأوى الشاعر السملوك إلى مثيله الذي ضمّه من نفسه موضع الأستاذ في الصعلكة وفي الشعر ، فيقوم على رواية شعره ، ويأخذ نفسه بأسلوبه في الصعلكة ، ليكون من غير شعور حلقة في تلك للسلسلة الممتدة ، فقد كان الشفري يتلذذ على تأبط شرا ويصحبه في كثير من غاراته وما زال إلى حواره حتى أمّ تدريبه ، وأصبح له في ذلك الميدان شأن (١) .

وكما نرى من الشعراء المرسان ، حيث يلزم أحدهم الآخر افتناناً بفروسية وجودة شعره ، فيأخذ نفسه بمنهجه وأسلوبه في حياته ، ويروي عنه ما يقول ، مثلما صنع زيد الحبل مع أبي ذؤاد الإباري .

ويلاحظ الدارس أن رواية الشعر لم تسكن دقفاً على الشعراء وحدهم ، فقد كان يشارك الشعراء في ذلك - في كثير من القبائل - أفراد القبيلة عامة ، إذ كان الشاعر هو المتحدث بلسان القبيلة ، لما يقوله إنما هو تعبير عن القبيلة وإعلان عن مكانتها من تسجيل لمفاخر أبنائها وانتصاراتهم ، ومريص بأعدائهم ، وإبرار لما يشيرون من نقائص ومعايب .

واستمرت الرواية حتى ظهر الإسلام، فلم يكن عائقاً، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة كانوا يستنشدون الشعراء والرواة ويصفون إلى ما يشدون، قال الشريد ابن سويد الثقفي استنشدني النبي صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبي الصامت فأثدته فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقول هيه هيه ، حتى أثدته ماؤه قافيه (٢) . وكان

(١) راجع الاغانى ج ٢١ ص ٨٧ طبع الساسى ، وحرارة الادب ج ٢ ص ١٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٧٦ ، وخزانة الادب ج ١ ص ٢٧٧ والمزهر

كثير من الصحابة يروون الشعر ويحفظون أنساب العرب وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق الذي كان يتمثل بالشعر في بعض خطبه كما صنع في خطبته يوم السقيفة . أما عمر بن الخطاب فكان حريصاً على أن يلم بأخبار الشعراء ، فكان يسأل الوافدين من شتى مناحي الجزيرة عن شراهم ويستقصي أخبارهم ويردد أشعارهم حتى قال فيه ابن سلام : كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر (١) .

ومن ثم أصبح من مفاحر الشعراء في عصر صدر الإسلام وما تلاه أن يشتم الواحد منهم برواية الشعر ، فلم يكن هناك شاعر مبرر إلا وهو يعتمد على شعر الجاهليين رواية وإنشادا ونائراً ، حتى سمعنا صوت الفريزدي متخزناً ناله من هذا الشعر في قوله (٢) .

وهب النضائد لي النوايح إذ مضوا	وأبو يزيد ، وذو القروح ، وجرويل (٣)
والفحل علقمة الذي كانت له	حلى المسوك كلامه لا ينحل (٤)
وأخو بني قيس وهن قتلته	ومهلل الشعراء ذاك الأول (٥)
والأعشى إن كلاهما ومرقش	وأخو قضاة قوله يتمثل (٦)
وأخو بني أسد عبيد إذ مضى	وأبو دؤاد قوله يتمثل (٧)
وابن أبي سلمى زهير وابنه	وابن الفريمة حين جد للقول (٨)

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) الديوان ج ٢ ص ١٥٩ طبع بيروت .

(٣) النوايح : الناحية الديبانية والجمادية والشيبانية ، وأبو يزيد : المحبيل ، وذو القروح : امرؤ القيس ، وجرويل : الخطبة .

(٤) علقمة بن عبدة الملقب بالفحل

(٥) أخو بني قيس : طرفة ، ومهلل بن ربيعة ، أخو كليب وائل ، وهن قتلته : يريد القوافي ، لأنه قتل بسبب أهاجيه .

(٦) الأعشى : أعشى قيس ، وأعشى باهلة ، والمرقش الأكبر ، وأخو قضاة : أبو الطامحان القتيبي .

(٧) عبيد بن الأبرص ، وأبو دؤاد : جارية بن حمران الإباضي .

(٨) ابن الفريمة : حسان بن ثابت .

والجففرى وكان بشر قبله لى من قوائده الكتاب المجلد (١)
ولقد ورثت لآل أوس منطقا كالم خالط جانبيه الخنظل (٢)
والخارنى أخو الحساس ورثته صدعا كما صدع للصفاء الممول (٣)

ولم يكن الاهتمام برواية الشعر فى تلك الفترة وقفا على العرب ، ولا مقصورا على الشعراء ، فقد شارك فى هذا الميدان كثير من المسلمين غير العرب ، كما حرص على رواية الشعر من غير الشعراء كثير من أبناء هذا العصر ، خصوصا أولئك الذين كانوا يروون الشعر فى ثيابا قصص صيغت من أخبار الجاهليين تقدم للطلاب فى حلقات المدرس المقامة فى المساجد الجامعة ، بقصد التعريف بالحدث التاريخى أو الكشف عن المدلول اللغوى لبعض الالفاظ

ومن ثم حرص هؤلاء الرواة على تتبع الشعر وأخبار العرب فى البيئات البدوية طلبا للدقة فى الرواية، وحرصا على الاخذ من المبع فأبدى هؤلاء فى عملهم هذا مهارة وتفوقا لم يعمد من قبل فى غيرهم

وإذا كانت الرواية فيما قبل الإسلام راجعة إلى حاجة القبيلة من الدعاية الإعلامية فإنها فيما بعد الإسلام كانت ترجع إلى دوافع أخرى من أبرزها حفظ اللغة، والوقوف على معنى ألفاظها وطرائق استعمالها فى سبيلهم إلى تفسير القرآن الكريم ، والوقوف على مقاصده ، كما صنع ابن عباس ومن سار مساره من بعده فى تفسير القرآن الكريم . والاستشهاد بالشعر الجاهلى على ما يرى .

لقد حمل الشعر الجاهلى إلى الاحيال التالية رواية كثيرون مختلفو الاغراض والوسائل متباينو النزعات والمواطن ، برز من بينهم فى أواخر العصر الإسلامى طائفة الرواة المختلفين ، الذين ترددت مبيشتهم بين الكوفة والبصرة غالبا ، فكانوا نواة اتجاهين فى الرواية مختلفين ومتصارعين ، مروا الكوفة فى الجملة متساهلون ، اشتهر من بينهم كثير من الناحلين والوضاعين ، وعلى رأسهم حماد . ولكن كان من بينهم رواية ثقات مثل الفضلى بن يعلى الصي ورواة البصرة فى الجملة متحفظون متشددون وعلى

(١) الجففرى : لبید بن ربیعة ، وبشر : هو بشر بن أبى خازم .

(٢) أوس : هو أوس بن حجر .

(٣) الخارنى : هو أخو الحساس النجاشى .

راسهم أبو عمرو بن العلاء (١) المشهور له بالإمامة والورع ، وهو أحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم ، وأحد مؤسسى مدرسة البصرة النحوية ، ولكن كان من بينهم الرواة للتمهون ، مثل حنيفة الأحمري الذي أقر على نفسه في زعمه بأنه كان يعطى حمادا المتحول من الشعر ، ويضيف عليه فيزيو : يقول أبو الطيب اللموى : « والشعر بالسكونة أكثر وأصح منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومردب إلى من لم يقله ، وذلك بين في دواوينهم » (٢) .

وهي هذا الجو التلاطم بمختلف الاتجاهات والذرات نشأت طائفة ثالثة أخلصت نفسها وجهدتها لعل ما يروى والتصدي لكل رواية يضيف أو يندخل كما كان شأن الأصمعي وأبي زيد الأنصاري .

إذا كان بعض الرواة قد أدخل على الجاهيلين ما ليس لهم من الشعر ، ورور في الرواية فسب إلى بعض الشعراء ما ليس لهم . . .

إذا كان هذا حال بعض الرواة ، فقد أتيح للأمة العربية من أبنائها من وقف نفسه على تحقيق الشعر المروى وتمحيصه ، فـ كما كانوا للرواة بالمرصاد .

ومن ثم لمسا في حاجة إلى الشك فيما وصلنا من الشعر الجاهلي — على ما دعا إليه الدكتور طه حسين — لأن سلفنا سبقونا إلى ذلك في فترة التحول من الرواية إلى التدوين ، وقاموا — عن قرب بمصور الشعراء — بما يريدنا الدكتور طه حسين تأثرا بفلسفة (ديكارت) أن نقوم به اليوم وعلى بعد نحو خمسة عشر قرنا من الزمان

(١) ولد سنة ٧٠ هـ ، وتوفي سنة ١٥٤ ، وقيل ١٥٩ ، قال الجاحظ : « وكان أعلم الناس بالخریب والعربية بالقرآن والشعر ، وبأيام العرب وأيام الناس ، وكانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت يدينا له إلى قريب من الستة مائة . ثم إنه تقرأ — أي تمسك — فأحرقها » البيان والتبيين ج ١ ص ٣٢١

(٢) مرابب النحويين ص ٧٤

٣ التدوين :

واضح مما بين أيدينا من المراجع الأدبية والعلمية أن تدوين الشعر - عموما - لم يبدأ إلا في أواخر العصر الأموي ، وأن التدوين بدأ في أول الأمر تدوينا من التلاميذ لما يملئهم عليهم شيوخهم في الأدب أو في النحو أو في التفسير . ثم تلاه هؤلاء طائفة من الرواة المدونين حرصوا على أن يكون عملهم منهجيا قائما على أصول وقوانين ثابتة ، فألزموا أنفسهم بتمحيص ما يسمعون عن طريق المقابلة والموازنة ، كما التزموا بالارتحال إلى الصحراء طلبا للعرب الخاص ليوثقوا ما يدونونه على ما اشتهر من أمر الأصمعي المتوفى نحو سنة ٢١٥ هـ وأبي عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ هـ .

أما فيما قبل العصر الأموي ، فقد كان اعتمادهم بالدرجة الأولى على الحافظة ؛ إذ لم يثبت أن الجاهليين اعتمدوا في حفظ شعرهم وغيره من الفنون الأدبية على الكتابة والتدوين .

وما روى من أن بعض المنطوقات الشعرية كانت مكتوبة لا يعني - على فرض التسليم بصحته - أكثر من أن ذلك كان بقصد الإبلاغ ، وليس بقصد الحفظ والتدوين .

ولا ريب في أن الفسارق كبير بين ما كتب إبلاغا وما كتب تدوينا ؛ إذ الأول نوع من الرسائل والمسكاتبات توحه من شخص إلى آخر أو من قبيلة إلى أخرى أو إلى بعض أمراءها للأنباء بما وقع أو سيقع من أحداث على نحو ما روى من رسالة لقيط بن يمعز الإيادي وهو في أرض فارس إلى قومه ينبئهم بما يمد لهم كسرى ، ويحذروهم من الغلبة ، تلك الرسالة التي ضمنها قصيدته المينية ، ومطلعها يقول :

أبلغ إيادا وحلل في سراهم أي أرى الرأي إن لم أعص قد نصا

ولقد قرر الجاحظ ذلك في قوله : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأله إلهام . . . فما هو إلا أن يصرف - يعني العربي - وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني إرسالا ، وتمثال عليه الألفاظ انشايلا ، ثم لا يقيدته على نفسه (١)

ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ونزل عليه القرآن الكريم بدأت حاجة المسلمين إلى تعلم الكتابة تظهر، واصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم من بين المسلمين من يقوم بالكتابة له، وخص من بينهم طائفة بتدوين ما ينزل من القرآن الكريم، وطائفة بكتابة الرسائل والمآهديات التي تدعو حاجـة الدولة الناشئة إليها . . فكان ذلك تمهيدا وتأسيسا لحركة التدوين التي وضعت معالمها في العصر الأموي، وإذا امتدت في جهات متعددة، وتناولت موضوعات شتى، ولم تقف عند الحد الذي بدأت فيه في عصر صدر الإسلام .

أما الشعر فقد استمر العرب في نقله وتربيده على ما كان عليه أسلافهم في العصر الجاهلي، ولم يؤثر عنهم تقييده إلا في القليل الدار - على اختلاف الداعي إلى ذلك - فإذا كان في الجاهلية صارفهم عن التدوين الجمل بالكتابة وندرة الكتّابيين والقارئيين، فإن صارفهم عنه في صدر الإسلام قللة اهتمامهم بالشعر، وإكبابهم على القرآن الكريم وكل ما يتصل بالدين الجديد .



كما يتضح من النظر في المدونات التي ظهرت منذ العصر الأموي أن مدوني الأدب اختلفوا عن مدوني الفقه والنحو، فلم يهتموا بالتدوين الشامل المستقصى، ولكنهم لجأوا إلى الاختيار والاتباع، ولكل منهجه في اختياراته، كما صنع حماد في (السموط) أو (الملقات)، وكما صنع المفضل ابن محمد يعلى الغبي في مجموعته التي سماها (الاختيارات) والتي سميت فيما بعد بالفضليات، وكما صنع الأصمعي في الأصمعيات، وكما صنع في جمهرة أشعار العرب الذي ينسب إلى ابن أبي ريد محمد بن أبي الخطاب القرشي، إلى غير ذلك .

ويلاحظ أن الذين كانوا يقومون بالتدوين في هذه الفترة لم يكونوا - في الغالب - هم أصحاب المدونات، وإنما هم تلاميذهم الذين كانوا يدونون ما يتلقون عنهم من مختلف العيون البيانية شمرًا وشراء، أدبا كان أو علما

وستطيع أن ترى في ذلك مرحلة انتقال تقوم بين عهدي الرواية الحاضرة والتدوين الكامل . فهو مسار طبعي يرينا التدرج من الرواية إلى التدوين؛ فقد ذكر صاحب

الفهرست أنه « لم ير لحاد كتاب ، وإنما روى عنه الناس ، وصفت الكتبة بعده » (١) .

ولم يقتصر هذا على الشعر والأدب ، وإنما كان هو المنهج العام الذى شمل كل فروع المعرفة والفن المطوق ، فالذى دون أخبار محمد بن السائب الكافى هو ابن هشام ، ولم يعرف أن الخليل بن أحمد دون كتابا فى النحو ، ولكنه أملئ إملاءات جمع منها سيئويه كتابه المشهور .

كما يلاحظ أن تدوين الشعر واجبه فى أول أمره مقاومة ؛ لما قد ينشأ عن ذلك من تحريف وتصحيف لاشك يسلم منها الشعر المروى مشاهمة ؛ إذ الشعر يحتاج إلى تلقين وسماع حتى يسلم من اللحن ، ولذلك صنف ابن سلام رواية من يعتمدون على الكتب ، حيث يقول : « وليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » (٢) .

ومعنى هذا أن تدوين الشعر فى تلك المرحلة لم يتم على منهج عحدد العالم ، واضع الانجازات ، وإنما كان عملا تلقائيا ، يصدر عن صاحبه دون إعداد مسبق .

* * *

ولكن التدوين بعد ذلك يتخذ سمنا محتلما عن هذا السمات ، حيث يقترب به المدونون من التأليف على نحو ما صنع أبو تمام فى حماسته ، والجاحظ فى البيان والتبيين ، والمبرد فى الكامل ، وابن قتبية فى عبون الأخبار ، والشعر والشعراء ، وكما صنع أبو الفرج الأصفهاني فى كتابه الأغاني الذى يقع فى واحد وعشرين مجلدا فقد حرص على أن يقدم الشعر الجاهلى - أو غيره - مصحوبا بالمادة التاريخية ، معتمدا على الأسانيد التى توضح المصدر ، مع تقييم روايته ، والتلبيه إلى ما اشتهروا به من صدق

(١) الفهرست لابن النديم ج ٣ ص ٣٠٢ طبع الرحمانية .

(٢) الصحفى - بضم الصاد والحاء - الذى يأخذ عن صحيفة ، لم يمرض على العلماء ، ولم يتناق على بالرواية . راجع طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٤ بتحقيق وشرح محمود محمد شاكر .

أو كذب . وهو في ذلك كله يستند إلى ما قدمه رواة القرنين الثاني والثالث
الهجريين .

ومن ثم توسع المدارسون العرب في دراساتهم ، وتفحصوا في تلويها ، فكثر
التأليف ، وتمددت أشكاله واتجاهاته ، لكنه في الغالب لم يخرج على منهج الأصمعي
من الالتزام بذكر الأسانيد وتسلسلها ، كما فعل ابن دريد وابن الأثير ، وأبو
الغلي ، والمرزباني .

قضية نحل الشعر وانتحاله

هذه القضية من أخطر القضايا التي تصادف دارس تاريخ الأدب - على وجه العموم - إذ لا يكاد عمل أدبي يسلم من دخيل يضاف إليه - سواء في ذلك الأدب العربي والأدب غير العربي ؛ لأن لما مل الزمن ، ووسائل النقل من الأجيال والأعصر الفائرة أثرها في إحداث مثل هذه الإضافات والتنويرات .

وليس حتما أن حدوث هذه الإضافات يتم بدافع من سوء المقصد المقدر يحدث هذا عن قصد ، وقد يحدث عن غير قصد .

وموطن الخطورة هو في نحل ما بين يدي دارس الأدب من نتاج أدبي للتعرف على الأصل منه والذخيل ، ولا ريب في أن مثل ذلك من أشق الأعمال التي تواجه الناقد في النتاج الأدبي المعاصر الذي يمايش أصابه بظروفهم البشوية على اختلافها ، فإذا تباین زمان الدارس وزمان العمل الأدبي تضاعفت المشقات التي يواجهها في البحث ؛ لاحتفاء بعض معالم الحياة السابقة بين طوايا الزمن . أما إذا اختفت جل معالم تلك الحياة ، فإن الباحث عندئذ يصبح كمن يبحث عن غيظ في صحراء

فإذا اجتمع إلى هذا وذاك خلو الأجيال المجاورة لهذه الأعصر الفائرة من دارس يقوم بتحصيص ونحل النتاج الأدبي لمن تقدمه من الأدباء والشعراء ... فإن الوضع إلى حكم على ما بين أيدينا اليوم مما هو منسوب إليهم يصبح ضربا من الحذف والتخمين ، يفتح أمام كل مدقق باب التشكك والحذر الشديد في قبول أو رفض ما ينسب إلى أبناء تلك العصور السالفة .

أما إذا وجد من علماء العصور المتأخرة لهذه العصور من تحمل عبء المسؤولية ، وقام بتحصيل ما حله الرواة منسوباً إليهم ، مستعيناً في ذلك بالتحصيل بالوسائل العلمية المتقدمة ... إذن فلا مكان للتشكك ، ولا مجال لإعادة البحث .

لا أقصد بذلك مصادرة الرأي الآخر ، ولا أريد أن أضغ بين يدي الباحث المجدد .

عوائق أو موانع ، إنما أنا أقرر بذلك حقيقة واقعة ماثلة يلمسها كل باحث موضوعي ، مجرد عن النرس .

وذلك لأنني أرى أن من يتشكك فيما بين يدينا اليوم من شعر الجاهليين على مدى نحو ألف وخمسمائة عام إنما هو منكر لذلك كله يتستر خلف أسلوب علمي ليخلص منه إلى تقرير مقرر لديه باسم العلم ، والعلم ومناهجه من مثل ذلك براء ؛ لأن الشك لا يصح إلا فيما يمكننا أن نستقل بالتعرف عليه إقراراً أو إنكاراً لقربنا من إثباته ، ويمكننا من التعرف على طبائهم ، وطبائع بيئاتهم الرمانية والسكانية والاجتماعية والفلسفية عندئذ يستطيع الدارس أن يتشكك فيما وصله عن مثل هؤلاء ، فيقيسه بمقاييس تلك الطبائع ويخلص من ذلك بما يصل إليه تقريراً أو إنكاراً

أما بما انقطعت دونه السبل فهو إما عائد في تشككه ذلك إلى الشك في روايته أو إلى الشك في دارسيه المجاورين ولا ريب في أن هذا وذلك يعني من أول الأمر إنكار كل ما ينسب إلى أسلافنا من أدب وعلم باسم المنهج العلمي أو الشك الديكارتي ، وذلك لأن من يعطى نفسه الحق في أن يشك في رواية الأدب الجاهلي شكاً مطلقاً هكذا ، ويقوم هو - على هذا البعد الزماني وللشكاني - بتقييمهم ذاتياً وموضوعياً دون اعتقاد على عائلات الأسلاف من الدارسين والباحثين والعلماء . أقول إن من يعطى نفسه هذه الحق يريد أن يومم الآخرين بأن مقرر مسبقاً في هذا الشأن من غير حجة ولا بيئة إنما هو نعمة . واردة وبمحت علمي مجرد ؛ إذ الذي يشك في أمر هو في الحقيقة يشك فيمن نقل هذا الشيء ، كما يشك في كل ما قيل في شأنه من إقرار أو إنكار ، ولا يثق إلا فيما يصل إليه هو . بمقله . . . وعندئذ أساءل - مدهشاً - عن وسائله إلى ذلك . أليس في كل ذلك يعتمد على ما وصله من تاريخ العرب عن هؤلاء الرواة ومن جاء بعدهم من الدارسين ؟

أنه إذاً الحاجة في نفسه يقبل بعض ما روى عن هؤلاء ليترك في بعض ما روى عنهم ويتميز أو يضح يقبل من روايتهم ما يحقق غايته ، يؤمن ببعض السكتاب ويكفر ببعضه ، منفلاً أن المنهج العلمي الحق يقول بأن من يتقبل البعض لابد من أن يتقبل البعض الآخر إما أن أرفض كل ما جاءنا عن هؤلاء الدارسين ، وإما أن أتحرك بمقلي وعلمي بين المختلف من آرائهم لأختار منه ما يقيه عقلي من خلال المأثور عنهم في مجله أما ما أجمروا عليه فلا عمل لأن التشكك فيه من جديد على هذا البعد ، لأن هذا لا ينفق

سوى الإنكار والرفض لكل ما يروى وينسب إليهم في شق المجالات فما ينطبق على الشعر لابد من أن ينطبق على اللغة والتاريخ وغير ذلك من ضروب العلم والمعرفة .



إن علماء العرب وأدباءهم قد بكروا بتمحيص ما نقله الرواة من أشعار ووقائع ، وتزودوا في ذلك السبيل بأساليب علمية لا تقبل في قوتها ودقتها عن أسلوب للشك والديكاري ، إن لم يكن هذا الأسلوب واحداً من أساليبهم في تلك المصور المتقدمة ، من كل ما يمنح الثقة لمجموع ماضته كتبهم من آراء في هذا الصدد وغيره ؛ فهم على قريبتهم القريب من الأعصر التي تنسب إليها تلك الروايات ، كانوا من الحرص على الوصول إلى الحقيقة بالدرجة التي تفوق حرصاً نحن في هذا العصر على بمد ألف وخمسةائة عام .

بل لا أبعد عن الحقيقة إذا قررت أن هؤلاء العلماء والدارسين هم الذين أوقفونا على ما أدخل على الشعر الجاهلي من نحل وتزييف ، ولولا ما ذكرناه في ذلك الشأن لما تنبّه إلى ذلك مبصر من الغربيين للمستشرقين ، أو من الشرقيين المستشرقين فلقد طلعوا انهبوا وألحوا في التنبيه - الذي ضمنوه كتبهم - إلى أن كثيراً من الشعر الجاهلي قد دخله التزييف والاتحال ، ووصعوا بين أيدينا قوائم بأسماء هؤلاء الوضاعين المزيفين حتى نحذر في التلقي عنهم ، وقاموا هم بنحل كل ما وصل إليهم من الشعر قبل أن يدونوه ، ولم يسكتوا إلا عما اطمأنوا إليه ، ولم يذكروا شيئاً مشكوكاً فيه إلا وأشاروا إلى ما يساورهم في شأنه مقروناً بما يدفعهم إلى هذا الشك ، فهو ليس شكاً قائماً على العاطفة أو العصبية كما يتوهم البعض .

إن الناظر فيما بين أيدينا من كتب علمائنا هؤلاء يلاحظ أن الحرص بلغ بهم درجة أهملوا معها كل ما يروى عن الرواة المتهمين من أمثال خلف وحماة ، وكان في مقدمة هؤلاء العلماء الأدباء الدارسين المفضل الضبي^(١) المتوفى سنة ٧٨٠ م والأصمعي^(٢) المتوفى

(١) المفضل نحوي وشاعر من أبناء الكوفة ، كان يكتب المصاحف تكثيراً عما كتبه بيده من أهاجي الناس . له « المفضليات » . و « أمثال العرب » .

(٢) عبد الملك الأصمعي ٧٤٠ - ٨٢٨ م ولد في البصرة وتعلم فيها على الخليل وعيسى ابن عمر ، وأبي عمر بن الأعمى ، وعليه تعلم أبو الفضل الرياشي ، وأبو عبيدة السكري .

سنة ٨٢٨ م . وعهد بن سلام الجعفي^(١) المتوفى سنة ٢٣١ هـ

ونظرة إلى ما ذكره ابن سلام في مقدمة كتابه (طبقات خول الشعراء) يتأكد ما أقرر هنا من ذلك قوله : « وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجة في عريته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقنع ، ولا نثر معجب ، ولا سيب مستطرف وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء . وليس لأحد - إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه - أن يقبل من صحيفة ، ولا يروي عن صحفى^(٢) . »

« وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه^(٣) . »

فابن سلام - على قربه من العصر الجاهلي - يسير في كتابه وفق منهج واضح محدد أملاه عليه دقة العالم الورع ، وبصر الأديب الشاعر ، حيث يعلن في صراحة عما يراه في بعض الشعر العربي - في ذلك الوقت - من دحيل منحول ، دون أن يكتفي في ذلك بمجرد الإعلان ، ولكنه يمزج ذلك بالقرائن الفنية والعملية التي تثبت دعواه ؛ إذ هو شعر لا خير فيه ، ولا حجة في عريته ، ولا فائدة أدبية في مضمونه ، ولا يحتوي على معنى أو مثل يضرب . الخ ذلك ثم يئنه إلى مصدر ذلك الدخيل ، وسبب اختلاطه

== حفظ لنة البدو ولهجاتها ، فأصبح من مشاهير لغوي العرب من مؤلفاته « الفرس ، و « الإراجيز » ، و « الميسر » ، و « الأصميات » .

(١) أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجعفي البصري ولد بالبصرة سنة ١٣٩ هـ وتوفى سنة ٢٣١ هـ وجمع شيوخ العلم والحديث والأدب ، وسمع منه شيوخ العلم والحديث والأدب ، من شيوحي الأصمعي ، والمفضل ، وبشار بن برد ، وحران ابن حفصة الشاعر ، والسبب بن سعيد ، وسديويه . ومن تلمذ عليه أحمد بن يحيى ثعلب وأبو حاتم ، والرباشي ، والملازني ، وأحمد بن حنبل ، وأبوه عبد الله بن أحمد وغيرهم كثير .

(٢) الصحفي - بضم الصاد والحاء - الذي يأخذ عن صحيفة ، لم يعرض على العلماء ولم يتلق علمه بالرواية .

(٣) الطبقات ج ١ ص ٤ بتحقيق وشرح محمود محمد شاكر .

بشيره ، وذهول بعض الدارسين عن حقيقته ، حيث يقدر أن السر في هذا الخلط إنما جاء من تداول الشعر مكتوبا ، دون مشافهة وسماع من أهل الثقة - وهم في الأدب واللغة في ذلك الوقت أهل البادية - ودون عرضه على العلماء المتخصصين الذين يقومون بدور الناقد البصير ، والتأضي المادل

ولا يفوته في هذا المجال أن ينبه إلى أن أهل العلم والرواية الصحيحة إذا أجموا على إبطال شيء من الشعر فليس لاحد أن يقبل منه ما يجده محطوطا في صحيفة ، ولا يرويه عن يأخذ عن صحيفة .

أى أن الشعر يواجه المديد من نقاط التفتيش والفحص لا بد له من أن يجتازها قبل أن يعتمد ويوثق . . حيث ينقل إلى الأجيال اللاحقة .

وابن سلام لا يرى في هذا ما يعيب الشعر العربي أو يمس قيمته الفنية من قريب أو من بعيد ؛ إذ الشك في بعضه ، ورد بعضه ليس خاصا به ، ولسكن كل شيء لا يخلو من أن نثار حوله الشكوك مع مرور الأيام واختلاف الأماكن .

وهذا لا ينفى - في رأى ابن سلام - التجزو على رخص ما اتفق عليه - من الشعر وغيره - وإنكاره

ومن هذا المنطلق لم يجد ابن سلام حرجا في أن يضع بين أيدينا أنواعا من الشعر المردود ، بسكنه - وهو العالم الحريص على النهج العلمى - لا يضع ذلك خاليا من التعليل والتفسير .

يمهد لذلك أولا ، فيقرر أن الشعر - كغيره من صنوف العلم والصناعات - له أدوات ومقاييس تمكن العالم من وزنه وتقييمه ، ومعرفة صحبته من زائفه ، وذلك قوله : « وللشعر صناعة وثقافة ، يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما تثقفه اللسان » (١) ثم يأخذ في ضرب أمثلة من أصناف العلوم والمعارف ، قارنا كل صنف بمقاييسه وطرق تفده ، ينتهى إلى الشعر بقوله : « فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به » (٢) .

ولا يفوته في هذا الصدد أن ينقل حوارا دار بين واحد من العلماء بالشعر ، وأحد رواته للشكوك في روايتهم ، وذلك قوله :

(١) الطبقات ج ١ ص ٥ . (٢) المرجع السابق ج ١ ص ٧ .

وقال خلاد بن يزيد الباهلي (١) لحاف بن حيان أبي محرر (٢) - وكان خلاد حسن العلم بالشعر ، يرويه ويقول - : بأي شيء ترد هذه الأشعار التي تروى ؟ قال له : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم قال : ولا تنكر أن يملأوا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت ، (٣) .

ولم يقف ابن سلام عند حد التصريح بما أدخل على الشعر العربي من نحل ، كما لم يقف عند حد الإشارة إلى جهود العلماء ومناهجهم في بحث ما روى من الشعر وتمحيصه ، ورد ما نشور حوله شكوكهم لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد أسهم بالفعل في هذا المجال ، فرد نحل الشعر إلى عاملين هما :

(١) حرص بعض القبائل على التفوق والصدارة فاجأ طائفة من الشعراء إلى صنع شعر نسبوه إلى غيرهم ليسكون حجة فيما ضمن من وقائع ومآثرهم ومنافب .

(ب) وحرص طائفة من الرواة على وضع الشعر والإضافة إلى مروياتهم إرضاء لرغبات تلك القبائل أو لتبر ذلك من الدوافع . وفي ذلك يقول : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائهم وكان قوم قلت وقائهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على السن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيات » (٤) .

ولم يكن التزبد مقصورا على القبائل - كما صنعت قريش في شعر حسان (٥) - بل كان الأمراد يقومون بذلك من ذوات أنفسهم بحيث يخفى أمرهم عن مباشرهم . كما صنع ابن داود بن متهم بن نويرة في شعر أبيه ، قال ابن سلام : أح - برني أبو عبيدة أن

(١) خلاد بن الأرقط ، بصري مات سنة ٢٢٠ هـ .

(٢) هو خاف الأحمر ، توفي سنة ١٨٠ هـ تقريبا

(٣) الطبقات ج ١ ص ٧

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ .

(٥) أنظر ذلك في ابن سلام ج ١ ص ٢١٥ .

ابن دارد بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوى من الجلب والميرة فنزل النخيت^(١) فأثبته أنا وابن نوح المطاردى فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقبلا له بحاجته وكفياه ضيفه ، فلما تقد شعر أبيه جمل يزيد في الأشعار ويصنمها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوفائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علما أنه يقتله^(٢) ، وكان تحييص هذا أشق على العلماء من تريد للقبيلة كلها في شعر الشاعر ، لقربه من الشاعر . وفي ذلك يقول ابن سلام : « وليس يشك على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال »^(٣) .

وضيف ابن سلام طائفة أخرى لم يوثق بما روت من الشعر ، بل لقد اشتهرت بإفساد الشعر بما أضافت إليه دون نظر وتمحيص فيقول : « وكان ممن أسد الشعر وجهه وحمل كل غناء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل عخرمه بن الخطاب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسير ، قال الزهري : لا يزال في الناس علم ما بقي مولى آل عخرمة وكان أكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك ، فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يمتدح منها ، ويقول : لا علم لي بالشعر ، أتينا به فأحمله ولم يكن ذلك له عذرا ، فكتب في للسير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأشعار النساء فض - لاعن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وعمود ، فكتب لهم أشعارا كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف ممتود بقواف »^(٤) .

فلم يكن الانتحال في الشعر العربي راحما إلى سوء المقصد في كل أحواله ، بل كان هناك من يدفعه إلى السحل قصد الوضع والتزييف كما كان شأن الرواة الوضاعين

-
- (١) الجلب : ما يأتي به البدوى من الإبل والغنم في الأمصار . والميرة : الطعام ، والنخيت : من قرى البصرة الصغيرة الدانية .
 (٢) طبقات الشعراء ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .
 (٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧ .
 (٤) المرجع السابق ج ١ ص ٧ ، ٨ .

الذين كانوا يحسنون نظم الشعر وصوغه مثل حماد وجناد وحاف كما كان هناك من لا يحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي ، ولكنها كانت تحمل كل عشاء وزيف في أثناء مروياتها من الأخبار والسير ، مثل ابن إسحاق رأوى السيرة النبوية ، فقد اتخذ بعض آخر أداة لإذاعة ما يصنعون من الشعر فيدخله في أخباره دون تحرز أو تحفظ .

وكان موقف العلماء بالشعر ورواته الذين وقفوا أنفسهم على فحص وتحصيص مروياتهم قبل إداعتها — من أمثال هؤلاء الرواة واضحا جليا ، فقد رفضوا كل ما روى عن أى من هاتين الطائفتين ، إلا أن يأتيهم من مصادر أخرى موثقة ، وإلا أن يتخلوه بمقاييسهم الشعرية التي استطاعوا بها كشف كل زيف

بل لقد لجئوا إلى التحرز ففضلوا إسقاط بعض الشعر الذي يخالجهم فيه شك على روايته يقول ابن سلام : « ولأبي سفيان بن الحارث شعر كان يقوله في الجاهلية فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ولنا نند ما روى ابن إسحاق له ولا لغيره شعرا . ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم » (١) .



هذا ابن سلام أحد رواة الشعر العربي الثقات يكشف عن منهجه هو وصرياًؤه — من مثل المفضل الصمى والأصمعى وأبى عمرو بن العلاء — في رواية الشعر وتوثيقه منذ القرن الثاني الهجرى ، فهل بعد ذلك يجد باحث أو دارس محالا لقول يشكك بأفهام رواة هؤلاء أو يتشكك به ؟ !

يبد أن طائفة من المستشرقين أناروا هذه القضية حين اتصلوا بالشعر الجاهلى . . وليس بعيدا أن يكون ذلك منهم تكرارا للمثل ما صادفوا من كلام ابن سلام اعتمادا على جهل المحيطين بهم بما قاله علماء العرب الأقدمون ، كما لا أستبعد أن يكون ذلك منهم ابتداء على غير علم منهم بما جاء على لسان العلماء العرب ، وأنهم بمقاييسهم تشككوا فيما بين أيديهم من شعر الجاهليين .

وكان في مقدمة من أثار قضية النحل تلك نولده سنة ١٨٦٤ ثم آلورد حين قام على نشر ديوان امرى القيس ، والناظفة وطرفة وزهير وعمرة وعلمة ، فأبدى تشككه في صحة الشعر الجاهلى في عمومه ، وحلص من ذلك إلى أن قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته على شيء من الشك كذلك في ترتيب أبيات كل منها والمفاظها . وتابع آلورد في ذلك طائفة من المستشرقين منهم موير ، وباسيه ، وبروكان ، ومرحليوث (١) وعلى منهج هؤلاء المستشرقين سارت طائفة من العرب المستقرين ، وكان في مقدمتهم الدكتور طه حسين الذى ردد ما كتبه هؤلاء - خصوصا مرحليوث - دون روية أو تحقيق أو مراجعة في كتابه « الشعر الجاهلى » سنة ١٩٢٧ م .

وإذا كان للمستشرقين عذرهم فيما قد ينزلون إليه من آراء - إذ هم مهمابانوا من الاتصال بالعربية غرباء عليها لا يستطيعون تعمق أسرارها ، ولا بحث أغوارها - فلأنى لا أجد عذر العربى رل به القدم فيردد ما ردد غيره ، وبين يديه من أشباب الفحص والتحقيق ما يمكن أن يضمه في مصاف النهضة العدول .

ولقد سبقه في هذا الميدان مصطفى صادق الرافعى فعرض القضية بشيء من التفصيل والاستقصاء في كتابه « تاريخ آداب العرب » الذى نشره سنة ١٩١٩ .

والمعجب من أمر الدكتور طه حسين الذى يكشف عن انزلاقه ومتابعته فيما كتب آراء المستشرقين - أنه بنى شكه في الشعر الجاهلى ورفضه للكثير منه على مدى تمثيل الشعر الجاهلى لحياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية واللغوية .



أما الحياة الدينية فيرى أن الشعر المنسوب إلى العصر الجاهلى برىء أو كالبرىء من الشعور الدينى القوى والماعظة المتسلطة على النفس ، والذى يمثلها من جميع جوانبها تمثيلا قويا إنما هو القرآن الكريم ، حيث أرانا معجبه اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وحادلهم وهاجمهم كما هاجم الوثنيين ، مظهرها في ثنايا ذلك معتقداتهم (٢) .

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لبلاشير ج ١ ص ١٧٦ وما بعدها ، ومصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد ص ٣٥٣ وما بعدها .

(٢) انظر في الأدب الجاهلى ص ٧٧ وما بعدها الطبعة الرابعة .

ولا ريب في أن هـ - ذا يكشف - من أول الأمر - خطأ طه حسين في اتجاهه ،
وينقصر عليه ما يقول ؛ إذ كيف يتأتى لباحث مفكر أو أديب متذوق أن يقيس الشعر
على القرآن الكريم ، مهذا من وادٍ وذاك من وادٍ آخر ، ولا يمكن بحال أن يجتمعا .
ولا عذر له في ذلك بعد أن قرأ قوله تعالى في سورة الشعراء تمجيها للقرآن عن الشعر :
« وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين
بلسان عربي مبين » (١) . وقوله بعد ذلك في السورة نفسها : « وما ننزلات به الشياطين
وما يلغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع أمزولون » إلى قوله عز وجل : « هل
أبشركم على من ننزل الشياطين نزل على كل أفك أنثم . يلقون السمع وأكثرم
كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأهم يقولون
مألا يفلحون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد
ما ظلموا » (٢)

فالقرآن كتاب سماوى له رسالته وأسلوبه ومنهجه الذى لا يمكن لمافل أن يقيس
به أو عليه كلاما آخر إلا أن يكون كتابا مثله . فليس غريبا أن يمرض لـ كل ما يتصل
بديانات من أوحى به إليهم لهدايتهم ومجادلتهم ، إنما الذريب الذى لم يكن ليقبله عقل
ناقذ أديب أن نرى في الشعر الجاهلى شيئا من ذلك ، إلا أن نقدر أن قائله رسلا
أو أنبياء مصاحين رصدوا شعرهم لهذا المرض .

إن الدكتور طه حسين لا يريد أن يكتفى بما جاء في شعر الجاهليين من إشارات
دينية ، ويرى أن قلة ذلك أو ندرته في شعرهم دليل على ريب نسبة هذا الشعر إليهم .
والأمر على العكس مما يرى ؛ ولو أن ما نسب إلى الجاهليين من شعر تضمن تفصيلا
دينية أكثر مما جاء لكان دليلا على زيفه ومغله ؛ لأنه عندئذ يكون من صنع مغرض
صاحب غاية دينية جاء بعدهم .

* * *

وكذلك طلب في الشعر الجاهلى بسطا للحياة العقلية التى كان عليها عرب الجاهلية ،
فلما لم يجد ما يطلب أنكر أن يكون ذلك الشعر ممثلا للعصر وتشكك في نسبته
إلى الجاهليين

ولا أدري ماذا يقصد الدكتور طه بذلك ؟ أيطالب من الشاعر الجاهلي أن يحول شعره إلى كتاب أو بحث علمي يكشف به عن حياة عقلية منظمة يفترض وجودها في ذلك العصر ؟

ليس من شك في أن العرب في هذا العصر لم يكونوا ذوي فكر عقلي راق أو معقد بالصورة التي يطلب الدكتور طه أن يراها في شعرهم ، ولو أن شعرهم ضمن شيئا من ذلك لكان دليلا قاطعا على نموه وتزويقه ؛ فقد كانوا في مجموعهم يعيشون أحد أطوار الحياة البدائية التي لا تقوم على فكر معقد منظم .



كما رأى أن الحياة السياسية للعرب لا تبدو في شعرهم صورتها كما أوضحها القرآن الكريم ، حين أظهر أن العرب في العصر الجاهلي انقسموا فريقين ، فريق يناصر الروم ، وآخر يناصر الفرس ، على ما جاء في سورة الروم .

وفاته أن هذا التقسيم والتوزيع السياسي لم يكن شاملا للعرب جميعا ، وإنما كان مقصورا على قريش التي كانت على صلة دائمة بالفرس والروم لارتباط تجارتها في رحلتها بهاتين الدولتين .

كما أنه أن يتنبه لما تضمنه شعرهم من تهديد وتوعد حين نشبت الحرب بين بكر وفارس ، أو أن يتنبه لما غص به شعر طائفة منهم في مدح النساسنة أتباع الروم وللناذرة أتباع الفرس ، وما في ذلك من إشارات لتلك العلاقات .



وعلى الوتر نفسه قدم دعواه من الجانب الاقتصادي ؛ فقد بحث في شعرهم عن اتجاهاتهم الاقتصادية فلم يظفر منه بما يفيد ، كل ظفر من القرآن الكريم الذي قدم لنا العرب أغنياء يستأثرون بالثروة ، ومقراء لا يملكون شيئا .

وكان الدكتور قد غفل عن شعر طرفة بن العبد الغني المتلاف ، وشعر الصعاليك الثائرين على ما في المجتمع من ظلم ، والمنصبين أنفسهم موارد لإقامة العدل الاجتماعي بالسطر على الأغنياء ومساعدة الفقراء .

وأعجب ما في هذا أن الدكتور يزعم أن شعر العرب لا يتضمن إلا ما يفيد أن العرب جميعا كرام أجواد ، وفاته أنهم إلى جوار ذلك يذمون البخل والبخلاء ، وينذلون من

الشع . . ولا يتصور أن يذم شاعر صفة غير موجودة في قومه ، إذ لو لم تكن موجودة لما كان لدمها من داع .

* * *

ثم يحلص الدكتور طه حسين من ذلك كله إلى الحديث عن أمة العرب ، فيقرر أن البحث الحديث أنشأت خلافا جوهريا بين أمة الجنوبيين وأمة الشماليين ، ثم ينظر ويرى أن الشعر المأثور حميمه جاءنا بلغة الشماليين . . . مما يخطر عليه اليسلم بصحة الكثرة المطلقة منه .

وهو بهذا يفعل المعجرات التي تمت من الجنوب إلى الشمال في عصور ما قبل العصر النعالي كما كان شأن قبيلة كعدة اليمنية ، كما يفعل سيادة لهجة قريش سائر اللهجات الشمالية واتخاذها لغة أدبية يخضع لها الجميع ليشكك في صحة ما روى من أشعار هذه اللهجات بلهجة قريش .

إن الناظر فيما كتبه الدكتور طه حسين لينأكد لديه أنه ما كتبه بروح العالم المذوق البعيد عن التحيز والمصيبة ، وإنما كتبه بروح المستشرق البصير الذي يبيت لغة العربية وآدابها والقرآن الكريم ما يبيت ، مما يضيق بحثنا هنا عن تناوله بالتفصيل والتحديد .

الفصل الرابع

المقصود بالبادية والحاضرة

معلوم أن البادية - في مفهومها العام - تعنى السكان ذا القضاء الواسع ، والمرعى والماء ، أو البيئة التي لم تغير من أصل وجودها يد السكان المخلوق ، فهي على هيئتها التي صادها عليها ساكنوها منذ القدم . وتوارثوها جيلا بعد جيل دون أن تمتد يدا تعديل شيء فيها ؟ فهي من البدء كما هي اليوم على ما بدت في أعين أبنائها أرض مفتوحة لا حدود فيها تقيد حركة ساكنيها ، ولا حواجز تمنع عنها من هواهر السكون شيئا ، تستوى في ذلك الحدود والحواجز المادية والمنوية ؛ فساكن البادية لا تقيد حركته الحدود المادية من منازل منقطة وقلاع محصنة ، كما لا تقيد حركته الحدود المنوية من نظم وقوانين وحكومات .

فساكنو البادية هم ناس يمشون فوق أرض لم تخضع لمنفعة المخلوق ، وإنما هي أرض مازالت على هيئتها الأولى التي خلقها الله تعالى عليها من أودية وجبال وكشبان ، وحيوانات ووحوش ، ومفاوز وقفار ، تظلمها السماء بما تحوى من كائنات دون حجاب أو ستار ، فتستهوى النفوس بجبالها ولها من نجومها ، وسطوع بدرها وإشراق شمسها ، وتملح القلوب بأهوالها وثوراتها ، وتغنى الأجسام بقائظ حرها بموجر بردها وجفاف أرض ، ووعورة مسالكها ، وخشونة الحياة فيها .

هذه البادية بجبالها الطبيعي الذي لا يكدره وسائط من صنعة المخلوق ، وببساطتها وقوتها التي تهون إزاء ما تقدمه لساكنها من شعور بالذات ؛ فبينا الهدوء يسود كل شيء فيها إذا بالسماء تتبدل بالغيوم ، وصوت الرعد يدوي في آفاقها ، وومض البرق ينشر في ضاحيها ، وأزيز الرياح يلهث الرعب فيها ، وسقوط الأمطار يعم أوديتها ويطنى غدرانها . . . وإذا بالحياة تعود من جديد كما كانت عليه من هدوء وسكون يحيم على كل البقاع .

هذه البادية بطبيعتها القاسية المتقلبة هي التي تضم البدوى وتستهوى دؤاده ، حق

لنستكاد تستعبده ، فهو لا يرضى بها بديلا ، ولا يجحد في سواها راحة البال وأنس النفس .
قوى بالنسبة له كالماء للسماك يموت إذا خرج منها .

والتصاق البدوى ببيئته على هذا المستوى . وحرصه عليها هذا الحرص ، جعل منه
صرآه مجلوة تبدو على سطحها صورة البادية بكل ما فيها من تقلبات ، فأنت ترى هذه
البادية وفي علائق الناس بها ، وأخلاقهم ومعارفهم وتقاليدهم ، ونظام حياتهم ؛ فإذا
كانت الطبيعة فيها مكشوفة واضحة ، فالناس الذين يقطنونها صرحاء واضحو المقاصد
دون التواء . وإذا كانت الطبيعة فيها متفردة العناصر يتضح كيان كل عنصر منها على
الرغم مما بين عناصرها مجتمعة من روابط ، فإن الفرد أيها يشعر بذاته أكثر مما يشعر
بمجتمعه ، فذاته أولا ثم بعد ذلك يأتي الآخرون . وإذا كانت الطبيعة في البادية ثائرة
هادئة . عابسة باسمه جانية رفيقة ، واجمة ناطقة ، غاضبة راضية ، مشرقة متجهمة ،
منيرة مظلمة . إن ما كنيها على هذا المثال يجتمع فيهم النقيضان ، ويلبسون على الضدين
ولذلك فهم يتسمون بالطبع الحاد ، تستثيرهم الكلمة فتفيض بسببها الدماء ويستخفهم
الطيش فيندفون دون أناء أو تمقل ، ويستفهم آفله الأسباب فتشتمل الحروب أعواما
بين الأخ وأخيه .

والتصاق البدوى ببيئته على هذا المستوى ، وحرصه عليها هذا الحرص ^{بجمله} جعله
لا يبدن إلا تبس له البادية مثل سقوط الأمطار ، وهبوب الرياح ، وكلا لا يضيق إلا
بما تضيق به البادية من حر قائلظ وبرد قارس .

إنه في بيئته تلك يدور في محور حاجاته البدوية ؛ هي التي تلفت نظره ، وتغذبه
انتباهه ، فيقبل عليها واصفا ، ويعيش معها متفاعلا ، حتى يحيل إلينا أنه جعل منها
إنسانا يشاركه الحياة ، ويناسمه أهوالها ومتاعها .

وحاجاته البدوية قصرت نظره إلى تلك الأشياء ، فلم يتمدد السطح المبادئ . ولم
يتجاوز النظرة العجلى . اللحظة الحاطمة . دون تعمق في دوائر هذه المظاهر الكونية
أو محاولة للكشف عن أسرارها . . وأنى له ذلك وتكوينه البئس . واستمداده
الطبرى لا يترع به إلى ما دون السطح من مثل عليا تقوم عليها تلك الظواهر ؟ !

ففي البيئة البدوية صفات توارثها ساكنوها ووقفوا أنفسهم للحفاظ عليها وضجروا

بالفيس والمال في سبيل الإبقاء عليها ، دون أن يقدموا تعليلًا لاعتبارهم بهذه الصفة أو تلك ، بل إنهم قيا بينهم وبين أنفسهم لا يدركون تفسيرًا لاحتفالهم بها ، سوى أنها من الصفات المحمودة التي توارثوها عن الأسلاف ، فالجود ، والسجدة ، والشهامة ، والجرأ ، والهمة صفات يتمدحون بها ويتفاحرون باحتيازاها ، ويتهاجون باستلابها ، فإذا سألت واحدا منهم عن السر في ذلك لم تجد لديه جوابا شائيا يتعمق وراء الأسرار ، يحصل ويفسر ، ولكن قصارى ما تجده لديهم - في ذلك الصدد - أنها صفات محمودة ، وخالق كريمة يعتر بها البدوى حلما عن سلف ؟ فهم لا يمسون بالأسرار والعال قدر عنايتهم الآثار والمظاهر .



بيد أن ساكنى البادية لم يكونوا جميعا على مستوى واحد في النظر إلى ما يحيط بهم ، وانتاثر بينهم ، وذلك لأن الإقامة وحدها في البادية لا تنسكى لتصبغ الإنسان بطابع البادية ؛ فقد يكون مقامه بالبادية لكنه يصنع لنفسه داخل البادية بيئة أخرى تعتمد على المقومات الحضرية بكل طبائعه وأعرافه وسجاياها ، كأولئك البدو الذين أنشأوا الإمارات في داخل البادية وشيدوا القصور وحجروا إليها من أسباب الحياة الحضرية ما نالهم من بينهم ، وإن كانوا مقيمين داخل الصحراء ، محاطين بأطرها ، خاضعين لأخلاقياتها ومقاييس الحياة فيها ، مثلما رأينا من قبيلة كندة حين أنشأ أنثاؤها إمارة كدنة في مقابلة إمارة الحيرة والشام .

وليس من شك في أن مثل هذا الوسط - مع أن ساكنيه لم يخرجوا من البادية - لا يمكن أن يوفر لساكنيه ما توفره البادية الخالصة لساكنيها من طبائع وسجايا ؛ لأن المقصود بالبادية ليس هو الأرض لذاتها ، ولكن المقصود بها الأرض ذات الظروف والطبائع والأعراف البدوية الخالصة من الصنعة ، الخالية من التهذيب .

ومن ثم فإن المقصود بالأديب الدري ذلك الأديب الذي يعيش داخل إطار المظرة الساذجة في سلوكه وثنائته وتفكيره ، وأخلاقياته ، وثوراته ، بحيث لا يتعارض في شيء من ذلك مع ما تنص به الأرض التي يدرج عليها ، فكل ما يصدر عنه من سلوك أو مكر يدور في هذا المحور البدوى ، كما أن كل ما يمر به عن مكدون نفسه ، وبض مشاعره لا يشد عن مكوناته النفسية ، ومقوماته الحلقية .

وإذا كنا لا نقصد بالأديب البدوى ذلك الأديب القدى يحيط نفسه داخل البادية
بحو حضارى من ثقافة وفكر وعلم وعرف ، فإننا - على عكس ذلك تماما - نقصد
بالأديب البدوى ذلك الأديب القدى يعيش داخل الإطار البدوى سواء كان يقطن
البادية بالفعل ، أو كان يقطن الحاضرة ، لكنه بأبى إلا أن يعيش فى الحاضرة عيشة
البدوى فى أعماق البادية .

فليس المقصود إذن بأدب البادية ذلك الأدب الصادر عن أدباء يقطنون البادية
حسب ؛ فقد يكون أدبا حضريا ما يصدر عن أديب يقيم فى البادية، وقد يكون أدبا بدويا
ما يصدر عن أديب يقيم فى الحاضرة ؛ فليس الاعتداد فى هذا المجال بمقام الأديب حسب ،
بل الاعتداد بمقامه وما يحيطه من مؤثرات ومقومات .

إن أدباء البادية الذين نتحدث عنهم هنا ، ونبحث أديبهم ، ونتبع خصائصهم
أولئك الأداء الذين كنتمهم البيئة البدوية بخشونتها وجفافها وقضاياها ومشكلاتها ،
فأملت عليهم من الظروف ما يرمم عن ساكنى الحضر - سواء الحضر الطبيعى أو
الحضر المعسوع - وواجهتهم قضايا غير ما واجهت به الحاضرة أبناءها ، وهيات لهم
من الأساليب والوسائل فى معالجة أمورهم ما يلبس منها وما يتصل بمقوماتها . . بل وفرضت
عليهم معجلا لنويا ، وتصورا للأحداث والمواقف منعكسا من طبيعتها بكل ما فيها من
خصائص وعمرات .

ولا ريب فى أن الطريق مختلف ؛ وبدا الحاضرة تفرض على ساكنيها أن يتزوا
بزي كسوده الأناة والنزوى والانتقاء والنظر العميق فى تفهم الأشياء ، تفرض البادية
على ساكنيها أن تسكن أرباؤهم شافة عما فى نفوسهم دون خفاء ، صريحة فى الإنباء
عن ضائرتهم دون اتواء ، بسيطة فى النظره إلى القضايا دون تعميق أو تعاليل أو تفسير ؛
إذ لا يجدون ما يدعوا إلى التخفى والتستر ؛ أو ما يقتضى المواربة والالتزام ؛ كما لا تعلمهم
ظروف الحياة إلى البحث وراء الظواهر والتعاليل والتفسير .

وإذا كانت شبه الجزيرة العربية - على وجه التعميم - تعيش فى جو حربي فإن
المصر الجاهلى ، فإن البيئة البدوية كانت تتحمل فى ذلك العبء الأكبر ، وتقوم بالدور
الأعظم فى إمداد هذه الحروب بالفرسان المهيئين . هذا إلى أن الحروب بين أبنائها
كانت أشد اشتعالا ، وأحى سمارا منها بين البيئات المتحصنة أو المتصلة بالحضر ، فلم

يكن لبناء البادية من شاغل يعصرفهم عن الحروب انتقاما أو ثارا أو عدوانا ، إلى غير ذلك من دوافع الحرب التي كانوا ينزعون إليها فزوعا ، وينهأون لها بكل ما أوتوا من الوسائل

وكان الأدب - خصوصا الشعر - عند هؤلاء هو التوأم الملازم للفرسية ، فهو الوجه الثاني لها ، أو المرآة التي تمكس صديع الفارس ، ويتراوى على سطحها أدواته ربية وطرق إعدادة ، وكيفية هجومه كرا وفرا .

يبد أن هذه البيئة البدوية لم تكن على مستوى واحد ، بل كانت - في مجملها - متوزعة بين مستويين يتبايان أشد التباين - وإن لم يخرججا عن البداوة - ويختلفان أوسع الاختلاف في تمثل البيئة البدوية ، وذلك لأن ساكني البادية كان منهم السادة المستقرون في أرضهم ، الغاضضون لما أقروه - على مدى الأجيال - من أعراف وقوانين غير مكتوبة ، القائمون على حياة يسودها نوع من النظام يتلاءم مع ظروف الحياة وكان مهم الشواذ الخارجون على النظم والأعراف ، الفارون من وجه العدالة والمحاسبة إلى شامب الجبال ، يباشرون حياتهم كما يحلو لهم ، أو كما يتصورونه المسلك الأصلح وهؤلاء هم الذين عرفوا باسم (الصماليك) .

ولا ريب في أن لسل من الوسطين خصائصه التي تميز تكوين ساكنيه من ساكني الوسط الآخر ، وتفرض عليه من المشاعر والانفعالات والأفكار ما يختلف عما يفرضه الوسط الآخر على ساكنيه ، أى أن لسل من الوسطين آثاره التي تنتجها بكل وجهة تتسق مع أبعادها وظروف الحياة فيها ؛ فتميز أدب هؤلاء عن أدب أولئك .

* * *

إذا حددنا مقصودنا بالبادية بأنها الوسط الذي يقوم على أخلاقيات البادية سواء كان في محيط البادية ذاتها أو خارج إطارها ، فإن باستطاعتنا أن نحدد المقصود بالحاضرة - كذلك - بأنها الوسط الحضري الذي يقوم على أخلاقيات الحاضرة ، وأساليبها في السلوك والتفكير : وما يفرضه ذلك الوسط على أبنائه من الفاظ يتسكون منها المعجم اللغوي لهم ، ونصور تبرز في أشكاله معانيهم ومدركاتهم للأشياء والأحداث والمواقف وفنون تتلخ بها مشاعرهم وعواطفهم ، ويدور حولها بيانهم وتعبيرهم .

وليس حتماً أن يكون هذا الوسط الحضري خارج البادية ، فقد تشمل البادية على مقومات الحاضرة دون الخروج عن حدودها المكانية كما أن الحاضرة قد تضم المقومات البدوية بكل مؤثراتها على معنى أن البيئة الحضرية ليست مكاناً يطلق عليه ذلك وإنما هي وسط ذو سمات ومقومات خاصة تلعب من السكان أو يضيفها عليه الزمان وما يحمل من أحداث ، بحيث يمكن أن نرى الحاضرة . بهذا المفهوم . في أعماق الصحراء ، ماثلة في وسط مخصوص محاط بمجموعة من الناس ذوي اتجاهات وميول وثقافات تقطعهم عما يحيط بهم في الصحراء .

والناظر في الشعر العربي منذ الجاهلية يلاحظ أن هذا الوسط قد استحوذ . بما يحويه من مظاهر الترف ووسائل النعيم وأسباب التحضر . على طائفة من شعراء العرب في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور ، فشكل حياتهم بما ميزهم عن أبناء عمومتهم الذين يضمهم الوسط البدوي ، واتجه بهم وجهة نفسية وعقلية وسلوكية تغاير وجهات أنسابهم ومناصبهم في البيئة البدوية ، وصبغ أذواقهم الفنية بالأصباغ والألوان التي تمكسها حياة الترف والنعيم ، فلم يهتموا إلا بالأغراض التي تستجيب لها نفوسهم تلك ، ولم يقصدوا إلا إلى الفنون الشعرية التي تلبي حاجاتهم ، وداروا بمآلهم وأخيلتهم في محيط هذا الوسط الحضري وما يضيفه على أفكارهم وخيالهم من انطباعات . حتى بدافنهم الشعرى غريباً أو كالغريب على مقاييس الشعر البدوي ، فكان مدعاة للهموم من شأنهم أو الطعن في صحة ما ينسب إليهم ، أو عدم الالتزام بمتبعهم والمفاظهم ، أو حيرة الرواة في تنقيته من الدخيل لاختلاطه به وقربه منه . الأمر الذي دفع ببعض الدارسين من أمثال الدكتور طه حسين إلى إنكار هذا الشعر والطعن في روايته ورواياته ، بل وفي وجود المنسوب إليهم ، بحجة أنه خارج على المهبج الشعري . مصمناً وأسلوباً والمفاظ . المعروف للعرب البادين ، على تقدير أن هؤلاء البدو وحدهم هم يمثلوا الأدياء العرب شعراء ونأثرين .

* * *

حقاً لم يكن أبناء الوسط الحضري جميعاً على مستوى واحد في التأثير به ، والاستجابة لمتطلبات الحضارة ، بل إنهم ليتفاوتون في ذلك تفاوتاً بيناً ، ويتبايزون تميزاً واضحاً . وإن لم يخرجوا عن الإطار العام للحاضرة . وفقاً لمكان الوسط من الحاضرة ، والمسكن الأدبي ذاته من ذلك الوسط ، وتبعاً لطبيعة صلة الأديب بالوسط الحضري

وملابسته به ؛ إذ ليس من العقول أن يكون تأثير هذا الوسط فيمن ولد فيه ودرج بين أهله مماثلا لتأثيره فيمن نزع إليه - بعد أن نمت البذور الفنية لديه في ظلال البادية - طمعا فما يتوفر فيه من أسباب الترف والنعم ، ومخلقا وراءه البادية وما فيها ومن فيها . كما أنه ليس من العقول أن يكون الوسط الحضري القائم في الحاضرة على المستوى التأثيري نفسه الذي يشتمل عليه الوسط الحضري المصنوع في البادية مهما تطاول به الزمان ، كما كان الحال بين إمارة الحيرة التي أصبحت قطعة من الأرض الفارسية وبين إمارة كندة القائمة في الجزيرة العربية تحيطها الصحراء العربية من كل جهة ، والوطن العربي في عمومه حين شمله الإسلام بمبادئه وأفكاره الحضارية .

الباب الثاني

الشعر البدوي

الفصل الأول

أعلام من شعراء البادية

أقصد بشعراء البادية أولئك الشعراء الذين كنفهم البيئة البدوية ، بنحوتها وجفافها ، فأملت عليهم من الظروف ماميرهم عن ساكني الحاضرة ، وواجهتهم بقضايا غير ما واجهت به الحاضرة أبناءها ، وهيات لهم من الأساليب والوسائل في معالجة أمورهم ما يلبع منها ويتصل بمقوماتها .

ولا ريب في أن الطريق مختلف ، فبينما الحاضرة تفرض على ساكني الحضر أو المتحضرين أن يتربوا بزي تسوده الأناة والترف والانتقاء ، تفرض البادية على ساكنيها أن تكون أزياءهم شامة عما في نفوسهم ، صريحة في الإنباء عن ضائرتهم ؛ إذ لا يجدون ما يدعو إلى التخفي والتستر والمواربة .

وإذا كانت شبه الجزيرة العربية - على وجه التعميم - تعيش في جو حربي فإن العصر الجاهلي ، فإن البيئة البدوية كانت تتحمل في ذلك العبء الأكبر ، وتقوم بالدور الأعظم في إمداد هذه الحروب بالفرسان الممدين . هذا إلى أن الحروب بين أبناءها كانت أشد اشتعالاً ، وأحمى سماراً منها بين البيئات المتحضرة أو القريبة من الحضر ؛ فلم يكن لأبناء البادية من شاغل يصرفهم عن الحروب انتقاماً أو قاراً ، أو عدواناً إلى غير ذلك من دوافع الحروب التي كانوا يترعون إليها نزوعاً ، وينتهيون لها بكل ما أوتوا من الوسائل .

وكان الشعر عند هؤلاء هو القوام الملامم للفروسية ، فهو الوجه الثاني لها أو المرآة التي تمسك صنيع الفارس ، ويتراءى على سطحها أدواته الحربية وطرق إهداده ، وكيفية هجومه كرا ومرا .

* * *

ودارس الحياة الجاهلية يلاحظ أن أبناء البادية لم يكونوا جميعاً على مستوى واحد في الخضوع لقيم البادية وطوائفها ؛ فقد كان من أبناء البادية من تردد على الحاضرة ،

وخرج إلى المدينة ليقضى فيها بعض مرّات حياته بعد أن تسكرت أحاسيسه وشاعره بين أهله في أحضان البادية ، تأثرت الحاضرة بظواهرها المادية فيه فأصبح خاضعا لمؤثرين أحدها بدأ معه منذ نمومة أظفاره تتفلّلت آثاره في ذات نفسه مكونة أخيلته وممانيه ، والآخر بدأ معه بعد أن مضج فسكره ونمت مدرّكاته ، فطنت آثاره على سطح نفسه ممعكة على الشكل والمضمون .

وكان من أبناء البادية من ظل على نشأته مقما في البادية ، لا يعرف إلا ما عليه عليه ، لكنه استجاب للإسلام حين جاء بأفكاره ومبادئه ، واندفع إليه بقوة وإخلاص ، فتثيرت مفاهيمه ، وتبدلت أفكاره ، وهذبت ألفاظه ، لكنه لم يلحق تماما من بيئته الأصلية ، على الرغم من تغير المعارف والأخيلة والشكل والمضمون لديه ؛ لأن الإسلام وكتابه الكريم لم يخرج في بعض تلك النواحي وللظاهر على البيئة العربية الخالصة التي تمثلها البادية أدق تمثيل .

ولا ريب في أن هذا وذاك أصبح بدويا متحضرا ، يجمع بين مؤثرات البادية والحاضرة ؛ فضمه إلى شعراء الحاضرة أولى ليتضح الفارق بينه وبين الحضري بمولده ونشأته .

إذن الشاعر البدوي الذي نقصد إليه في بحثنا هذا هو الشاعر الذي لم يخرج على البادية بجسمه ولا بمقله وفكره ؛ فهو البدوي الخالص في أفكاره ، وفي ممانيه ، وفي أخيلته ، وفي ألفاظه ، وفي قوالبه الفنية ، سواء كان مقامه ظواهر القرى وأطراف الحضر أو كان مقامه في أعماق الصحراء .

بيد أن هذه البيئة البدوية الخالصة كانت تضم وسطين مختلفين ، إلى جوار السادة والفرسان البدويين الذين لم يشذوا على أعراف قبائلهم ، وقيم عشايرهم ، وجد الصعاليك الثأرون الحارجون على عرف القبيلة ، وقيم العشيرة ، اتفادون بما اعتنقوا من وجه للواخذة والحاسبة ، بعيدا عن مواطن القبيلة ومستقرها ، متخذين من الجبال والفلوات مكامن لهم ومنازل .

فالقصود بالصعاليك إذن أولئك الأصوص بمن كانوا يتجردون في الجاهلية للنارات وقطع الطرق ، بقصد الثأر أو السلب والنهب ، فهم جميعا - على اختلاف مواطنهم

وأزمانهم - خاضعون لظروف قريبة الشبه من بعضها أثرت في منازعهم وتفكيرهم ، فوجهتهم إلى مسالك متميزة اختصوا بها من دون غيرهم في معالجة الأمور ، وفي التعبير عما يحيش بصدورهم ، وفي تقويم المواقف . . إلى غير ذلك من مختلف شئون الحياة . والمتبع لشدوء الصلابة في المجتمعات الجاهلية يلاحظ أن الدرافع لها تختلف من جماعة لأخرى ، وإن انفقت في نتائجها .

فهناك رأى في الصلابة السبيل الأسير لتحقيق مآربه ، والوصول إلى السكسب من غير حاجة إلى عمل ، فالصلابة في رأى هؤلاء حرفة تدر عليهم ما يواجهون به متطلبات الحياة ، هذه النظرة يشترك فيه الأفراد والجماعات ، فقد عرفت شبه الحرية قبائل تحترف الصلابة لهذه الساية مثل قبيلتي هذيل ومهم ، كما عرفت أفرادا مثل عروة بن الورد العنسي .

وهناك من رأى في الصلابة سجلا يشبعون فيه رغباتهم ، ويستجيبون فيه لزوجاتهم التي تتعارض مع نظام القبيلة ، مثل أبي الطمعمان القيني ، وحاجز الازدي ، وقيس ابن الحدادية ، وغيرهم ممن لفظتهم قبائلهم لشدوذ سلوكهم ، وانحراف تفكيرهم . وهناك طائفة ثالثة رأت في الصلابة متنفسا لهم وميدا لتحقيق فيه ذاتها ، حين يذم محنتهم لأسباب لا يد لهم فيها مثل سواد أمهاتهم وغربتها عن الديثة العربية ، فقد كان الآباء يحدون في إلحاق مثل هؤلاء الأبناء بلسهم عارا ومساءة وكان لا بد لهؤلاء الأبناء من مخرج ، إما أن مهتبل الأحداث فيصطر آناه إلى إطنائه كما فعل عنترة ، وإما أن يخرج على القبيلة ويأجأ إلى الصلابة كما فعل تأبط شرا ، والسليك ابن السلكة .

وأيا ما كان دافع الصلابة فقد كان الجميع يلتقون في الثورة الجارية على الأغنياء والأشعاع فيرددون دائما ما يملأون به مسلكهم من صيحات الجوع والفر ، كما كان الجميع يتنازع بالقدرة الفائقة على تحمل المشاق ، والمشيقة البادرة في مواجهة الأخطار ؛ ولذلك لم يخضوا أنفسهم للوسائل التقليدية في ارتحالهم وانتقالاتهم وغاراتهم ، فاعتمدوا على أرحلهم كما اعتمدوا على خيولهم ، فامتازوا بالمدو حتى أطلق عليهم اسم المدائين ، وحتى ضربت بعضهم الأمثال في سرعة المدو فقول : أهدى من السليك ، وذكر الرواة عنهم في ذلك أقاصيص تصور خصائصهم البدنية ، من ذلك ما روى عن تأبط من أنه كان أعدهو ذي رجاين وذى ساقين وذى عيليين ، وكان إذا جاع لم تقم .

له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء فيلتقي على نظره اسمها ، ثم يجري خلفه ، فلا يفوته
حق يأخذه يذبجه بسيله ، ثم يشويه فبأكله (١) .

وطبيعى أن يركز هؤلاء نشاطهم في المناطق القريبة من طرق القوافل الدينية
والتجارية ، فكانوا ينتشرون في جبال السراة المحيطة بالطرق للوصول إلى مكة مقصد
الحجاج والتجار ، كما كانوا ينتشرون بالقرب من شمال اليمن ، وبالقرب من
الطائف والمدينة .

كما كان طبيعيا أن يتغنى هؤلاء في أشعارهم بأرقى مفاخر العرب من حراء وكرم
وترفع عما يروونه حسيسا دنيئا .

أى أن كلا من هذين الوسطين اللذين ضمتها البادية العربية كان له آثاره التي
ميزت شعر أبنائه عن شعر الآخرين ، واتجهت بكل فريق وجهة تتسق مع أبعادها
وظروف الحياة فيها .

ولقد قدمت البادية بشعبتها شعراء كثيرين لا يمكن لدارس أن يلم بهم على
وجه العصر والاستقصاء . وكل ما يمكن تقديمه في ذلك هو طائفة منهم تمثل الاتجاه
الفنى العام ، وليس لدافع آخر غير ذلك .

ومن بين هؤلاء الكثيرين وقع اختيارى في هذا البحث على خمسة شعراء
هم هنترة ، والحارث بن حلزة ، وزهير بن أبى سلمى ، والشنفرى ، وعروة ، رأيت أنهم
يمثلون اتجاهات الشعر البدوى في العصر الجاهلى المتصل بحضارة الإسلام

١ عنـترة

نشأته وحياته :

هو عنـترة بن شداد بن عمرو، وقيل : عنـترة بن عمرو بن شداد بن معاوية العبسي. قال ابن السكبي : شداد جده أبو أبيه ، غلب على اسم أبيه فلسب إليه وقال غيره : شداد عمه ، وكان عنـترة نشأ في حجره ، ونسب إليه دون أبيه (١) . أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيدة ، وقد ورث عنها السواد ، سكن أحد أعربة العرب المشهورين في الجاهلية أسوادم ، وهم ثلاثة : هنـترة ، وخفاف بن نذبة السلمي ، والصليك ابن السلكة . وكان عنـترة يلقب بعنـترة الفوارس لشجاعته ، وعنـترة الفلاحاء (٢) للشقاق شفته السفلى . ويكنى بأبي المفلس لماراته في الفلس .

ولأن أمه أمة لم يلققه أبوه بنسبه - على عادة العرب في ذلك - إلى أن أغار بعض أحياء العرب على بني عبس فأصابوا منهم ، تتبعهم العبسيون لمحقوهم فقاتلهم عما معهم ، وعنـترة فيهم ، فقال له أبوه : كر يا عنـترة ، فقال عنـترة : العبد لا يحسن السكر ، إنما يحسن العلاب والصبر ، فقال : كر وأنت حر ، فسكر وهو يقول :

أنا المهجين عنـترة كل امرئ يحمي حره
أسوده وأحمره والشعرات المشعره
الواردات مشعره

وفانل يومئذ قتالا حسا ، واستند ما كان بأيدي عدوم من الزينة ، فادعاه أبوه بمد ذلك ، والحق به نسيه

-
- (١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٥٠ ، وطبقات خول الشعراء ج ١ ص ١٥٢ ،
والأغاني ج ٨ ص ٢٣٧ وما بعدها ، والخزانة ج ١ ص ٥٩
(٢) الفلاحاء مؤنث الأفلح : المشقوق الشفة السفلى .

واجتمع إليه صفات شتى ؛ وكان أحراً معاصريه فؤاداً ، وأقواماً تَحَمَلاً ، وأسْعَماً
يذاً ، وأسرعهم إلى مواجهة الأخطار إقداماً ، ولِسْكَه مع ذلك كله كان حليماً ، دمث
الحَقِّ ، لين الطبع ، سَمِيح الخالقة ، عَنا عن الدنيا .

روى صاحب الأغاني أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد قول عنتره :
ولقد أبيت على الطوى وأظله حق أنا به كريم المسأكل
فقال صلى الله عليه وسلم : « ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنتره » :
ويبدو أن موقف أبيه وعشيرته منه كان له أثر في إعدادده وتكوينه ، فلم ويسلم
نفسه إلى الحقد على عشيرته ، ولِسْكَه انصرف إلى بناء نفسه وإعدادها الإعداد القوي
بِلَمَتِ الأنظار إليه ، ويفرض على الجميع احترامه وتقديره ، فكان الدارس ، والشاعر ،
والنبييل (١) .

وروى عن عمرو بن معد يكرب - وكان معاصراً له - أنه قال : لو سرت بظلمينة
وحدى على مياه معد كلها ما حقت أن أعلب عليها ما لم يلتقى حراها أو عبداها . فأما
الحران فعمار بن الطفيل ، وعنتبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان فأسود بن عيسى
(يعنى عنتره) والسليك بن السليكة ، وكلهم لا قيت ، فأما عامر بن الطفيل فسرير العطن
على الصوت ، وأما عنتبة فأول الخيل إذا أغارت ، وآخرها إذا آبت ، وأما عنتره
فقليل السكوة ، شديد الجلب ، وأما السليك فبمعد النارة كداليت الضارى .

وقال الهيثم بن عدى : قيل لعنتره : أنت أشجع العرب وأشدها ؟ قال : لا . قيل :
فبأذا شاع لك هذا فى الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً ، وأحجم إذا
رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً إلا أرى لى منه مخرجاً ، وكنت أعتمد
للضعيف الجبان فأضربه الضربة المائلة ، يطير لها قلب الشجاع ، فأتنى عليه فأقتله .
ولقد أصبح عنتره - بعد أن ألحقه أبوه بلسيه - فارس عبس ، وشهد كثيراً من
المعارك المشهورة مثل حرب داحس والغبراء التى أبلى فيها أحسن البلاء ، وفيها قتل
ضمضما المرى أبا حصين وهرم ، وفى ذلك يقول :

ولقد خشيت بأن أموت ولم ندر للحرب دائرة على ابني صمضم

الشامى عـرضى ولم أشتـمها والاذرين إذا لم ألقاها دى (١)
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل سر قشـم (٢)

وعزت بنو عبس بنى تميم وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت بنو عبس ، وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم عنتره ، ولحقهم كبسكة من الخيل خاضى عنتره عن الناس فلم يصب مدبر . وكان قيس بن زهير سيدهم ، فساء ما صنع عنتره يومئذ ، فقال حين رجع : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء .

وأحب عبلة ابنة عمه مالك بن قراد ، ونظم فيها شعراً من أوراق الغزل الجاهلى ، ولكن إباء عمه أنكر وأعليه هذا ، وأبوا أن يستجيبوا لرغبته ، فأصر على أن ينالها وغامر من أجلها ، وبدل الكثير حتى ألحقه أبوه بنسبه ، ولكن دون جدوى .

وهكذا توفر لعنتره دافعين من أهم دوافع الشعر ، هما الفروسية التى كان يمتيرها بسبب تحريره وإلحاقه بنسب أبيه ، والحب العفيف لابنة عمه التى أبى أهلها عليه التزوج منها ، فارداد بها ملقاً وهياماً ، وأخذ يثبها لواعج شوقه ، وآلام نفسه .

وما زال الفارس المرموق فى ميدان الحرب وفى ميدان الحب حتى مات عن تسعين عاماً قارباً ، وانتقلت أخباره ، فتزايد فيها الرواة ، وأضيف إليه من المواقف الحربية ما ليس له ، ونسب إليه من الشعر ما لم يقله ، حتى أشكبه الصحيح بالموضوع

وقد اختلف الرواة فى سبب وفاته ، فقيل : إنه قتل وهو شيخ كبير فى غارة له على بنى نهمان من طيء ، وقيل : إنه كان قد أسن وعجز بكبر سنه عن الغارات ، وكان له على رجل من غطفان بئر ، فخرج يتقاضاه إياه ، مهاجت عليه ربيع من صيف وهو بين شرج وناظرة ، فأصابته وقتلته .

شعره :

لقد كان لدشاة عنتره وظروف يئته أثر بالغ فى ارتباطه بالفروسية العربية على اختلاف مظاهرها وكان للفروسية أثرها فى البناء الجسمى والنفسى والخلقى لعنتره ،

-
- (١) يريد أنهما يتوعدانه بالقتل فى عيبته ، فإذا حضر لم يحرؤا على الكلام .
(٢) جرر السباع : فرستها . القشـم : الدسر المسن ، يقول : إن يتوعدانى أو يشتبى فى غيبى ، فلقد قتلت أباهما فليريانى ماذا هما فاعلان .

فقد أقامت نفسه على التسامى والترفع عن الدنيا ، والشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية
فارتبط في حياته بطائفة من الأخلاق الحميدة ، والحصال الطيبة ، ظلت له مصاحبة وظل
هو لها ملازماً فانبعث منها سلوكه ، وانظم فيها شعره ، فإذا هو عقد حياته الشجاعة
والكرم ، والوداء ، والحلم ، والألفة ، والعزة ، والصر على الشدائد ، وتحمل المشاق
والحفاظ على المهد ، وحماية الجار ، والعفة . . إلى غير ذلك .

وهكذا تحولت الفروسية عند عنزة من مدلولها المحدود إلى معناها الشامل لكل
ما فيه تفوق وتميز من حميد الحصال .

ومن ثم أصبحت الفروسية بهذا المعنى الإطار الشعري لعنزة ، يدور بداخله ولا
يشده عنه ، تصفح ما وصلنا من شعره فتجده واصفاً للمركة ، أو مفتخراً بانتصار ، أو
مصوراً حبه الطاهر العفيف . مثال ذلك ما قاله مفتخراً ، يحيى قيس بن رهيرس يعبس
حين أراد تخويره بسواده على ما تقدم ذكره ؛ إذ يحكى أن صاحبه بادرته نخوة بما مرض
له نفسه من المسكاره بسبب تهافته على الحروب ، ولكنه يكر عليها ذلك مفنداً حاجتها
موضحاً أن المسكاره ليست وقفاً على من يشارك في الحرب ، وأن الموت كأس لا بد من
تجرعه موتاً أو قتلاً ، طالباً إليها أن تستحي مما تحاوله معه ، وأن يفضل الموت مما أصلا
شريفاً مدافعاً عن حماه وحى عشيرته ، مذكراً أن يعتدى عليهم الدمار والفناء ، بحيث
لو أمكن إبراز الموت في صورة مادية جسدية لكان على صورة عنزة . ويعهد بذلك
لأنه شجاعته وفروسيته ، مشيراً إلى كرم أصله الأبوي ، لكنه لا يقف عند الموروث
بل هو ينطى بماله ما قد يصاب من أصل أمه عبر العربة فهو المقدم حين تحجم السكتية
حقاً أصبح أفضل ممن عمه وخاله عربى سيد ؛ إذ لا ينفى القبيلة أحد غناءه ، ولا يقوم
أحد لها بمثل ما يقوم به ، ويكفى أن تسأل الخيل والفوارس عما أوقعه بالإنهاء فهو
لا يكون في أول المزمين ، بل إنه حاميتهم ومقدهم في وقت الشدة ، ويقفهم الصفوف
والخيل صامدة متميرة من هول الحرب قد كلج فوارسها لشدة الحرب وأهوالها .
وقد مر عليه الليلة واليوم دون أن يطعم ما يسد حاجته حتى يطعم ما لا يصاب به . فهو
كريم النفس ، نبيل الخلق .

بكرت مخوفنى المحتوف كأننى أصبحت عن عرض المحتوف بمنزل^(١)

(١) المحتوف : المهالك ، عن عرض : أى ما يمرض منها .

وأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أسقى بكأس المهل (١)
 فاقنى حياءك - لا أبالك - واعلمى
 إن المنية لو تمثل مثلت
 إلى امرؤ من حير عبس منصبا
 وإذا الكتبية أحجمت وتلاحظت
 والخليل تعلم والفوارس أتى
 إذا لا أبادر في اللعن فوارسى
 إن ياحقر أكرر، وإن يستلحمو
 حين النزول يكون غاية مثلنا
 والخليل ساهمة الوجوه كأنما
 ولقد أبيت على الطوى وأظه

لا بد أن أسقى بكأس المهل (١)
 إلى امرؤ سأموت إن لم أقتل (٢)
 مثل إذا نزلوا بضنك المنزل (٣)
 شطرى ، واحمى سائرى بالمنزل (٤)
 ألثيت خيرا من معم مخول (٥)
 فرقت جمعهم بضربة فيمن (٦)
 أولا أو كل بالرعيل الأول (٧)
 أشدد وإن يلفوا بضنك أزل (٨)
 وينسر كل مضلل مستوهل (٩)
 تسقى نوارسها تقيع الحظل (١٠)
 حق أنال به كريم الماء كل

أما غزله فهو فيه العفيف الذى يقدم المروءة ويقدم المروءة على إشباع عريضة
 أو تلبية رغبة ، ونظرة إلى ما قد ناه من شعره فى فن الغزل توضح ذلك ؛ فهو غزله
 الفارس العربى الذى يتسامى فى حبه كما يتسامى فى خلقه . وله فى ذلك الميدان شعر
 كثير ، حتى لقد ربط بين حبه ومعاركه ، فكان يقدم لقصائده الحربية بمحدث يبيت فيه
 شكواه ولو أعجبه ؛ فذكره لها لا ينقطع ، ولا يشغله عنها شغل فى حرب أو سلم ، بل
 إن تذكرها فى معاركه لتجمله الأسد الضارى المستهين بالاهول .

-
- (١) المهل : المورد
 (٢) فاقنى حياءك : احفظيه .
 (٣) الضنك : الضيق . يقول : إن المنية لو حلقت مثالا لكنت فى مثل صورتي .
 (٤) النصب بكسر الصاد : الأصل . والمهل بضم فسكون فضم : السيف
 (٥) الكتبية : الجماعات إذا اجتمعت ولم تتأخر تلاحظت : نظرت من قد . على العدو .
 (٦) الفيل : الذى يفصل بين الناس .
 (٧) لا أبادر فى المصيق فوارسى : لا أكون أول منهرم ولكنى أكون حاميتهم .
 الرعيل : الجماعة من كل شيء
 (٨) يستلحموا بضم الياء وفتح الحاء : يدركوا .
 (٩) المستوهل بكسر الهاء : الضعيف الفزع .
 (١٠) ساهمة : ضامرة متعيرة .

ومن ثم نجد عترة في شعره الموجه لآية عمه عبلة حريصاً على الفخر بقيمه وأخلاقه ومثله العليا التي يدين بها؛ وفي ميميته يفخر باتصافه بكل خلق كريم ، فهو — إلى شجاعته ورسالته وجراته في الدفاع عن قومه — سمح الأخلاق وسهل المحالطة والمعاشرة ، لا يقبل أن يظلم أحداً كما لا يقبل أن يظلمه أحد ، فإذا اعتدى عليه أحد ، وبالله بظلم أصبح ناراً مؤحجة تحرق من اعتدى عليه ، وإذا اكتنفه السلام فهو في سلوكه على وعي دائم بما يحفظ عليه كيانه وقد يشرب الحمر ولكن بالقدر الذي لا يفسد مروءته ولا يصيب عرضه بأذى ، ومع هذا فهو لا يقصر عن المطاء ، ولا يتردد في مساعدة المحتاج ؛ فهو يوجد بما يملك عن طيب نفس ، وذلك قوله :

أنتى على بما علمت إننى	سمح غالثقى إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمى بأسل	مر مذاقته كطعم الملقم ^(١)
وإذا شربت فإننى مستهلك	مالى ، وعرضى وار لم يكلم ^(٢)
وإذا سمحت فما أقصر عن ندى	وكما علمت ثمالي وتكرمى

ويواصل الحديث إليها عن مفاحره ؛ من مروءية ، وشجاعة ، وإقدام وسألة ، ويصف لها كيف يواجه الأعداء الشداد في المعركة كأنه القواء النازل . ثم يعود إلى الحديث عن سجاياها الخلقية ، من عفة وكرم وشرف ، وهو لا يقصد بحروبه كسباً مادياً يجرى وراءه :

يحرك من شهد الوقائع أننى أعشى الوعى وأعف عبد المنعم

ولا يترك فرصة تمر به دون أن يستعرض طرفاً من قيمه البدوية التي تمرر مكانته بين قومه ، من ذلك موقفه بإزاء النساء — عموماً سبيات وغير سبيات — ومحاظنته على حرمانهن ، ولا يمس واحدة — مهما كانت — إلا إذا قدم صداقها لأهلها إذا لم تكن زوجة لغيره ، كما أنه قوى المزيمة يتحكم في عواطفه ومشاعره :

ما اسمت أنتى نفسها في موطن حتى أوفى مهرها مولاها^(٣)

(١) بأسل : كريبه .

(٢) يكلم : يجرح .

(٣) استام المرأة : راودها عن نفسها ، والمواطن هنا : موطن القتال .

أغشى فتاة الحى عند خيلها وإذا غزا فى الحرب لأعشاها (١)
وأغضى طرفى مابديت لى جارتى حق يوارى جارتى مأواها
إنى امرؤ معج الخليفة ماجد لا أتبع النفس العجوج هواها

فشم عترة موسوعة لأخلاقيات البدو وقيمهم التى يمترون بها ، ويحرصون عليها
فى كل تصرفاتهم ؛ لأنه حرص على أن يتجه إلى عبلة فى كل مناسبة مفتخرا بما تعرف
عنه من أخلاقيات البادية ، فكلما التقيا بشعره التقينا ببعض المعانى النبيلة التى يقوم
عليها سلوكه وتكثيره ، بحيث يستطيع المدارس أن يرسم له صورة واضحة المعالم ،
دقيقة التعبير ، تكشف عن حوالب نفسه ، وطوايا فكره ، ومكارم خلقه ، ولعل من
أطرف ما نعرف عليه من أخلاقيات عترة الفارس المقاتل ومشاعره أنه ينطوى على
مشاعر الرحمة والحنان حتى على خصمه ، فهو - فى نظره - الكريم ذو القدر والسكينة
الذى يتحرج عترة ويألم حين طمسه الرمح ، فيذكر أن ماضيه به ليس محرما وإن
يكن كريما :

وشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس السكريم على القنا بمحرم (٢)

كما يألم لفرسه الذى أجهده فى المعركة وأصابه رماح الأعداء فكان يميل من طريقهما :

هازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بكرة وتحمحم (٣)
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولو كان لو علم الكلام مكلمى

وبذلك يمكن أن يرى المدارس شعر عترة ذا وجهين : أحدهما غنائى وجدانى
يصور فيه أحاسيس ومشاعره ويحسم معاناته وآلامه لبعد عبلة عنه وحرمانه منها ،
كما يجسم فرحته وسعادته حين تقع عليها عيابه . والوجه الثانى قصصى ملحمى ، يصور
فيه وقائمه ومفاحره وبطولاته ، بيد أن أحد الوجهين لا يكاد يفصل عن الوجه الآخر ،
فهما وجهان ممتزجان ، لا يقوم أحدهما بدون الآخر .

من ثم يتضح لنا مدى تأثير بيئته فيه وفى شعره . واتجاهها به متجها يختلف تماما
عما كان عليه الشعراء الجاهليون فى البيئات الأخرى

(١) أعشى : أزور

(٢) يكى بالثياب عن الجسد والبدن .

(٣) أزور : مال وانحرف ، واللبان - بفتح اللام - الصدر ، والتحمحم : بهيل

فيه شبه الأنين .

٢ الحارث بن حلزة

نشأته وحياته :

هو أبو ظلم الحارث بن حلزة بن مكروه بن يشكر البكري ، لا نجد في أيدينا من مرويّات التاريخ ما يكشف عنه سوى الحادثة التي حوت وقائمه في حضرة عمرو بن هند ملك الحيرة . وذلك أن عمرو بن هند أراد التوسط للإصلاح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس حينه أهم التغلبيون في بكر بأهم تسببوا في قتل بعض آبائهم وغضبوا لذلك وطلبوا الديّات من بكر ، فخرقهم ماتماهدوا عليه على عهد للنداء والد عمرو بن هند . ولكن البكرين أبوا الاستجابة لمطالب التغلبيين واحتكموا إلى عمرو بن هند . ولما كان يوم التقاضي انتدبت تغلب للدفاع عنها شاعرها وسيدّها عمرو بن كلثوم ، وانتدبت بكر للدفاع عنها أحد أشرفها النعمان بن هرم . وكان عمرو بن هند يميل إلى التغلبيين ، فخرى بيته وبين النعمان جدال غضب له عمرو بن هند فأمره من حضرته . ولما أنشد عمرو بن كلثوم التملّي قصيدته المطولة ، تقدم الحارث بن حلزة وأنشد مطولته كذلك فكان لها في نفس الملك وقع حسن جعله يعجب بها ، ويدى الحارث منه ، ويقهى للبكرين .

شعره :

لم يصل إلينا من شعر الحارث غير القليل ، وفي مقدمة هذا القليل مطولته التي أنشدها في مجلس التقاضي أمام عمرو بن هند . ويبالغ بعض الرواة فيذكرون أنه ارتجالها ارتجالاً ، كما يزعمون أن عمرو بن كلثوم ارتجل قصيدته ، ولكن الناظر في اتصالات الحارث يتقرر لديه أن ارتجالها غير ممكن عقلاً ؛ لما فيها من إعمال وروية يبدو أن في ترتيب أمكارها ترتيباً منسقاً ، والبراعة في التعريض بالخصوم بطريقة تنم عن دهاء وحفكة ، وسرد الحوادث التاريخية سرداً يحمل من الدلالات ما يجعله تقطع بأن قائلها أعدها وأتم أدواتها .

وإذا رددنا نظرنا في هذه القصيدة تبين لنا أننا أمام شاعر على قدر كبير من

للشجاعة النفسية ، والدهاء السياسي ، وحدة العقل ، وقوة المارضة ، ورباطة الجأش . . فقد واجه بقصيدته تلك ميل الملك إلى التغلبين الذي قواه ماحدث من الغنم بمحضته .

هذا إلى أن في اشتمزاز الملك من رؤية الحارث ، وقيامه ملشدا من حاف ستور ما يكتفى لأن يفقده توازنه ولكن الحارث الفارس تماك نفسه وتماسك حتى تمكن من أن يستحوذ على الملك ويستل من نفسه الغضب على البكريين ، ويستميله إليهم .

والشاعر في مملته يتبدى - على ما عليه شعراء الجاهلية - بالفزول وذكر الفراق ولكنه لا يطيل فيه ، ثم ينتقل إلى ناقته التي يستعين بها فيذكر من أوصائها - في إيجاز - ما يهد به إلى غايته التي يقصدها .

فصور أثر الدعوى التي افترها التغلبون عليهم إذ زعموا أن البكريين نقضوا عهد ، وبوضع أن هذا الزعم أصابهم بالساء وأساء إليهم ، ثم يذكر أن إخوانهم التغلبين بهذا الزعم يظلمونهم ويألفون في ظلمهم ، هم ما زالوا يطوون نفوسهم على هداوتهم . ولا يكتفى بذلك التعميم ، ولكنه يمرض لأوهامهم التي يؤسسون عليها دهوهم ، هم لا يفرقون بين برى ومذنب ، ويخطئون هذا بذاك ، وزعمون أن كل من أساء إليهم تابع لنا فيحملونا ثمة ما قدم ، ومن ذلك المنطلق في تصورهم قروا نقض عهدنا ، وأخذوا في الإعداد للاقتنا فأصبحوا مستعدين لحربنا ، متأهبين لقتالنا ، يعتلى الجو بما يصدر عن المقاتلين وحيولهم من أصوات وضوء .

وفي هذا القسم يبدأ الشاعر باستعراض ما ادعته تغلب على بكر واستعدادها للحرب وذلك قوله :

وأنا من الحوادث والأنا — بيا خطب نمى به ونساء (١)
أن إخواننا الأرقام يفلو — ن علينا ، في قيلهم إحقاء (٢)
يخطئون البرى منا بذى الله — ب ولا ينفع الخلى الخلاء

(١) نعى به ونساء : يصيينا بسببه عناء وسوء .

(٢) الأرقام : بطون من تغلب ، يفلون . يجاوزون الحد ، الإحقاء : شدة الإلصاح والاستقصاء .

زعموا أن كل من ضرب العيب ر موال لنا ، وأنا الولاء
أحموا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ، ومن عجيب ، ومن تصهال حيل حلال ذلك رغاء

ثم ينتقل من تسفيه شكوى التغليبين إلى تهديدهم ملقيا بذلك تبعه الحرب
وويلاتها عليهم .

فيقول : أيها الناطق عند الملك الذي يرب القول ، ويفترى علينا الكذب لاتحسبنا
جازعين لإغرائك الملك بنا ، فإن ذلك لن يقدح في أمرنا كما لم يقدح إغراء غيرك فيه ،
فبقينا - على بغضك لنا - في عزة ثابتة وحصون منيعة تحمينا من أذاكم ومكركم ، ولقد
أعمت عزتنا قبل يومنا الذي نحن فيه عيون أعدائنا ، فنحن في منعة تجعل الدهر إذا
روانا بأحداثه لا يؤثر فينا ولا ينال منا كأنما رعى جبلا عاليا بعيد النال . فلنكونوا
واضحى المقاصد ، واكشفوا عن مرادكم ، وأى طريقة تجرون عليها في خصومتنا
فوضوا فيها سادنكم وصغراءكم وليأتوا إلينا لتباحث فيها ، فإن أردتم أن تثيروا ما كان
بيننا ويسكم من القتل والأسر في المارك التي كانت بين أهل ملحة وأهل الصاقب
ظهر لكم ماكرهون ، وإن دققتم في البحث والاستقصاء في تلك الأحداث ، فإن ذلك
مع مافيه من المشقة والكلفة يفضي بنا إلى صلاح أمورنا ، إن سكتكم عن ذلك فإننا
نصت كذلك وتناسى ما كان على مافيه من مرارة لأن الحق في جانبنا ، أما إن رفضتم
ما نسألون فيه من الصلح والتراضي ظنا مسكم أن بمقدوركم إهانتنا فأنتم غطثون بعد
علمتم مائلنا وحفظنا لأنفسنا أيام كان الناس ينهب بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض
وفي كل حى صليح ، ولتذكروا ما فعلنا حين طويما ما بين البحرين والحساء إغارة على
القبائل وأسرا للنساء وانهابا لأموالهم ، فلم ينبج أحد منا ولم يوقفنا عن ذلك إلا
دخولنا في الأشهر الحرم :

أيها الناطق الرقش عنا عند عمرو ، وهل لذلك بقاء ؟ (١)
لا تخاننا على غرائك إنا قبل ما فدا وشى بنا الأعداء (٢)

(١) الرقش بكسر القاف المشددة : الزين للقول بالباطل .

(٢) الفرات بفتح الفين والراء : اسم مصدر من الإغراء .

فبقينا على الشنأة تنميه نلحسون وعزة قساة (١)
قبل ما اليوم بيضت بعيون الـ ناس فيها تميظ وإباء (٢)
وكان للنون تردى بنا أر عن جونا يسجاب عنه القماء (٣)
مكفهرًا على الحوادث لآثر توه للدهر مؤيد صماء (٤)
أما خطة أردتم فأدو ها إلينا تمشي بها الأملاء (٥)
إن نبشتم ما بين ملحعة فالصا قبه الأموات والأحياء (٦)
أو نقشتم فالتقش يحشمه النا س، وفيه الصلاح والإبراء (٧)
أو سكتم عنا: فكنا كمن أغ مض عينا في جفنها أقداء
أو منتم ما تسألون فن حد ثموه له علينا المساء (٨)
هل علمت أيام ينتهب النا س غواراء لكل حى عواء (٩)
إذا رفعتنا من سقف البع رين سيرا حتى نهاها الحساء (٩)
ثم ملنا على تميم فأحرره نا وفينا بنات مر إماء (١٠)

- (١) الشنأة : البنفسج ، تمنينا : ترفنا ، القساة : الثابتة .
(٢) ما : زائدة ، بيضت بعيون الناس : يبيضها أى أعمتها ، والتميط - بفتح الميم - وضيم الياء المشددة - الترفع والإباء .
(٣) للنون : الدهر ، تردى - بكسر الدال - قرى ، والأرعن : الجبل الذى له حدود وأطراف تخرج عن معطيه ، والجون الأسود ، يسجاب عنه : يشق عنه ، المساء : السحاب الأبيض .
(٤) المكفهر : الغليظ المترالكب بضمه على بعض ، لا ترقوه : لا تنقضه ، والمؤيد بضم فسكون فكسر : الشديد الأيد أى القوة ، ويسى به الهاهية .
(٥) الخطة : الأمر يقع بين القوم ، الأملاء جمع ملأ : الأشراف والرؤساء .
(٦) ملحعة بكسر الميم : مكان ، العاقب : جبل ، إن نبشتم : إن أنزتم ما كان بيننا .
(٧) نقشتم : استقصيتم ، يحشمه بفتح الشين : يتكلفه على مشقة .
(٨) غوار بكسر اللين : مناورة بعض على بعض .
(٩) رفعتنا الجلال فى السير : سرنا سيرا رفيعا ، والحساء جمع حصى : الرمل يكون الماء تحته قريبا ، ويريد به مياه لبني فزارة .
(١٠) أحرمتنا : دخلنا فى الأشهر الحرم فامتنعنا عن قتالهم ، مر : أبو تميم .

لا يقيم العزيز بانبـلـه السـم ل ، ولا ينفع القليل المنجاء (١)
ليس ينجى موائل من حذار رأس طود وحره رجلاء (٢)

ثم يخلص من ذلك إلى الحديث عن المنذر بين ماء السماء وتعاونهم معه ، منتقلا إلى استعراض مواقف التغليبين التي تحسب عليهم ، مذكرا بين الحين والحين بما كان لهم من مواقف في مؤازرة المنذر وعمرو بن هند ، موضعا بذلك صورة للتغليبين والبسكريين التي تكشف عن غدر التغليبين وسوء مقصدهم وعداوتهم للملك ، في حين تكشف عن وفاء البسكريين وحسن نواياهم وإخلاصهم للملك . وبذلك بلغ إلى ما يريد من نفس عمرو بن هند ، وتمكن من تحويله من جانب التغليبين إلى جانب قومه ، فكان الحامي البارع الذي عرف من أين تؤكل الكتف ، وسار في قصيدته بخطوات ثابتة على طريق واضح ، معتمدا على الحقائق والأحداث الواقعية في إقامة حججه وتقنيده آراء خصومه وتمداد مفاخره ومفاخر قومه ، والوصول إلى قلب وعقل عمرو بن هند .



نعم كانت خلائق الفروسية البدوية هي التي واجه بها الحارث بن حازمة الموقف هنا لحقق النصر وعاد مرفوع الرأس معززا مكروما . بيد أن مظاهر الفروسية لم تقتصر لديه على ذلك ؛ إذ نراه في موطن آخر فارس الصيد والحرب والجد ، وذلك في قوله :

طرق الخيال ولا كليله مدج سدا بأرحلنا ولم يتمرج (٣)
أني اهتديت وكنت غير رجيلة والقوم قد قطعوامتان السجسج (٤)

(١) النجاء : الإسراع والفرار .

(٢) الموائل : الذي يطلب موئلا يهرب إليه ، الحره : كل موضع فيه حجارة سوداء ، والرجلاء : الصلبة الشديدة .

(٣) أدج القوم : ساروا ليلا ، سدا بفتح فسكسر : ملازما ، لم يتمرج : لم يعمل .

(٤) الرجيلة : للقوية على المشي ، متان بكسر الميم : ظهر ، السجسج : الأرض الواسعة ليست بسهولة ولا صلبة .

- والقوم قد آثروا وكل مطبعم
ومـدامة قرعتها بمـدامة
فسكانهم من لآلىء وكأنه
مقر يصيد بظفره وجناحه
ولئن سألت إذا الكتبية أجمعت
وحسبت وقع سيفنا براء وسهم
وإذا اللقاح زروحت بمشية
ألفيتنا للضيف خير عمارة
- إلا مواشكة العجا بالهودج^(١)
وطباء محنة ذعرت بسمـحج^(٢)
مقر يلوذ حمامه بالعوسج^(٣)
فإذا أصاب حمامة لم تدرج
وتبينت رعة الجيمان الأهوج^(٤)
وقع السحاب على الطراف المشرح^(٥)
رتك النعام إلى كنيف المرفج^(٦)
إن لم يكن لبن فمطف المدمج^(٧)

والبيئة البدوية لا تظهر آثارها في أخلاقيات الحارث فحسب، بل هي إلى ذلك تظهر في صوره التي جمع فيها بين الصور الابتكارية من حيث العرض المستعصى للأحداث، وتقديم الموقف متحركاً حياً، كما رأينا. في معلقته يمرض الأحداث والمواقف التي نشأت بين قومه وخصومهم - وبين الصور التفسيرية التي اعتمد فيها على التشبيه والاستعارة المنتزعة من البيئة البدوية، وتظهر في ألفاظه الجزلة للقوية التي تتردد بين الحشونة والسهولة، وفقاً لما يتطلبه الموقف، ولعل ذلك يتضح من ألفاظه في المعلقة وألفاظه في

- (١) آن القوم يثبنوا : تمبوا ، والمطى جمع مطبة : ما يركب من الدواب ، مواشكة مسرعة أسير ، والنجا بفتح النون : الإسراع .
(٢) قرعتها : ثنيت كأسها بأخرى ، المحنة : منهطف الوادى ، السمحج : المفرس الطويل .

(٣) العوسج : شجر شائك .

- (٤) أجمع : أقدم على الحرب ، الرعة : الخوف ، الأهوج : الأحق الطائش .
(٥) الطراف بكسر الطاء : بيت من آدم وهو من بيوت الأعراب . شرح الحباء أو الثوب وأشرجه : أدخل بعض عراها في بعض وشدها .
(٦) اللقاح جمع لقحة : الناقة الحلوب ، رتك النعام بفتح الراء وسكون التاء : خطو النعام ، وهو خطو متقارب ، الكنيف : السار ، والمرفج : شجر .
(٧) المارة بكسر الميم : الشعبة من القبيلة ، المدمج بضم فسكون ففتح : القدح يكسر القاف وسكون الهمزة ، يعنى إذا لم يكن لبن فليل إلى القدح تجمال على الجزور لتتمتع للضيف .

جيمته التي يفخر فيها ، كما تظهر في إيجازه الذي كان من أبرز خواص شعره ، ويكفي أن نردد النظر في شعره لنتأكد من ذلك ؛ إذ قلما نجد بيتا لا يحتاج إلى شرح مستفيض حتى إن علماء البيان يستشهدون بأحد أبياته على الإيجاز المحل ، وهو قوله :
والعيش خير في ظلال النوك ممن عاش كدا^(١)

يريد أن يقول : « والعيش الناعم في ظلال المحق خير من العيش الشاق في ظلال العقل » ، وواضح أن الفاظ البيت لا تنفي بالمعنى المراد .

(١) النوك بفتح فسكون : المحق ، السكد : التعب .

٣ زهير بن أبي سلمي

نشأته وحياته :

هو زهير بن أبي سلمي ربيعة بن رياح المزني نسبا ، النطفاني مولدا وموطنا ، فأبوه ربيعة من قبيلة ربيعة ، وروى أن ربيعة هذا خرج وخاله في ناس من بني مرة بن عوف فيغرون على طيء ، فأصابوا نهما كثيرة وأموالا ، فرجموا حتى انتهوا إلى أرضهم ، فقال أبو سلمي لخاله وابنه : أفردا لي سهمي ، فأبيا عليه ومنعاه حقه ، فغاضبهم وخرج بأمه إلى بني مزينة ، فلبث فيهم حيناً ، ثم أقبل في جماعة من مزينة مشيراً على بني ذبيان ، ولكنهم ما كادوا يتوسطون ديارهم حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل في أخواله ، ولم يزل في بني عبد الله بن غطفان ، ومن ثم ولد له زهير وأولاده في بني غطفان (١) . ولعل في هذا تفسيراً لاضطراب الروايات في نسب زهير .

وكانت مزينة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية ، بين وادي القرى الواقع غربي نجد وبين نهامة الحجاز ، أي في الشمال الغربي من المدينة ، على مقربة من البحر الأحمر ، شرقي مدينة يلبع

أما غطفان فكانت في الجزء الشمالي من نجد في مكان يسمى العاجر (٢) .

ولا نستطيع أن نجزم بشيء عن مولد زهير وحياته الأولى ، وكل ما نستطيعه أن نتعرف على ميلاده على سبيل التقريب من بيت له في مملته يقول فيه :

سُمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حسولا - لا أبالك - يسأم

فذلك يدل على أنه حين قال مملته تلك كان في نحو الثمانين من عمره ، فإذا لاحظنا أنه قالها في مدح من سميا في الصلح بين عيس وذبيان ، في أواخر حرب

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٩١ وما بعدها طبعة دار الكتب .

(٢) راجع كتاب الأصنام لابن السكبي .

داحس والغبراء التي يرجح أنها انتهت بين سنتي ٦٠٨ ، ٦١٠ م . كان باستطاعتنا أن نقدر ميلاد زهير في سنة ٥٣٠ م . وهذا يعني أنه نشأ في أخريات العصر الجاهلي .

وقد أقام زهير في بني مرة سيدا مكرما مسموع الكلمة ، وكان كثير المال ، ومع ذلك فلم يؤثر عنه شيء يماز به في خلقه ومسلكه ، فلم يعرف عنه أنه قامر ، أو شرب خمر ، أو صاحب طائشا فارغا ، بل كان عيونا عن كل ما يمتنع خلقه ، أو يماز به إلى حد البالية في الجسد والتوقر .

ونبحث عن السر في ذلك ، ونقلب صفحات حياته ، فلا يستوقفنا منها في هذا الصدد إلا تتلمذه على أوس بن حجر زوج أمه ، الذي يقول عنه الرواة بأنه كان كثير الوصف لمكارم الأخلاق^(١) . وإلا نشأته في ظل خاله بشامة بن الغدير الذي كان مقعدا ناضج الرأي ، حازما . يرجع إليه في المضلات ، ويؤخذ برأيه في الشدائد ، من هذين منح زهير خلقه المحمود ، فلم يؤثر فيه تراؤه ، ولم يخدمه عن واقعه مكانه من أهله وعشيرته .

ويبدو أنه إلى ذلك عاش مستقرا هادئا ، فلم ينفص عليه حياته منقص ، ولم يخرج عنه أخلاقياته مؤثر ، وكما اختلف في تاريخ ميلاده ، اختلف في تاريخ وفاته ، فقد تضاربت الروايات في ذلك ، من ذلك ما رواه صاحب الأغاني أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى زهير وله مائة سنة ، فقال : « اللهم أعذني من شيطانه » فلما لاك بيتا حتى مات^(٢) . وهذا يعني أنه أدرك سنة ٦٣٠ م الموافقة للسنة التاسعة للهجرة ، وذكر ابن قتيبة أنه كان جاهليا لم يدرك الإسلام^(٣) . وذكر البندادي أنه مات قبل البعث بسنة ، والمرجح أنه لم يدرك الإسلام .

شعره :

أنصح لزهير في ميدان الشعر ما لم يتبع لنيره ، بما كان له أبعد الأثر في طبعه على الشعر وصقله فنيا ؛ فقد أحيط في بيته بأسرة شاعرة حركت فيه نوازع الشعر ، وعملت

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٩١ .

(٣) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٤١ .

على غرس موهبة الشعر فيه منذ طفولته، فقد كان أبوه شاعرا، وخاله بشامة بن الغدير النطفاى شاعرا، وكان أخته سلمى والخنساء شاعرتين . وكما أتبع له أن ينشأ تلك للنشأ الفنية أتبع له أن يصل تلك الموهبة ويهذبها ، فقد تزوجت أمه من أوس بن حجر ، فكان زهير أستاذا موجهها ، وكان زهير له تلميذا وراويه ، فلم يكن مجرد راويه ، لكان التلميذ الناقد المتأثر المحتذى .

ولم يقف أمره عند ذلك الحد ، فقد أتبعه إبناء كعب ويحجر إلى الشعر ، وانتقل منهما إلى حفيده عقبة بن كعب المعروف بالضر ، الذى أخذ عنه ابنه العوام ، فتحقق بذلك زهير اتصال الشعر فى بيته على مدى خمسة أجيال متوالية ، قال ابن قتيبة : يقال : لأنه لم يصل الشعر فى ولد أحد من العهول فى الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير (١) .

ومضى هذا أننا مع شاعر عاش للشعر ، بدأ حياته معه تلميذا ، وختمها أستاذا مملعا ، كان من أبرز تلاميذها - غير ابنه - الحطيئة .

• • •

وطى الرغم من أن زهيراً نشأ وعاش فى بيئة بدوية إلا أن تراءه وفر له بيئة مترفة منعمة جمعت منه الإنسان الملمث المادى الوادع المتوقر ، فلم يفلت من يده زمام لسانه ليقول ما يصح وما لا يصح ، أو ليقول ما قد قال ، ولكنه كان المتروى فيما يقول ، ينظر فيه ويبيد النظر ، ويرجع إليه بالتنقيح والتهذيب حتى لسكانه يتعبد فى محرابه ، الأمر الذى جعل النقاد يطلقون عليه وعلى أمثاله لقب (عبيد الشعر) ، يقصدون بذلك البطء فى قول الشعر ، ومما ردة صقله ، وإطالة التفتيش فيه ، قبل أن يظهره للناس ويذيمه فهم ؟ ولذلك قال القدماء عنه : إنه عمل سبع قصائد فى سبع سنين فكافت كسمى حوليات زهير ؟ لأنه كان يحرك القصيدة فى سنة (٢) . ونسب الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه ، فقال : « كان زهير بن أبى سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات ، ولذلك قال الحطيئة : خير الشعر الحولى المحكك ، وقال الأصمى :

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٣٢٤ طبع دار الكتب المصرية .

زهير بن أبي سلمة والخطبة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جـ - ودف شعره ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة « (١) » .

وهذا المسالك من زهير في شعره يعنى أنه إنسان يشعر بمسئوليته عما يندب إليه ، فهو يقدر المسئولية قدرها ، ويعمل كل ما وسعه العمل لينخرج عمله محبباً مستقياً .

* * *

ولم يكن منهج زهير في شعره هو كل ما أرتنه بيئته الخاصة فيه ، فقد ، وضع أثر بيئته كذلك في فنونه الشعرية ، فلم يقل إلا في الأغراض التي تتلاءم مع ذوقه الخاص ، فسكاد يقصرها على الديبج والوصف والحكمة .

وهو في مدبجه يختلف عن غيره ، فهو لا يمدح إلا على مسلك محمود ، أو خلق كريم ، أو موقف فيه بطولة ؛ ولذا لم يخرج بمدائحه عن موطنه العربي ، فلم يتصل بمدح العراق أو الشام ، ولم يمدح إلا من وجه خيره إلى صالح قبياته ، ولذلك كانت أكثر مدائحه وأفضلها في هرم بن سنان ، لأنه كان يحبه ويحمله ، وكان هرم يبره ويجزل له العطاء . وكذلك كان شأنه في مدح الحارث بن عوف حين آزر هرماً وسمياً في الصلح بين عيسى وذيان ، وإنهاء الحرب التي طال مداها بينهما ، فأعلننا تحملهما ديات القتلى من القبلتين حتى تضع الحرب أوزارها ، وتهدأ النفوس الشائرة ، وتصادف في أثناء ذلك أن قتل الحصين بن ضمضم عصبياً ليثأر لأخيه هرم بن ضمضم الذي كان قد قتله ورد بن حابس العبسي ، فثارت عبس من جديد ، وشهرت سيوفها ، ولكن الحارث بن عوف أسرع إليهم وقدم مائة من الإبل مع ابنه ليختاروا إما الدية وإما قتل ابنه ثأراً لتقيلهم ، فقبلوا الدية ، وواصلوا إتمام الصلح ، حتى أخدمت النيران المسرة ، ويملك هذا الموقف على زهير حسه ، فينطلق لسانه بمعلقته مشيداً بذلك المسلك النبيل ، لا هجاً بالثناء على السعدين لما قدما للقبيلة من فمال تذكر لها ، مستعرضاً للحرب وأخطارها ، كاشفاً عما تنطوى عليه من كوارث لكلا الطرفين المتحاربين :

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٣ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

سمى ساعيا غيظ بن مرة يمدحها تبزل ما بين المشـيرة بالدم (١)
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بوه من قریش وجرحهم
يمينا لنعم السيدان . وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم (٢)
تدار كما عبسا وذيان بمسدا فانوا ودقوا بينهم عطر ملثم (٣)
وقد قلتما : إن ندرك السلم واسما عبال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتا منها على خير موطن بيدين فها من عقوق ومأثم (٤)
عظيمين في عليا معد هديتها ومن يستبح كرامن المجديسظم (٥)
فأصبح يجري بينهم من تلادكم منانم شتى من إفال المرسم (٦)
تمنى السكوم بالئين فأصبحت ينجدها من ليس فيها بمجرم (٧)
يجدها قـوم لقـوم نغرامة ولم يهريقوا يدهم ملء محجم

ثم يحض الأحناف (أسد وغطفان وطىء) على الإخلاص في الصلح ، والتوفيق بين باطلهم وظاهرهم ، واصنا الحرب وما تجره عليهم ما مبرزا إياها في صورة مرغجة مخيلة ، تبدو في صورة وحش مفترس ، وفي هيئة نار مشتعلة ، وفي صورة رحي تمرك الاس ، ثم في سورة امرأة ولود ، ولـكـها لا تلب إلا الشؤم الذين يجرون على القبيلة الحسار واليوار .

-
- (١) الساعيان الحارث بن عسوف ، وهرم بن سنان ، سميّا في الجملة ، وغيظ ابن مرة : حى من غطفان ، وتبزل بالدم : تشقق .
(٢) السحيل : غير المبروم .
(٣) ملثم : قيل هي امرأة عطارة من حزاغة غمس قوم أيديهم في عطرها وتماهدوا على القتال حق يموتوا ، فسار هؤلاء مثل أولئك في شدة الأمر .
(٤) خير موطن : خير منزلة ، والعموق : قطعة الرحم .
(٥) عليا مسد : رؤساؤها وأشهرها ، ويعظم بضم الياء وكسر الظاء : يجيء بأمر عظيم ، وروى ويعظم بفتح وضم : يصير عظيما .
(٦) الإفال جمع أفيل : اللصان . والمزمن : المعلم .
(٧) تمنى : تمنى ، السكوم : الجراحات ، والمئين : الإبل .

ثُمَّ مَبْلَغُ الْأَحْلَافِ عَلَى رِسَالَةٍ وَذِيَّانٍ : هَلْ أَقْتَمْتُمْ كُلَّ مَقْصَمٍ
فَلَا تَكْتُمُنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يَكْتُمُ اللَّهُ بِإِسْلَمٍ
يُؤْخِرُ مَبِوضَعٍ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَجْعَلُ فَيَنْقِمُ
وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الرَّجْمُ (١)
مَقَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذُمِيَّةٌ وَتَقْصِرُ إِذَا ضَرَبْتُمُوهَا مُضْرَمٌ (٢)
فَتَمْرُكُكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِشَفَالِهَا وَتَلْقَحُ كَشَافًا ثُمَّ تَحْمِلُ فَتَنْثُمُ (٣)
فَتَنْتَاجُ لَكُمْ عِلْدَانُ أَشْأَمَ ، كَلَّكُمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تَرْضَعُ فَتَقْطَعُ (٤)
وَتَنْتَالُ لَكُمْ مَالًا قَتَلُ لَأَهْلَهَا قَرَى بِالْمِرَاقِ مِنْ قَبِيزٍ وَدَرَمٍ (٥)

وَلَا يَقِفُ الشَّاعِرُ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَدِّ مِنَ التَّصْوِيرِ الْمُنْتَهَى مِنَ الْحَرْبِ ، الْكَاشِفِ عَنْ
قُصَلِ هَذَيْنِ السَّيِّدِينَ فَيَا صَمَا ، وَلَكِنَّهُ يَنْتَقِلُ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ ذَلِكَ الشَّادِ الْخَارِجِ عَنْ
الْجَمَاعَةِ مَبِينًا مَا سَيَجْرِي إِلَيْهِ قَوْمُهُ مِنْ وَحْمِ الْعَاقِبَةِ

تَمَّ يَحْمِلُصَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ الصَّرِيحِ عَنْ مَدْرَجِيهِ ثَانِيَةً ، مَظْهَرًا مَا لَمْ يَنْجَسْ مِنْ
فَضْلِ عَلَى الْقَبِيلَتَيْنِ فَيَا قَدَمُوا ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي الْأَمْسِ سَبَبٌ أَوْ نَسَبٌ لَا فَهْمٌ
مُتَطَوِّعُونَ مُتَبَرِّعُونَ .

وَفِي سَبِيلِهِ إِلَى التَّأْثِيرِ عَلَى سَامِعِهِ ، وَالْوَصُولِ بِمَا قَرَّرَ إِلَى أَعْمَاقِ نَفُوسِهِمْ ، يَحْتَمِلُ
مَطْوَلُهُ نَالِ الْكَاشِفِ عَنْ وَصُولِهِ إِلَى سِنِّ الْحِكْمَةِ ، وَالتَّجَرُّبَةِ ، نَازِلًا فِي أُنْثَاءِ ذَلِكَ طَائِفَةٍ
مِنْ حِكْمَةِ الْفِي تَجْمَعُ خِلَاصَةَ آرَائِهِ وَأَفْكَارِهِ وَتَجَارِيهِ :

سَمِثَتْ فَسْكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَدُشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَالُكَ - بِإِسَامِ

(١) الْمَرْجَمُ : الْمَطْوُونُ .

(٢) تَبْعَثُوهَا : تَهْجُوهَا ، تَضْرِبُ : مِنْ صَرَى الْأَسَدُ إِذَا تَهَيَّأَ لِلْفَرِيصَةِ ، تَضْرِبُ : تَشْتَعِلُ .

(٣) تَمْرُكُكُمْ : تَطْحَنُكُمْ ، الثَّنَاءُ بِكَسْرِ الثَّاءِ : جِلْدٌ يَجْعَلُ تَحْتَ الرَّحَى حِينَ تَطْحَنُ

تَلْقَحُ كَشَافًا : تَحْمِلُ كُلَّ عَامٍ ، تَنْثُمُ : تَلِدُ نَوَامًا .

(٤) أَهْأَمَ : مَشْشُومٌ . (٥) الْقَبِيرُ : مَكْيَالُ عِرَاقِي .

رأيت المايا خبط عشواء من تصب تته ومن تحطىء يعمر ويمرم (١)
وأعلم مافي اليوم والأمس قبله لكتفى عن علم مافي غـ دعم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم (٢)
ومن يك ذا فضل ويبتخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يحمل المروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم (٣)
ومن لا يزد عن حوضه سلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن هاب أسباب المنايا ينله ولو نال أسباب السماء يسلم
ومن يهص أطراف الزجاج فإنه يطيع الموالي ركبت كل لهدم (٤)
ومن يوف لا يذممهم ومن يفض قلبه إلى مطمئن البر لا يتجمعجم (٥)
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهاا تكون عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم (٦)
ومن لا يزال يستعمل للناس نفسه ولم يفتها يوطأ من الناس يسأم (٧)

لقد كان زهير في مدائح السيد الشريف السرى القدى لا يمدح إلا على شريف ؛
فهو في مدحه لا ينافق ، وإنما هو يخدم مبدأ يؤمن به ، ويحرص على ذبوعه وانتشاره
أى أنه يمدح سلوكا مثالا فيمن يقوم به حاضا بذلك من يقوم بهذا المسلك على الاستمرار
عليه ، وحائا غيره على التقليد فيه ؛ فهو صاحب رسالة أكثر منه تاجرا يتكسب بـناققه
من يستحق المدح ومن لا يستحقه .

(١) خبط عشواء : تأتى على غير بصيرة .

(٢) يضرس بتشديد الراء المفتوحة : يضعف ، والملمس بفتح الميم وكسر السين :
البعير مثل الظفر للانسان .

(٣) يفره مضارع وفر عرضه : حماه وصانه

(٤) الأرج بضم الراء : مالا يطمئن به من الرمح ، واللهزم : بفتح اللام والذال .
الماضى ، يقول : من عصى الأمر الصغير صار إلى الأمر الكبير .

(٥) البر : الصلاح ، والتجمعجم : التردد .

(٦) الخليقة : الطليعة والسليقة .

(٧) يريد : من لا بزل يثقل على الناس ويستحملهم أموره استثقلوه وشموه .

ومن ثم فهو في مديحه حريص على الاعتدال في ثنائه ، دقيق في التمييز عما في نفسه ، واضح في إبراز ما يرضيه وما يسخطه ، مقتصد في القول فلا يسرف ولا يخلو . وهذا ما لاحظته قديما عمر بن الخطاب فقال : هو أشعر الشعراء لأنه كان لا يعاقل (١) في الكلام ، وكان يتجنب وحتى الشعر ، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه (٢) .

وكذلك كان في وصفه الدقيق المتمكن من لفته ، البصير بأبعاد ما يصف الذي يقع من الصفات على ما يتطلبه الموقف ، فيقدمه في عبارات مصورة تجمع بين الحيال الالبتكاري والخيال الوصفي أو الإضافي ، ونظرة إلى وصفه للحرب في مطولته التي سبق ذكر أبياتها - اترك الشاعر في هذا المنهج الوصفي ، كما تراه في وصف بعض مظاهر الطبيعة .

حيث يصف مطرا تساقط على بعض المرتفعات ، بينما هو مقبل مع بعض رفاقه على فرس يحكم الخلق ، شديد قوى لم يعبه مرض يحوجه إلى علاج البيطري . وينقلنا في حركة قصصية إلى مشهد الصيد ، فيصور كيف جاء الغلام الذي كاف باستطلاع الحيوانات متخفيا مستترا ليلىء بالصيد الذي رآه ، ومن ذلك يأخذ في وصف الصيد الذي رآه الغلام غير بعيد : ثلاث آئن وحشية ، ضامرة كأقواس السراء ، ومهما حمارها الذي أقبل على الطعام من الثبات حتى اخضرت مشامره . ثم ينتقل من ذلك إلى وصف رفاقه معه قبل مواجهة الصيد في دقة دقيقة لا تنفـل هاجسة من هواجسهم في هذا الموقف المتأهب المتحفز المتخفي ، فهم منذ أجبرهم الغلام يسيطر عليهم الحرس على اقتناص الصيد ، وقد أحس الفرس بذلك منهم وانتقل إليه منهم ما هم فيه فأصابه الاضطراب كذلك وأخذوا يجاهدونه وهو يجاهدهم حتى تمكنوا منه وأحضموه ، فبدأ - من هيئته الجسدية - مطمئنا ، لكنه ما زال يستحود عليه الفزع والخوف الشديد ؛ فاصلا بذلك بين الهيئات الجسدية والأحوال النفسية وكما صور أحوالهم وأحوال جوادهم ، صور حال الغلام وكشف ما يعمل في نفسه فيشله عن وصاته له في مطاردة الصيد ،

(١) يعاقل الكلام : يحمل بفضه على بعض ، ويتسكّم بالرحيم من القول ، ويكثر اللفظ والمعنى ، أو يمدده ويوالى بفضه على بعض ، وكل شيء ركب شيئا فقد عاقله .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٨٩

ثم يرينا صورته وهو منصب على الآئن وحارها انصباب الشؤبوب ، ولكن الآئن
تثير الحمى في وجهه فرارا منه ، غير أن ذلك لا يموق عن اللعاق بها وتمكنه من
إفرااد الحمار من صواحبه ، وعوده به جريحا ينزف دمه :

وغيث من الوسمى حو تلاعه	أجابت رواييه للنجاء هواطله (١)
صبحت بمسود النواشر سابح	ممر أسيل الخد نهد مراكله (٢)
أمين شظاء لم يخرق صفافه	بنقبه ولم تقطع أباجله (٣)
قليلا علفناه فأكل صنعه	فتم وعزته يداه وكاهله (٤)
إذا ما غدوننا نبتنى للصيد مرة	متى نره فإننا لا نحائله (٥)
فبيننا نبنى الوحش حاء غلامنا	يدب ويخفى شخصه ويضائله (٦)
فقال : شياه راتعات بقفرة	بمستأسد القرين حومسايه (٧)
ثلاث كأقواس السراء ومسجل	فدا حضر من لس النمير جحائله (٨)

(١) الوسمى : أول المطر ، حو بضم الحاء : تضرب إلى السواد من شدة خضرة
نبتها ، والتلاع : مسيل ما ارتفع من الأرض إلى بطن الوادى ، النجاء بكسر الون
جمع بجوة : المسكن المرتفع ؛ الموائل جمع ها طلة : الموائل .

(٢) صبحت : أثبت غدوة ، المسود : شديد القتل ، النواشر جمع باشرة : عروق
باطن الذراع ، ممر : شديد القتل ، أسيل : ناعم أو طويل ، نهد : ضخم ، المراكل
جمع مراكل : جنيا الفرس حيث يركله الفارس بركله .

(٣) الشظى : عظم مازق بالذراع ، الصفاق بكسر الصاد : الجملدة السفلى تحت
الجلد الذى عليه الشعر ، والمنقبة : حديدة ينقب بها البيطار ، الأباجل جمع أبجل :
عروق نى اليد .

(٤) عزته : قوته ، الكاهل : مجتمع الكتفين فى أصل النقب .

(٥) نحائله : نخذه (٦) نبتى بضم الون وفتح الباء : نبتنى ، يضائل : يصغر .

(٧) الشياه هنا : الحجير ، الميت المستأسد ، الذى طال وتم ، والقرين بضم القاف
جمع قرى بفتح القاف وكسر الراء : بجارى الماء إلى الرياض ، الحدو : الضارب إلى السواد .

(٨) السراء بفتح السين : شجر تصنع منه القسمى ، ناشط : يخرج من بلد إلى بلد ،
النمير : نبت يطول ثم يصيبه مطر فيخرج تحته نبت أحضر ويكون غميرا لهذا الطويل
أى منمورا ، واللس بفتح اللام : الأخذ بمقدم الفم .

وقد خرم الطراد عنه جمحاشه
وقال أميري: ما ترى رأى ما ترى
فتتنا عراة عند رأس جوادنا
منضربه حق اطمأن قذاله
وما جعنا ما إن ينال قذاله
فلا يا بلأى ما حملنا وليدنا
عقلت له : سدود وأبصر طريقه
وقلت : نعلم أن للصيد غرة
فأتبع آثار الشياخ وليدنا
نظرت إليه نظرة قرأته
يترن الحصى في وجهه وهو لاحق
فرد علينا العير من دون إلهه

فلم يبق إلا نفسه وحالاه (١)
أختله عن نفسه أم نساوله (٢)
يزاولنا عن نفسه ونزاوله (٣)
ولم يطمئن قلبه وخصائله (٤)
ولا قدماء الأرض إلا أنامله
على ظهر محبوبك ظماء مفاصله (٥)
وما هو فيه عن وصاتي شاغله (٦)
وإلا تضيئه فإنك قاتله (٧)
كشؤبوب غيث يحفش الأكم وابله (٨)
على كل حال مرة هو حامله (٩)
سراع تواليه ، صياب أوائله (١٠)
على رعمه يدعى نساء وفائله (١١)

- (١) حرم : فرق . الطراد : الميادون ، حالاه : زواجه من الآتى .
(٢) أميري : الذى يؤمرنى ويستشيرنى . نساوله : نجاهره .
(٣) عراة : متجردين للفرس من صعوبة ، يزاولنا : يجذبنا .
(٤) القذال بفتح القاف : موضع العذار وهو - وأرفع مكان في رأسه ، والخصائل
جمع خصيلة بفتح الخاء .
(٥) محبوبك : مدمج ، ظماء مفاصله : ليست مترهلة .
(٦) سدود : قوم صدره لا تمل يئنة ولا يسرة .
(٧) غرة : عقلة .
(٨) الشؤبوب : الدفمة الأولى من المطر ، يحفش : يسيل ما فيها ويخرجه .
(٩) يقول : نظرت إلى الفرس فرأيتة والسلام يحمله من السير على كل حال مما
أحب أو كره .
(١٠) التوالى : الأواخر يريد رجله وعجزه ، والأوائل : يدها وصدره وصيابه
جمع صائب : قاصدة .
(١١) رد العير : قطعة من إلهه ، نساء : عرق في رجله ، والفائل : عرق في الفص .

وهو كما ترى وصف قصصى ، يعتمد فيه الشاعر على حس دقيق ، ونظر متفحص .
فيقدم لوحة حية ، ترى فيها الحركات ومشاهد الطبيعة بألوانها ، وتسمع الهمس كما تسمع
الصياح ، بل تسمع حديث النفس وتلمح الأحاسيس والمشاعر بادية على الوجوه ،
ظاهرة في التحركات .

والناظر في هذه اللوحة يرى دقة الشاعر وبراعته في ملاحظة للمشاهد والأحداث .
والوقوف على المواقف ، وإدراك الأحوال النفسية ، وحشد ذلك كله مستخدما في ذلك
كل وسائل التصوير التى كانت تسمه بها قريحة فنية متيقظة ، وذهن متوقد لماح يهديه
إلى مكونات الصورة ، ونظمه في سلك واحد فيرسمها كما يراها ، أو يبرزها من خلال
نظيرها وعيبتها .

ولعل أناة زهير ورويته لها دخل كبير في تميزه في ذلك السيل .
كما أعانته غرورة البيئية على هذا المسار الوصفى ، مكنته كذلك من تحويل المعنويات
إلى مادة فلس وترى . فبهش لها أو ينفر منها ، كما بدا ذلك في حكمه الذى لا تكاد
تخلص منها قصيدة من قصائده ، والى استطاع بما أوتيته من مقدرة فنية أن ينفث
مخبراته الكثيرة المتنوعة في الكلمات المحدودة فإذا بها حبة تركزت فيها كل
عناصر العلاج .

تلك كانت أهم فنون زهير الشعرية ، أو بتعبير أدق : كانت الفنون التى قال فيها عن
طبع وسجية ، بيد أنه إلى ذلك اضطر إلى الهجاء فانبعث يسه على تردد وتوفر ، فلم
يلجأ باب الهجاء إلا دفعا لامتد ينوشه .

من ذلك ما روى أن الحارث بن ورفاء الصيقلوى بن بى ، أسد أغار هو وقومه
على بى عبد الله بن غطفان وأخذوا إبل زهير وراعيه يسارا ، فأندبهم زهير في
شئ غير قليل من اللين وضبط النفس ، وضمن إنذاره داك كافيته المشهوره التى
يقول فيها :

يا حار لا أرمين منكم بداهية لم يامها سوقة قسلى ولا
فارد يسارا ، ولا تعنف على ولا تمك جرسك ~~النادر الملك~~ (١)

(١) الملك بسكون الميم : المطل ، وبكسرهما : المطول .

ولا تكونن كأفـوام علمتهم يلوون ما عندم حتى إذا نهكوا (١)
 طابت نفوسهم عن حق خصمهم مخافة الشر فارتدوا لما تركوا (٢)
 تعلموا لها لعمر الله ذا قسما فاقصد بذرعك وانظر أين تسلك (٣)
 لئن حلت بجو في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فذك (٤)
 ليأتينك منى منطلق قدح باق ، كادنس القبطية الودك (٥)

وكما كان في مديحه واقميا لا يمدح إلا بما هو كائن في الشخص ، كان كذلك في هجائه لا يتهمس إلا لما يعيبه في مهجو ، وهجاء من أجله ، فهو ليس إلا وسيلة لتحقيق بها غرضا شريفا ومقصدا نبيلاً ، كما رأينا في موقفه من الحارث ، وكما صنع مع بني عليم أحد أحياء كلب ، فقد روى أن رجلاً من بني عبد الله بن غطفان تزل بهم وكان مولماً بالقيار ، فهو عنه فأبى إلا المقامرة فقمر مرتين ، فردوا عليه ، ثم ثمر الثالثة ، فلم يردوا عليه ، فانطلق إلى قومه زاعماً أنهم أظاروا عليه ، فقال زهير فيهم همزته المشهورة في هجائهم وفيها يستخف بهم ويتوعدهم في مثل قوله :

وما أدري وسوف إخال أدري أفـوم آل حصن أم نساء
 فإن قالوا النساء مخبآت غف لك محصنة هـداء

قال الأصمعي : فلما بانهم قول زهير بثبوا الإبل إليه ، وأرسلوا إلى زهير يخبرونه خبر صاحبه ، ويمتدرون إليه ، ولأموه على ما فرط منه ، فأرسل إليهم زهير : والله لقد فعلت وعجلت ، وأيم الله لا أجهو أهل بيت من العرب أبداً .

-
- (١) نهك بضم فسكسر : شتم وبلغ منه في الهجاء .
 (٢) لما أوذوا بالهجاء دفنوا الحق إلى صاحبه وارتدوا إلى إعطاء ما كانوا تركوه .
 (٣) تعلموا منونة : أعلموا لعمر الله ذا قسما ، وما : للتنبيه ، الذرع : الاستطاعة ، والآنسلاك : الدخول في الأمر ، كأنه يقول : اقصد الأمر بما تملكه أنت لا بما يملكه غيرك .
 (٤) جو : وادي بني أسد ، وعمرو : ابن هند بن النضر بن ماء السماء ، ودين عمرو : طاعته ، فذك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة بسير الإبل .
 (٥) القدح : القبيح ، والقبطية : كل ثوب أبيض . الودك : الدسم ، يريد : لئن حلت بحيث لا أدركك تحت راية هذا الملك العظيم ليردن عليك هجري ، ولادنس من مرضك كما يدنس الودك القبطية .

وهكذا يتقرر لدينا بما لا يدع مجالا للشك . أن زهيراً جـمـل من شعره وسيله
لإقرار السلام والحق والخير ، كما جمعه معرضاً للذوق الرفيع ، والجمال الساحر .

* * *

وبماودة النظر في شعر زهير ، يتبين لنا أن شاعرنا كما كان متناسقاً في فنونه وأفكاره
مع طبيعته وسجيته وبيئته ، كان متناسقاً في أساليبه وألفاظه وصوره وموسيقاه .
وفي سبيله إلى ذلك وجدنا الشاعر متمكناً من لفته ، مسيطراً عليها ، ينتقى منها
أنسب اللفظ والمباراة ، حتى تصبح عباراته مناسبة منضدة ، تترأى أخذاً رائدة .
وكما كان متمكناً من لفته كان متمكناً من موسيقاه ، فاستوفى من ضروبها ما يتلاءم
مع موضوعه ، فلا تجد في موسيقاه اشاراً من إقواء ، ولا نحس فيها إكراهاً يصيب
الشعر بالجود أو الاضطراب .

ومن ثم يجد الدارس في شعر زهير كثيراً من التناسق اللفظي الذي عرّفه علماء
البيان فيما بعد باسم البديع من جناس وطباق كما في قوله :

هم يغربون حبيلك البيض إذ لحقوا لا ينكسون إذا ما استلحموا وحموا^(١)
حيث جناس بين كلتي (استلحموا) ، و (حموا) ، وكما في قوله :

كأن عيني وقد سال السليل بهم وجيرة مام لو أنهم أمم
فقد جناس بين (سال) ، و (السليل) ، وكما في قوله :

تقى نقي لم يكثر عنيمة بنهكة ذى القربي ولا بمحفلة^(٢)
وقوله : وقد قلنا : إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من القول بـ
وقوله : رأى الله بالإحسان ما فعلنا بكم فأبلاهما حير البلاء الذي ييسر
وقوله : متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا صريرتموها فتضر

(١) الحبيلك - بفتح الحاء - الطرائق ، والبيض : الخوذة المستعملة في الحرب .
استلحموا : من التلاحم والمخالطة في القتال ، وحموا : اشتد غضبهم .
(٢) النهكة : الإضرار ، والمحفلة - بفتح الحاء والقاف - البغيلة السوء الخلق .
يقول : إنه لا ينمى ماله بإضرار أقربائه وظلمهم ، وليس ببغيلة لئيم .

وحيث مطابق وقابل في قوله :

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله
وقوله: رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ، ومن تخطى يعمر فيهم
وقوله: يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
وقوله: وقد كنت من سلمى سلينا ثمانيا على صبر أمر ما يمر وما يحلو (١)

بيد أن ذلك كله في شعر زهير لا يشعر بأنه هناك إكراها للفظ ، ولا شذوذا
عن مألوف في التعبير ، فأنت مع زهير كشعر بالمفوية في التصوير أو التجميل .
وفي الحق : أن شعر زهير يحتاج إلى دراسة مستوعبة فاحصة ، يرى أسرار التفوق
النفى لديه ، وتعرف على مظاهر ذلك في دقة واستقصاء .

(١) صبر الأمر : متناه . وما يسير إليه .

الشنفرى

نشأته وحياته :

هو ثابت بن أوس الأزدي ، ولقب بالشنفرى لعظم شفتيه ، وهو من عشيرة الإواس بن الحجر بن المهنء بن الأزدي البهنية ، وقبل إنه لم ينشأ بطنيا ، فقد وقع أسيرا وهو صبي في بني شبابة بن فهم ، فانتفى إليهم ، ولم يزل فيهم حتى أسر بنو سلامان ابن مفرج - من الأزدي - رجلا من بني شبابة ، فلقبت بنو شبابة هذا الرجل بالشنفرى ، وكان في بني سلامان لا تحسبه إلا واحدا منهم ، حتى أساء إليه رجل كان الشنفرى خطب إليه ابنته ، فثار عليهم ، ورجع إلى بني فهم ، وواصل إغاراته على بني سلامان حتى قتل منهم كثير .

وقيل إن سبب ثورته على بني سلامان أنهم قتلوا أباه ، فقرر أن يثأر له منهم ، وما زال على ذلك الحال حتى قتل منهم تسعة وتسعين ، فرصدوا له كميناً وقع فيه فقتل ومثلوا به .

وكان يصاحبه في كثير من غاراته تأبط شرا ، حتى قبل إنه هو الذى درب الشنفرى على الصلابة وقطع الطريق ، وما زال إلى جواره حتى أصبح له شأنه في ذلك الميدان (١) وتسكد الروايات التى بين أيدينا تتفق في عدم تحديد زمن ولادته وزمن وفاته ، بل الجيل الذى عاش فيه ، بيد أن هناك من الشواهد التاريخية ما يرجع أنه عاش في الفترة القريبة من مجيء الإسلام في العصر الجاهلى .

ويردد الباحث نظره في منشأ الشنفرى فيجد أن المنشأ السكاني له كان في المنطقة

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٨٧ طبع الساسى ، وخزانة الأدب ج ٢ ص ١٤ ، وذيل الأمالى ص ٢٠٨ وما بعدها ، وشرح المفضليات لابن الأنبارى ص ١٩٥ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربى لبر وكران ج ١ ص ١٠٥ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

الجبلىة الواقعة بين مكة والمدينة ، والمعروفة ببجبال السراة . ويجد أن للشعرا الاجتماعى له كان بين قوم لا تعرفون به واحدا منهم ، فكان مكانه منهم نابيا ؛ فهو منذ طفولته تضطره ظروفه ثم مجتمعه إلى أن يتقلب بين الحرمان والامتهان ، فأحس بمسراة الحياة ، وقسوة الدل منذ صباه .

وهكذا تتجمع المؤثرات التى تفرض على الشغرى تفكيره وقيمته وسأوكه ، وتفرض عليه أسلوبه فى معالجة الأمور ، وأسلوبه فى التعبير عما يجيش بصدرة ، وما يضغظ على حسه وشعوره .

شعره :

واضح من حياة الشاعر ونشأته أنه صادف من ألوان القسوة وضروب الحشونة ما جعله يأوى إلى الجبال ، ويشذ على حياة الجماعة ، ويأنس إلى الصغر الأصم فرارا من صخر القلوب إلى لفظته ، ويرتاح إلى القرب من وحوش اللوات ؛ فهو ثورة عارمة على كل ما ورث وتعلم فى صباه ليس فى منهج الحياة فحسب ، بل فى منهج التعبير . من ثم يلاحظ الناظر فى شعره أنه أمام شعر ذى سمات وخصائص تختلف كثيرا عن شعر معاصريه .

فهو شعر بدوى خشن غليظ الطباع ، يستمد معانيه وخيالاته من طباعه وأخلاقه ومن بيئة الحشنة الموحشة التى آثر الحياة الحرة فيها على حياة الدل والهلوان فى مجتمع مستأنس .

وهو شعر فرد حر جرىء ، لا بهاب أحدا ، ولا يخضع لقانون جماعة ، ولا يلتزم إلا بما تمليه عليه حياته هو من قيود وعادات ، فهو فى ألفاظه ساذج لا يلجأ إلى التهذيب ، ولا يضطر إلى الانتقاء ، وهو فى عباراته فطرى لا يعتمد التلسيق أو الزين .

وهو شعر نائر خارج على ما اعتاده الناس من تقاليد مأثورة ، وعادات متوارثة ، فهو فى أسلوبه الشعرى متجاوز ما الرمه الآخرون من مطالع يبدأون بها مصائد ، أو أفسار بنتقلون بواسطتها إلى غرضهم الأصيل . . . ولكنه بتأثير ثورته وفطريته لا يجد ما يدعو إلى التهميد والتقديم ، بل هو - فى الغالب - يواجهك بموضوعه صريحا على غير موارد ، واضحا فى غير عمل أو صنم .

ثم هو شعر صعلوك فانك ، يقتل ويسلب ، فهو لا يفخر إلا بما يمارس ، ولا يمتز
إلا بما تقوم عليه حياته ، فهو إن وصف حياته ، وما يتصل بجرأته من غارات ومفاجآت
وقتل وتشريد وتأيم نساء ، وتيتيم أطفال . وهو إن حر ، خمر بقيمة وبما ارتضاه
لنفسه من ألوان السلوك ؛ فهو يفخر بفقره وجوعه ، وحربته وإبائه وعزة نفسه ، وبما
اضطرته إليه حياته من إهمال لنظافة جسمه حتى أصبح مشعث الشعر تدلق به الأوساخ
وأبمار الإبل ،

وقد تماثلت كتب الأدب أشعارا متفرقة له في الفخر والحلماسة ، ومن أشهرها
قصيدته اللامية المعروفة بلامية العرب ، وفي نسبتها إليه شك فقد نقل أبو علي الفارسي
عن ابن دريد أنها من صنع حالف الأحمر (١) ، وقد كلف بشرحها كثير من الدارسين
العرب مثل اللبرد ، وثعلب ، والزمخشري ، والنريزي ، والهمكيري ، وفيها يقدم
صورة حية ترى فيها حياته البدوية الوحشية ، فاشعر أنك تصاحبه في مفاخراته ومفاجآته ،
وليست اللامية هي القصيدة الوحيدة التي تقدم هذه الصورة من بين شعره ، بل هكذا
شعره كله ، مثال ذلك ما قاله في تأنيته الطويلة التي جاءت في المفضليات يعرف إحدى
غاراته التي قام بها في جمع من الصعاليك على سلامان :

وباضمة حمر القى بعثها ومن يغز بغم مرة ويشد (٢)
خرجنا من الوادي الذي بين مشعل وبين الجبا، هيات أنشأت سربتي (٣)
أمشى على الأرض التي لن تضرنى لأنسكى قوما ، أو أصادف حتى (٤)
أمشى على أين الغزاة وبسدها يقربني منها رواحى وغدوتي (٥)

(١) الأمل إلى ج ١ ص ١٥٧

(٢) الباضمة : القاطعة . ويريد بها رفاقه ، بعثها : غزوت بها ، حمر القى : يقال
إنها تحمر لقدمها وطول تمرضها للشمس : يخفق .

(٣) أنشأت : أظهرت من مكان بعيد ، السرية بصم السنين وسكون الرأ : الجماعة .

(٤) أنسكى العدو بفتح فسكون مكسر : أهرمه ، ألحمة بضم الحاء : المية .

(٥) الأين : التعب :

— ١٢٣ —

يشير في مبتدأ حديثه إلى أنه كان يقود الجماعة ويعرفهم الطريق الذي سلكوه ، كما يشير إلى أنهم كانوا في تلك النارة راجلين . ولا يجد غصاصة في أن يعترف بأن النارة مرة له وأخرى عليه ، فهذا من السمات ، ولذلك فإخفاقهم في غزوة لا يعنى إحجامهم عن معاودتها ، بل إن ذلك يدعمهم إلى إعادة النارة ، لتحقيق المراد ، دون أن يكون لمشات الطريق ولا لتوقع الموت أثر ، ثم يصف بعض ألوان الحياة التي تنتظم جماعتهم في أثناء تحركهم للنارة في صورة تكشف عن ترابطهم الأسرى بحيث يقوم أحدهم وهو تأبط شرا بدور الأم في البيت :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم	إذا أطعمتهم أو تحت وأفانت (١)
تخاف عليها العيل إن هي أكثرت	ونحن جيع ، أى آل تألت (٢)
مصعلكة لا يقهر الستر دونها	ولا ترجى للبيت إن لم تبيت (٣)
لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً	إذا آتست أولى العدى أقشمرت (٤)
وتأنى العدى بارزا نصف ساقها	تجول كعير العانة المتلفت (٥)
إذا فزعوا طارت بأبيض صارم	ورامت بما في جفهرها ثم سلت (٦)
حسام كلون الملح صاف حديده	جراز كأقطاع الغدير النمت (٧)

- (١) أم عيال : يقصد تأبط شرا ، أرتحت : قترت وأفانت .
- (٢) الميل بالفتح : الفقر ، أى آل تألت : أى سياسة ساست ، من آله بمعنى : ساسه .
- (٣) مصعلكة بكسر اللام : صاحبة صماليك . لا يقهر الستر دونها : لا يغطي أمرها .
- (٤) الوفضة بفتح فسكون : الجعبة ، السحدف بفتح السين والحاء : السهم عريض النصل ، العدى بفتح فسكون : العداءون ، وأولى العدى : طلائع الأعداء ، أقشمرت : تهيأت للقتال .
- (٥) بارزا نصف ساقها : كناية عن الجذ في الأمر ، عير العانة : حمار الوحش في الآن .
- (٦) الجفر بفتح فسكون : الجعبة ، رامت بما في الجعبة : أى بسهامها .
- (٧) جراز بضم الجيم : قاطع ، أقطاع الغدير : الماء فيه .

تراها كأذنان الحسيل - وادرا وقد نهات من الدماء وعلت (١)

يذكر أنهم في أنساء معامراتهم يخضعون لنظام قاس تفرضه ظروف معيشتهم ،
فيصور مايقوم به تأبط شرا - الذي كفى عنه بألم العيال مداعبة - من توزيع الطعام
بقدر خشية أن تطول بهم أيام الفسادة فينضب زادهم ، وينتقل من ذلك إلى توضيح
حقيقة تلك الأم ، فيبين أنها ليست أما حقيقية تستر وتبيت في الحيام ، بل هي صاحبة
سمائك ، لها جمية سهام - تواجه بها المعتدين - في جد وعدة .

ويواصل الشفري حديثه ، فيقف على مقصدهم من تلك الفارة ، وهو الثأر لأبيه
من بني سلامان :

جزينا سلامان بن مخرج قرضها	بما قدمت أيديهم وأزلت (٢)
وهيء بي قوم وما إن هنأتهم	وأصبحت في قوم وليسوا بمنبي (٣)
عفينا بهد الله بعض غليلنا	وعوف لدى الممدى أوان استهات (٤)
إذا ما أتني ميتي لم أبالها	ولم تذر خالاتي الدموع وعمي
وإنى لحلو إن أريدت حلوتي	ومر إذا نفس المزوف استمرت (٥)
أبي لما آبي سريع مباءتي	إلى كل نفس تلتعي في مسرتي (٦)

يفخر بأنه قام على رأس جماعته فثأر لأبيه من بني سلامان ، ورد لهم دينهم ،
وذلك بقتل رجلين من أهم رجالهم هما عبد الله وعوف ، فشنى بعض غايله . ثم يوضح

(١) الحسيل جمع حسيطة : أولاد البقر ، النمل : الشرب الأول ، والعلل الشرب المكرر .

(٢) أزلت : قدمت .

(٣) يعني أن قومي الأزدي مشون بشجاعتى ، بينما أنا لا أهتوهم لأنهم لا يلتفتون بي ،
فأنا أعيش بين قوم ليسوا أهلى ، إشارة إلى نزوله في بني قهم .

(٤) الغليل : المعطش ، وهو هنا العطش إلى القتل ، الممدى : موضع العدو ،
ويريد به : ساحة المعركة ، أوان استهات : في وقت ابتدائها .

(٥) العروف : المنصرف عن الشيء ، استمرت : من المراتة .

(٦) الباءة : الرجوع ، تلتعى في مسرتي : تجد في سرورى .

أنه لا يهاب الموت ، ولا يشفق على من يبيكه من خاله أو عمه ، لأن أحدا من هؤلاء لن يبيكه ، وأنه ليس بفطرته محبا للقتل ، وإنما هو على حسب من ياملونه ، يحولن يريد حلاوته فلا يعتدى عليه ، ويعر إذا أهين أو مست كرامته ، لا يقبل ما يكره ، ولكنه سريع الرجوع إلى من يسمى بمجد في مسرته .

وهكذا سار الشنفرى فيها وصلنا من شعره يصور غاراته ، ويفخر بما ارتضاه الصالحين من قيم ، وما تخلقوا به من خلال ، معبرا عن ثورة نفسه على مجتمعه ، مصورا ما يمتاز به من صفات جسمية اكتسبها من نظام حياته ، وتطلبها ما ارتبط به فيها .

٥ عروة بن الورد

أشأته وحياته :

هو عروة بن الورد بن ريد العسوى ، لقب بعروة الصماليك لجمعه إياهم ، وقيامه بأمرهم إذا أحفقوا في غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى . وقيل : بل لقب بذلك لقوله :

لحى الله صملوكا إذا جن ليلته مصافى للشاش آلا كل مجزر (١)
يمد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر (٢)
ولله صملوك صنيحة وجهه كضوء شهاب القابض المنثور (٣)

كان لأبيه دور كبير في نشوب الحرب بين عبس وفزارة (حرب داحس والغبراء) فهو الذى راهن حذيفة (٤) أما أمه فكانت من نهد من قصاعة ، وكانت عشيرة وضيفة ، لم تعرف بشرف ولا خطر ، فأذى ذلك عروة ، وأحس بأن عاراً يلحقه من قبلها ، فقام (٥) :

ومابى من عار إخال علمته سوى أن أحوالى - إذا نسبوا - نهد

ونبحث عن السر الذى دفع عروة إلى الصلابة ، فلا نعثر على ما يشفى ، إذ نلاحظ أن أمه كان من أشراف قبيلته ، فهو لم يكن الصملوك عن فقر واحتياج ، ولا كان عن شذوذ في الخلق والسلوك ، ولا كان عن غربة من قبيلته يدم بها ويماب . ولكنه - على ما يبدو - انجده إلى الصلابة استجابة لثوره في نفسه على مسلك بعض الأعياء

-
- (١) لحى الله فلانا : قبحه ولمنه ، المصافى بضم الميم : الملازم المؤلف المشاش بضم الميم وفتح الشين : كل عظم هشى دسم .
(٢) يسر الرجل بفتح السين الضعفة : سهات ولادة إبله وعنمه .
(٣) الأغانى ج ٣ ص ٧٣ . (٤) للرجع السابق ج ٣ ص ٨٨ .
(٥) الديوان ص ١٥٧ .

في مجتمعه ، فاحترف الصلصلة باعتبارها وسيلة لداية هي في ذاتها أبرز مظاهر البطولة والفروسية ، فيها ينال من مال الفى ما يلبى مطالبه ومطالب ذوى الحاجة ممن تقصر أيديهم عن الوصول إليها ، وكان يجمع الفقراء الصماليك ويتوهم بشأنهم ، يصحب القادر منهم في غاراته ، ويؤوى الآخرين في مأمن يعود إليهم فيه بنصيبهم من مغامراته (١) .

وهكذا قضى عروة حياته في حماية الفقراء والمرضى والمستضعفين من غائلة الفقر وعناء الحاجة ، متخيرا مريسته - في أغلب الأحيان - من بين من عرفوا بالشح والبخل والقسوة ؛ فالصلصلة في رأيه وسيلة من وسائل التكافل الاجتماعي ، يأخذ بواسطتها ممن لا يفكر إلا في نفسه حقوق الضعفاء والمحتاجين ، وبهذا فارق غيره من الصماليك .

شعره :

يتضح من شعر عروة مذهبه في صلصكته ؛ فهو دائم التردد لمبادئه ، حريص على الإشارة إلى عايتيه من غاراته ، حتى نال إعجاب من جاءوا بعده ، كما نال إعجاب معاصريه ؛ سمعنا معاوية (٢) : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم ، وسمعنا عبد الملك بن مروان يقول : ما يسرى أن أحدا من العرب ولدى من لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله

إني امرؤ عافى إنائي شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد (٣)
أنهزأ مني إن سمعت وأن ترى بجسمي شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد (٤)

فهو إنسان كريم يؤثر على نفسه ، ويشترك معه غيره في طعامه بل قد يكتفى بشرب للماء الخالص ، مؤثرا غيره بكل طعامه حتى أصبح كمن يفرق جسمه على أجسام الآخرين

(١) الأغاني ج ٣ ص ٧٨ وما بعدها .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٧٣ ، ٧٤ والشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٧٥

(٣) العافى : طالب المعروف، وأنت امرؤ عافى إنائك واحد كناية عن أكله وحده .

(٤) أحسو : أشرب شيئا بحد شيء ، القراح بفتح القاف : الخالص الذي لا يخالطه لبن ولا غيره .

ومن جيد شعره رائيته التي رواها له الأصمعي^(١) ، يحكي فيها ما دار بينه وبين امرأته سلمى ، ليصور في أثناء ذلك همته ونبل خلقه :

تقول : لك الوليات هل أنت تارك ضبوءا برجل تارة وبمسر^(٢)

يقول إن سلمى تستحق على ترك الصلابة والكف عن الفارات ، وتملن عن ضيقها باستمرارى في ذلك ، وخوفها من أن ألقى حتفى في إحدى تلك الفارات . فأجيبها بقولى .

أبى الحفص من يشاك من ذى قرابة ومن كل سوداء المعاصم تغرى^(٣)
ومستشفى ، زيد أبوه ، فلا أرى له مدمما ، فاقى حياءك واصبرى^(٤)

إن روجك لا يرضى بلين العيش والدعة لشموه بأن عايه لأقربائه المحتاجين واجبات لا بد له من أدائها لهم ، فالزحى حياءك واصبرى على ما أحمل ، لأنى لا أعزو إلا وفاء بحقوق هؤلاء ، فأنا لست من هؤلاء الصعاليك الذين لا يهمهم من مجتمعهم أحد ، بهذا بذلك لتقديم صورتين لنموذجين مختلفين من الصعاليك .

أولها سيف الهممة ، يرمى بالهدون ، حامل ذليل ، يمشى عالة على الآخرين .

لحى الله صملوكا إذا جن ليلته مصافى المشاش آلفا كل مجرر
بمد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قرأها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح قاهدا بحث الحصا عن جنبه المتعفر^(٥)
يمسك نساء الحسى ما يستمنه ويصهى طليحا كالبعير المحسر^(٦)

(١) الأصمعيات ص ٣٥ طبع دار المعارف .

(٢) الضبوء بضم الصاد . الغزو ، والرجل بفتح الراء جمع راجل . ضد الرأكب ، المنسر كجلس ومنبر . الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الحفص . الدعة ولين العيش ، سوداء المعاصم يريد به التى أحدها الجوع والهزال ، تغرى . تنشى .

(٤) مستشفى . طالب المنه وهو المطء ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه ،

فاقى حياءك . الرمية . (٥) بحث . يحرك .

(٦) الطليح . المني ، ومثله المحسر بضم الميم وفتح الحاء

والصورة الثانية ترىنا الصعلوك الشريف القدى يعجب به عروة ، أعماله مجيدة ،
يظفر من أهدائه بكل ما يريد ، على الرعم من صياحهم به ، وبسدم عنه . . ومثل
هذا الصعلوك محمود الذكرى ، جدير بأن يشجعه الآخرون ويثنوا عليه :

ولله صعلوك صعيدة رجه - كضوء شهاب القابس التنسور
مطلعا على أهدائه يحرره - بساحنهم زجر المييح المشهور (١)
وإن بسدوا لا يأمنون اقترابه - تشوف أهل العائب المنتظر (٢)
مذلك إن يلقي المسية ياقما - حميدا ، وإن يستغن يوما بأجدر

ثم يقرر أنه من الصنف الثانى ، فهو لا يقبل أن يرى عشيرتى معتم وزيد تهلك
ولا يخاطر من أجالهما ، لذلك هو ينتحم مع بعض رفاقه حتى بعض القبائل ليسوقوا
منها ما يقومون به على حاجة الأضياف والمحتاجين :

أيهلك معتم وزيد ولم أقم - على نذب يوما لى نفس مخطر (٣)
ستفرع بعد اليساس من لا يخافا - كواسع فى أخرى السوام المذفر (٤)
بطاعن عنما أول القوم بالقنسا - ويهض حفاف ذات لون مشهور
ويوما على غارات نجد وأهله - ويوما بأرض ذات شت وعرعر (٥)
يريح على الليسل أضياف ماجد - كريم ومالى سارحا مال مقتر (٦)

وصفوة القول كان عروة صعلوكا شريفا ، جعل من الصعلوك سبيلا للسيادة والمروءة .

(١) اللطل : للشرف ، يجرونه . يصبحون به ، المنيح بفتح الميم ، قدح سريع
الخروج ولا نصيب له المشهور : المذهور .

(٢) التشوف : التطلع ، المنتظر بفتح الظاء : المنتظر قدومه .

(٣) معتم وزيد : بطنان من بطون عبس النذب : بفتح النون والهدال : الخطر .

(٤) السكواسع : الخيول تطرد الإبل وتسكسها ، السوام : الإبل السائمة ، المذفر

بفتح الفاء : المذهور .

(٥) الشت بفتح الشين ، والعرعر ففتح العينين : من أشجار البادية .

(٦) يريح . يرد ، ويكى بالماجد الكريم عن نفسه ، السارح : السائم فى المرعى ،

المقتر : الفقير المقل .

ومظهوراً من مظاهر اللروسية ، حقق بها ما كان يصبو إليه من ارتفاع بمستوى
 للفقراء ، وما كان ينطوى عليه من إنباش للأهل والعشيرة ، وما كان ينزع إليه من حياة
 إجتماعية تقوم على التكافل والتعاون . ولقد استطاع عروة أن يقرر كل ذلك في
 شعره ، إذ كان وسيلته التي يصور فيها مبادئه ومغامراته . بحيث تكاد لاتعثر في شعره
 على غير ذلك من فنون الشعر . كما كان صريحاً في الكشف عن مكثون نفسه ، واضحا
 في عرض أفكاره ، دون التواء أو إبهام ؛ فشعره نموذج للأدب الإنساني في قيمه
 وأخلاقياته ، وفي منهجه في عرض أفكاره ، وبناء صورته ، وتركيب عباراته ؛ بشعره
 مرآة صافية تمكس صورة نفسه وأسلوب حياته .

الفصل الثاني

فنون الشعر البدوي

الناظر في الشعر البدوي يلاحظ أن الشعراء استجابوا فيه لمتطلبات البادية وأخلاقياتها ، بحيث لا تجد حروجا من الشاعر على وسطه القوي يخاطبه ، أو يستجيب لمؤثراته ؛ فهو ملتصق تماما بمن يردد شعره على آذانهم ، حريص كل الحرص على أن يكون متلائما مع ما يرضيهم .

والناظر في متطلبات البادية وأخلاقياتها يلاحظ أن ظروف الحياة في العصر الجاهلي فرضت عليها أن تعيش في جو حربي شبه دائم ، فالقبيلة لا تخرج من حرب إلا لتقع في أخرى ، إن لم يكن لدفع عدو فهي لفرض سلطان ، أو انتقاما من معتد إلى غير ذلك من الأسباب التي كانت وراء اتصال الحرب بين ساكني البادية في تلك الفترة ؛ فالحرب وما يتصل بها هي الشغل الشاغل للبدوي ، حتى في وقت السلم - على ضيقه - هو في استعداد وثأب ، يقتنص السيف الماضي ، ويسعى للحصول على الرمح القوي ، ويمتد بالجواد المدرب . فإذا خرج من ذلك الإطار لم يجد إلا قيم قبيلته وأعرافها فأخذ يدور حولها ، يستمرضا ويفخر بها ، ويصف أبنائها . وأقصى ما يخرج به شاعر البادية عن جو الحرب أن يصطبغ امرأة يميل إليها ليكمل منها مثالا يتعبد في محرابه ، ويدور في فلسكه ، فهي سماء يتطلع إليها . وهي طهر يحمية من أي دنس يمس ، وهي رمز يندفع بسره إلى الموت غير مبال ولا هياب ، وإذا غابت عنه أو ارتحلت استوقف للنوق أمام ديارها ليجتمع النفس بالحياة في كنف منازلها تمويضا لما أصابها من فراقها .

ولقد نظر الآقدمون في الشعر العربي للتعرف على قوامه وموضوعاته وتسميتها ووضع كل منها تحت العنوان القوي يناسبه فاحتلوا اختلافا كبيرا لاختلاف المنهج .

فأبو تمام - مثلا - يقدم الشعر العربي من خلال عشرة موضوعات هي الحماسة ، والمرأى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومهم المديح ، والسفقات ، والسير والبعاس ، والملح ، ومذمة النساء .

وصاحب البرهان يقدمه في أصناف أربعة هي : المديح ، والمهجاء ، والحسكة ، واللمز ، ثم يفرع عن كل صنف منها فنونا (١) .

أما صاحب العمدة فينقل عن بعض العلماء أن أركان الشعر أربعة هي : المدح ، والمهجاء ، والنسب والثناء (٢) . وجعل أبو هلال العسكري أبرزها ستة هي المدح ، والمهجاء ، والوصف ، والنسب والمرأى ، والفخر (٣) .

بيد أن الناظر في مظاهر ذلك الاختلاف يدرك أنه اختلاف شكلي يرجع إلى الإجمال والتفصيل ، وليس مرجسه إلى إنكار غرض نسب إليهم ، أو إضافة غرض ليس لهم . حق إن باستطاعتنا أن نرجع كل هذه الفنون إلى غرضين اثنين هما : المديح والمهجاء ، على عد الحماسة والنسب والمرأى وبعض الوصف وبعض الاعتذار مديحا ، وعد بعض الوصف وبعض الاعتذار مهجاء لسكن إذا كان التفصيل المبسوط غير مقبول لما فيه من التعصيع والترديد ، فإن الإجمال كذلك غير مقبول لما فيه من الإخلال بصورة الشعر ، والطريق الأمثل فيما أرى هو أن نراعى في التقسيم مبني الشعر ومسار الشاعر فيه وغايته التي يريد أن يصل إليها من تعبير . ومن هذا المطلق وبالنظر فيما أتيسر لي من الشعر البدوي أستطيع أن أقرر أن فنون الشعر البدوي في العصر الجاهلي هي الفخر . والمهجاء ، والمدح ، والثناء ، والغزل ، والوصف وذلك لأن باعث الشاعر البدوي إلى قول الشعر لا يكاد يخرج عن هذه الفنون الستة ؛ حيث ينطلق لسانه مادحا قومه ونمسه مفتخرا بما فيهم من شمائل وصفات ومالهم من مكانة وعزة بين غيرهم من قبائل البادية ، والشاعر في أثناء ذلك يحس دسسان قومه ويحتمل على الانتفاض في وجه عدو أو لشجدة مظلوم ، أو للثأر من معتد . أو هاجيا خصما تعداد مثالبه وعيوبه ، أو بأكيا عزيزا مات أو قتل ، أو باسطا القول في امرأة نشأت بينه وبينها روابط عاطفية ، أو مقبلا على ما يلفت النظر ويحتذب الانتباه بالوصف . والشاعر البدوي في تناول كل من أسلوبه الذي يتناسب مع وسطه الفنى ، ويحقق له الملائمة الفنى ، على اختلاف بين الشعراء في ذلك .

(١) البرهان في وجوه البيان لابن وهب السكاكيب ص ١٣٥ بتحقيق الدكتور حفي شرف

(٢) العمدة لابن رشيقي ج ١ ص ١٢٠ بتحقيق الشيخ محمد عبي الدين .

(٣) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٣٧ بتحقيق علي محمد البجاوى .

(١)

الفخر :

الفخر تعداد ما يشتمل عليه الإنسان من الفضائل والحمد ، والتباهى بمميزه بين أفراد قبيلته أو مجتمعه بذلك . وميدان الفخر أمام الشاعر أرحب ، وخوض الشاعر فيه أسره إذ هو فيه متبوع للصفات التي يمجج بها ماصروه ليفخر باتصافه بها أو انصاف قومه ، مستقص للشمائل التي يحتفل بها مجتمعه ليفخر باشتاله عليها أو باشتال قومه :

من ثم كان الفخر حراًة تمكس على صفحتها قيم الشاعر ومجتمعه ، وأبرز الصفات السائدة ، والفضائل التي يسمى القوم إلى كسبها والحمد التي يودون الانصاف بها .

فإذا نظرنا في شعر الفخر البدوي ، وجدنا من أبرز الصفات التي يحرص كل شاعر بدوي على الفخر باتصافه بها هو وقيلاته :

١ - الفروسية وما يتصل بها من إقدام وشجاعة وقوة وعسكن من الأساليب الحربية ؛ وذلك لأن ظروف الحياة في البادية فرضت على ساكنيها لونا من الصراع الدائم مع الوحش ، ومع الطبيعة ، ومع الإنسان ، فهو لا يخرج من معركة إلا ليدخل في أخرى .

ولا ريب في أن الصفة المثلى التي تسود مثل هذه البيئة هي الصفة التي يمسكها هذا اللون من الحياة :

ولا ريب في أن كل مرد في هذه البيئة متعلق منذ الطفولة بكل صفة تتطلبها تلك الصراعات والحروب ، والتي تجتمع في صفة الفروسية والإقدام .

فهذا عمرو بن كلثوم يفخر بشجاعة قومه - في قصيدته المعلقة - ويمجد فرسان قبيلته ، فيصف ما يحدثه هؤلاء الفرسان الأبطال في حصومهم من دمار وهلاك ، ويقرر أن مثل هذا ليس بفريب على قوم مدريين على الحرب أحسن تدريب ، حياتهم سلسلة من الحروب لا تتوقف ، وأسلحتهم من أجود الأسلحة .

وفي سبيله إلى ذلك يذكر الشاعر لنا أحداث معركة وقعت بين قومه وبين خصومهم

في قالب قصصى يكشف فيه عن شجاعتهم في مواجهه خصمهم العنيد المدحج بالسلح،
مثل قوله فيها :

أيا هسد فلا تمجّل علينا وأنظـرنا تخبرك اليقيننا
بأننا نورد الرايات بيضا ونصدر هن حمرا قد رويننا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديننا
وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحمى المحجريننا^(١)
تركنا الحيل عا كفة عليه مقلدة أعنتها صفـونا^(٢)

• • •

متى نقل إلى قوم رحانا يكونوا في اللقاء طحيننا^(٣)
يكون ثفـالها شرقى نجد ولهوتها قضاة أجمعينا^(٤)
نزلتم منزل الأضياف منا فأعلموا القرى أن تشتمونا
قرينناكم فمجلنا قراكم قبيل الصبح مرداة طمعونا^(٥)
نعم أنا سنا ونعم عهم ونحمل عنهم ماحملونا
وطاعن ماتراخى الناس عنا ونضرب بالسيف إذا غشنا
بسر من قنا الخطى لدن ذوابل أو ببيض مختلينا
كأن جماجم الأبطال فيها وسوق بالأماز يرتعينا^(٦)
نشق بها رؤوس القوم شقا ونختلب الرقاب فتخلينا^(٧)

-
- (١) المحجر - بضم الميم وفتح الجيم - الملجأ ، يقال : أحجرتنه إذا ألجأته .
(٢) المكوف : الإقامة ، والصفون جمع صافن : الفرس إذا قام على ثلاث قوائم
وثنى سلبكه الرابع .
(٣) الرحى : أراد بها الحرب .
(٤) الثفال : خرقه تبسط تحت الرحى ليقع عليها الدقيق ، اللهوة : التقبضة من الحب
تلقى في فم الرحى .
(٥) المرادة - بكسر الميم - الصخرة التى يكسر بها الصخور .
(٦) الوسوق جمع وسق : حمل البعير ، والأماز جمع أمةز : السكان كثير الحجارة
(٧) تختلب : تقطع بالخلاب .

- ١٣٥ -

وإن الضغن بعد الضغن يبدو عليك وبمخرج الداء الدفينا
كان سيوفنا مينا وفيهم غباريق بأبدي لا عيننا
كان ثيابنا منا ومنهم خضبن بأرجوان أو طلينا

والناظر في هذه الآيات يلاحظ أن الشاعر يمتد في عرض مفاخره ومفاخر
قومه على الأسلوب الوصفي والأسلوب القصصي، فهي قصة وصفية، يميل الشاعر في
تقديم أحداثها إلى الإيجاز النسي القائم على الإيجاءات والامتداعات، والتذكير
بالمضى المشهور، فيكفي أن يوجه إلى أحداث الماضي في قوله: (وألم لنا غر
طوال . . الخ) ليستحضر المخاطب أحداث تلك الأيام ووقائعها، ويقف على ما كان
فيها من فرسان قوم الشاعر.

* * *

وهذا دريد بن الصمة يعلن في قصيدته البائية بصوت جهوري أنه ثار لأخيه
عبد الله، فأنزاح الكابوس الذي طالما كنتم أنفاسه، ولكنه لم يسترح تماماً، فما زال
في نفسه أشياء لا يشفيها إلا مواصلة الانتقام.

فالشاعر يذكر أنه وجمع من قبيلته ظفروا بأعدائه من مرارة، فأعملوا فيهم
السيف من كل جهة، وبكل كيفية، حتى ثار لأخيه عبد الله بقتل أفضل رجل يقاربه
في السن، وأوقعوا بخصومهم جميعاً، حتى أشبعوا الوحوش الجائعة من جثثهم، ولا يكتفى
بما صنع، بل يواصل بعد ذلك تهديده ويعلن أن سوف يعيد الكرة عليهم متى سنحت
الفرصة، وذلك في قوله:

ويا راكباً إما عرضت فباتن أبا غالب أن ثأرنا بفـالب (١)
قتلت بمسد الله خير لهام ذؤاب بن أسماء بن ريد بن قارب (٢)
فلقوم سميتم فزارة فاصبروا لوقع القنا تنزون نزوالجناد (٣)

(١) عرضت: أتيت العروض، يريد مكة والمدينة وما حولهما.

(٢) اللدات جمع لدة: من ولد معك في وقت واحد.

(٣) النزو: اللوب. والجناد جمع جندب: ضرب صنير من الجراد.

تكر عليهم رجلى وفوارسى وأكره فيهم صمدتى غيرنا كب^(١)
 فلن تدبروا يأخذنكم فى ظهوركم وإن تقبلوا يأخذنكم فى الترائب
 وإن تسهلوا للخيل تسهل عليكم بطن كبايزاغ الخاض الضوارب^(٢)
 ومرة قد أخرجهم فتركهم يرغون بالصلعاء روع الثعلب^(٣)
 وأشجع قد أدر كنهم فتركهم يخافون خطف الطير من كل جانب
 وتعلبة الخنى تركنا شر يدهم تعللة لاه فى البلاد ولاعب
 ملئت قبورا بالمخاضة أحسرت فتخبر عنا الخضر خضر محارب^(٤)
 رد سناهم بالخيل حتى تملأت عوافى الضياع والذئاب السواغب^(٥)
 خربنى أطوف فى البلاد لعانى ألقى بإثر ثلة من محارب

* * *

ومثله قول عترة مقتحرا بنفسه ، معترضا بقوة وجراته وشجاعته ؛ مقررًا أنه من أفضل قبائمه ، وكأنه يرد بذلك احتقارهم إياه لسواد لونه :

إنى امرؤ من خير عبس^(٦) منصبا شطرى ، وأحمى سائرى بالنصل^(٦)
 وإذا المكتبة أحجمت وتلاحظت ألقيت خيرا من صمم محول^(٧)
 والحيل تعلم والفوارس أنى مرقت جمهم بضربة فيصل^(٨)

(١) الرجل جمع راجل : المشاة ، والصددة : القعدة ، وغير ذاك كب : غير عادل عنهم .
 (٢) أسهل : نزل السهل من الأرض ، والخاض : الحوامل من الذوق ، والضوارب :
 الواقع ، وإيزاغها : أن ترمى ببولها ، شبه رشاش الدم من الطعنة برشاش بولها .
 (٣) يرغون : يذهبون هنا وهناك * والصلعاء : مكان معركة مع مرة .
 (٤) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب - بضم الحاء وسكون
 الصاد قبيلة .

(٥) رد سناهم : رميناهم ، والضياع العوافى : الجوائع ، وكذلك الذئاب السواغب .
 (٦) المنصب - تكسر الصاد - الأصل ، والنصل - بضم فسكون وضم - السيف .
 (٧) المكتبة : الجماعة إذا اجتمعت ولم تنتشر ، وتلاحظت : نظرت من يقدم على العدو .
 (٨) القيص : الذى يفصل بين الناس .

وكثيرا ماتحولوا بشعرهم الفخري فخصوه لوصف آلات الحرب ، من رماح
وسيوف وحياذ ، طى نحو ماصنع أوس بن حجر فى لاميته المشهورة ، وسوف نمرض
لذلك فى دراستنا لنن الوصف إن شاء الله تعالى .

* * *

٢ - الكرم ، وعفة النفس ، والبجدة ، وفى الغالب يجمعون هذه الصفات أو
بعضها إلى الفروسية ، حيث لا يفرقون بين الفخر بالفروسية وهذه الشجائل ؛ إذ كل
هذه الشجائل فى تصورهم مظاهر للفروسية لانفصل عنها .

والشاعر البدوى كما يخص نفسه بفخر بهذه الصفات ، يفخر بانصاف قومه جميعا
بها ، فهو لا يقطع نفسه من قبيلته ، فإذا خسر نفسه فهو إنما يفخر بفرد من قبيلة ، وإذا
سخر بقبيلته فهو إنما يفخر بأصل نبت هو منه . ولم يشذ من ذلك سوى عترة فى الفترة
التي أنسكر نسبتها فيها قومه وأبوه ، فقد ركر فيها شجره بنفسه فروسية وعفة نفس
وسخاء وبجدة إلى غير ذلك . كما فى قوله يخاطب ابنة عمه مالك ، ممددا مفاخره ،
مباهايا بما التسم به من شجاعة وعفة نفس ، وذلك قوله :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك	إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقائع أنفى	أعشى الأوعى وأعف عند الغنى
لما رأيت القوم أقبـل جمعهم	يتدامرون كررت غير مدمم ^(١)
يدهون عنتر والرماح كأنها	أشطان بشر فى لبان الأدم ^(٢)
مازلت أرميهم بنـرة وجهه	ولبانه حق تـسريل بالدم
هازور من وقع القسا بلبانه	وشكا إلى بعسيرة وتحمم ^(٣)
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى	ولسكان لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها	قيل الفوارس: وليك عنتر أقدم ^(٤)

(١) يتدامرون : يحض بعضهم بعضا على القتال .

(٢) الأشطان جمع شطن - بفتحين - جبل البئر - شبه الرمح به لطوله ، واللبان
- بفتح اللام - الصدر ، والأدم : الفرس الأسود .

(٣) ازور : مال ، والتحمم : الصوت المقطع دون الصهيل

(٤) ويل : كلمة يقولها للمتدم إذا ندم على ما فرط منه ، واسكترة استعمالها ألحقت
بها السكاف . وقيل : (وى) بمعنى أعجب أو عجباً لك يا عنتر .

ويلاحظ أن الشاعر في تصوير فروسيته ما دقق الحس ، يفظ الشاعر ، متمكن من مادته الشعرية ؛ إذ يستخدم من أساليب التصوير ما يضمن للصورة الحياة والصدق ، ويحقق لها السطوة والقدرة على جذب الأنظار ؛ فقد استخدم فيها الحركة المختلفة على حسب الأشخاص الصادرة عنهم ، وأرانا قوة أعدائه في رماحهم الطويلة التي بلغت صدر فرسه . ثم أرانا كذلك مواجهته لأعدائه وقسوته على حصانه الذي تقيهم به حتى اكتسى بالدم ، ومال بعنقه من شدة ما أصابه ، واتجه إليه شاكيا ما يعاني بصوت الحال . وماهدأت نفسه وارتاحت إلا حين سمع الفوارس يملنون - في عجب ودهشة - عن إقدامه وحسن بلائه .

فإذا كان عنزة يمدد مفاخره الشخصية على هذا النحو - لظرومه الخاصة - فإن عمرو بن الإطنابة يفخر بقومه ومايقومون عليه من أخلاق ، وما يعترفون به من شمائل ، حيث يتجهون ووجهة إنسانية في سلوكهم ، وذلك قوله :

إني من القوم الذين إذا انتدوا بدأوا بحق الله ثم للنائل (١)
المانعين من الحنا جارائهم والحاشدين على طمام النار (٢)
والخالطين فقيرهم بنعيمهم والباذلين عطاءهم للنائل
والقاتلين لدى الوغى أقرانهم إن النية من وراء الوائل (٣)

وعلى هذا النحو يسير ربيعة بن مقرم في ميميته التي يتغنى بها بصفاته وصفات قومه من كرم ، وإباء ، وفروسية ، ووفاء ونجدة ، كما في قوله (٤) :

وإن تسألني فإني امرؤ أهين اللثيم وأحبو الكريما
وأبني المعالي بالمكرمات وأرضى الخليل وأروى البديما

(١) انتدى القوم : جلسوا في النادي ، والنائل : كثرة العطية ، يريد أنهم يؤدون الواجب ثم النفل .

(٢) الحنا : الفحش من الكلام ، يعنى أنهم يحفظون جارائهم وبومون بحق الضيف .

(٣) وأل : لجأ ورجع ، يريد الفار من الحرب ، يعنى إن الفرار من الحرب لا ينجي من الموت .

(٤) المفضليات ص ١٨٣ .

ويحمد بذلى له مفتف إذا ذم من يفتيه اللثام (١)
وأجزى القروض وفاء بها ببؤسى ببؤسى ونعمى نعمى (٢)
وقوى فإن أنت كذبتى بقولى فاسأل بقوى علما
يهينون فى الحق أموالهم إذا اللزبات انتحين المسما (٣)
طوال الرماح غداة الصباح ذوو نجدة ينعون الحرما

وكذلك سار الحارث بن حنزة فى جيميته التى ذكرنا جزءا منها فى ترجمته .

وصفوة القول أن الشعراء البدويين فى العصر الجاهلى عكسوا لنا صورة عندهم
للبدوى فى أخلاقياته التى يمتاز بها وينفى باتصافهم بها وقيامهم عليها ، دون تكاف
أو منالاة ، ودون تخرج أو تردد ؛ إذ الفخر فى البيئة البدوية كان أسلوبا من أساليب
الحياة التى تقرررت فى ذلك العصر ، أو أصبحت عرفا سائدا يمثل أعاط الحياة لديهم .

(١) المعنى : السائل فى غير طلب .

(٢) البؤسى والبؤسى بمعنى واحد ، يقول إنه يجزى بالسيئة مثلها ، وكذلك
الحسنة والنعمى .

(٣) اللزبات : الشدايد ، وانتحين : قصدن ، والمسيم : الكثير الإبل والغنم .

(٢)

الهجاء :

الهجاء مصدر هجا يهجو : يعنى السب وتمديد المايب ، واستلال الفاخر ، فهو على النقيض من الفخر والمدح ، وكل هذه الفنون تضرب بمحور في النفس البشرية ، وترجع إلى الصفات الطبيعية فيها ؛ إذ هي استجابة لماطفى الرضا والسخط لدى الإنسان الفطرى ومن ثم كان فن الهجاء واحدا من فنون الشعر العربى البدوى فى العصر الجاهلى .

والناظر فيما أثر من شعر البدويين في هذا الفن يلاحظ أنهم كانوا يعتمدون على سلب الفضائل البدوية ، والرمى بالعائص البدوية ، والرمى بالعائص المتعارف عليها بين أهل البادية من الجبن والبخل والتعاس عن مجددة اللأند ، والامتناع عن حماية الضعيف ، والتمدى على المحارم ، والتعرض للنساء . . إلى غير ذلك مما يأنف منه البدوى ، وتأباه الفطرة الساذجة .

لقد كان الهجاء سلاحا يضارع أسلحة الحرب الأخرى مضاء وقوة ، وكانت القبائل فى البادية تحرص على أن توفر لنفسها منه ما تذود به عن عمارمها وأبنائها كما تحرص على أن توفر من أسلحة الحرب التقليدية ما يمكنها من الدفاع عن عمارمها وأبنائها . يوضح ذلك عبد قيس بن خفاف البرجمي فى أبياته التى يفخر فيها بأسلحته التى أعدها لمواجهة الخصوم والأعداء ، من لسان ماض ، ورمح طويل القناة ، ودروع سابنة جيدة تحمى من صرب السيوف (١) :

وأصبحت أعددت للناثبات	عرضاً بريثاً وعضباصقيلا (٢)
ووقع لسان كحد السنان	ورمحاً طويل القناة عمولا (٣)
وسابنة من جساد الدرو	ع تسمع للسيب فيها صليلا

(١) المفضليات ص ٣٨٦ .

(٢) العضب : السيف المقاطع ، والصقيل : المصقول الحاد .

(٣) المسول : اللين المسمى .

كاه الفدير زفته الديور بحر المدجج منها فضولا (١)

وكانوا يتوعدون خصومهم بالهجوم في ميادين القول كما يتوعدونه بالضراب في ميادين الحرب ، وكانت ميادين القول عندهم تتمثل في الأسواق وغيرها من أماكن الاجماع التي يلتقي فيها القوم ، وإلى ذلك أشار راشد بن شهاب اليشكري في قوله لقيس ابن مسعود الشيباني (٢) :

ولا توعدنى إننى إن تلاقى معى مشرفى فى مضاربة فضم (٣)
وذم يثنى للمرء خزيا ورهطه لدى السرحة المشاة في طلبها الأدم (٤)

كما يلاحظ أن شعراء البادية في هذا العصر لم يكونوا يعالجون هذا الفن إلا في معرض الفخر بالفروسية ، حيث يتناولون خصومهم بالطمع والقم ، كأنهم يمتدنون موازنة بين سما ما يتقنون به من شمائل ، وما عليه هؤلاء الخصوم من ضعة وحفارة وحسة . ونظرة مما قدمنا من شعر عمرو بن كاثوم ، ودريد بن الصمة في الفخر بالفروسية تكشف طائفة من الصفات الهجائية التي يحرص الشاعر على أن يلمسها بجمع أو ينعته بها . ويقرر ذلك قصيدة ربيعة بن قروم التي يتغنى فيها بأعجاد قبيلته وما صنموه في أيام براحة واللسار وطخفة والكلاب وذات السليم ، وفيها يقول :

وكذاك بشر بن أبي حازم الأسدي في قصائده التي يتحدث فيها عن حروب قومه مع بني عامر في يوم اللسار ، ومعهم ومع أحلافهم من تميم في يوم الجفار ، والتي يتغنى فيها بانتصارات قومه على كثير من القبائل مثل جرم ، والرباب ، وجدام ، وبني سايح ، وبني كلاب ، وبني أشجع ، ومرة بن ذبيان . مثل قوله :

(١) زفته - بفتحين - حركته ، والدبور : ريح غربية تقابل الصبا ، والمدجج : قلم السلاح ، وبحر منها فضولا : كناية عن أن هذه الدروع سابلة تنطى الفارس وتفضل عن أطرافه .

(٢) المفصليات ص ٣٠٨ .

(٣) المشرفى : السيف ، والقضم - بالتحريك - الملول من كثرة الطمع مصدر قضمق السن فضمم بفتح الضاد .

(٤) السرحة : الشجرة ، وهو يشير بذلك إلى شجرة عظيمة كانت بمكايط والمعاش . الخليفة يبحث عن معنى المعاش يناسب المقام غير الخليفة .

على أن من هؤلاء البدو من كان يسخطه موقف قومه منه في بعض الأحداث أو في بعض الأحيان ، فينبغي في حدة البدوى ها جيا قومه ، كما فعل قريط بن أنيف العنبري حين لم ينهض قومه لنجدته ومعاونتته في استنقاذ إبله من أيدي الشيمانيين ، حيث عرض بمذبح أعداء قومه وهم بنو مازن ، فقال إنه لو كان من بني مازن هؤلاء لحاقهم هؤلاء الشيمانيون ولما استباحوا إبله ، وإلا لقم فرسانهم الأشداء الأقوياء بمعاونتي استرداد مالي ، دون أن يطلبوا مني برهانا على ما أقول كما طلب قومي مني :

لو كنت من مازن لم تستبح إبله	بدو القبيطة من ذهل بن شيدانا
إذا لقام بعصري مشر خشن	عبد الحفيظة إن ذو لولة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحشانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في الدائبات على ما قال برها
أمكن قومي وإن كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
كأن ربك لم يخاف لحشيتته	سوام من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا	شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

وكانه بذلك يضغط على قومه حتى ينهضوا لنجدته ومعاونتته ، أو يحاسبهم على ما كان منهم .

فالمجاء - كما ترى - يكاد لا ينفك عن الفخر والحماسة في شعر البدو الجاهلين ، والشاعر فيه يعتمد على مقومات قريبة من مقومات الفخر - التي سبق الإشارة إليها - ومقومات المدح التي ستعرف عليها عند الحديث عن فن المدح .

(٣)

المدح :

برز من فنون الشعر البدوى فى العصر الجاهلى - على تحفظ - فن المدح . والمدح إبراز صفات إنسان آخر ، وتمديد مناقبه ومجاملته .

وإنما قلت إن هذا الفن برز فى الشعر البدوى على تحفظ ؛ لأن البدوى بطبيعته الفطرية خاضع لشعور بالمزعة والأنفة يجعله دائماً يتأبى على الخضوع للفسير ، ويرفض الاعتراف بالقصور أو النقص ؛ فهو دائماً يرى نفسه فى المكان الأرفع . من ثم كان من الصعب عليه أن يتحول من تلك الطبيعة إلى إنسان يقر لغيره بالسبق إلى المسكرات ، بله الإفصاح عنها فى شعره ، وإخلاص النفس لتمديداتها والتفتى بها .

من ثم حرص البدوى فى هذا الفن أن يلائم بين هاتين الوجهتين المتقابلتين - الرغبة فى ذكر مآلفته من الفضائل فى مسلك الآخرين ، والرغبة فى الحفاظ على الأنفة والمظمة الشخصية - فلم يتجه بعدائه لشخص مفرد ، ولكنه كاد يقصر مدحه على الجماعات من قبائل وعشائر - التى اشتهرت بمحمدة من المحامد من حصال كريمة ، وأخلاق رفيعة ، وقيم سامية ، ومبادئ عظيمة كالسكرم والشجاعة والمزعة والأنفة أو التى قامت بعمل تحمد عليه من رعاية للجوار ، أو نجدة لمستغيث ، أو حماية لمظلوم ، على نحو ما له ابن دارة - أحد بنى عبد الله بن غطفان - فى مدح طى^(١) :

جزى الله خيراً طيئاً من عشيرة ومن ناصر تلقى بهم كل جمع
هم خلطوني بالنفوس ودانعوا ورأى بركن ذى مناكب مدفع
وقالوا : تلم أن مالك إن يصب فذلك ، وإن يحبس نرك ونشفع

فإذا اضطر إلى مدح فرد فلاؤه أحد السادة الذين يقومون على مثل تلك القبيلة العظيمة ، ويرعون شؤونها ، ويحافظون على أخلاقها ؛ فهو يمدح القبيلة ممثلة فى هذا السيد الذى مارس السلوك الخلق الحيد ، أو هو يمدح إنساناً قدم ما يمدح عليه من

(١) الوحشيات لأبى تمام ص ٢٤٩ بتحقيق عبد العزيز الميمى .

طبيب الأعمال ، على نحو ما قال الثقب العبدى فى مدح خالد بن أنمار الذى افتك شاسا
ابن أخت الثقب (١) :

إنما جاء بشاس خالد بعد ما حافت به إحدى الظلم
من منايا يتخاسين به يتندرن الزول من لحم ودم (٢)
مترع الجفنة ربيعى للنسدى حسن مجلسه عير لعظم (٣)
يحمل المال عطايا حمة إن بض المال فى العرض أمم (٤)
لا يبالى - طيب النفس به - تلف المال إذا العرض سلم

وقد يمدح للفرد لعمل كبير يحقق ما يشده الشاعر من قيم ، وما يصبو إليه من
مسلك محمود أو حاق كريم ، أو موقف بطولى ، كما صنع زهير بن أبى سلمى مع هرم بن
سان والحارث بن عوف حين تماونا فى المسمى الحميد ليصالحا بين عبس وذبيان ،
وينهى الحرب التى طال مداها بينهما ، فأعلنا تحملهما ديات القتلى من القبيلتين ، حتى
تضع الحرب أوزارها ، وتهب النفوس الشائرة ، وكان ثمة ذلك من رهير مملقته
الشهيرة والى يقول وبها :

سمى ساهيا غيظ بن مرة بعد ما تبزل ما بين العشيرة بالدم (٥)
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رحال بسوه من قریش وجرم
يحميا لنعم السيدان . وحسبنا على كل حال من سحيل ومبرم (٦)

(١) المفضليات ص ١٤١ بشرح حسن السدوبى .

(٢) يتخاسين : يترامين ، الزول : الشجاع الداهى .

(٣) مترع الجفنة : يمتلىء القدر ، ربيعى الندى : باكره .

(٤) الأُم : القصد .

(٥) الساعيان : هرم بن سان ، والحارث بن عوف ، وغيظ بن مرة من ولد
عبد الله بن غطفان ، وقبرل : تشقى .

(٦) السحيل : حيط واحد لا يضم إليه آخره ، والمبرم : حيطان يفتلان حتى يصيرا
خيطا واحدا ، ملى : على كل حال من شدة الأمر وسهولته .

نداركما عسا ودياز. امد ما قفانوا ودقوا بينهم عطر مدشم
وقد قلنا : إن نذكر السلم واسما عال ومروف من القول نسل

هو مدح لساك - وإن كان موحها لشخص - يعلن به الشاعر عن إعجابه بما
صدر عن هذين الشخصين من مكرمات ، وأيس مدحا لذات المدح ، ولا رعية في
تحقيق كسب ، أو الحصول على بوال ا

من ثم تبرز مدائح زهير تتجنب المبالغات المقوتة ، والتزام الحقائق الواقعة في
اعتدال بين ، فهو يظفر في صنائع الشخص ، ويتفحصها بحس الشاعر المهذب ،
ويتلقى منها الصفات التي يعتز بها البدوي ويحتفل بمن ينعت بها ، ليقدم الصورة المثالية لها
من خلال رؤيته تلك .

ويشهد لذلك أن الشاعر لما رأى بنى حارثة قوم هرم لا يقلون عن هرم في مساك
عمود قال فيهم :

هنالك إن يستخبلوا للال يخيلوا وإن يسألوا يعطوا، وإن ييسروا ينفوا(١)
وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية يلتابها القول والفعل(٢)
قال صاحب الصناعتين(٣): ولما استتم وصفهم بحسن المقال ، وتصديق القول بالفعل،
وصفهم بحسن الوجوه ، ثم قال :

على مكثريهم حق من يم-تريهم وعند المقلين الساحة والبدل
فلم يخل مكثرا ولا مقلا منهم من بر وفضل ثم قال :

بأن جثتم ألفت حول بوتهم عالس قد يشفى بأحلامها الجهل
وإن قام منهم قائم قال قاعد : رشدت فلاغرم عليك ولا حدل

(١) الاستخبال : أن يسألهم شيئا فيملكهم إياه ، وييسروا : يقامروا بالميسر ،
وينفوا : يقامروا على غوالي الجزر .

(٢) المقامات المجالس ، ويتابها القول والفعل : يقال فيها الجليل ويعمل

(٣) كتاب الصناعتين ص ١٠٧ بتحقيق البجاوى وأبو الفضل إبراهيم ، وانظر

للمعدة ج ٢ ص ١٣٤ بتحقيق الشيخ محمد محي الدين .

(١٠ - الأدب العربي)

فوصفهم بالحلم وبالتضافر والتعاون ، فلما آتاهم هذه الصفات النفسية ذكر فضل آباءهم فقال :

ومايك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آباءهم قبل
وهل يثبت الخطى إلا وشيجه وتفرس إلا فى منابتها للنخل^(١)

فالدح - فى الشعر البدوى - لا يخرج عن الوظيفة الاجتماعية ، شأنه شأن للفنون
التي سبق الحديث عنها ، يستجيب الشاعر البدوى به لحاجة قومية ، ويسير فيه وفق
ما تمليه عليه البيئة ، دون انحراف أو تجاوز .

(١) الخطى : الرماح الخطية، نسبة إلى الخط وهو جزيرة بالبحرين، والوشيح: القنا.

(٤)

الرثاء :

ومن الفنون التي تشغل جانباً عظيماً من شعر البادية في العصر الجاهلي فن الرثاء .
والرثاء من الفنون الشعرية التي تميزت فيها البادية عن الحاضرة ، سواء في شيعه أوفي
منهجها ، وذلك لأن الرثاء - في عمومها - بكاء الميت ، والتفجع عليه ، والالتئاع لرفاقه ،
وذلك بتعداد مناقبه ، والإشادة بمخلاله للكرامة ، بيد أن الجو النفسي للشاعر ، والموقف
الاجتماعي الذي تقوم عليه العلاقة بينه وبين الميت يؤثر في مسار الشاعر في رثائه ، من
ثم صبت الرثية بألوان ثلاثة تمكن من تمييز كل منها عن غيرها ؛ فالرثاء يتعدد بين
التدب والتأبين والمزاء ؛ ولكل مقوماته التي يعتمد عليها ؛ إذ الأدب يقوم على تفجع
الشاعر وتحسره لفقد الميت ، والتأبين يقوم على تعداد مآثره وأفضاله على القبيلة أو
الأسرة أو المحيطين به ، والمزاء يقوم على الذل والتمزى والنظرة المتأنية المتألمة في
الكون ونظام الحياة .

ولا ريب في أن الشاعر المطبوع يقع في مجالته فن الرثاء على اللون الملائم مع
الموقف الذي يضمه ، دون قصد إلى لون قدامه :

والناظر في مرثي البدر الجاهليين يلاحظ أن أكثر مرثيهم كانت ندبا وتأبيناً .
كما يلاحظ أن صوت الشعراء إنما يملأ ويمتد بالرثاء في الثالب إذا كان المرثى مقتولا ؛
فهم في البادية إنما يتخذون من الرثاء وسيلة إثارة وتمجيس للشار والانتقام .

ومن ثم شارك في هذا الفن نساء كثيرات ، وكان لهن دور واضح ملموس في إثارة
الحروب وإشغال نارها ، ونفرة الجيوش للملاقاة خصومهم والانتقام لمن قتل منهم ، فما
تزال المرأة تنوح على القتيل ، وتبكي فيه الشجاعة والنجدة والفرسية ، حتى تنهض
القبيلة وتثار له وما صنيع الحنساء شاعرة بنى سليم يخاف على أحد ، ومادافها إلى
هذا البكاء المتواصل بمجهول لأحد ؛ فقد كانت تخرج إلى عكاظ تندب أخوها صخرها
وممازية وتعدد مآثرها ، وتبحث بين سامعها عن فارس مقدم يشفي نفسها بالتأريها .
وحاكنها في ذلك هند بنت عتبة في بكاء أبيها (١) .

(١) راجع الأغاني ج ٤ ص ٢١٠ طبع دار السكتب .

ولم تكن المرأة تسكنى بىكاء ميتها يوما أو أياما ، بلى قد يمتد بها الزمان أعواما .
تظل على ، حالها ، حتى يتحقق لها ما تهفو إليه من الثأر والانتقام .

وكان للنساء فى ذلك ومائلهن اللاتى يقصدن بها إثارة المشاعر ، واستنفار للمهمم .
فكن يخلقن شعورهن ، ويقفن على القبر ، ويدرن على مجالس القبيحة ، ويشهدن
المواسم والأسواق ، يلطمن خدودهن بأيديهن وبالعمال والجلود . وقد تحصل من
هرأتى الحسناء ديوان شعر يدور كله حول رثاء إخوانها . وبما قالت فى ندي
صخر وبكائه ،

قذى بمينيك أم بالمين عوار أم ذرفت إذ خانت من أهلها الدار (١)
كان عبنى لذكراه إذا خطرت فيض يسيل على الحدين مدرار (٢)
فالمين تبكى على صخر ، وحق لها ودونه من جديد الأرض أستار (٣)
تبكى حناس ، وما تمك ما عمرت لها عليه رنين وهى مقتار (٤)
بكاء والهة ضلت ألفتها لها حينان : إسنار وإكبار (٥)
ترعى إذا نسيت حتى إذا ذكرت فأما هى إقبال وإدبار
وان صغرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار (٦)

ومن ذلك ما قالت جلييلة بنت مرة - أخت جساس وامرأة كليب - حين قتله
أخوها جساس زوجها كليباً (٧) :

يا بنة القوم إن لم تـ مـلا تمجلى باليوم حتى تسألى
ماذا أنت تبينتى الذى يوجب اللوم ولوى واعذلى
إن تكن أخت امرئ لمت على شفق منها عليه فاعلى

(١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت قطرا متتابعا .

(٢) المدرار : الكثير .

(٣) الأستار : الأحجار ، وفى قولها : جديد الأرض كناية عن حداثة موته .

(٤) مقتار : ضئيلة . (٥) الإسنار : خفض الصوت بالحنين ، والإكبار : رفعه .

(٦) العلم : الجبل . (٧) الوحشيات لأبي تمام ص ١٢٨ ، ١٢٩ بتحقيق عبد العزيز الليهنى

جل عندى عمل جساس ، فيا حسرتى عما أنجات أو تنجلى
فعمل جساس على وجدى به قاطع ظهري ومـدن أحلى
يا قتيلا قوضت صرعة سقف يبقى جيعا من عمل
قوضت يبقى الذى استحدثته واتثنت فى هدم يبقى الأول
خفى قتل كليب بالظى من ورأى ولظى مستقبل
درك الثأر يشفيه وفى دركى ثأرى ثكل المشكل
إننى قاتلة مقتولة ولعمل الله أن يرقح لى

والشاعرة تدرك أن بكاءها زوجها يعنى استنفاذ قومها للثأر من قاتله ، وتدرك
ماذا يعنى الثأر من قاتل زوجها هى ملتاعة حائرة لا اختصاصها من دون الرائيات
بهذه الحالة .

ومن ذلك أيضا ماقاله دريد بن الصمة فى رثاء أخته :

دعاني أخى ، والخيال بينى وبينه فلما دعانى ، لم يجدى بقعد
أخ أرضعتنى أمه من لبانها بشدى صفاء بيننا لم يجدد
جئت إليه والرماح تنوشه كوقع الصياح فى النسيج الممدد
وإن يك عبد الله حلى مكانه فما كان وقاما ، ولا طائش اليد
فليل التشكى للمصيات ذاكر من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد
تراه خيس البطن والزاد حاصر عتيد ، ويندو فى القميص المقدد
وإن مسه الإقواء والجهـد زاده سماحا وإتلافا لما كان فى اليد
صيا ما صبا حتى علا للشيب رأسه فلما علاه قال للبطل : أبعد
وطيب نفسى أنى . لم أقوله كدبت ، ولم أبخل بما ملكت يدي

ولعل أوضح مثال لذلك ماقاله العباس بن مرداس فى رثاء أخيه عمارة ، حين قتل
فى حقل صعدة فى بلاد اليمن بميدا عن موطنه ، فقام يرثيه ويتهدد قاتليه ويتوعدهم بالثأر
صنهم ، ومنها :

أبعد عمار الخير نرجو سلامة وقد بتكت آرابه ومفاصله
فلا وضعت عندى حصان خمارها ولا ظفرت كفى بقرن أنازله

فمن مبلغ عمرو بن عوف رسالة ويملى بن سعد من تؤور يرأسه
بأنى سأرمى الحقل يوما بنارة لها منكب حاب تدوى زلازله

فالرثاء البدوى يكاد يكون أسلوبا تميميا ، يشير به الشاعر سامعيه أو يهيه نفسه
للاقدام على عمل حربى يثار به لقتيله الذى يبكيه ، ويلتقم بمن اعتدى على الاخلاق
والقيم والصفات الحميدة التى كان يمثلها القتل أدق تمثيل .

من ثم يلاحظ أن الرثاء فى البادية كان أكثره مصروما إلى سادات المشيرة
وفرسانها الذين لهم عليها اليد الطولى فى حمايتها وقيادتها والقيام على مصالحها ؛ فهم الذين
يستحقون البكاء بهذا الصوت العالى ؛ شحذا لهم الأحياء ، وتحريكا للقبيلة حتى
تثار لهم .

ولعل هذا يفسر لنا قلعة رثاء من يموت حتف أنفه فى الشر البدوى . وهو على
قلته يدور حول الملاصقين من الأهل والاصدقاء - خصوصا الأبناء - وينقلب عليه
التفجع والتحسر المصحوب بالمواساة والنمزية والتسلى ، فهو فى الغالب يقوم عليه مصرى
للندب والمزاء . من ذلك ما قاله أبو ذؤيب الهذلى فى أبنائه الخمسة الذين فقدهم فى
عام واحد (١) :

أمن النون وريها تتوجع ؟ والدهر ليس بمعتب من يجزع (٢)
قالت أميمة : ما لجسمك شاحبا منذ ابتذات ومثل مالك يدفع (٣)
أم ما لجسمك لا يلائم مضجعا إلا أقص عليك ذاك المضجع (٤)
فأجبتها أن ما لجسمى أنه أودى بنى من البلاد فودعوا (٥)
أودى بنى وأعقبونى غصة بعد الرقاء وعسيرة لا تقلع (٦)

-
- (١) ديوان الهذليين ص ١ طبع دار للكتب المصرية .
 - (٢) النون : النية ، وريها : حواشيها ، ليس بمعتب ؛ ليس بمرض .
 - (٣) ابتذل : امتحن نفسه فى الأعمال لموت من كان يكتبه .
 - (٤) أقص المضجع : صار كأن به حجارة صغيرة . (٥) أودى : هلك .
 - (٦) يشير بقوله « بعد الرقاد » إلى أن حزنه يمنعه النوم حين ينام الناس .

سبقوا هوى وأعنقوا لهوام فتخرموا ولكل جنب مصرع^(١)
 فخرت بدمع بيمش ناصب وإخال أنى لاحق مستتب^(٢)
 ولقد حرصت بأن أدافع عنهم فإذا المية أقبلت لا تدفع
 وإذا المنية أنشبت أظفارها ألقيت كل تيمة لا تنفع
 فالعين بدمع كأن حدائقها سمحت بشوك فهي عور تدمع^(٣)
 لا بد من تلف مقيم فانتظر أبارض قومك أم بأخرى المصراع
 ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكاء من يجمع
 وليأتين عليك يوم مرة يبكى عليك مقنعا لا تسمع^(٤)
 كم من جميع الشمل ملثم الهوى باتوا بيمش ناعم فتصدعوا
 فلئن بهم جع الزمان وريبه إني بأهل مودتى المنجم

والشاعر البدوي أمام ميتة غيره أمام قتيله ؛ إذ الدافع إلى الرثاء هنا غيره هناك ،
 وهو في كلتا الحالتين يمر عن مكنون نفسه في صدق ، غير أنه في رثاء القتلى يدرك أن
 لراثائه وظيفة اجتماعية تمثل في الإثارة والتحميس ، ويضمن رثاءه ما يحقق ذلك ، ويدرك
 أنه في بكاء اللونى حثف أنوفهم إنما يصور مشاعره القدانية ، وانفعالاته الوجدانية .

(١) أعنقوا : أسرعوا ، فتخرموا : أخذوا واحدا .

(٢) فخرت : بقيت ، ناصب : ذى قلب ، مستتب : مستريح - بفتح الباء - مستلحق ، يقال :
 استتب فلان ذهب به .

(٣) الحدائق : جمع حدقة ، وسمحت : فقتت ، وعور - بضم ميم - جمع عوراء
 من العوار بضم أوله وكشدريد ثانية وهو ما يصيب العين من رمد أو قذى .

(٤) مقنعا : ملففاً بكفانك .

(٥)

الغزل :

حديث الشاعر عن المرأة يطلق عليه (غزل) ، وهذا الحديث يتنوع ويختلف من شاعر إلى شاعر ومن بيئة إلى بيئة ، تتارة يقف الشاعر بحديثه عن المرأة عند حد اجترار ذكرياته الماضية في علاقاته بالمرأة ، ونارة يخلص حديثه لوصف محاسن المرأة ، ويبيان مفاتها التي استهوت ، ومرة أخرى نراه يخاطب المرأة مستمطفا ، يكشف لها عن حبه لها ، وافتتانه بها ، ويذكر ما يفعله فيه بمداهعته من لو اعج الشوق ، وما يكابده من جراء ذلك . والشاعر أمام هذه الأحوال الثلاثة خاضع لظروب بيئته وأخلاقيات مجتمعه بحيث لا يستطيع أن يتجاوز أعراف قومه وقيمهم ؛ إذ المرأة عند العربي تمثل الحرم الذي يجب على الصنير والكبير أن يبذل حياته في حمايته والإبقاء عليه نظيفا من كل ما يشين ؛ فليس الشاعر مطلق الحرية في الحديث عن المرأة ، إنما هو - على خلاف للفنون الأخرى - هـا ملتزم بالترام التام بما تقره القبيلة من ذلك .

والناظر في الشعر البدوي في العصر الجاهلي يلاحظ أن الشاعر البدوي - في الجملة - يتحفظ في الحديث عن المرأة دائما ؛ فهي في نظره أمل مقدس لا يحق له أن يكشف من مفاتها إلا الأشياء العامة التي تليق عن سر تعلقه بها دون أن يمس حرمانها المقررة ، إلا أن تكون أمة لا حرمة لها .

فالغزل البدوي - في جملته - غزل عفيف ، لا يخرج على إطار القيم البدوية ، حتى لقد أطلق رواة الأدب العربي على هؤلاء الغزليين البدويين اسم (المنيمين) تمييزا لهم من العشاق الماديين ، وأصبح قرين كل اسم منهم فتاة عرفت به وعرف بها كالمرقش الأكبر وأسماء ، وللمرقش الأصغر وماطمة ، والمجبل وميلاء ، وعبد الله بن المعجلان وهند ، ومالك بن السمصاة وجبوب ، وقيس بن الخدادية ونعم ، وعبد الله بن علقمة وحبيشة ، وعمرو بن كعب وعقيلة . وكان أشهر هؤلاء جميعا عنترة وعيلة .

* * *

ومن نماذج الشعر التي توضح ذلك ما قاله المرقش الأكبر مصورا حيرته النفسية ،

وصراعه الحاد ، وما يعانيه من قلق وعذاب ؛ إذ يسائل نفسه عن مدى صوره أحام
صبوات قلبه وهيامه بأسماء التي أصبحت كل شيء في حياته ، فهي الأمل الذي يرتجيه ،
ونجوى الفؤاد التي يمشي معها ، كلما ذكرها اضطرب جسده وتملكته الرعدة كأعما
مسته حى شديدة :

أغالبك القلب اللجوج صباية وشوقا إلى أسماء أم أنت غالبه ؟
يهم ولا يعيا بأسماء قلبه كذاك الهوى إمراره وعواقبه (١)
واسماء هم النفس إن كنت عالماً وبأدى أحاديث الفؤاد وغائبه
إذا ذكرتها النفس طلت كأنى يزعر عنى قفقفاف ورد وصالبه (٢)

وما قاله عمرو بن كعب يصور فيه إقبال الليل عليه بميدا عن محبوبته ، وما يعانيه
فيه من أحزان تذيب مهجته ، وتسيل دموعه ، وتنتزع الزفرات الحارة من صدره :

إذا جن ليلى فاضت العين أدما على الحد كالندران أو كالسحاب
وما أسقى إلا على ذوب مهجتي ولم أدر يوما كيف حال الحباب

وما قاله ابن المعتز موصورا استسلامه - على الرغم من شدة نأسه وعلو همته -
أمام لحاظها إلى ترسل سهامها لتصيب قلبه ، دون أن يستطيع لها دوما :

لقد كنت دأ بأس شديد وهمة إذا شئت لئلا للساه لستها
أنتى سهام من لحاظ فأرشت بقلى ، ولو أستطيع ردا رددتها

وما قاله قيس بن الخدادي موصورا الغضم للتلاطم من الأحزان الذى يطويه حين
تبعد عنه ، حتى يفضل الموت العاجل على الحياة وحيدا مع أحراره وهمومه .

فليت المنايا صبحت عدية بدسح ولم أسمع لبين مناديا
وود أيقمت نفسى عشية فارقوا بأسفل وادى الدوح أن لا تلاقيا
إذا ما طواك الدهر يا أم مالك فشان المنايا القاصدات وشانها

(١) إمرار الهوى : مرارته أو شدته .

(٢) الورد - بكسر الواو - الحى ، والقفقفاف : الرعدة ، والصاب : شدة

الحرارة مع رعدة .

وما قاله عنتره مصورا لواعج نفسه ، كاشفا عن الإهواء المتدفقة فيها ، وما يعانى من الفراق ومرارة الحرمان ، حين ارتحل أهل عبلة إلى بنى شيخان :

يا طائر البان قد هيجت أحزاني وزدتنى طربا يا طائر البان^(١)
إن كنت تندب إلما قد فجمت به فقد شجاك الذى بالبين أشجاني
زدنى من الفرح واسعدنى على حزنى حق ترى عجبا من فيض أجفاني
وقف لتنظر ما بى لا تمكن عجلا واحذر لنفسك من أنفاس نيرانى
وطر لملك فى أرض الحجاز ترى ركبا على عاجل أو دون نعمان^(٢)
يسرى بجارية تنهل أدمعها شوقا إلى وطن ناء وجـيران
ناشدتك الله يا طير الحمام إذا رأيت يوما حول القوم فأنماني^(٣)
وقل : طربحا تركناه ، وقد فثيت دموعه وهو يـيكى بالدم القاني

بيد أن الناظر فى شعر عنتره يلاحظ أنه - على الإجمال - يمزج فيه بين الغزل والفخر ووصف معاركه الحربية وهروسيته وإقدامه ، وكأنه جعل من كل ذلك وسيلة إلى قلب عبلة يصل إليه عن طريقها ، أو كأنه جعل من حب عبلة دافعا إلى جلائل الأعمال وحافزا إلى عمود الفمال من عفة ونجدة وشجاعة وتضحية ، يوضح ذلك قوله :

سلى يا عبـل قومك عن معالى ومن حضر الوقعة والطراد^(٤)
وردت الحرب والأبطال حولى تهـز أ كفها السمر الصماد^(٥)
وخضت بمهجتي بحر المنايا ونار الحرب تتقد اة—اد
وعدت مخضيا بدم الأعادى وكر الحرب قد حضب الجوادا
وقوله عازيا لعبلة الفضل فى لقائه الصماب ، وصموده أمام عمرات الحروب ،

(١) البان : اسم شجر يشبه الصفصاف .

(٢) عاجل ونعمان : مكانان .

(٣) حمولة - بضم الحاء - جمع حمل : الهودج أو البعير الذى عليه الهودج .

فأنماني أصلها فأننى ، وهو تجوز للشعر .

(٤) الوقعة : القتال ، وجمع على وقائع . والطراد : المطاردة .

(٥) السمر : الرماح ، والصماد - بكسر الصاد - جمع صعدة وهى القناة المستوية ،

يريد بها الرماح

مفتخرا بأنه لم ينهزم في أية معركة خاضها بقوة دمه التي يرجو من ورأها النظر إليه
بمعين الرضا :

يا عبل لولا أن أراك بناسطرى ما كنت ألقى كل صعب منكر
يا عبل كم من غمرة باشرت بها بمثقف صلب القسائم أسمر
يا عبل هل بلغت يوما أنفى وليت مهزما هزيمة مدبر
يا عبل دونك كل حي فأسألى إن كان عندك شبهة في عنبر

* * *

غير أن الغزل البدوي لم يكن وفقا لهذا الاتجاه الماطف العفيف . فقد كان
من شعراء البادية من أباح لنفسه أن يتحدث عن خلال المرأة الجميدة ، وصفاتها
الكريمة ، نائيا بنفسه عن أن يعس جسدها وما يتصل به لأن لهذا الجسد حرمة أن
ترعى وتسان ، كقول الشنفرى في امرأته أميمة :

لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها إذا مامشت ، ولا بذات تلفت
تبيت - بيمد النوم - تهدى غبوقها لجاراتها إذا الهدية قات (١)
تحل بمنجاة من اللوم يبتها إذا مايسوت بالذمة حلت
كأن لها في الأرض نسيا تقصه على أمها وإن تكلمك تبت (٢)
أميمة لا يخزى نساها حليلها - إذا ذكر النساء عفت وجات (٣)

لقد نال من الغزل عناية الشعراء البدويين ، وشده اهتمامهم ، وأقبلوا عليه يصبون
فيه مشاعرهم ، ويمرضون من خلاله رؤيتهم للمرأة ، حق فرضوه على فنون الشعر
المختلفة ، وجمالوه تمهيدا ينقلون به سامعيهم من حياتهم العامة إلى ما يقصدون إليه ؛
فأصبح من أعرافهم للفنية أن يلقانا الشاعر مع مطلع القصيدة متغزلا يبكي ديار أحبابه

(١) النبوق : اللبن الذي يشرب في العشى .

(٢) النسي : الشيء المنسى أو المفقود ، تقصه : تتمقب أثره ، أمها - بفتح الهمزة -

قصدها ، تبت : - بفتح فسكون - أوجزت .

(٣) نساها : ذكرها وماذاع عنها .

الذين ارتحلوا ، ويقف على أطلالهم الدارسة بعد أن تركوها ، مستعيدا في هذا الوقوف ذكريات الشباب وأحلام الصبا ، ثم ينتقل من ذلك إلى غرضه الاصيل من مدح أو رثاء أو غير .. الخ .

ولا ريب في أن هذه المقدمة الغزلية لآئد المدارس برؤية ذاتية للمرأة بقدر ما تعد برؤية عامة لها ، فلولا احتفال المجتمع الفنى بالمرأة وبالحديث عنها لما أفر هذا المنهج الشمرى ، الذى أصبح تقليدا يستعين به الشاعر على الوصول إلى غرضه ، وإن لم يتم على واقع حقيقى . إنما الذى يمد المدارس برؤية الشاعر للمرأة هو الشعر الذاتى الذى يصور لواعجه وأحزانه ، وأراحه في البعد عن المرأة أو القرب منها .

(٦)

الوصف :

تسكاد فنون الشعر الجاهلى - بدوية وحضرية - تقوم على الوصف؛ فالوصف هو الوسيلة المثلى لدى شعراء البادية، حتى إنهم اعتمدوا عليه في أعمالهم القصصية، وأسسوا عليه نمو الأحداث فيها، وتطور المواقف، وبنوا عليه الحركة القصصية (الدرامية)، مما دعا كثيرا من الدارسين إلى أن ينفوا عن الشعر الجاهلى من القصة، متوهمين أن هذا الوصف جميعه نائىء من تغنى الشاعر وميله إلى القناتية .

وفي الحق أن دارس الشعر البدوى في هذه الفترة يجد فيه وصفا للذاتيات، كما يجد فيه وصفا للموضوعيات على اختلاف أجناسها وأنواعها، وتباين أشكالها وهيئاتها . ويجد فيه وصفا للمعنويات والدركات العقلية والخيالية، كما يجد فيه وصفا للماديات والدركات البصرية والحسية

ترى الوصف القناتى في نحو قول للرقش الأكبر يصف ما يمتلئ في داخله، وما شعر به حين مر به طيف محبوبته سليمى ليلا، فأبرز هذه الانفعالات النفسية في صورة مادية تعكس ما تضطرب به نفسه، معتمدا على المقابلة بين مظهره الخارجى ومظهر أصحابه الذين لا يمانون مثل مماثاته (١) .

سرى ليلا خيال من سليمى	فأرقى وأصحابى هجود
مبت أدير أمرى كل حال	وأرقب أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرى لنار	يشب لها بذى الأرقى وقود (٢)
حواليها مها جم البراقى	وأرآم وغزلان رقهود (٣)

(١) المنضليات ص ١٠٤ بشرح السندوبى .

(٢) الأرقى جمع أرطاة : نبات شجيرى ينبت في الرمل، ويخرج من أصل واحد، ورقة دقيق، وثمره كالغلاب .

(٣) المها جمع مهاة : بقرة الوحش . وأرآم جمع رثم : ولد الظبي أو الظبي خالص البياض .

نواعم لا تالج بؤس عيش أواس لا تروح ولا ترو
 يرحن ممأ بطاء المشى بدا عليهن الهجاسد والبرود^(١)
 سكن يبلدة وسكت أخرى وقطعت الموائق والعمود
 فما بالى ألى ويخان عهدى وما بالى أصاد ولا أصيد ؟

وترى وصف الموضوعيات في نحو ثائية للشنفرى الى يصف فيها عارته في جمع من الصماليك على سلامان ، يقدم صورة حية واقعية ترى فيها تحركه ومن معه بأسلحتهم للانتقام من سلامان ، حتى يجملك تصاحبهم وتميش معهم أدق تحركاتهم وحياتهم ، وفيها يقول واصفا طرقا من حياتهم الاجتماعية في أثناء تحركهم للفارة ، وكيف أن رابطة أسرية قوية تشدهم إلى بعض ، بحيث يقوم على خدمتهم واحد منهم - وهو تأبط شرا - فيقدمه في صورة الأم التي تقوم على رعاية أبنائها ، ويخضعهم لنظام قاس ، تفرضه ظروف معيشتهم حتى لا ينضب زادهم :

وأم عيال - قد شهدت - تقوتهم إذا أطعمتهم ، أو تحت وأقلت^(٢)
 مخاف علينا للميل إن هي أكثرت ونحن جياع ، أى آل تألت^(٣)
 مصمكة لا يقهر الستر دونها ولا ترنحى للبيت إن لم تبيت^(٤)
 لها وفسه فيها ثلاثون سيحما إذا آلت أولى المدى اقشعرت^(٥)

وترى الوصف المعنوى التجريدى في كثير من الحكم التي امتلأ بها شعرهم ، والتي يمثلها قول رهير في مملقته عارضا رأيه في الحياة وحلاصة تجاربه فيها ، ووصاياه ونصائحه المتزعة من هذه المعرفة المجربة :

(١) الهجاسد جمع هجسد - بكسر الميم - الثوب الملامس للجسد ، والبرود جمع برد : كساء مخطط يلتحف به .

(٢) أم عيال : يقصد تأبط شرا ، أو تحت : قترت وأقلت

(٣) الميل - بفتح الميم وسكون الياء - الفقر ، أى آل تألت : أى سياسة تسوسنا ، يقال : آله : ساسه .

(٤) مصمكة - بكسر اللام - صاحبة صماليك ، لا يقهر الستردونها : لا ينطى أمرها .

(٥) الوصة - بفتح فسكون - الجلبة ، والسيف - بفتح السين والحاء - السهم عريض النصل ، وأولى المدى : طلائع الأعداء ، واقشعرت : تهيأت للقتال .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تحطىء يعمر فيهم-رم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يفتس بأنساب ويوطأ بمنس
ومن هاب أسباب المنايا يملسه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يفترب بحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن لا يزل يستحمل الناس أمره ولا ينفها يوما من الدهر يسأم

فهذه طائفة من الحقائق المهردة تراعت أمام عقل زهير مقدما في ثوب مادي من
الشعر لتصبح أمام متلقي شعره ماثلة ، لا تحوج إلى مساواة فكرية ، ولا إلى جهد
عقلي ، بل تصل إلى نفس المتلقي في سر ؛ لوضوحها ودقة وصفها .

وترى الوصف المادي الذي يصور فيه الشاعر ما تقع عليه عينه من أسباب الحياة
التي تشتمل عليها البادية ، من مفاوز بعيدة يجوبونها - كما فيها من انقطاع عن أسباب
الحياة ، وإبل يقطعون بها تلك الميا في ، وجياد يواجهون بها الخصوم في حروبهم بين
كروفر ، وأدوات حرب من سيوف ورماح ودروع ؛ فهذا الشنفرى يصف سلاح تأبط
شرا أحد أصحابه وقد شبهه بالأم في إدارة شئون الجماعة ، فالسيف أبيض صارم يشبه
الملح في لونه ، حديدته صاف كأنه الماء الصافي :

إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ورامت بما في جفرها ثم سلت (١)
حسام كلون الملح صاف حديدته جرار كأقطاع المدير المنمت (٢)

وهذا زهير يصور رحلة صواحيبه في الصحراء ، يلفت الأنظار إليهم وهن راحلات
يصعدن الروابي ، وهبطن الوديان ، في هوداج مكلمة وردية الحواشي كأنها الدم ،
فإذا كن في وادي السوبان من ديار تميم ثنين أرجلهن للراحة بادية عليهن آثار النعمة
والترف . بدان الرحلة في الصباح ، ورحلن في السحر ، دون أن يخطئن وادي الرس

(١) فزعوا : دهمهم محاربون وتمأوا لقتالهم ، وأبيض صارم : سيف قاطع ، الجفرة :
الجمجمة ، رامت بما فيه أى بسهامه ، سلت السيف . شهرته .
(٢) جراز ، بضم الجيم وفتح الراء - قاطع ، أقطاع : التدبير : قطع الماء فيه ، شبه
السيف بها في اللعنان والبريق .

الذى قصدن ، فقد حملن جبل القمان ومن أرضه الصلبة عن يمينهن قطن هذه الرحلة
من وادى السوبان على رحل جديد واسع رحب ، وكلتا زان بأرض للاستراحة خلفن
وراءهن فتات الصوف التى تشبه غنب الثعلب ، حتى إذا انتهين إلى الماء الذى يطلبنه
للإقامة القين عصا الرجال ونزلن به :

- تبصر حليلى هل ترى من ظمائن نحملى بالعلياء من ورق حرثم^(١)
علون بأنماط عتاق وكلة وراد حواشيها مشاكبه الدم^(٢)
وركن فى السوبان يعلون متنه عليهن دل الناعم المتوسم^(٣)
وميهن ملهى للصدى ومنظر أبقى لعين الماطر المتوسم^(٤)
بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن لوادى الرس كاليد للقم^(٥)
حملن القمان عن يمين وحزنه ومن بالقمان من محل ومحرم^(٦)
ظهرن من السوبان ثم جزعنه على كل قبى قشيب ومأم^(٧)
كأن فتات المهن فى كل منزل نزلن به حب القما لم يحطم^(٨)
ولما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم^(٩)

- (١) الظمائن : النساء الراحلات فى الهوادج ، والعلياء : اسم موضع ، وجرثم ،
- بضم الجيم - ماء لبى أسد أحلاف ذبيان .
(٢) الأنماط : السائر على الهوادج ، وراد - بكسر الواو - سحر ، ومشاكبه : مشابهة ،
(٣) وركن : ثنين أرجلهن للراحة ، والسوبان : واد فى ديار بنى تميم واليمن :
الظهر ، ودل الناعم : أثر النعمة .
(٤) المتوسم : المتفرس فى الوجه .
(٥) بكرن . رحلن فى الصباح الباكر ، واستحرن : رحان سحر ، كاليد للقم :
أى إن ما يقصدنه لا يحيطنه كما لا تحطىء اليد للقم .
(٦) القمان - متج القاف - جبل لبى أسد ، والحزن : الأرض المصيبة المليظة ،
والحل - بضم الميم - الحلياء صد الحرم .
(٧) جزعنه : قطعته ، والقيى : الرحل ، والمأم - بضم الميم - الواسع الرحب .
(٨) المهن : الصوف ، وحب القما : غنب الثعلب .
(٩) الحمام - بكسر الجيم - السطح والمجتمع ، ووضع المصى كناية عن الإقامة

وزهير في استقصائه وصف رحلة صواحيبه هنا قريب الشبه بأستاذة أوس بن حجر
في وصف القوس، حيث تتبع القوس مذكاً كان غصنا في شجرة بعيدة للنال وذلك قوله :

ومبضوعة من رأس فرع شظية طـود تراه بالسحاب مجللا
على ظهـر صفوان كأن متونه علقن بدهن يراق المنزلا
يطيف بها راع يحشم نفسه ليكلاً فيها طوره متأملا
على حير ما أبصرتها من بضاعة للتمس بيما بها أو تبكلا
فويق جبيل شامخ الرأس لم تسكن لتباه حتى تسكل وتعملا

إلى آخر القصيدة ، ولما لقاء بها في موطن آخر من بحثنا هذا إن شاء الله .

وترى الوصف المادى لما يحيط بالشاعر في يئنه مائلا - كذلك - في وصف البقرة
الوحشية التي شبه به ليبد بن ربيعة العامري ناقته ، تلك البقرة التي افترس السبع ولدها
لما خذلته وذهبت ترعى مع صواحيها ، وأخذت تبحث عنه طائفة صائحة بين الرمال ،
فلما لم تجده اشتد حزنها وبانت في مكانها تبحث عنه وقد أسبل مطر واكف علاظها
في تلك الليلة التي احتفت فيها النجوم ، فاشتد الظلام ، فحاولت الاستتار من البرد والمطر
بأغصان الشجر ، ولكنها كانت تنقلص وتنهل كشيان الرمل عليها فلا تحميها من البرد
والمطر ، وتمدو في قلق فتبدو في الظلام كأنها لؤلؤة سل نظامها ، حتى إذا انكشف
ظلام الليل بكرت البقرة من مأواها تبحث عن إبنها ، ولكن قوائمها نزل عن الاتراب
للندى لكثرة المطر الذي أصابه ليلا ، تتمتع في الجرع ، وتتردد متحيرة في وهاد هذا
الموضع ومواضع هدرانه سبع ليال بأيامها ، حتى إذا يئست البقرة من العثور على ولدها
وسار ضرعها المتلى لبنا خلفا لا تقطاع الابن لمدام إرضاعها ، سمعت صوتا ولم تر صاحبه
نفخات ، فقدت فزعة مذعورة لا تعرف منجاها من مهلكها . عندئذ يئس الرماة من
وصولهم لها ، فأرسلوا كلابهم في طلبها ، فلاحقت بها ، ولكن البقرة تصدت لتلك
الكلاب وطمنتها بقرها الذي يشبه الرمح دفعا عن نفسها :

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها^(١)

(١) مسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها ، والصوار : القطيع من بقر الوحش .

خلفاء ضيعت الفرير فلم يرم
لعمري قهد تنازع علوه
صادق منها غيرة فأصبها
بانت وأسبل واكف من ديمة
يملو طريقة متنها متسواتر
تجفاف أصلا قالصا متبصدا
وتغى في وجه الطلام مفيرة
حق إذا حسر الظلام وأسفرت
علمت تردد في نهاء صمائد
حق إذا يئست وأسحق حالق
قد وجست رر الأيبس فراعها
فقدت كلا الفرجين تحسب أنه
عرض الشقائق طوفها وبنامها (١)
غس كواسب لا يمن طامها (٢)
إن المنايا لانطيش سهامها
يروى الخائل دائما تسجامها (٣)
في ليسة كفر النجوم ظلامها (٤)
بمعجوب أنقاء يميل هيامها (٥)
كجاجة البحري سل نظامها (٦)
بكرت تزل عن الثرى أرامها (٧)
سبعا تؤاما كاملا أيامها (٨)
لم يسله إرضاعها ومطامها (٩)
عن ظهر غيب والأيبس مقامها (١٠)
مولى الحافة خلفها وأمامها (١١)

- (١) الفرير : ولد البقرة الوحشية ، فلم يرم : فلم يرح ، والشقائق جمع شقيقة : الأرض الصلبة بين رملتين ، والبغام - بضم الباء - صوت رقيق .
(٢) القهد - بفتح القاف - الأبيض ، والشلو : العضو ، والغبس - بضم الغين - جمع أعبس : لون كالرماد .
(٣) الواكف : القطر ، والديمة : السحابة التي يدوم مطرها مالا يقل عن نصف يوم .
(٤) المتن : الظهر ، كفر النجوم : سترها .
(٥) الاجتياف : الدخول في جوف الشيء ، والتنكير : التثني ، والمعجوب جمع عجب : أصل الدنب ، وهو هنا أصل النقا ، والنقا : كثبان الرمل ، والهيام : مالاتماسك به من الرمل .
(٦) الجبابة : درة مصوغة من الفضة .
(٧) الأزلام : القوائم . (٨) العملة والملاح : الانهماك في الجزع ، والنهائ - بضم النون - جمع نهى : التقدير ، وصمائد - بضم الصاد - موضع ، والتؤام جمع تؤم .
(٩) أسحق : حاق ، والحالق : الضرع المتولد لنا .
(١٠) الرز - بكسر الراء - للصوت الخفي . (١١) تفرج : الواسع من الأرض ، أخبر أنها خائفة من كلا جبينها ، مولى الحافة : للموضع الذي فيه الحافة .

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غضفا دواجن قانلا أعصامها^(١)
فلحقن واعتسكرت لها مدرية كالسمهرية حدها وتامها^(٢)
لئلا ذودهن وأيقنت إن لم تزد أن قد أحرم من الحقوف حمامها^(٣)
فتقصدت منها كساب فصرجت بدم وعودر في المكر سخامها^(٤)

وصفوة القول ، لقد وصف البدويون في أشعارهم كل شيء وقمت عليه أعينهم
أو مريحيا لهم ، أو أحسوا به من خلال مشاعرهم في براعة فنية ودقة ، كما توجهوا
بنظرم الفاحص إلى دخائل نفوسهم ومحصول عقولهم فمكسوه على مرآة شعرهم في
صدق وبساطة .

-
- (١) الكلاب النضف : المسترجية الآذان ، والدواجن : الملمات ، والقنول : اليبس ،
والأعصام : البطون .
- (٢) اعتسكرت : عطف ، والمدرية : طرف قرننها ، والسمهرية من الرماح : الرماح
المنسوبة إلى سمير رجل اشتهر بمحذق صنمها من قرية خطا بالبحرين .
- (٣) الذود : الكف ، والإحمام : القرب ، والحنوف : قضاء الموت ، والحمام :
تقدير الموت .
- (٤) كساب : اسم كلبة ، وكذلك سخام .

البَابُ الثَّالِثُ

الشَّعْرُ الحَضْرِي

الفصل الأول

أعلام من شعراء الحاضرة

أقصد بشعراء الحاضرة أولئك الشعراء الذين مرضت عليهم ظروف حياتهم أن يعيشوا في الحاضرة فترة من الزمان مكنت لقيمها وأخلاقياتها ومظاهرها وعاداتها أو لبعض ذلك من نفوسهم، جعلت منهم عربا غير العرب المجاورين لهم في البادية حسا وهمورا، ومكرا واعتقادا، وأسلوبا في الحياة، وتصورا وخيالا .. إلى غير ذلك من الآثار التي تفرضها الحاضرة على قاطنيها أو من ينزلون بها .

ولمنا نذكر مما قدمنا أننا نرى شاعر الحضر واحدا من ثلاثة هم الذين تصورهم واقعين تحت سطوة الحاضرة بمؤثراتها وقيمها .

أولهم : ذلك الشاعر العربي الذي ولد في كنف الحاضرة سواء كانت حاضرة عربية خالصة ، وهي التي تستقي حضاراتها من بقايا الحضارة العربية القديمة المزوجة بما يصلها من الحضارات المجاورة عن طريق الرحلات التجارية ، والجاليات الأجنبية الوافدة إلى أرض العرب ، والجماعات العربية الزائرة لبلاد فارس والروم والحبشة ومصر على اختلاف الدواعي إلى ذلك - مثل يثرب ، والطائف ومكة ، وما بين النهرين ، وحمان ، والبحرين ، واليمن ، وكندة ، أو كانت حاضرة عربية تكاد تذوب في جيرانها من غير العرب - وهي التي تقتبس حضارتها من الحضارات المجاورة لشبه الجزيرة العربية من فارسية ، ورومية ، ومصرية ، وحبشية .. إلخ - مثل الحيرة والشام .

وثانيهم : ذلك الشاعر البدوي الذي خرج من باديته إلى إحدى الحواضر العربية بعد أن شب ونما حسه وتكوفت أفكاره ومشاعره ، غلبت مظاهر الحضارة الطارئة لبه ، لكنه لم يستطع أن يتلاءم معها تماما ، ولم تتمكن آثارها منه تمكنا يساخره من يبيته الأصلية ، فوقف في تأثره بالحضارة الجديدة عند حد الشكل والمضمون ، أما المعارف والأخيلة والمآل فظلت عربية بدوية خالصة .

ثالثهم : ذلك الشاعر العربي الذي أدرك الإسلام - بدويا كان أو حضريا - فاستجاب له ، واندفع إليه بقوة وإخلاص ، مؤمنا بأفكاره ، مكبا على كتابه ، أو ممارضا رافضا ، فاندفع في مقاومته متأثرا بمنهج شرائه ، فإذا مفاهيم غير المفاهيم ، وأمسكار غير الأمسكار ، وأساليب غير الأساليب ، والألفاظ غير الألفاظ ، وأخيلة غير الأخيلة ، ومعان غير المعاني ، وإن لم تكن غريبة عن سابقتها ؛ لأن الجديد عربي هذبته حضارة الإسلام ، التي اعتزت بالمرئية المهدبة سواء كانت بدوية أو حضرية .

* * *

لقد كان لحياة الحضارة وماحتويه من مظاهر الترف ، ووسائل النعيم ، وأسباب التحضر للمادية والفكرية - أكر الأثر في الشعر الجاهلي ؛ فقد استحوذت هذه الحياة على طائفة من شعراء هذا العصر - على امتداده - فشككت حياتهم بشكل يختلف عن طبيعة الحياة في البيئة الجاهلية عامة ، واتجهت بهم وجهة نفسية وعقلية وسلوكية تنابر وجهات أقاربهم وإخوانهم في البيئات العربية الأخرى ، وصبغت أذواقهم الفنية بالأصباغ والألوان التي تمكسها حياة الترف والتنعم في الحضارة المادية ، وحياة التسامى والترقى في الحضارة الإسلامية ، فلم يهتموا إلا بالأغراض التي تستجيب لها نفوسهم تلك ، ولم يمسدوا إلا إلى الفنون الشعرية التي تلى حاجاتهم ، وداروا بمآلهم وأحيلتهم في محيط الحضارة التي تضمهم وماتصفيه على أسكارهم وخيالاتهم من انطباعات .

فلم يكن شعراء الحضارة هؤلاء على مستوى واحد في درجة تأثرهم بتلك البيئة ، بل إنهم ليتفاوتون في ذلك تفاوتاً كبيراً - وإن لم يخرج عن إطار البيئة - يرجع إلى صلة الشاعر بالحضر وطبيعة تلك الصلة وملابساتها وطبيعة الحضارة وأبعادها ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون تأثير البيئة فيمن ولد ودرج بين أهلها مماثل لتأثيرها فيمن نزح إليها ، طمعا فيما تقدم له من أسباب الترف والنعم ، خلفا وراءه بيئته الأصلية وما فيها ومن فيها ، وليس من المعقول أن يكون تأثير الحضارة المادية مساويا لتأثير الحضارة الفكرية والعقيدية .

وكان من أشهر شعراء هذه البيئة عدى بن ريد ، وأبو داود الإبادي وامرؤ القيس وطرفة بن العبد ، والباينة القدياني ، والأعشى ، وأوس بن حجر ، وعبيد بن الأبرص . والعباس بن مرداس ، والمتقف المبدى ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير .

وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وأمّية بن أبي الصّات ، والسموأل بن عادياء ، وكعب بن الأشرف . . الخ غير أننا سنتناول بالمرض ستة شعراء من هؤلاء يمثلون الاتجاهات المختلفة التي وضحت في شعرهم تأثراً بظروفهم البيئية الخاصة ، وهؤلاء الشعراء الستة هم عدي بن زيد ، وامرؤ القيس ، والنابغة ، والعباس بن مرداس ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير .

لقد جاء الإسلام قبدًا أثره واضحا على عقل العربي وسلوكه ، بحيث أصبح كل دارس متخصص يرى تأثيره من وجهة تخصصه أبرد التأثيرات ؛ ودارس الديانات يرى في الإسلام مؤثرا هـالا في الحياة الدينية حول العرب من الشرك إلى التوحيد ، ومن الوثنية المادية إلى التجريد . ودارس الاجتماع يرى الرؤية نفسها في المجال الاجتماعي ؛ فقد تحول به العرب من القبلية إلى الدولية ، ومن المصيبة الأسرية إلى المصيبة الروحية ، ودارس الثقافة يلمس التأثير ذاته ؛ فقد تنازل العربي بالإسلام عن الخيال المجنح في تمبيراته وأمسكاه وانتقل إلى أسلوب آخر في التعبير والتفكير يمتزج فيه الخيال بالواقع ، والمأطفة بالفكر ، والشعور بالعقل . وقد رأينا مظاهر ذلك التأثير في النثر العربي على اختلاف فونه .

والباظر في القرآن الكريم ، وشعر صدر الإسلام ، يخيل إليه أنه أمام غصاة من القرآن للشعر ، خصوصا حين يقرأ قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » (١) . حتى لقد بلغ الوهم بمص الدارسين أن قرروا أن الإسلام يحرم الشعر أو يكرهه ، مغفلين ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم من تقدير للشعر إلى حد جملة يملح برده على الشاعر كعب بن زهير أثر إنشاده قصيدته (بابت سعاد) ، قائلا : « إن من الشعر لحكمة » (٢) ، وما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا بقتل النضر بن الحارث أحد أسرى بدر الذين طالما آذوا الرسول ، فلما قتل عرضت ابنته (قتيلة) لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بطوف ، فاستوقفته وحذت رداءه حتى انكشف منكبه ، فأشدته أيـاـنا جاء في آخرها :

(١) الشعراء : ٢٢٤ ، ٢٢٦ .

(٢) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٥ .

أحمد ولأنت ضئء نجبية في قومها ، والفعل فحل معرق
ماكان ضر لومنت ورعا من الفقى وهو المفيظ الخنق
والضر أقرب من أخذت برلة واحقهم إن كان عنق يعتق
لو كنت قابل هدية افسديته بأعز مايفدى به من ينفق

فلما فرغت قال صلى الله عليه وسلم : لو سمعت هذا قبل أن أقتله ماقتلته إلى غير ذلك من الرويات الى تكشف عن احتمائه صلى الله عليه وسلم بالشعر والشعراء ، ولو كان ماجاء به القرآن الكريم حصومة للشعر وتحريما له أو كراهية لما قابل الرسول الأمين الشعر والشعراء بهذا الاحتفاء .

ومن يتأمل الآيات السكرية يحد القضية التي يعرضها القرآن تبدأ قبل ذلك حيث يفى تعالى إلى الفرق بين الشعر والقرآن ، ردا على زعم المشركين وادعائهم بأن ماجاء به محمدشرا أو كهانة أو سحرا نزلت به الشياطين ، وقال جل شأنه معرفا بالقرآن الكريم : « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين » (١) . ثم قال تعالى : « وما نزلنا به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » (٢) . إلى أن يقول موضعا الفرق بين القرآن والشعر : « هل أنبئكم على من نزل الشياطين . نزل على كل أفك أثيم . يلقون السمع وأكثهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » فالوارنة صريحة بين القرآن والشعر ، أجب بها تعالى على دعوى أن ماجاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قبيل الشعر الذى يلعب بالعواطف ، ويستحوذ على المشاعر . وضح فيها أن القرآن ليس من ذلك الضرب الخادع ، القائم على الماطفة ، وإنما هو كلام صيغ بلسان عربي لبيان الحقيقة ، ويكشف الطريق لدوى العقول التي تقدر على وزن الأمور ، وتسعى لاختيار الحق منها ، فهو وسيلة إنذار وتبيين ، لا استحواذ وتأثير . كما وضح فيها الفرق بين طائفتين من الناس ، إحداهما تهيم وراء ما يلمب بمشاعرها وعواطفها ، أم سماتها الفواية والخيال المنح حيث يقولون

(١) سورة الشعراء آية ٢١٠ ، ٢١٢ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢٢١ ، ٢٢٧ .

مالايملون ، والثانية تقف على أرض صلبة تطلق منها في تفكيرها ، وتسير عليها في سلوكها ، هي أقرب إلى الواقع ، وألصق بالحقيقة ، فهم مؤمنون ، يعملون الصالحات ، ويذكرون الله ، ويتصرون من بعد ظلم ، ليسوا محذرين ولا مستسلمين لأوهام الخيال .

هالقضية ليست قضية الشعر ، بحيث ندين منها موقف الإسلام من الشعر ، ولكننا قضية الإدعاء بأن ما جاء به محمد شعرا ، ففرق سبحانه بين الشعر وآثاره والقـرآن ورسائله وآثاره ، وفرق بين الشعراء المسلمين لحالات الشعر واتجاهاته ، وبين الشعراء المؤمنين الذين لا يبعدهم الخيال الشعري عن الواقع .

ويقرر هذا أنهم كانوا حريصين على وصف محمد صلى الله عليه وسلم بالشاعر، إيماء إلى أن دعوته تلك رهن بحياته ، فإذا مات خبا سلطانه على النفوس وضعف حتى أصبح أثرا لا تأثير له ، ومن ثم فهم يتوقعون أن الموقف سيتغير حين يموت محمد ، ولا يكون ثمة ذلك التأثير الشعري الساحر : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نقرض به ريب للنون . قل ربصوا فإني معكم من المتربصين » (١) هذا وهم المشركين بنوه على حسب تصورهم في القرآن واعتقادهم أنه نعط من الشعر لا يابث أن تنطفئ جذوته ؛ فإنهم لما رأوا للقرآن ذلك التأثير البالغ على السامع والناظر - ومادروا أن هناك قولا غير الشعر يبالغ في التأثير هذا المبالغ - لم يكن أمامهم إلا أن يصفوا على القرآن صفة الشعر وإن كان غير مطابق في الشكل لما عهدوا وعرفوا من الشعر ، فهو في وهمهم شعر بتأثيره وليس ببائه وشكله . ولو كانوا - في ذلك - يريدونه شعرا من كل الوجوه لما كانوا في حاجة إلى ذلك الإعلان المتكرر ؛ إذا لكل يعرف فيه تلك الصمة ، إنما هم فكروا وقدروا فلم يصلوا إلى غير ذلك .

من هذا المنطلق الواعي بمقاصد القرآن الكريم احتفل الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر والشعراء دون أن يجسد في ذلك عضاضة أو كراهية ، واحتفل معه الصحابة وسائر المسلمين شعراء وغير شعراء .

فالشعر في ظلال الإسلام وسيلة من وسائل متعبير يخضع لما خضع له سائر الوسائل

التعبيرية من مبادئ الإسلام وقيمه وأخلاقياته . والشعراء في ظلال الإسلام كالشعراء في كل عصر وبيئة متهيئون للتأثر بما يظلمهم من موجبات المواطن والتفكير والخيال .

* * *

لا ريب في أن العصر الإسلامي امتداد زمني للعصر الجاهلي ، فما كان عليه الشعر في العصر الجاهلي لا يمكن أن يتغير طفرة ، وإنما هو خاضع لقوانين الفطرة التي تقوم على التدرج في الانتقال والتغير فالعرب - حين بدأت الدعوة الإسلامية - هم عرب الجاهلية شعرا وحلقا وسلوكا . إلى غير ذلك وإنما بدأ أثر الإسلام في شعرهم حين ذاعت دعوته : خلقت في السماء .

العربية مبادئ غير المبادئ ، وقيم غير القيم ، وجدت على الأرض العربية ظروف وملابسات غيرت شكلها أو كادت . وقد وضع ذلك كله بمد الهجرة إلى المدينة ، حيث اشتعلت نار الحرب بين مشركي مكة ومسلمي المدينة ، وكما شرعت الرماح واستلقت السيوف في هذه الحرب ، سلت الألسنة ، وأذيت القصائد من الجانبين . وقد لمع في هذه الحرب من حارب مكة أمماء شعراء كثيرين لم يكن لهم قبل ذلك ذكر - مثل صرار بن الخطاب الفهري ، وعبدالله بن الزبير ، وأبي عزة الحمصي ، وأبي سفيان ابن الحارث ، وهبيرة بن أبي وهب المخرومي - وجهاوا شعرهم لهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وللصد عن الدين الجديد ، فوقف من شعراء المدينة حسان بن ثابت يرد عليهم ، مدافعا عن الرسول وعن الإسلام ، ومعه كعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة وكانت معركة حامية الوطيس قدمت كثيرا من الشعر ، بيد أن الذي وصلنا منه قليل مشكوك في صحته ، لأن رواية ابن إسحاق لم يكن دقيقا في الرواية والنقل ، وقد نبه إلى ذلك ابن سلام في قوله عنه : « كان ممن أفسد الشعر وهيجنه وحمل كل غناء منه » (١) .

وتضامن جماعة من شعراء اليهود مع شعراء مكة هجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ودعوا العرب إلى الإعراض عنهم ، وكان في مقدمتهم كعب بن الأشرف ، الذي بكى قتلى بدر ، واشتط في عداوته وشبب بدعاء الرسول وساء المسلمين ، مما دفع

محمد بن مسلمة إلى قتله^(١) وإلى جرار هؤلاء وأولئك وقف كثير من شعراء العرب مع قريش ليكون قتلاهم ، وبهجون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وبمحرضون قريشا على مواصلة الحرب ، ومكافحة هذه الدعوة ، مثل أمية بن أبي الصلت الذي رثى قتلى بدر من قريش^(٢) ، والأسود بن يعفر بن عبد الأسود الذي مدح قريشا وأشاد بانتصارهم في أحد^(٣) .

ولما فتحت مكة أقبل كثير من شعراء العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين معتذرين عما بدر منهم . طالبين العفو عما قالوا ، مثل كعب بن زهير ، وأبي ابن زئيم وأبو سفيان بن الحارث ، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضيعه ، وكان شديد المداوة لرسول الله ، ثم أسلم عام الفتح ، وشهد حديبا فأبى فيها بلاء حسنا ، وعما قاله بعد إسلامه^(٤) :

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب حيل اللات خيل محمد
لئلا له الخيران أظلم ليله فهذا أوان جبن أهدي وأهتدي

* * *

واستمرت الحرب بلونها العسكري والكلامي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مع اختلاف الخصوم ، وفي عهد الصديق كانت بين المسلمين المرتدين من قبائل العرب مثل أسد وغطفان رعيمة وحنيفة ، وفي عهد عمر كانت الحرب بين المسلمين ، وبين الفرس والروم ، حيث أقبل المسلمون جميعا على تلك الحروب . وكان من يتخلف عن الحرب لضرورة يحس في نفسه بألم وضيق ، خرج كثير من الشبان تاركين وراءهم آباء شيوخا يمولونهم ، مما دعا عمر إلى أن يسترجع أمثال هؤلاء ، من ذاك ما رواه صاحب الأغاني أن الخجل السعدي جزع حزنا شديدا حين خرج ابنه شيبان مع سعد ابن أبي وقاص ، وكان قد أش وصعف ، فمضى إلى عمر وأنشده أبياتا منها :

(١) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣

(٢) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٢٦٣

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٧

أيهلكنى شييان فى كل ليلة لقاءى من خوف الفراق وجيب
 وإن يك عصى أصبح اليوم ذابوا وغصنك من ماء الشباب رطيب
 فإنى حنت ظهرى حطوب تنابت فمشى ضعيف فى الرجال ديب
 إذا قال صحى : ياربىع ألا ترى ؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
 وبخبرنى شييان أن لن يعفى تمق إذا هارقتى ونحوب^(١)
 فلا تدخلن الدهر قمرك حوبة يقوم بها يوما عايك حبيب

وبكى عمر ورق له وكتب إلى سعد يأمره برد شييان على أبيه ، مماذ إليه مكرها ،
 ولم يزل عنده حتى مات^(٢) . وذكر ابن سلام أن أمية ابن حزنان بن الأسكر هاجر
 أبناء كلاب وأخوه إلى البصرة بعد ما كبر وكف بصره فقال لعمر :

لمن شيخان قد شددا كلابا كتاب الله إن حفظ الكتاب^(٣)
 إذا هتفت حمامة بطسن وج على بيضاتها ذكرا كلابا^(٤)
 تركت أباك مرعشة يدها وأمك مالمسيغ لها شرابا

فكتب عمر إلى أبي موسى بإعصاه إلى أبيه^(٥) . وقال النابغة الجعدي لامرأته
 حين أظهرت تأثرها لخروجه فى حرب الفرس^(٦) :

بانمت تذكرنى بالله قاعدة والدمع ينهل من شأنهما شبلا
 يا ابنة عمى كتاب الله أخرجى كرها ، وهل أمنن الله ماملا
 فإن رجعت رب الناس يرجعنى وإن لحقت برى فابتغى بدلا
 ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرنى أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا

-
- (١) محبوب : تأثم
 (٢) الأغاني ج ١٣ ص ١٨٩ وما بعدها .
 (٣) لمن شيخان : يعنى لمن ترك شيخين كبيرين ، نشدا كلابا كتاب الله : استعملها
 كلابا بكتاب الله ، حفظ الكتاب : رعى له حرمة ، وأطاعه .
 (٤) وج - بفتح الواو - للطائف .
 (٥) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٩٠ وما بعدها .
 (٦) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٩٣ .

ولما تولى عثمان الخلافة راصل سياسة عمر ، وأنتم فتح إيران وإفريقية ، وفي أثناء ذلك اندلعت الثورة ضده ، وكانت فتنة راح الخليفة ضحيتها ، فبكاه كثير من شعراء المسلمين ، وتولى على رضى الله عنه الخلافة من بعده ، فلم يقر له قرار ، إذ خرج عليه طلحة والزبير ومعاوية ، وآررتهم السيدة عائشة أم المؤمنين ، واشتدت اللاتن وتوالت ، والتقى المسلمون في عدة ممالك طاحنة ، لم تتوقف حتى قتل على فبكاه أصحابه وقد كانت هذه الحرب ميدانا لتواصل الشعراء ، وتفننهم في إسقاط المسلمين على الطرف الآخر ، واستأثارهم ضده ، وكل طائفة تحاول أن تقيم الحججة على الآخر .

(١)

أمرؤ القيس

نشأته :

أمرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو الكندي . ذكرت كتب الأدب له أكثر من إسم ، فاسمه حنـدج - بضم فسكون - وعدى ، ومليكة - بضم مفتـح - وكما تعددت أسماءه تعددت كنائه ، فـقيل : أبو وهب ؛ وأبو زيد ، وأبو الحارث . ولقب بأمرؤ القيس ، ودى القروح ، وللك الضليل . ولقد اتخذ بعض الدارسين هذا التمدد سبيلا إلى التشكيك في وجوده . مغفلين أن ذلك من طبيعة العرب ، إذ يطلقون على الشخص من الأسماء والسكنى والألقاب ما يتناسب مع الأحداث والمواقف التي يتعرض لها ، والصفات التي يكون عليها . هذا إلى أن كثيرا من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان للواحد منهم من الأسماء والسكنى والألقاب ما يفوق الذي أثر لأمرؤ القيس بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى بعشرات الأسماء .

لم تعرف سنة مولده ، ويقدر أنه ولد مع مطلع القرن السادس الميلادي .

ولد في بيت الملك بأبوه وأجداده ملكوا كندة النجدية ، تلك الإمارة العربية التي أقيمت في مقابلة إمارة المناذرة في الحيرة الخاصة لسلطان الفرس ، وإمارة الفساسنة في الشام الخاصة لسلطان الروم .

ويعتبر الحارث جد أمرؤ القيس أهم أمراء الأسرة ، فقد كان حريصا على الساع نفوذها ، فأكثر من الإمارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته أبناء حجر ومعد يكرب ، ومن بين غاراته تلك غارتان على فلسطين الخاصة للدولة الرومانية في عامي ٤٩٧ ، ٥٠١ الميلاديين (١) .

وسنحت له فرصة التوسع حين غصب (قباذ) ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة لرفضه مذهب المزدكية ، فعزله وولى الحارث مكانه ، الذي حرص بدوره

(١) راجع تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد طي ج ٣ ص ٢٤٥

على أن يحمى نفسه ، وينشر سلطانه ، فولى ابناؤه على القبائل ، فحل حجرا على أسد
وغطفان ، وشرحبيل على بكر وحظلة والرباب ، ومعد يكرب على تغلب والحرث فأسط
وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن حنظلة والصنائع وهم بنو رقية قوم كانوا
يكونون مع الملوك ، وسلمة على قيس^(١) . ولسكن الحارث لم يهاجما وصل إليه طويلا ،
فقد توفى قباز وخلفه كسرى أنو شروان الذى كان يكره المزدكية : فعزل الحارث .
وأعاد المنذر إلى الحيرة ، مدارت بينه وبين الحارث حروب طاحنة انتهت بمقتل الحارث
وتبع المنذر أبناءه بالإيقاع بينهم والحس ، وتآلب القبائل عليهم ، فسقط شرحبيل في
معركة بينه وبين أخيه سلمة ، وسقط معد يكرب وسلمة في معركة تعرف بيوم أودة
الأول^(٢) . أما حجر فقتلته قبيلة بني أسد ، على اختلاف في أسباب ذلك وكيفية ، فقد
ذكر صاحب الأغاني في ذلك أربع روايات مختلفات ، روى الأولى عن هشام بن الكلبي
المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وبها يرجع مقتله إلى أن كان له على بني أسد إتاوة ، فلما تلأبوه
منموها وضربوا جياته ، فصار إليهم حجر بجند من ربيعة وقيس وكساعة ، فاستسلموا
له ، ولكنه أساء إلى سادتهم وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم في جنوبي وادي
الرملة إلى تهامة ، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدي ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص
فاستعطاه عبيد بصيدة يقول فيها :

يا عين فابكي ما بني أسد فهم أهل الدمامة
أهل القباب الحمر والد سقم المؤبل والمدامة^(٣)
حالا أبيت اللهم حـ لا إن فيما قلت آمة^(٤)
إما تركت تركت عفـ وا أو قتلت فلا ملامة
أنت المليك عليهم وهم المييد إلى القيامة

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٤٣ وما بعدها ، والأغاني ج ٩ ص ٩٠ وما بعدها
طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) نقائص جرير والفرزدق ص ٨٨٧ طبعة بignan ، وابن الأثير ج ١ ص ٢٢٨

(٣) المؤبل بضم الميم وفتح الهمزة : المقنى .

(٤) حالا : أى تحال من يمينك ، والآمة : العيب

ذلوا لسوطك مثل ما ذل الأشيقر ذو الحزامه (١)

فاستجاب حجر لهم ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضروا له الانتقام ، ولما سمحت لهم للفرصة قتلوه ، وانهبوا أمواله .

وروى الثانية عن أبي عمرو الشيباني للتوفي سنة ٣١٣ هـ ، وتتلخص في أن حجرا لما حاف من بني أسد استجار بموير بن شجنة التيمي لبنته هند وأهلها ، ثم مال على بعض بني سعد بن ثعلبة فأدركه علباء بن الحارث الأسدي وغاله وقتله .

وروى الثالثة عن أبي الهيثم بن عدي المتوفي سنة ٣٠٦ هـ ، وفيها أن حجرا لما استجار بموير بن شجنة تحول عن بني أسد وأقام في كندة مدة ، جمع منهم حمما عظيما سار به إلى بني أسد ، فتآمرت بنو أسد بينها ، وقررت معاجلته ، فساروا للاقائه ، فاقتتلوا قتالا عيضا ، فحمل صاحب أمرهم علباء ابن الحارث على حجر فقتله ، وانهمزمت كندة ، وفيهم يومئذ امرؤ القيس ، فهرب على فرس له أشقر ، ولكنهم قتلوا من أهل بيته طائفة ، وأسروا أخرى ، وانهبوا أموالهم .

ونقل أبو الفرج الرواية الرابعة عن ابن السكيت للتوفي سنة ٢٤٤ هـ ، وتقول إن حجرا رجع بعد موت أبيه إلى أسد ، وكان قد أساء لآلئهم فاجتمع أمر بني أسد على محاربتة والخروج عليه ، فخرج إليه بعض شجعانهم ، وقتلوا من كان يقدم ركبه من غلمانة وسبوا جواريه ، ولما علم حجر بما صنعوا قاتلهم مهزومه وأسروه ، ووثب بقى منهم كان له عنده ثأر فقتله (٢) .

* * *

ولقد كثرت الروايات والأفاصيص التي تناولت حياته بالوصف والتعليل ، ولكننا لانجد رواية منها تسلم من الطعن أو الشك فيها ، وبما ساعد على ذلك تشابه اسمه مع غيره من شعراء الجاهلية ، فقد روى أنه كان في الجاهلية ستة عشر شاعرا كلهم يسمى امرؤ القيس .

-
- (١) الأشيقر تصغير الأشقر : الآخر من الدواب ؛ والحزامه حلقة من شعر تجعل في ورة أنف البعير يشد بها الزمام ، فإن كانت من صقر فهي برة .
(٢) الأعاني ج ٩ ص ٨٣ وما بعدها طبعة دار الكتب المصرية .

وتسكاد تلتنق الروايات على أنه لم ينشأ في كنف أبيه ، فابن قتيبة يروي (١) أنه رأى من أبيه جفوة ملحق بمعه شر حبيب ، فأقام في بني دارم حيناً، ويذكر مرة أخرى أن أباه طرده لما صنع في الشمر بفاطمة ما صنع ، وكان لها عاشقا ، فطلبها زمانا فلم يوصل إليها ، وكان يطلب منها غرة ، حتى كان منها يوم التقدير بدارة حبلجل ما كان فقال : (فغانبك من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ حجرا أمه دعا مولى له يقال له ربيعة ، فقال له : أقتل امرأ القيس واقتل بعينيه ، مذبح جوذرا وأناه بعينيه ، فندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن إني لم أقتله ، قال : فأمتى فانطلق فإذا هو قد قال شرا في رأس جبل ، فرده إلى أبيه . فنهاء عن قول ، الشمر ، ثم إنه قال : (ألا أنعم صياحا أيها اللطل البالي) فبلغ ذلك أباه فطرده ، قبلته مقتل أبيه وهو يتمون

وصاحب الأغاني يروي عن ابن السكلي أن حجرا كان طرد امرأ القيس وآلى ألا يقيم معه أنفة من قوله الشمر ، وكانت للوك تأنف من ذلك ، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طىء و كلب وبكر بن وائل ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام مذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقام ، وغنته قيانة ، ولا يزال كذلك حتى يفد ماء التقدير ، ثم ينتقل عنه إلى غيره ، وظل على هذا الحال إلى أن بلّغه مقتل أبيه (٢) :

وكان لبدائته هكذا بعيدا عن رعاية أبيه أثر بالغ في انحراف سلوكه ، وحلوده إلى اللهو والبس ، وبعدة عن مسؤوليات الحكم والحياة ، حتى إنه حين بلغه مقتل أبيه وجه إليه اللوم على ما كان منه في شأنه ، إذ أهمل إعداده وإشراكه في معالجة المشكلات فافتقد الخبرة بالحياة ، والتجربة ، فقال : ضيعى صنيرا ، وحملى دمة كبيرا (٣) .

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، أو لم تصح واحدة منها ، فإن حياته تشير إلى أنه حرم التوجيه والإعداد ، وترك حبله على غاربه دون رعاية أو تقويم ، فامطلق يحرر يد مستندا إلى حاهه و ثراء أسرته الذى يحد فيه للمعين الثر ، فسار ومن خلفه طائفة من الشذاذ يتلقفون للثمة من حوله ، ويتسقطون الدميم في جواره .

(١) الشمر والشمراء ج ١ ص ١٠٧ ، ص ١٢٢ بتحقيق أحمد محمد شاكر .

(٢) الأغاني ج ٩ ص ٨٧ .

(٣) الأغاني ج ٩ ص ٨٨ ، والشمر والشمراء ج ١ ص ١٠٧ .

وما زال على هذا الحال إلى أن قتل أبوه ، فأسقط في يده ، وحال أن يجد لنفسه
سيلا يشأز لآليه أو يحتفظ بكيانه وسلطانه ، فكأنح في سبيل ذلك وجاهد ، وظل
ينتقل بين القبائل يطلب منها العون على بنى أسد ، ولكن دون جدوى إلى أن مات ،
وغياب على الظن أن موته كان في الفترة بين سنتي ٥٣٠ و ٥٤٠ م

شعره :

على الرغم مما أحاط بشعر امرئ القيس من ملايسات لشكك فيه ، وتشير إلى أن
من بيده الكثير التحول . فإن فيما نطمئن إلى نسبتة إليه من ذلك الشعر ما يمسك حياة
صاحبه ، ويبين ما كان عليه قبل مقتل أبيه ، وما آل إليه أمره بعد ذلك : فإنه تقسم
شعره قسمين ترى في أحدهما الحب واللهم ، وترى في الآخر الحزن والجد
والخيرة والتعلق

ومع هذا التغير الطارئ على حياة الشاعر ؛ تنظر في شعره فلا تكاد تجد فيه
خروجاً على مؤثرات بيئته الحضرية المترفة الفارغة ، التي وقفت بخبراته عند حد معين
ضيق لا يكاد يتجاوز .

يتمثل ذلك في معانيه وأخيلته المكررة العادة من قصيدة لأخرى ، حتى كأنه
قد القدرة الشعرية ، أو نصب فسكره فلم يعد يقع على الجديد من المعاني ، وفي الحقيقة
أنه ما كان هذا ولا ذاك ، بل إنه كسل للترف المنصرف عما دون لذائذه عن تحريك
عقله وإعمال فسكره اعتماداً منه على ما سبق له . مثال ذلك قوله في معلقته :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأبواب هيكل
وقوله في مطولته الثانية اللامية .

وقد اغتدى والطير في وكناتها لنيث من الوسمي رائده خال
وقوله في بائيته :

وقد اغتدى والطير في كنانها وماء الندى يجري على كل مذنب
بمنجرد قيد الأبواب لاحه طراد الهوى كل شأ ومزب

وقوله في ضادته :
 وقد أغتدى والطير في وكرانها بمجرد عبل الـيدى قبض^(١)
 ومثال ذلك - كذلك - قوله في معلقته :
 فعادى عداء بين ثور ونمجة درا كا ولم ينضج بماء وينسل
 وقوله في مطولته اللامية :
 فعادى عداء بين ثور ونمجة وكان عداء الوحش منى على بال
 وقوله في البائية :
 فعادى عداء بين ثور ونمجة وبين شبوب كالتضمية قهره^(٢)
 ومثال ذلك قوله في معلقته :
 فعن لنا سـرب كأن نجاهه عدارى دوار فى المساء المسدل
 وقوله في لامية :
 ذمرت بها سـربا نقياً جلوده وأكرعه وشى البرود من الخال
 وقوله في بائته :
 فبيننا نماج يرتمين خيـلة كفى المذارى فى الملاء المذب
 وقوله في ضادته :
 دمرت به سـربا نقياً جلوده كما ذعر السرحان جنب الرريض^(٣)
 ومثال ذلك قوله في المعلقة هو وصف فرسه :
 له أبطالا ظبي وسافا نمامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل
 وقوله في البائية :
 له أبطالا ظبي وسافا نمامة وصهوة غير قائم فوق مرقب

* * *

وتتراوى محدودية امرئ القيس في موهبة الشعرية التي وقف بها عند حد

- (١) الببل : الضخم ، والقبيض : الشديد ، وقيل : السريع .
 (٢) الشبوب : الشباب ، والتضمية : الصعفة البيضاء ، والقهره : بفتح فسكون
 فلفتح : السن
 (٣) السرحان بكسر السين : الدثب ، والرريض : الغنم .

الاستعدادات الحيوية ، فأتت في المرحلة اللاهية من حياته لا تسكاد تمثر في شعره إلا على صورة اللاه المأبث المفرد من مجتمعه القدي لا يشارك عشيرته مشا كلها ، بل ولا يحس بما يدور حوله ، فهو في شمر تلك المرحلة مقصور على مطاردة امرأة يستعطفها ويستميلها بشق الوسائل ، فتارة ياجأ إلى وصف مفامراته النسائية وطورا يلجأ إلى الحديث عن اغتناله بها ، والسهر معها ، والتفكير الدائم فيها ، وثالثة يستمر من ملامه وسياحاته المأبثة وما يحدث فيها من لهو وإمتاع جسمي ؛ مكان بحق السابق إلى هذا الغزل الفاحش صريح الذي دار بالبطولة في نطاق المرأة ومتع الجسم وغير ذلك من الماديات .

ومطولته المشهورة بالمعلقة خير ما يمثل شعر تلك المرحلة وقد سار فيها مسارا خاصا . فقد بدأها بمطلع عده القدماء من مبتكراته ، استوقف فيه من معه ليستعيدوا ذكريات الأحباب ومنازلهم ، ومستعرضا هذه المنازل وما آلت إليه بعد ارتحال أهلها ، متذكرا حاله يوم ارتحلوا ، متقلا من ذلك إلى تعداد مواقفه النسائية المأثلة ، مستثيرا بذلك عيرة صاحبه فاطمة لملها تحتجيب له .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول وحومل^(١)
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل^(٢)
تري بعمر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلل^(٣)
كأني غسدة البين يوم تحملوا لدى سمرة الحى ناقب حنظل^(٤)

(١) السقط : منقطع الرمل ، واللوى بكسر اللام : حيث يلتوى ويرق ، وإنما خص منقطع الرمل والرمل وملتواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في صلابة من الأرض ليتمكنوا من ذلك أثبت لا وتاد الأبنية ، وأمكن لحفر النوى . والدخول وحومل : موضعان .

(٢) توضح والمقراة : موضعان ، لم يعف : لم يدرس ، والرسم : الأثر ، والجنوب : الريح القبلية نسبة إلى القبلة ، والشمأل : الريح الجوفية نسبة إلى الجوف في شمال مكة .
(٣) الآرام : الظباء البيض : وعروة الدار ساحتها ، والقيعان جمع قاع : المستوى من الأرض .

(٤) السمرة جمع سمرة بضم الميم : شجر الصمغ العربي . ولئاناف : المستخرج حب الحنظل ، والحنظل له حراره تدمع منها المين .

وقوفا بها محسى على مطيهم يقولون : لانتك أسى وتجمل
وإن شفاى عبرة إن سفتحها وهل عند رسم دارس من مهول^(١)
كدبتك من أم الحويرث قبلها وحارثها أم الرباب بمأسل^(٢)
ففاضت دموع اللعين من صباة على النحر حتى بل دمعى شحلى^(٣)

ويواصل الشاعر فى ذلك السيل ، فيذكر ما كان فى دارة جلجل بينه وبين عزيزة
وصواجها ، ثم يخلص من ذلك ليتجه إلى صاحبه معانبا فى رقة ، مذكرا بما يكنه لها
من هوى ، متقربا منها بشئ الوسائل معتبرا بصيواته وما فى سلوكه من ضعف أمام
للنساء ، طالبا منها قبوله على علاقته ، وذلك فى قوله :

أفاطم مهلا بعض هذا التذلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجمل^(٤)
وإن كنت قد ساءت لك مى حليقة سلى ثيابى من ثيابك تنسل^(٥)
أعرك مى أن حبك قاتلى وأبك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتقدحى سهميك فى أعشار قلب مقل^(٦)
ويصفى خدر لا يرام خباؤها غتمت من لحوها غير معجل^(٧)

(١) الممول : المعتمد ، من التعويل على الشيء ؛ أى إن البكاء عند رسم دارس
لا يجدى شيئا .

(٢) الدين بكسر الهمزة : للدأب والعادة ، مأسل بفتح السين : اسم جبل ، وبكسر
السين اسم ماء .

(٣) الحمل : سير يحمل به السيف .

(٤) بعض هذا التذلل : كفى عن بضمه ، وأزمنت : عزمت والعزم : القطع
والفراق ، فأجمل : من التجميل وهو ترك ما يبيع .

(٥) سلى ثيابى من ثيابك : أخرجى أمرى من أمرك ، وتنسل : تسقط .

(٦) ذرفت : سال دمعها ، والقذح : الحرق والتأثير فى الشيء ، والأعشار جمع
عشر بكسر العين : القطع والأجزاء .

(٧) شبه صاحبه بالبيضة لبياضها ورقها ، وأضافها إلى الخدر لأنها مكنونة غير
متبدلة . غير معجل : لم أهمل عنها بتيرها .

تجاوزت أحراسا وأهوال معشر على حراس لو يشرون مقتلى (١)
إذا ما الثريا في السماء تمرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل (٢)
فجئت وقد نضت لبوم ثيابها لدى السر إلا لبسة المفصل (٣)

وبواصل حديثه ، فيذكر خوفها عليه وعلى نفسها الفضيحة وانكشاف الأمر ، وكيف خرج بها من البيوت منتحيا مكانا مأمونا ، وينصل ما كان بينه وبينها في تلك النجوة ، واصفا محاسنها ، ومصادر الإثارة فيها ، ومظاهر جمالها ، ومفاتن جسمها وأطرافها ، ويخلص من ذلك إلى أن تلك التي أذكر لا تستطيع أن تنزعى من حبك والاشتغال بك ، إلى على الرعم بما اسمعه عنك من الخصوم ، لا أنقطع عن التفكير فيك ، والاهتمام بأمرك ، فليلى مظلم ثقيل يحتوي بأنواع الموم ويمتدني فلا أكاد أجد ما ينسئ عن نهايته ، وما طرأ على الليل طول ولا قتل ، ولكنها هموم الحب وشقوته تجملني أشعر بما لا يشمر به غيري وهكذا أظل ليلي قلقا أرقب زواله وهو لا يتحرك ، حتى جيل إلى أن يحجوه شدت إلى الجبال والأحجار الكبيرة فأصبحت ممنوعة من الحركة والزوال :

الارب خصم فيك ألوى رددته نصبح على تعذاله غير مؤتل (٤)
وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الموم لبيتلى (٥)
مقات له لما تعطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل (٦)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

-
- (١) يشرون بكسر اللشين وتشديد الراء : يظهرون .
(٢) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للنيب فأرتك حانبا منها مثلما ترى من جانب الوشاح حين يتلفك بباحية مه ، والمفصل : الذي حمل بين كل خرزتين فيه أولؤة .
(٣) نضت : نزع ، لبسة بكسر اللام : هيئة اللبس ، والمفضل : من يلبس ثوبا واحدا .
(٤) الألوى : شديد الخصومة ، واللؤلى : المقصر .
(٥) السدول : الستور
(٦) تعطى : امتد ، والصلب : الظهر ، وناء بكلكل : نهض بصدرة .

ويا لك من ليل كأن نجومه بكل منار القتل شدت ييذبل (١)
كأن الشريا علفت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل (٢)

ومع هذا السهر الطويل المضى ، ومع هذا الألم الممعن ، فإنى قد أباكر الصيد
قبل خروج الطير من أعشاشها بفرس قوى عنيف ، لا يملك زمامه إلا فارس مدرب ،
فلا يتصور من يرانى على هذا الحال أنى قضيت ليل مؤرقا مسهدا ؛ فأنا مع ما أعانى
قوى فنى :

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل (٣)
مكر مفر مقبل مدبر مما كجلود صخر حطه السيل من عل (٤)
كفيت رل الابد عن حال متنه كما رلت الصفواء بالمتزل (٥)
مسح إذا ما السابحات على الونى أثرن عبارا بالسكديد المركل (٦)
على العقب حياش كأن اهتزامه إذا جاش فيه حميه على مرجل (٧)

-
- (١) المغار : شديد القتل ، ويذبل : اسم جبل .
(٢) المصام : مكانها الذى لا تبرحه . والأمراس جمع مرس بفتحين : الجبل ،
والجندل : الحجارة الكبيرة ، والصم جمع أصم : الصلب الشديد .
(٣) الوكنات جمع وكمة بضم الواو : مواقع الطير ، والمنجرد : الفرس قيسير
الشعر ، والأوابد جمع أبدة : الوحوش ، والهيكل : الضخم .
(٤) الجلود : الحجر العظيم الصلب ، حطه : أسقطه .
(٥) السكيت : الفرس الأحمر في سواد ، رل : إسقط ، المتن : الظهر ، الصفواء :
الصخرة اللساء ، المتزل : البازل عليها .
(٦) مسح : يسح المدو مثل سح المطر ، السابحات : الخيل المسرعة ، الونى :
الفتور ، السكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الدلى ركلته الخيل بحوافرها . يعنى
أنه في جريه لا يثير غبارا كما تصنع السابحات لأن حوافره لا تسكاد تلمس الأرض .
(٧) العقب بفتح العين وسكون القاف : جرى بعد جرى ، حياش : يحيش في
جريه كما تحيش القدر على النار ، الاهترام : صوت الجوف عند الجرى ، والحمى بفتح
الحاء وسكون الميم : الغلى ، والمرجل : القدر .

- يطير الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المنقل (١)
 دربر كخذروف الوليد أمره تقلب كفيه بخيط موصل (٢)
 له أبطلا طى وساقا زمامة وإرخاء سرحان وتقريب تنقل (٣)
 كأن طى الكتفين منه إذا انحنى مذاك عروس أو صراية حنظل (٤)
 فمن لنا سرب كأن زمامه عذارى دوار فى الملاء المذيل (٥)
 فأدبرن كالجزع للفصل بينه بجيد ميم فى العشرة محول (٦)
 فالحق بالهاديات ودوبه جوارحها فى صرة لم تنزل (٧)

ويصف مشهد الصيد وما يشتمله من صراع بين مرسه هذا وبين جماعة البقر ينتهى بصيد ثور ونعجة يقوم الطهاة بإعداد لحومهما لقطعها .

ثم ينتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التى ألت بهم فى رحلهم تلك ، وكيف بدأ ويمض البرق الذى يشبه انتشاره وتشعبه فى السحاب المتراكم حركته اليبدين

- (١) يطير : إسقط ، والصهوات جمع صهوة : موضع البعد من ظهره ، يلوى بأثواب العنيف : يذهب بها ، والعنيف : الأخرق ، والمنقل : الثقل الذى لا يحسن الركوب .
 (٢) دربر : سرب ، الخذروف : حصاة مثقوبة يجعل الصبيان فيها خيطا يديرها ، وجمل حيط الخذروف موصل لأنه قد ارب به كثيرا حتى حب وأخلق وتقطع خيطه فوصل ، فذلك أسرع لدورانه .
 (٣) الأبطل . الخاضرة ، والسرحان : الذئب ، تنقل : الثعلب ، والإرخاء : المدوء ، والتقريب : التفز .

- (٤) مذاك العروس بفتح الميم : حجر تسحق عليه طيبها فيبرق . والصراية : بفتح الصاد : الحنظلة الصفراء البراقة . شبه حارك الفرس إذا اعترض بهدين فى الملاسة والبريق .
 (٥) عن : ظهر ، دوار بضم الدال : صنم يدورون حوله ، الملاء الملاحف ، المذيل : الطويل المذهب .

- (٦) الجزع : الخرز اليماني ، الجيد : العنق ، ميم محول : كرم المم والخال ، شبه بقر الوحش فى بريقتين وما فيهن من البياض والسواد بالخرز المنفصل بالؤلؤ النفيس فى عنق صى كرم أعمامه وأخواله .

- (٧) الهاديات : المتقدّمات من البقر ، الجوارح : المتخلفات منها ، والعصرة : الجماعة التنزيل : التفرق .

وتقليهما أو يشبه مصاييح راهب مقطع في الصحراء يتوهج نورها في الظلام الدامس بما يمدّها من زيت . وكيف قمد هو وأصحابه ضارج والعذيب يتأملون ، وميض البرق وثأله في السحاب متعجبين من بمد ما يتأملون . ثم كيف أضحى هذا السحاب يسح الماء للرة بعد المرة في غزارة فيقتلع الأشجار العظام ويسقطها على رؤوسها ، ولم يدع هذا السيل بقرية تباه شيئا من جذوع المخمل ولا شيئا من القصور والأبنية إلا ما كان منها مرفوعا بالصخور أو محصا . والتفت السيول وما تحمل من عشاء بجبل الهييم في أرض فزارة فبدا كأنه فلكة منزل ، أما الجبل أنان فبدا من هذا السيل والثناء كشخ مائت في كساء محطط ، وألقى هذا المطر ثقله بصحراء النبط فأنبث السكلا وضروب الارهار فبدت من خرومة زاوية كأنها الثياب الى ينشر التاجر الباني حين يرضها للبيع . وأصبح للناس فوجدوا السباع غرق في المياه تبدورء وسها فيها من بعيد كأنها جذور البصل البرى . وقد راكمت السحاب وأحاطت بنا من كل جانب ، حتى يعتقد من يتأمله أن أئمنه على الجبل قطن في ديار بى أسد ، وأن أسره على جبل السكار ويذبل مما يلى بلاد البحرين . ولقد عم المطر جبل سبان حتى اضطرب الأوعال المستقرة فيه إلى الدزول منه :

أحار ترى برقاً كأن وميضه	كلمع اليدين في حى مكلل ^(١)
يفى سناه أو مصاييح راهب	أهان السليط في النعال المقتل ^(٢)
قصدت له ومحبتي بين حامر	وبين إكام بمد ما متأمل ^(٣)
وأضحى يسح الماء عن كل فية	يكب على الأذقان دوح الكهنل ^(٤)
وتباه لم يترك بها جذع نخلة	ولا أظما إلا مشيدا بجندل ^(٥)

(١) حار : رخيم حارث ، يعى يا حارث ، الوبيض : لمع البرق ، الحى : ما عرس من السحاب وارتفع ، والمكلا : السحاب في جوانب السماء يشبه الإكليل .
 (٢) السا : الضوء ، السليط : الزيت ، والذبال : القتائل : وأهان السليط : أكثر منه
 (٣) حامر ، وإكام : موضعان ، بمد ما متأمل : يضم الباء : يريد بمد ما تأملته ، أى تأملته من مكان بعيد .
 (٤) الفية بكسر الفاء : ما بين الحلبتين ، الكهنل : ما عظم من شجر الغضاء ، والدوح جمع دوح : الشجرة كثيرة الورد والأغصان .
 (٥) الإطم بضم الطين : البيت المسطح .

كأن طمية الحجير غدوة من السيل والمماء فلكة منزل^(١)
 كأن أانا في أفانين ودقه كبير أناس في يجاد زمزل^(٢)
 والقي بصحراء الغبيط بماعه نزول اليماني ذي العياب الخول^(٣)
 كأن سباعا فيه غرقى غدية بأرجائه القصوى أنايش عنصل^(٤)
 على قطن بالشيم أين صوبه وأيسره على الستار فيذب^(٥)
 والقي ببسيان مع الليل بركة فأنزل منه المعصم من كل منزل^(٦)

* * *

كما تراءى تلك المحدودية في صورته البيانية التي قامت على التفسير والإضافة في أكثر شعره ، بحيث أصبح التشبيه من معالم امرئ القيس المبررة له عن غيره من معاصريه ، فكان - على ما قال ابن سلام - أحسن طبقة تشبيها^(٧) . ففي شعر امرئ القيس نجد التشبيهات متلاحقة متوالية ، حتى يخيل إليك أنه ما قال الشعر إلى ليلته دم هذه التشبيهات المترابطة .

(١) طمية : اسم جبل ، والحجير : أرض لبني فرارة ، الفناء : ما حمله السيل ، وفلكة المنزل بفتح الفاء : ما استدار فوق رأسه .

(٢) أبان : اسم جبل ، أفانين : الودق : ضروب المطر ، الجداد : كساء مخطط ، وزمزل : نمت لكبير أناس ، يعنى هو ملفت بديابه .
 (٣) الغبيط : موضع ، البماع بفتح الباء : الثقل واستعاره لكثرة المطر ، العياب بكسر الميم : الحقائق ، الخول بالواو المشددة المفتوحة : كثير المتاع والغلمان الذين يصحبونه .

(٤) غدية بضم الغين وفتح الدال : حين يصبح الناس ، الأنايش جمع أنبوش : أصول البت ، والعنصل بضم العين والصاد : البصل البرى .

(٥) قطن : جبل في ديار بني أسد ، الشيم بفتح الشين المشددة : النظر إلى البرق والمطر ، والستار ويذب : جيلان مما يلي البحرين .

(٦) بسيان بضم الباء : جبل ، والبرك بفتح الباء وسكون الراء : الصدر : المعصم بضم العين وسكون الصاد : الأوعال .

(٧) راجع طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٥٥ بتحقيق شاكر .

وقد الفت كثرة التشبيهات في شعر امرئ القيس وجودتها أنظار الباحثين القدماء ، حتى لقد أفرد ابن سلام للمستحسن منها فصلا في طبقاته^(١) ، بيد أنه لم يبين نواحي الحسن فيما ذكر ، وإنما اكتفى بسردها ، على نحو يشير إلى كثرتها في شعره كثرة ملفنة ، والذي أداه في تلك السكثرة التشبيهية أنها أمارة من أمارات محدودية امرئ القيس ، فقد رأى فيما لديه من معارف يئنه ما يكفي لاستغلاله في تفسير أخيلته وتقديمها إلى الآخرين ، ومن ثم ركز عليها ، ودار في محورها ، حتى لا يرهق نفسه بكد الخواطر في التصوير والابتكار وما يتطلبه من نظر محص مستقص متابع ليرسم الصورة من مكنها الحقيقي .

ويلاحظ أن امرأ القيس يستمد تشبيهاته من واقعه المادى المزرف ، ومن يئنه المربية المتحضرة ، بحيث تجدد في تشبيهاته البدوى القبح إلى جوار الحضري الطاريء فالمرأة عنده تشبه البقرة الوحشية في جمال عيونها ، وتشبه البضة في رنتها ولونها ، وشعرها يشبه مذاق النخلة للتداخل في غزارته ، وحصرها كالزمام في اللين ، وترائبها كالمرآة ، وسافها كالبردى في يياضه ، وأصابها كمساويك شجر الاسحل . والفرس عنده يشبه مذاك العروس ، والصخرة الملساء تسقط من علل ، وحذروف الوليد ، وصراية الحنظل والمقاب وحاصرتها تشبه خاصرة الطي ، وسالاه تشبه النمامة . ولم يقف في تشبيهاته عند حد المرأة والفرس فقد شبه دم الوحش الذي لطن صدر فرسه حين صاد بمصاراة حناء صبغ بها شيب في قوله :

كأن دماء الهاديات ببحره عماراة حناء بشيب مرجل

شبه قلوب الطير الرطبة بالمنايا وقلوبها اليابسة بالتمر الرديء الجاف ، مطروحة أمام وكر المنايا بعد أن يأكل لحم الطيور التي يصيدها .

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها المنايا والحشف البالي

* * *

هذا ويلاحظ الدارس أن امرأ القيس لم يقصر صوره على التشبيه ، فقد استعار وجانس وطابق كما في قوله .

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
وقوله مجانسا :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل
وقوله : وإن كنت قد ساءت مني خليفة فسلني ثيابي من ثيابك تنسل
وكتوبله مطابقا :

مسكر مقر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
وقوله : غداؤه مستشزرات إلى العلا تحمل المدارى في مشى ومرسل

* * *

وفي المرحلة الثانية بمد مقتل أبيه تجد فيه الحزين المهوم الحائر الذي لا يجد من خبراته ما يمدده بمخرج لازمته التي فوجيء بها على غير توقع ؟ فهو طالب للنار ، يسعى بين القبائل في تجنيد قوة يحقق بها غايته ، يمدح هذا لأنه استجاب لمطلبه ، ويهجو ذلك لأنه سخر منه ، ويفخر بأعباده وفروسيته لإصراره على النار لأبيه . مثل قوله :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطام وبالشراب (١)
عصافير وذبان ودود وأجرا من مجلحة القناب (٢)
وكل مكارم الاخلاق صارت إليه همق وبه اكتسابي
فبعض اللوم عاذلني فإني ستكمني التجارب وانتسابي

(١) موضعين بكسر الفاء والعين : مسرعين ، لأمر غيب : يريد به الموت ، ونسحر : نلهم ونخدع .

(٢) القناب المجلحة : السممة على الشيء التي لا ترجع عما تريد . يعنى : نحن في الضعف مثل هذه المخلوقات ، وفي ركوب الآثام أجرا من مجلحة القناب .

- إلى عرق الترى وشجت عروقي وهذا الموت يسلبني تيباني (١)
 ونفى سوف يسلمها وحرى ويلحقني وشيكاً بالتراب (٢)
 ألم أبيض المطى بكل خرق أمق الطول لماع السراب (٣)
 وأركب في القهام المحرق أنال ما كل القمقم الرغاب (٤)
 وقد طوقت في الآفاق حتى رصيت من التزيمة بالإياب (٥)
 أبعد الحارث الملك بن عمرو وبعد الحير حجر دى القاب (٦)
 أرجى من صروف الدهر لنا ولم تغفل دن الصم المصاب (٧)
 وأعلم أنى عما قليل سأنشب في شبا ظفر وثاب (٨)
 كما لاقى أبى حجر وحدي ولا أسى قتيلاً بالكلاب (٩)

يضاف إلى هذا ما يتضح في شعر امرئ القيس من ميله إلى الصورة التفسيرية أو الإصامية وهي القائمة على ربط شيء بشيء، في هيئة تشبيه أو استمارة؛ إذ ذلك يتلاءم مع ظروف حياته وما فيها من ترف يدعو إلى المدة والراحة ولا ريب في أن الصورة التفسيرية أسير من الصورة الابداعية التي يضطر معها المصور على الرجوع إلى العناصر المحترمة في الدهن ليكون منها مجموعة ويلها من شتات ليصنع منها صورة تكشف عن إحساسه الداخلي تجاه الموقف أو المشهد.

حقيقة هذه السمة التصويرية تكاد تلازم أكثر شعراء الجاهلية، ولكن كل شاعر يحيط به من الظروف ما يبتعثه على سلوك هذا الطريق دون غيره والذي أراه دمع

- (١) وشجت عروقي : اشتبكت وانصت ، يقول : إن أصله في حسبه ثابت راسخ
 (٢) الجرم : البدن ، والشيك : السريع .
 (٣) أمق المطى : أهزلها ، الخرق : الملاء ، الأمق : واسع الطول .
 (٤) اللهام بضم اللام الجيش الكثير الذي يسير كل شيء لكثرة فكأنه يلهمه ويبتلمه ، والمجر : الكثير ، والقمقم بضم القاف وفتح الحاء جمع قمقم دومة من شرف ومنزلة ينزلها وهي من الاعتحام وهو التزاحم في شدة ، والرغاب : الواسعة المكيئة .
 (٥) طومت . أكثرت الطواف ، والمشى في نواحي الأرض حتى شق على ذلك .
 (٦) الصم . جبال ليسب بالشوامخ ، والمصاب : الصلبة .
 (٧) شبا كل شيء حده ، سأنشب . أى أعلق وأثبت بأظفار المنية .
 (٨) الكلاب بضم الكاف . اسم واد كانت فيه رقعة قبل فيها عمه شر حليل .

امراً القيس إلى هذا المسلك التصويرى بالإضافة إلى الدوافع العامة ، هو ميله إلى السهل اليسور الذى يحقق له التفوق والامتياز .

وإذا ذكرنا أن امرأ القيس من أوائل شعراء العصر ، وذكرنا ما كان عليه فى مساره الشعرى ، اتضح لنا أنه تسنم كرسى الأستاذية لمن أتى بعده من الشعراء ، فـلـكـوا مسلكه ، فأصبحوا مقتدين به فى الأغراض ، أو فى التصوير . وفى ذلك يقول ابن سلام : «سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب واتبعتها فيها الشعراء ، منها استيقاف محبه ، والبكاء فى الديار ، ورقة السب وقرب المأخذ ، وشبه للنساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالمعقبان والمعصى ، وقيد الأوابد وأحادى التشبيه ، ووصل بين النسب وبين المعنى ، وكان أحسن أهل طبقة تشبيهاً » (١)

وصفوة القول أن امرأة القيس على الرغم من محدوديته التى اضطرتة إليها ظروف بيئته كان شاعراً أوتى من أسباب التعبير والتصوير ما جعله فى مقدمة شعراء الجاهلية .

(١) طبقات خول الشعراء - ١ ص ٥٥ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١١٠

(٢)

عدى بن زيد

عدى بن زيد المبادى التيمى ، وهو إنما يشتهر بالنسبة الأولى ، وهى نسبة دينية لا عرقية أطلقت على طائفة من العرب - على اختلاف قبائلهم - اجتمعوا بالحيرة على النصرانية فسموا عباداً لأنهم عباد الله تمييزاً لهم من الوثنيين أو أشفة من أن يطلق عليهم « عبید » إلى غير ذلك من التعليلات التى زخرت بها كتب الأدب القديمة والحديثة (١) .

أما النسب الثانية فهى نسبة عرقية قبلية تشير إلى أنه من تميم ، وبعض المؤرخين يقف به عند ذلك ، والبعض الآخر يصل منها إلى مضر بن نزار .

ولد ونشأ بالحيرة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى فى أسرة ذات علاقات وطيدة بالأكاسرة ملوك فارس والمادرة عمالهم على الحيرة فقد تولى جده حماد الكتابة للنعمان الأكبر ، واستطاع أبوه زيد بن حماد أن يحدق الكتابة العربية فى حياة أبيه ، فلما توفى حماد انتقل زيد إلى رعاية صديق والده من الدهاقين المرازبة المظاه (٢) فعلمه الفارسية ، ويمكن له من أن يكون على البريد لكسرى ، فكثرت يتولى ذلك زماناً .

ولما مات النعمان الأكبر وإلى كسرى على الحيرة واحتلف أهل الحيرة حول من يملكونه عليهم حتى يختار كسرى ملكاً آخر ، أشار عليهم الدهقان أن يختاروا زيد ابن حماد ، فملكوه عليهم إلى أن عقد كسرى للمذر بن ماء السماء .

(١) راجع فى ذلك الأغاى ص ١٥٦ ج ١ ، ومعجم البكرى ج ١ ص ٢٣ وما بعدها وسمط اللالى للبكرى ص ٢٢١ والاشتقاق لابن دريد ص ١١ والمعر الجاهلى لشوقي ضيف ص ١٠٠ الطبعة السابعة .

(٢) الدهقان فارسى يعنى التاجر ، والمرازبة جمع مرزبان وهو المارس الشجاع .

ملكه ويريه عطفته ، وكان من بين البلاد التي طاف بها بلاد الشام ، ولكنه لم يجد فيها ما يشغله عن الحيرة فقال مواربا بين دمشق والحيرة مفضلا الأخيرة على الأولى :

رب دار بأسفل الجزع من دو مة أشهى إلى من جبرون
ونداى لا يفرحون بما لنا لوا ، ولا يرهبون صرف اللون
قد سقيت الشمول في دار بشر قهوة مزنة بماء سخين^(١)

وبينا كان عدى في سفارته بالشام ، تسبم أهل الحيرة بالمذمر حاكمهم من قبل كسرى وعزموا على قتله لجوره وظلمه ، فلما أحس المذمر بالخطر بعث إلى زيد بن حماد والده عدى مستنجدا ، فحدثه بما بلغه وعرض عليه تنازله عن الملك له ، فرفض زيد واستمهله حتى يكشف الحقيقة ، فلما التقى بالناس ووجد منهم الإصرار على التخلص من المذمر هدا من ثأرتهم ، وأشار عليهم برأى يكشف عن دهائه وحسكته السياسية أرضى به الثأرين وطمان الملك إلى إخلاصه وحبه له ، فقال لهم : تدعون المذمر على حاله فإنه من أهل بيت ملك ، وأنا آتيه فأخبره أن أهل الحيرة قد احتاروا رجلا يكون أمر الحيرة إليه ، إلا أن يكون غزو أو قتال ، فلك اسم الملك وليس إليك سوى ذلك من الأمور ، فرضى أهل الحيرة بذلك وولوا زيدا على كل شيء سوى اسم الملك ، فإتهم أقروه للمذمر وهرج المذمر بذلك الحل لأنه حفظ عليه كيانه ، وشكر زيدا عليه ، واعتبره يدا له عليه أقسم أن يحفظها له في قوله « إن لك يا زيد على نعمة لا أكفرها ما عرفت حق سبب^(٢) » .

وكان من أبرر مظاهر حفظ المذمر لهذا الصنيع أنه بعد أن مات زيد وصاحبه الدهقان ورجع عدى إلى المدائن من سفارته إلى الشام استأذن كسرى في الإلمام بالحيرة فأذن له ، فتوجه إليها ، ولما بلغ المذمر خبر قدومه خرج في جمع من الناس لاستقباله والترحيب به .

ولما أراد المذمر أن يختار مرييا بعد ابنه الزمان الأصغر ليتوج ملكا بعده لم

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٠٤

(٢) الأغاني ج ٢ ص ١٣٠ وسبب صنم كان لأهل الحيرة

(١٣ - الأدب العربي)

يمجد أفضل من عدى يقوم بهذه المهمة ، لما اجتمع له من العلم والمعرفة والخلق الطيب والدراسة بأمور الدولة والسياسة ، ولقربه من قلوب الناس وإدراكه أقرب السبل إليهم ، فكان عدى بذلك أستاذ النعمان بن المنذر ومربيه ومؤديه ومعلمه .

حتى إذا مات المنذر وتنافس أبناؤه على خلافة احتال عدى للنعمان مولاه كسرى مكان أبيه ، وضم عدى بذلك فضلا إلى أفضاله على النعمان بن المنذر ، فلم يكن غريبا أن يصبح عدى الأثير عند النعمان ، يحالسه ويناديه ويصحبه في رحلات صيده ، كما لم يكن غريبا أن يؤخر بذلك صدور شائيه من يطعمون في المجد والمكأة خصوصا بنى مرييا الذين كانوا يصرون ربيهم ورضيهم الأسود بن المنذر ، ويسمون لتوليته ملك الحيرة خلفا لأبيه فأفسد عدى تدبيره تديبرهم ، ففسدوا عليه ، وظلوا وراءه حتى أثاروا عليه حقد النعمان وسجنه ثم قتله في سجنه حين علم رسالة كسرى لاطلاق سراحه .

* * *

تلك هي بيئة عدى بن ربد وظروف حياته التي أرى أن لها علاقات مؤثرة في اتجاهاته الفنية على اجمال لا يخل بما واجهه وتعبير أوضح أقول : تلك هي مقومات عدى الخارجية .

أما مقوماته الداخلية الذاتية فلا نستطيع - على هذا البعد الزماني والمكاني - إلا أن نقيمها في سيرته وأخباره لنلم على قدر الإمكان بصورة قريبة بما كان عليه ، لأن لها علاقة - كذلك - تؤثر في فنه واتجاهاته .

وقال صاحب الأغاني : « كان عدى حسن الوجه » مديد القامة ، حلو العينين ، حسن المسم ، بقی الثغر (١) فإذا قرنت هذه الصفات بما حققه لجسمه ونفسه من مران وتدريب في سبيله لتعلم الفروسية وجمعه بين صروبها العربية والفارسية . . . أمكن أن تدرك ما كان عليه من فتوة وأناقة وجمال بما جملة مهوى أشده الفتيات ، وبحرك قلوب النساء ، وموضع إعجابهن

ويبدو أنه كان يدرك هذه السمات في نفسه ويحس باشتماله على تلك النعوت ، فقال إلى مجالس اللهو والترف ، وهفا قلبه إلى معايشرة الفيد الحسان في ظلال ما أتيح له من شباب ومكانة وحاه وثرء ، يصور ذلك قوله :

أيها القلب تملأ بدون أن همى في سماع وأذن^(١)
 وشراب خسروانى إذا ذاقه الشيخ تنفى وارجعن^(٢)
 وقوله وأصى طباء في الدمقس خواصا
 بنات كرام لم يربن بضرة دعى شرقات بالعبير رواوعا^(٣)
 لموت لمن بين سر ورشده ولم آل عن عهد الأحية خادعا
 يسار بن من الأسفار طرفا مفترا ويبرن من قفق الحدور الأصايبا

يبد أنه سرعان ما يجذب نفسه من ذلك المطلق ، ويميدها إلى التوفر والتحشم على
 الرغم منها حشية العواقب فيقول :

قد آن أن تصحو أو تقصر وقد أنى لما عهدت عصر
 عن مبرقات بالبرين وتب دوى الاكعب اللامعات سور^(٤)
 بض عليهن الدمقس وفي الأ عناق من تحت الأكمة در^(٥)
 كالبيس في الروض للنور قد أفضى بها إلى السكثيب نهر
 يأرج من أردانهم معك المسك الزكى زنبق وقطر^(٦)
 حاريتهم في الشباب واد قلى بأحكام الحوادث غمر

ولعل سرعته في معاودة نفسه ، والنأى عن الانحراف في تيار اللهو والعبث ..
 راجعة إلى ما كان يشعر به الشاعر من أنه غريب يعيش في غير موطنه وبين ناس ليسوا
 أهله وعشيرته ، لهم من الأخلاق والأعراف والمادات ما يدعوه إلى التحفظ في
 القول والمسلك .

(١) الدون - بفتحيتين - اللهو واللعب : والأذن - بفتحيتين - الاستماع .

(٢) ارجعن : مال واهتز .

(٣) شرقات بالعبير : مملكات به . والرواوع جمع راعة : المتدهنة بالطيب .

(٤) البرين جمع برة : الخلخال ، وسور - بضمين - جمع سوار .

(٥) الاكمة جمع كفاف : وهو من الشيء الحرف الذى يحيط به .

(٦) يأرج : يفوح . قطر : العود الذى يتبخر به .

وما كان يدركه من أنه يمشى في جو ملء بالهدس والمؤامرات يتطلب التحسين والتوجس والتربص والاحتراس في كل حركة وسكنة ، حتى لا يطي الفرصة لمن يسعى لضربه والتخلص منه .

اجتمعت هذه المقومات وتلك إلى عدى بن زيد فصاعت شخصيته الفنية صياغة ميزتها عن الشخصيات المجاورة له والقريبة منه في الزمان والمكان ، بحيث تفرد في فنونه الشعرية التي تناولها شعره ، وفي منهجه وأسلوبه ، وفي معانيه وأفكاره ، فلم يرض بالوقوف عند الحد الذي رأى سائقيه من الشعراء العرب الجاهليين عليه ، بل لقد كان لما صادف من أحداث وماتروديه من ثقافات مختلفة وعلوم ومعارف متعددة ، وما اطلع عليه من طبائع وعادات شتى تختلف من موطن إلى موطن . . لقد كان لذلك وغيره أبعاد الأثر في احتلاله عن الشعراء الجاهليين من تقدمه ومن عاصره .

لن يجهد الباحث نفسه كثيرا في التعرف على مظاهر التميز في ميون الشعر لدى عدى بن زيد ، إذ يكفي أن يتصفح شعره ليلمس ما فيه من ميون شعرية جديدة أو فنون شعرية جديدة تكاد تكون جديدة في الشعر العربي الجاهلي .

وأول ما يلتفت نظر الدارس من تلك الفنون الشعر الدينية والوعظي :

وشعر المواعظ والدينيات عند عدى يوحى بأننا أمام صاحب رسالة دينية يستغل كل سائحة ليقدم فيها ما يرى أنه ضروري ، فأنت في شعره تجد القصائد الخاصة لهذا الغرض تماما ، كما تجد القصائد التي لونها الشاعر بالمعزة يشد بها أسماع المتلقين عنه ، وبدلا من الوقوف على الأطلال وبكاء الديار ، وقف بالمتلقي على المصائر والنهايات المامة لتسكون ولتفت نظره إلى ما في الحياة من أطوار يحمل كل طسور منها طابعا خاصا . ليلتمى من ذلك إلى عرض ما يريد من مواعظ وحكم . من ذلك ابتداءه بوصف معاناته وآلامه وأرقه في قوله :

طال ليلى أراقب التنويرا أرقب الليل بالصباح يصيرا
شط وصل الذي تريدني وصير الأمور يحجى الكبير

وتوجيه حبيبته إلى العقل ، والتأني في الاختيار ، لتبتر بين الأعرار والمقلام .
فتحسن الاتجاه في قوله :

ألفى الفتيان مالكة نصحة منى وأخبارا
ألفى رمت الخطوب فبقى وجدت العيش أطوارا
ولفت التلقى إلى نهاية كل حى ، ومصير كل مخلوق فى قوله :
أرواح مـودع أم بكور لك ؟ فاعمد لآى حال نصير

والناظر فى هذا الفن الشعرى يجد أن الشاعر فيه لم يكتف بتأملاته الخاصة ونظراته الشخصية ، ليقيم عليها بناءه الفنى ، بل لقد جمع إلى ذلك حصيلة من المعارف الدينية ، والمعلومات التاريخية ، فأصبحت دعائم ثلاثة لشعر المواعظ والدينيات . ولعلنا ندكر أنه جمع فى ذلك الميدان للدينى بين المعارف المسيحية التى كان يدينها والمحوسية التى يدين بها حكام البلاد وملوكها ، والوثنية التى يدين بها أكثر العرب . ولا ريب فى أن لسلك من هذه الديانات أعرافه وحدوده وقوانينه ، كما أن لسلك من هذه الديانات مقوماته وانعكاساته .

وهو فى ذلك يعتمد على التصوير الدقيق .

١ - وإما عن طريق الاستفهام القدى ينقل الماضى إلى الحاضر ليرى التلقى ما وقع فيه من مواطن العبرة والمظة ، فيذكر ما كاد ينسى مثل قوله :

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بسدم وتمود
أين آباؤنا وأين بنوهم أين آباؤهم وأين الجدود
سلكوا مهيج المنايا بسادوا وأرانا قد حان مسا ورود

٢ - وإما عن طريق إبراز الخطوط المنتقاة بحاسة الشاعر من أحداث الماضى لتشكل منها الصورة التى يريد تقديمها مثل قوله :

فبت أعدى كم أسافت وغيرت وقوع المنون من مسود وسائد^(١)
صرعن قباذا رب فارس كلها وحشت بأيديها بوارق آمد^(٢)

(١) أعدى : أعدد بعد إبدال الدال الأخيرة ياء . وأسافت : أهلكت .

(٢) قباد : ملك من ملوك الفرس . حشت : قطعت . بوارق آمد : أعظم مدن ديار بكر .

وغصن على الحيقار وسط جنوده وبين في لقائه رب مارد^(١)
 وجئن بترك من قرار بلادهم يسير بجمع كالهذا المتساعد^(٢)
 وأخرجن يوم الخوض سيد حمير بحربة جنى من الحبش حارد^(٣)
 وملك سليمان بن داود زلزال ويريدان قد ألحقته بالصائد^(٤)
 وخاف بن الناصور لم يبق منهم بقية مولود ولا ذكر والده
 وكان ملوك الروم يحسب إليهم قناطير مال من خراج وزائد
 فلا تنبطن إنا بشيء يناله من الدهر، لا مال ولا عيش واجد

أو إبرار الخطوط المنتهية بحاسة الشاعر من المؤلف الواقع الذي تعود الناس
 رؤيته ففعلوا عما يحمل من عظات مثل قوله :

من رأنا فليحدث نفسه أنه موف على قرن روال
 وصروف الدهر لا يبق لها ولما تأتي به صم الجبال
 رب ركب قد أناخوا حولنا يمزجون الحجر بالماء الزلال
 والأباريق عليها قدس وجياد الخيل تدرى في الجلال
 عمروا دهرنا بعيش نضر آمق دهرهم غير عجال
 ثم أضعروا عصف الدهر بهم وكذلك الدهر يودى بالرجال
 وكذلك الدهر يرى بالفق في طلاب العيش حالا بعد حال

٣- وإما عن طريق الوقوع على مفارقات الحياة وإبرازها للتلقى ، فإذا بها صرآة
 تنعكس عليها صورة الحياة على الأرض كما يراها الشاعر من خلال تجاربه الشخصية
 ومعارفه الدينية ومعلوماته التاريخية ، مثل قوله :

فأسأل الناس : أين آل قبيس طحطح الدهر قبلهم سابور^(٥)

-
- (١) الحيقار : ملك من ملوك فارس . مارد : حصن بدومة الجندل .
 (٢) الدبا بفتح الدال : أصفر الجراد والنحل .
 (٣) الحارد : للضبان . (٤) ريدان : حصن في قنسرين .
 (٥) آل قبيس : بطن من قبيلة . طحطح : بدد وأهلك . سابور : ملك من
 ملوك الفرس .

ولقد عاش ذا جنود وتاج تهرب الأسد صوته أن تزيلا
خطفته منية وتردى وهو في الملك يأمل التعميرا
وسو الأصفر الملوك كذالم يترك الدهر منهم مذكورا
أين أين الفرار مما سيأتي لا أرى طائرا نجما أن يطيرا

ومثل قوله :

ما بعد صنماء كان يمسرها ولاية ملك جزل مواهبها
رهبها من بني لدى قزع اله وزن وقندي مسكا محاربها
محفوظة الجبال دون عرى الكي د قسا ترتقي غواربها (١)
يأس فيها صوت النعام إذا حاوبها بالمشي قاصبها (٢)
سأقت إليها الأسباب خند بني الأح رار فرسانها مواكبها (٣)
وكان يوم باقي الحديث وزا لت أمة ثابت مراتبها

حق صنماء المدينة العامرة بأهلها وخيراتنا ، الزاهية بمحاضرتها ومكائنها . أصابها
نوب الرمان وتقلبات الأيام في هيئة جيش فارسي غاز ، هزال عنها مظاهر النعم والخير ،
وأصبحت أطلالا . ومثل قوله يقارن بين حالي الإنسان في حياته وبمد نماته :

بيننا هم على الأسرة والآن - ما ط أفضت إلى التراب الخدود (٤)

٤ - وإما عن طريق البناء القصصى حيث يقدم تأملاته الواقظة في ثنايا قصة
تاريخية نترع مادتها من أحداث التاريخ السكثيرة التي يترأى على صفحتها الملوك والسادة
مطعونين بين حجرى الزمان الذي لا يجامل سيذا ولا ملكا . مثل قوله :

أين كسرى ، كسرى الملوك أنوشى وإن أم ابن قبله سابور (٥)

(١) غواربها : أعاليها .

(٢) النعام - بضم النون - ضرب من الطير والقاصب : الناصب في القصب أى الرماح

(٣) بنو الأحرار : يريد الفرس .

(٤) الانمط جمع نمط : ضرب من البسط .

(٥) سابور الجنود هو ابن أردشير وسابور ذو الأكتاف وهو ابن هرمز ، وكلاهما

من ملوك المعجم .

وَنُو الْأَصْفَرِ الْكَرَامِ، مَلُوكِ الرِّ
وَأَخُو الْخَضِرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَحَاهُ
شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّاهُ كَلَامًا
لَمْ يَهْبَسْهُ رَبُّ الْفَنُونِ مَبَادِلًا
وَتَذَكَّرَ رَبُّ الْخُورَنُقِ إِذْ أَشَدَّ
سِرَّهُ مَالَهُ وَكَثْرَةَ مَا يَمْلِكُ
فَارْعَوَى قَلْبَهُ فَقَالَ وَمَا غِبَّ
ثَمَّ بِدَفْعِ الْفَلَاحِ وَالْمَلِكِ وَالْأَمَّةِ
ثَمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ حَامِلٌ
وَمُ لَمْ يَبْقَ مَهْمٌ مَدْكُورٌ أ
سَلَّةٌ تَحْمِي إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ (١)
سَاءَ اللَّاطِئِيرُ فِي دِرَاهِ وَكُورُ (٢)
سَلَكَ عَسَهُ قَبَابَهُ مَهْجُورُ
رَفَّ يَوْمًا وَلِلْهَدَى تَفْكِيرُ
لَكَ وَالْبَحْرِ مَعْرَضًا وَالسَّيْرِ (٣)
طَبَّةٌ حَتَّى إِلَى الْمَتِّ يَصِيرُ
تَارَةً وَارْتَهَمَ هُنَاكَ الْقَبُورُ (٤)
فَ تَأَلَّوْتُ بِهِ الْعَصَا وَالْدُبُورُ (٥)

نماذج من الحياة يقدمها الشاعر في صور حية من خلال تساؤلات منبهة ،
ومعارفات مثيرة ، وقصص منسقة ليضربها إلى المتلقي فيذكره بالمصير المحتوم ، ويقف به
على حافة الحياة الدنيا ليرى ما ينتظره في عاجله أو آجله .

✱ ✱ ✱

ولم يحقق عدى لنفسه التميز والتفوق في الدينيات واللواعظ حسب ، بل إن له في
ميدان التفوق جولات أخريات ، نرى في مقدمتها ما روى له من اعتذاريات
وخمريات وقصص .

لقد أصبح أقرب إلى المسلمات أن رأس فن الاعتذار - وربما مبتسكه في الشعر
العربي - نابعة بنى ذبيان أبو أمامة زياد بن معاوية . لكن دراسة عدى ، والوقوف

-
- (١) الخابور : اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة .
(٢) الكلس : الصاروج وهي النورة وأحلاطها التي تصرج (تطل) بها المنازل ،
وهو بالفارسية جاروف عرب هليلج : صاروج .
(٣) ممرض : متسع ، ومنه أعرض الثوب أى السع وعرض .
(٤) الأمة - بالكسر - النعمة .
(٥) ألوت به : ذهب به ، والعصا - بفتح الصاد - ريش تهب من المشرق ، والدبور :
ريش تقابلها .

أمام امتذاره للنعمان بن النذر واستعطاه تفرض على مؤرخ الأدب أن يعيد النظر فيما شاع واشهر وقارب المسلمات في هذا العدد . وذلك لأن عددا تقدم النابغة في السن ، وصحبته للنعمان تسبق صحبة النابغة ، فقد أسلفنا أن النذر والعم النعمان أسند إلى عدى أمر تشيئة ابنه النعمان وتربيته وإعداد له ليخلفه في حكم البلاد لما رأى في عدى من صلاحيات لذلك ، وأن عدى بن زيد هو الذى وقت وراء النعمان حتى ولاه ملك الحيرة بعد أبيه .

وهذا يعنى أن عدى بن زيد كان في صحبة النعمان قبل أن يلتقى به النابغة الذى لم يلتق به إلا وهو ملك يمدح ويمطى على مدائح .

كما يبنى أن عددا كان يصحب النعمان بشعور المربي ذى الفضل ، في حين كان يصحبه النابغة بشعور المتفجع للتطلع إلى تعطف سيده ورضاه ، فقد كان وسيلة قومه لدى النعمان ليكن لهم .

* * *

والذى أوقف عدى بن زيد في موقف المتمذر المستعطف يختلف عن الذى دهم بالنابغة إلى الموقف ذاته على ما سنوضحه في الحديث عنه .

فقد انطلق لسان عدى بالاعتذار للنعمان لما ألقى به في السجن حين دس له منافسه وأثاروا عليه حقد النعمان ، وهكذا رأى عدى نفسه بين لحظة وأخرى ينتقل من حياة الدعة والنعيم إلى خشونة السجن وذلة وقسوته فكان الألم على نفسه أفسى مما يحتمل من في مثل مكانه وأحس المدلة والضيق ينهشان في كيانه نهشا فتفجرت بين حناياه أنات الألم ، وترددت في نفسه أصدااء الشكوى ، فانطلق لسانه شاكيا في حيرة مما وقع به ، متحسرا متمنيا أن لو سبق الموت إلى اختطافه قبل أن يقع به ما وقع من صديقه وتلميذه .

ويذكر الأصمغاني أن أول ما قاله عدى وهو محبوس من الشعر لا ميتة التي منها (١) :

ليت شرى عن الهمام ويأتيك بخير الأبياء عطف السؤال

ابن عنا أخطارنا المال والأب - نس إذا همدوا ليوم المحال (١)
ونضالى فى جيبك الناس يرمو - بن وأرمى وكلنا غير آلى (٢)
فأصيب الذى تريد بسلا غش - وأربى عليهم وأوالى
ليت أنى أحدىت حتى بكف - ي ولم الق ميتة الأتال (٣)
محلوا محلهم لصرعتنا العا - م فقد أوقموا الرحا بالثقال (٤)

وهى قصيدة طويلة يتضح من مطلعها أن الشاعر مارال على شيء من تماسك النفس ورباطة الجأش فى مواجهة ما نزل به، إذا يبدأ تمنيات وكساؤلات متحيرة متألة، تدكر بما كان منه من عون بالنفس والنفس حتى حقق للزمان ما أراد من غير حذاع ولا غش، وينتهى من ذلك المقطع بتمنيه أن لو كان قتل نفسه بيده حتى لا يلقى من صديقه الذى ضحى فى سبيله ما لى فيموت فى السجن كما يموت العدو :
ليت أى أخذت حتى بكفى ولم الق ميتة الأتال

ويبرز مذهب حصومهما لهما من كيد فى صورة بارعة تكشف عن مدى ضيقه وألمه لنجاحهم فى الوقعة بهما معا ، مشيرا بذلك إلى أن الايقاع به هو فى الحقيقة إيقاع بالزمان كذلك ، لأن فى غيبة عدى سهل عليهم اقتراس الزمان والقضاء عليه :
محلوا محلهم لصرعتنا العا م فقد أوقموا الرحا بالثقال

ولست الروعة فى كنياته البدوية عن الوقعة خشب ، بل فى الإحياء بتقاربه مع للزمان ومساواته إياه حيث جعل الوقعة بينه وبين الزمان إيقاعا بين الرحا وثمانها .

ويستمر على شموحه فى اعتذاراته ، ونائها على ما قدم من مساعدات للزمان حتى أقامه على ملك أبيه ، فيلسى ميميته التى يستلها بتصوير ما يعانى من دق ، وما أصابه من هموم وأهوال أقضت مضجعه ، وأدهبت النوم عنه :

-
- (١) أخطار المال والنفس : بدلها وجملها خطارا والمناهدة فى الحرب : المناهضة والمحال - بكسر الميم - السكبد والمسكر .
(٢) غير آلى : غير مقصر .
(٣) الأتال جمع قتل - بكسر القاف - العدو .
(٤) محل ولان بصاحبه : سعى به إلى السلطان والقتال : الجهد الذى يبسط تحت رحا اليد ليقى الطاحين من التراب ، وقد يطلق على الحجر الأسفل من الرحا

- ٢٠٣ -

قد نام صبحي وبث الليل لم أنم من غير عشق تمنائي ولا سقم
إلا تأوب هم قبل أدغمه والهم يأمر حين الكرب بالألم

وقدما يتجه إلى النعمان ملتاعا مسكروبا بما ألم به يتودده ويستعطفه ، مذكرا إياه
بريب الزمان ، وتقبالات الأيام ، مشيرا إلى أنها سنة تصيب كل إنسان رابس إنسانا بعينه
وأما قد أصابت من قبلنا من الآباء والأمم محاولا بذلك أن يبعث فيه نبض الرحمة
والاشفاق الذي حرص - أبان صحبته - على أن يفرسه في قلبه بمواءمته التي طالما
رددها على سمعه . وذلك قوله :

أبا شريح فلا تحزبك عثرنا طارء رهن لريب الدهر والحسم
إن الأسى قبلنا جم ونعلمه فيما أزيل من الأجساد والأمم
منهم رأيت ديانا ، أو تجدته وما تنبأ عن هاد وعن إرم
وقبل ذلك من ملك ومفيلة نادوا ، فكابوا كيء الظل والحلم

ولا يكتفى بتلك الايقاعات النفسية التي يسه بها الفاعل من عواطف النعمان تجاهه ،
فيواصل السير على المنهج نفسه ، ويؤمى إلى ما بينهما من أواصر تكاد تعادل الأخوة
حتى لكانهما ابنا أم واحدة :

إن ابن أمك لم تنظر قفينة لما نوارى ورامى الناس بالكلم (٩)

هإذا قر لديه أن النعمان هو نفسيا للسمع منه أخذ يمدد ما يحمل في سبيل توليه الملك
دون إحوته في إخلاص يعلم الله وحده مداه ، مرتكزا على تعداد خلاله وصفاته التي
تأبى عليه أن يخون من اصطفى - ممززا ذلك كله مشهدا الله على ذلك مقبلا برب الحل
والحرم على صدقه وبره فيما يقول :

فالله يعلم في رسل وفي أزف والله أعلم بالآلاء والنعم (٢)
بل رب عبء ثقال قد نهضت به لما نزل إذا عديته قدمي

(١) القفية : السكرامه . رامي الناس بالكلم : ظنوا به .

(٢) الأزف : المجرة

وإربه قد علا كبدي معاقها ليست بفورة مأفون ولا برم (١)
وما بدأت خيلا أو أخانقه بخنعة ، لأرب الحل والحرم (٢)
يأبى لى الله خون الأصفياء وإن خانوا ودادى ، لأنى حاحزى كرمى
ولا بخلت بمالى عن مذهبى فى حاجة الرء إن كانت ولا الدم

أنه يمتذر فى عزة ، ويأسف لأخ قبل أن يكون ملكا ، ويحرص على ودلا على
عطاء ، ويأمل ألا يبال خصومه منه ويشمتوا به ، فإذا وجد من العمان إصرارا على
سجنه ، وانصراما عن الخطر فى أمره . فأصم أذنيه عن صرخاته للتوالية المتلعة ،
ولم تحدث قرعته النفسية أثرا ، كمرر المحاولة وعاول الشكوى ، وصعد التألمات
والتحسرات ، حريصا على تبرئة نفسه مما ألحق بها فى بائيته التى يبتدئها بقوله :

أرقت لكفهرات فيه بوارق يرتقين رءوس شيب
تسلوح المشرفية فى ذراه ويخلو صفح دخدار قشيب (٣)

فإذا أعلن عن أرقه ومعاناته النفسية اتجه مباشرة إلى الحديث عن أعدائه ومساغيهم
للايقاع به حتى يتخلصوا منه وينتقموا لهم يمتهم بتقويض النعمان دون من ياصرون من
إخوانه ، حيث يقول :

سمى الأعداء لا يألون شرا على ورب مكة والصليب
أرادوا كى تمهل عن عدى ليسجن أو يدهده فى القليب (٤)
وكنت لزار خصمك لم أعرد وقد سلسكوك فى يوم عصيب (٥)
أعالم وأبطن كل سر كما بين اللحاء إلى العسب (٦)

-
- (١) الإربة : الحاجة . والمعاقم : المفاصل . والمأفون : ضعيف الرأى . والبرم :
اللثيم البخيل . (٢) الخنعة : الرية .
(٣) الدخدار - فارسية معربة - الثوب المصون .
(٤) يدهده : يحذر من علو إلى سفلى تدحرجا .
(٥) لزار خصمك : لا أدته يخالف أو يعاند ، والتعريد : الإحجام وسلسكوك : أدخلوك
(٦) اللحاء : ما على العود من القشر ، والعسب : جريد الدخول إذا نوى عنه حوصه

ففرزت عليهم لما التقينا بتأجك فوزة القدح الأريب (١)
وما دهرى بأن كددرت فضلا ولكن ما لقيت من العجيب (٢)

وبخلص من ذلك فيتمنى أن يصادف من يبلغ النعمان شكواه وتحذيره ممن يكيدون
له ، مستسكرا أن تكون مكافأته - بعد تضحياته - سلسلة وقيدا وعلا وأمرضا
تخرج إلى طيب . . . ثم إهمالا لاعتدالاته التي تتوالى . وشكواه التي لم تقطع
حيث يقول :

ألا من مبلغ النعمان عني وقد تهدي النصيحة بالمغيب
أحظى كان سلسلة وقيدا وعلا ، والبيان لدى الطبيب
أنك بأنني قد طال حبسى ولم لسأم بسجون حريب (٣)

ثم يعود إلى تحريك نفسه ، فيصعب في استكسار ما آل إليه بينه وآله بهمد غيبته
تلك ، أملا في أن يوظف فيه عاطفة الاشفاق بهمد أن قسى عليه هذه القسوة التي لم يكن
يتوقعها أو ينتظرها منه فقال :

وبيتى مقفر إلا نساء أرامل قد هاسكن من النعيب
بيادرن الدموع على عسدى كشن خانه حرز الريب (٤)

فإذا رجا أن يقبل النعمان عليه ، ويستمع إلى شكواه هداً صوته بمض الشيء ،
وسلك طريق المباشرة المتأنية في منطقية رجو الصفع عما قد يكون أخذ عليه ،
وتعلن عن تمازله عما قد يكون أصابه من ظلم وصر :

إن أخطأت أو أهمت أمرا فقد بهم المصافى بالحبيب
وإن أظلم فقد عاقبتموني وإن أظلم فذلك من نصبي
وإن أهلك نجد فقدى ونخذل إذا التقت للموالى في الحروب

(١) الأريب : ذو الدهاء والفضيلة .

(٢) وما دهرى : ما إرادتى وغايتى .

(٣) الحريب : الذى سلب ماله وعقاره .

(٤) الشن : الخلق من كل آية صفت من جلد . والريب : المصالح .

— ٢٠٦ —

فهل لك أن تدارك ما لديا ولا تظلم على الراى المصيب
فإني قد وكلت اليوم امرى إلى رب قريب مستجيب

وعلى هذا المنهج سار عدى فى اعتذاراته إلى السمان بن المنذر، إذ ذكره بما كان له من أباد، وشكا حرارة ما يقاسى فى السجن، وصور قلق نفسه على أهله ونسائه المائحات، ونبهه إلى ما يكيد به المحيطون به له وللسمان، وأنسم له أيماننا بعد أيمان على برأته بما ألصق به وإخلاقه له . . . فتلون أسلوبه بذلك، وبدا تاره رقيقا هادئا حين يستسلم ويستكين ويستعطف وتارة أخرى يبدو جزلا شخما حين يذكر مكانته وما قدم من تصحيات فى سبيل توليه ملك الحيرة، وحين يتحدث عن نفسه وحلاله التى كان يمر بها وبذلك ترى عديا فى اعتذاراته - كما رأينا فى مواعظه وديوانه - الشاعر للمصور البارع فى التصور، الصادق البين الصدق، الأصيل الذى يتمتع من نفس شاعرة .

* * *

وعدى فى خرياته يقدم لنا لونا جديدا فى هذا الفن يعلن به تميزه - كذلك فيه - بيد أن تميزه فى الحمريات ليس فى السبق إليه كما رأينا فى مواعظه واعتذاراته، ولكن فى إيراد القصيدة أو القطعة الشعرية للخمر، وعدم إثراء غرض آخر معها فيه، على ما كان معروف فى الشعر الجاهلى، فقد كان الشاعر يتناول الخمر فى أثناء القصيدة باعتبارها حزئية من جزئيات موضوعه .

أضف إلى هذا أن حمريات عدى تتميز كذلك عن غيرها بالحديث للمستفيض الذى يتناول فيه كل ما يتصل بالخمر من ألوان وعتيق، وطعم، وشكل، وهيشة، وأكواب، وزجاج، ومجالس، وندمان، وأجواء وما فيها من أحوال إلى غير ذلك مما يكشف عن حس شاعر، واستقصاء ماهر، وتمكن من العبارة، واقتدار على التصوير والتعبير .

ولعل من أجل شعر عدى وأرقه وأجوده قايته الخرية التى يقول فيها :

بكر العاذلون فى وضع الصب ح يقولون لى ألا تستفيق
ويلومون بك يا أبة عبد الله والقلب عندكم موهوق

لست أدري إذا كثروا المذل عندى أعدو يلومنى أم صديق
 زانها حسنها ووسع عميم وأثبت ملت الجبين أنيق
 وثنايا مملجات عذاب لا قصار ترى ولا هن روق
 ثم ادوا إلى الصبوح فقامت قينة فى يمينها إريق
 قدمته على عتار كمين الله يك صبي سلافها الراوق
 صامها التاجر اليهودى حوايه من فأركى من نشرها التعميق
 فوق عليها لا يسال ذراها يلنب السر دونها والالوق
 مزه قبل مزجها فإذا ما مزجت لد طعمها من يذوق
 وطفا فوقها فقايع كالبا قوت حمر يثيرها التصديق
 ثم كان المراج ماء سماء غير ما آجن ولا مطر روق

مشهد رائع بصورة الشاعر، فتسمع صخب الماذلين معجتهين حول وراشه بوقظونه من سكره، ثم يبدأ لتصوير مجلس الشراب، حيث ترى القينة تحمل فى يمينها إريق الخمر الممتعة لآلى اخبزها اليهودى حولين، ليصنف عليها الشر الركي العبق، فإذا مزجت لد طعمها، وطمت الفقافيع على سطح الكأس بلونها الأحمر الذى يشبه لون الباقوت.

ولا يقل عنه زوعة ذلك المشهد الذى يقدمه عدى من حلال صاديته التى قال فيها للمعري (١): «إنها بديعة فى أشعار العرب»، والتى يبتدئها بالحين إلى مجالس الأنس والشراب التى كان ينهل فيها اللذات فى مطلع حياته، وفيها يقول:

أبلغ حليلي عبد هند مالا زلت قريبا من سواد الخصوص (٢)
 موازى القرة أو دونها غير بعيد من عمير اللصوص (٣)
 يحنى لك الكناة ربمية بالحب تندى فى أصول القصيص (٤)

(١) رسالة الغفران ص ٧٠ .

(٢) الخصوص : موضع فى الحيرة .

(٣) القرة و عمير اللصوص : قريتان من قرى الحيرة .

(٤) الربمية : أول ما يجتنى، والحب — بفتح الحاء — سهل بين حزينين تكون فيه الكناة . والقصيص جمع قصيص : شجرة تنبت الكناة فى أصلها .

- تصمك الخيل وتصطادك للظير ، ولا تسكع لهو القنير^(١)
 تأكل ما شئت ، وتمتلأ من الخمر كالون الفصوص^(٢)
 غيت عن عني في ساعة الله من وحنيت أو ان العويس^(٣)
 لا تسين ذكرى على لذة الله ككأس وطوف بالخذف والنحوص^(٤)
 إنك ذو عهد ودور مصدق محالف عهد الكذوب اللدوس^(٥)

في هذا الشهد الراحر باللوحات الحية المتحركة يريفا الشاعر الجري وراء الصيد ،
 والطوف حول الكأس المترعة يمتلأ الشارب من الخمر ككأس الفصوص ، ويظل
 الشاعر في رسم لوحات المشهد فيريفا في بقية أبيات القصيدة تجمع الشرب في بيت خمار
 شيد من الدار المارغة ، وظلل بالخوص والنبذ الحسن فيه يعيش رويدا في استحياء
 كأن في أرجل صدوع ، وقد حسرن عن سواعدهن البضة ، وتساعدت من أرداهن
 روائح المسك والوبر والعود . فيما الكأس يدور على الشرب السامر ملاهى مترعا
 بالخر الأخضر اللون المروج البارد . في قوله :

- يأليت شمري وان دو عجة مق أرى شربا حوالى أهيص^(٦)
 بيت جلوف بارد ظله فيه طباء ودواجيل حوص^(٧)
 والربرب المكفوف أردانه يمشى رويدا كمشى الرهيص^(٨)

-
- (١) وتقصك : تصيدك ، ومثلها تصطادك ، على الخذف والايصال مثل : رحبتك
 الدار أى رحبت بك . ولا تسكع : لا تمنع
 (٢) الخوص : حيد الخمر (٣) العويس : الشديد من كل شيء .
 (٤) الخدوف : الأتقان الوحشية السعينة والنحوص من اللين : التي لا ولد لها ولا لبن .
 (٥) اللدوس : الخداع .
 (٦) وأن : وأنا ، وصل همزة القطع ، وحذف الألف التي بعد النون ، والمحة
 بفتح العين : الحين ، والأهيص : أسمل دون مكسور .
 (٧) الجلوف بصم الجيم جمع جام : الدار الفارغ ، والطباء جمع ظبية ويصعد بها
 هذا الأباريق الضخام ، والدواجيل جمع دوحلة : سقفة من خوص يوضع فيها البر والرتب .
 (٨) الربرب : القطيع من بقر الوحش وتشبه به النساء ، والرهيص : المصدوع .

ينفح من أردائه المسك ، والد منبر ، والنلوى ، ولبنى قفوص^(١)
وللمشرف الهندى نسق به أخضر ، مطبونا بجماء حريص^(٢)

ويبدو من جـزالة الألفاظ ، وما تخلل القصيدة من حكم أن الشاعر قالها فى لحظة
اجترار لماضى وهو فى سجنه ١٠ . أيا ما كان فلقد عرض الشاعر بخمرياته تلك وغيرها
— فما يضيق بذكره المحدث — استأدبته لشعراء الجمر الذين جاءوا بعده سواء فى الجاهلية
أو بعد الإسلام مثل الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد وأبى نواس وغيرهم ، ويقرر
هذا ما ذكره صاحب الأغاني^(٣) من أن الوليد بن يزيد شاعر الجمر الأول فى العصر
الإسلامى كان على صلة بشعر عدى بن زيد من نديه القاسم بن طويل العباضى الذى
كان ينشده شعر عدى ، ويفنيه للمنون فى مجالسه ، وأن معبدا غنى للقافية أمامه ذات
يوم هاستحسنها وأعجب بها ، وجعل يشرب على أنامها مدسحا منتشيا طربا .

والملاحظ فى خمريات عدى أنها تجمع بين اللوحات الممتدة المشاهد والمواقف .
وبين اللوحة التى تعرض الصورة الجزئية فى سرعة حاطفة . . واللونان من المصور
يشهدان لمدى بالدقة فى جمع أطراف الصورة والتركيز منها على الجانب المطلوب ، فى
خفة و شاقة كما يلبي المدارس أنه أمام مصور عربى نشأ وشب فى بيئة حضارية ناعمة ،
ويذكر دائما بأنه فى صحبة رجل مثقف نال من الثقافات المختلفة ما جعله يتميز على
معاصريه فى مختلف الاتجاهات . ونظرة إلى تلك الصورة تعزز ما نقول :

هـذا ورب مسرعين سقيتهم من خمر بابل لذة للشارب
بكرروا على بسحرة نصبتهم من ذات كوب مثل قعب الخالب^(٤)

(١) النلوى : أخلاط من الطيب تفل ، ولبنى : عود طيب الرائحة ، وقفوص :
بلد يجلب منه هذا المود .

(٢) المشرف : أناء كانوا يشربون به ، والمطووث : المدسوس ، وأراد به المزق ،
والخريص : البارد .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٥ ، ٦٦

(٤) القعب . القدح الضخم الجافى .

بزحاجة ملء اليدين كأنها قدبل مصحح في كنية راهب

* * *

نراه - أولا - في دوران القصة حول موضوع واحد . تسلسل أحداثه ، وترتيب ترتيبها منطقيا في هيئته تبرر القصة متكاملة ، لتؤدي الغاية منها ، وتقصصه - في الغالب - يقدم العبرة والعظة من خلال واقع تاريخي أو ديبى فالقصة في شعر عدى امتدت لشعره الوعظي أو هي موعظة في ثوب القصة .

نراه - ثانيا - في منهجه القصصي الذي اعتمد عليه في تقديم الحوادث ، فإنه يعتمد في قصه على ما هو له من معلومات تاريخية ودينية ، وما ناله من ثقافات حضارية عميقة حصل عليها من منابع ثقافية متعددة متباينة جمع فيها بين ثقافات العرب والفرس والروم . في حين اعتمد سابقوه وما بعده من الشعراء الجاهليين في شعرهم القصصي على المشاهد الواقعية ، والملاحظ الحسية ، فأصبحت القصة مجموعة من اللوحات الوصفية والاشارات التاريخية التي يعتمد فيها على ذاكرة التلقي ليتكامل البناء القصصي . ومن أبرز قصصه الديدية قصة الخلق ، التي تناول فيها حاق آدم وحواء وهبوطهما من الجنة ، وفيها يقول :

أسمع حديثا كما يوما تحدثه	عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا
إن كيف أبدى إله الخلق نعمته	فيما ، وعرونا آياته الأولا
كانت رياح وماء ذو عرانية	وظلمة لم تدع فتقا ولا حالا (١)
فأمر الظلمة للسوداء فأنسكتفت	وعزل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الأرض بسطا ثم قدرها	تحت السماء سواء مثل ما فعلا
وحمل الشمس مصرا لاختفاء به	بين النهار وبين الليل قد نصلا (٢)
قصصى لستة أيام حلقة -	وكان آخرها أن صور الرجالا

وهكذا في تسلسل تاريخي - استقاء مما توفر له من كتب ديدية ، ومعارف ثقافية حصروا التوراة والإنجيل - يحكي قصة خالق آدم وادخاله الجنة هو وزوجه التي خلقها من ضامه ، وكيف أطلق له حرية الاستمتاع باستثناء شجرة واحدة . . الخ

(١) ماء ذو عرانية - بضم العين والراء المحففة - ماء كثير مرتفع

(٢) العصر : الحد .

ولولا ما عرفناه عن عدى بن زيد في نشأته الدينية التي كان لتمعقه فيها أكبر الأثر في نسبه إلى المباد . . . أقول لولا ذلك لما توقعنا منه أن يقص علينا مثل هذه القصة ، أما وقد نشأ هذه للنشأة التي توجىء إلى وطيد اتصاله برحال الدين لليهود والصارى والمجوس وغيرهم ، فلا غرابة فيما قدم .

وله قصيدة أخرى رائية يحكى فيها قصة إبليس مع آدم وسعيه لإغرائه وطرده من الجنة متوسلا بعواء .

أما قصصه التاريخية فمن أبرزها قصيدته الرائية التي ذكرنا طرفا منها في الشعر الدينى والتي يقول في مطلعها :

أيها الشامت المعبر بالدهر أنت المبرأ الموفور

وفيها يحكى من قصة ملوك الفرس والروم ما يعظم السامع ويميده إلى الله ، وينأى به عن الاغترار .

ومن قصصه التي ضمنها شعره قصة ابن بختنصر الذي تغير لوزارته من رعى شئون مملكته ونصح له وكنتم سره فماش مهييا محبوبا منيما ، ولقد ساق هذه القصة في قصيدة أرسلها إلى النعمان من سجده وفيها يقول :

ألا في الأول الماضى اعتبار	لدى عة - ل أحى فهم بصير
تخير للوزارة من رعا	باشفاق ونصح في الأمور
وحسن سره فعلا مهييا	يجازى القل بالجم الكثير
ووائاه الزمان فماش دهر	منيما في السهول وفي الوهور

* * *

وفي الحق لم يقف عدى في تميره وسيقه التي عند ذلك الحد ، فليما ينسب إليه من الشعر ما يشير إلى أن له سبقا كذلك في الحكمة الشعرية ، تبدو في ثانيا مودة شعره الدينى والوعطى على الخصوص ، متناثرة هنا وهناك ، شأنه فيما شأن أضرابه من شعراء الحكمة الجاهليين مثل أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى والنابغة .

يبد أننا نجد عديا بين سابقيه ومعاصريه في دليته التي خصها للحكمة ، والتي يبدوها

بنسائل موجه إلى من تمذله وتلومه على كرمه وانفاقه دون أن يعمل للزمن حساباً
ومن هذا المنطلق، يأخذ الشاعر في الرد على عاذلته موضحاً نظراته إلى الدنيا، وما يترتب
عليها من سلوك، معللاً إقباله على اتفاق ماله حرصاً على أن يظل الكريم الذي يبذل في
غير حرص ولا تردد بالمصير المحتوم الذي لا يستثنى منه أحد، وبأن الاتفاق في الحياة
غير من تركه للوارث يستمتع به :

أعاذل : ما يدريك أن منيقي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
ذريتي إلى أينما لي ما مضى أأى من مالى إذا خف عودى
وحمت ليمقاني إلى منبى وغودرت أن وسدت أو لم أوسد
وللوارث الباقي من المال فانركى عتاي إلى مصالح غير مفسد

وليس ذلك هو الدافع إلى الاتفاق فحسب، بل يدفع إلى الاتفاق أيضاً ما يحققه
الكريم للانسان من مركز مقبول محبوب بين أخلائه وأصدقائه :

ولانلج إلا من ألام ولا تسلم وبالبدل من شكوى صديقك فأنتد
وللعلى إذلال لمن كان باحلا ضنياً ، ومن ييخل يدل ويهد
وللبخلة الأولى لمن كان ناخلا أعف ، ومن ييخل يلم ويهد

كما يدفع إليه حرص الإنسان على البعد بنفسه عن النقي وتجهيها مواطن الشبهات.
حتى يكون من الصفوة الذين لا يندم من يقتدى بهم :

فنفسك فاحفظها عن النقي والردى متى تنوها ينو الذى بك يقتدى
وإن كانت للنماء عندك لامرئ فتمسلا بها فاجز المطالب وازدد
ومن هذا يوجه نصحه ، في رسم منهجه الذى ترضيه في اختيار الأصحاب :
إذا كنت في قوم صاحب حيارم ولا تصحب إلا رداً تردى مع الردى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين ما تقارن يقتدى

وعلى هذا الدرب يسير عدى في داليتة ، حريصاً على أن تكون نفسه هي العدو
الذى يأخذ من تجاربه ليسكون قريباً من سامعيه ، فيضمن إقبالهم عليه ، على الرغم
من طول القصيدة وجفاف معانيها .

وربادة مه في الاحتياط حملت القصيدة بتلك الأصباغ والألوان الجذابة المتناسقة

التمثلة في الصيغ المتلوونة المتنوعة من استفهام ، وتمجيب ، وأمر ، ونهى ، ونداء ،
 وشترط ، والتفات ، إلى غير ذلك من أسباب الجذب والاقناع العاطفي ، إلى جوار
 الاقناع العقلي ، من كل ما تضافر مع صدق الشاعر ، وقربه من النفوس ، ليحقق جمال
 الأداء ، ويعمم المعاني رخاوة ، ويضفي على الأفسكار الانسجام والتسلسل .
 وليس هذا مقصورا على الدالية الحسكية ، بل أن حكيمته المتناثرة في ثنايا ما واعظه
 حتى قدمنا طرفا منها لا تخلو عن بعض ذلك الذي يجده في دالته (١) .

(١) لمزيد من الدراسة الناقد راجع المؤلف بحث (عدى بن زيد ظاهرة متميزة
 في الشعر الجاهلي) المنشور بمجلة كلية اللغة العربية - العدد الأول .

(٣)

النابعة الذبياني

نشأته وحياته :

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع ويرتفع نسبه إلى غيظ بن مرة . ثم إلى ذبيان ، ثم إلى غطفان . لقب بالنابعة واشتهر به قيل : لقوله في بعض شعره : « فقد نبئت لهم مناقشون » ، وقيل : لأنه قال الشعر بعد أن كرت سه ، ومات قبل أن يهتر ويذهب عقله (١) . وقد يكون تلميته بذلك راجعا إلى وصفه بالنبوغ في الشعر والتفوق فيه ، ويرشح ذلك أنه قد لقب بذلك اللقب جماعة من الشعراء غيره ، مثل النابعة الجعدى ، والنابعة الشيباني ، والنابعة التغلبي ، وهم ليسوا جميعا جاهلين ، بل منهم المنضرم ومنهم الإسلامي .

ولم يكن النابعة أحسن حالا من أصحابه الجاهلين ؛ إذ لا نكاد نعرف عن نشأته أكثر من أنه عاش في أواخر العصر الجاهلي ، وامتد به العمر حتى قبيل ظهور الإسلام ، فقد قيل إنه توفي سنة ٦٠٤ م .

أما حياته فيخبرنا الرواة كما يخبرنا شعره أنه قضاها في السباحة بين بلاط النعمان بن النضر أمير الحيرة ، وبلاط عمرو بن الحارث النسائي وأخيه النعمان .

ويبدو أن غايته من تلك السباحة كانت للكسب المالى، والسياسة؛ فقد كان النعمان يحجز له المطاء على مداخله وكذلك فعل النساسنة معه ، وكان يستغل صلاته تلك في العمل على رفعة قومه ، والحفاظ على أمنهم وسلامتهم ، ولعل ذلك كان من أسباب انتقاله إلى النساسنة ؛ روى أن ذبيان وأحلامهم من بني أسد تمدوا على وادى أقر الحبيب الذى كان تحت حماية النساسنة ، فنسكل هؤلاء بهما تمكيلا عظيما ، وأسروا كثيرا من نساكنهما ، مما آلم النابعة ذلك الألم الذى تلمسه في قوله :

(١) الأغانى ج ١١ ص ٣ ، الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٧ وما بعدها .

- لقد نهيت بنى ذبيان عن أقر وعن تربهم فى كل أصفار (١)
 وقلت : يا قوم إن الليث إمتقبض على برائته لوثبة الضارى (٢)
 لا أعرف من ربها حورا مدامها كأن أبكارها نماج دوار (٣)
 ينظرن شذرا إلى من جاء عن عرض بأوجه منكرا الرق أحرار (٤)
 يذرين دمعا على الأشفار منهجدا يأملن رحلة حصين وابن سيار (٥)

ولم يجد مفرا من أن يقوم بدوره فى تخليص قومه من هذا الذى وقعوا فيه ، واسترداد الأسرى ؛ وسمى إلى الفساسة مقدما بين يديه مدائحهم ، فزل بهمرو بن الحارث الأصغر ، ومدحه كما مدح أحياه النعمان مدحا رائعا ، فاستجانا لطلبته ، وعوا عن الأسرى ، وكفا عن ملاحقة ذبيان وأحلافهم وأقام فى ظلال الفسانيين فترة نال فيها منهم الجوائز الثمينة ، وتوجههم فيها من شعره بالقصائد الرائعة ، ولكن ذلك لم يشغله عن هدمه الأصيل ، وهو حماية قومه وأحلافهم من بطش الفساسة . بل إنه إلى ذلك حرص على أن يمشى حيره على أصدقاء قومه ، كما كان الشأن مع بنى حن التى كانت تنزل عليها بين الحين والحين بنو ربوع عشيرة النابغة . وقد رأى النعمان الفساني بعد العدة لزم بنى حن ، فتعرض له النابغة عاؤلا منه من ذلك ، خوفا منعتهم ومنعة ديارهم ، ولكن النعمان أصر على غزوهم ، فأرسل النابغة إلى عشيرته يدعوها أن تعد نفسها لمجدة حلفائهم بنى حن وإعاتهم فى رد عادية الفسانيين عنهم ، وتحقيق له ما أراد فقد منى جيش الفسانيين بالهزيمة ، وفى ذلك يقول النابغة :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريد بنى حن بركة صادر (٦)

(١) أقر بضم الهمزة والقاف : واد ، تربهم : إقامتهم وقت الربيع ، أصفار جمع صفر : شهور الربيع .

(٢) البرائن جمع برن : المحالب ، الضارى : الموقع بأكل اللحم .

(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به ، حورا جمع حوراء : المئين الجميلة واضحة البياض والسواد ، النماج جمع نمجه : إناث البقر ، دوار : أسم صم .

(٤) النظر الشدر : النظر بمؤخر المئين ، عرض بضم المئين والراء : جانب .

(٥) الأشفار جمع شفر : هذب المئين . (٦) بركة صادر : موضع .

نجنب -ى حن فإن لقضاءهم كرهه وإن لم تلق إلا بصار (١)
عظام اللهى أولاد عذرة إهم لها من يستلونها بالحناجر (٢)
وهم منعوا وادى القرى من عد وهم يجمع مبير للعدو المسكتر (٣)

وهذا الموقف يكشف عما كان يسكنه الباطنة لقومه وحلفائهم من إحلاص ومحبة وما زال على حاله ذلك ، يرمى مصالح قومه ويوطد الملاقات بينهم وبين النصارى حق تولى عمرو بن الحارث وأخوه النعمان ، معاد إلى النعمان ثمانية

كان الباطنة أثيرا عند النعمان حاصا به ، وكان من بدمائه وأهل أسسه ، إلى أن حدث ما أثار عليه النعمان وتهده - على اختلاف الروايات في أسباب ذلك - إلى قومه ثم شخص إلى ملوك عاز، بالشام فأقام بهم يتدحهم ، فانتقل من بلاط ، ثم لما اطمأن إلى عفو النعمان بن المنذر عنه عاد ثانية إلى الحيرة وأمنه وأدناه حتى قال فيه حسان بن ثابت : وحسدت الفاتحة على ثلاث لا أدرى على أيمن كنت أشد حسدا ؛ على إدناء النعمان له بعد المبادعة ومسامحته له وإصفائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مائة مبير من عصفيره (٤) أمر له بها (٥) ،

ولقد قدم لمودته إلى الحيرة بقصائد يعتذر فيها إلى النعمان ، ويعلم ندمه على ما سلف منه ؛ ورعبته في العودة إليه مخلصا كما كان ، حتى عفا عنه ، وهو إنما كان راغبا في النعمان طمعا في استمرار عطاياه ، واستدامة حياة الترف التي كانت تغمره ، قال أبو عبيدة قبل لأبي عمرو : ألحن مخافته امتدحه وأناه بمد هربه منه أم لغير ذلك ؟ فقال : لا لعمرك الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآمنا من أن بوجه النعمان له جيشا ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهله ، ولكننه رغب في عطاياه وعصفيره ، وكان النافذة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب عطايا وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك (٦)

(١) صابر : شجاع في الحرب .

(٢) اللهى بضم اللام جمع لهوة : المال الكثير ، اللهمم جمع لهموم بضم اللام ؛ الجيش العظيم . يستلونها ، يستلونها .

(٣) مبير ؛ مهلك .

(٤) العصفير ؛ إبل بجائت وكانت للموك (٥) الأغاني ج ١١ ص ٢٨

(٦) الأغاني ج ١١ ص ٢٩

وأقام الباقية في ظلال النعمان إلى أن غضب كسرى على النعمان فاستدعاه سنة ٦٠٢ م وألقى به في عياض السجن حتى مات ، ورجع الباقية إلى قبيلته وقضى بها آخر أيام حياته ويبدو أنه مات في الفترة ما بين عودته من الحيرة سنة ٦٠٢ ، ونهاية حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ م ، وقد ذكر لويس شيخو أنه توفي سنة ٦٠٤ م (١) .

ولم تكن شهرة الباقية وفقاً على علاقته بالفساسنة والباذرة ، بل كان له إلى ذلك شهرة طومت شبه الجريفة مكمت له بين الشعراء ، فكانوا يفتخرون له قبسة من آدم بسوق عكاظ ، فتأنيبه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها ، قال الأصمعي : وأول من أنشده الأعرشي ، ثم حسان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن السميد :

وإن صخرًا لتأتهم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفا لقات إنك أشعر الجن والإنس ، فقال حسان : والله لأبا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له الباقية : يا ابن أحمى أنت لاتحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن حلت أن المتأى عنك واسع

خطاطيف حجن في حبال متينة تمسكها أيديك نوارع (٢)

فخلص حسان لقوله (٣) .

شعره :

واصح من نشأة الشاعر وحياته أنه لم يقض منها بين قبيلته قدر ما قضاه في الحيرة والشام في قصور الباذرة والفساسنة ، وأنه جمع من ذلك مالا كثيرا ، ووهر لنفسه

(١) شعراء النصرانية ص ٦٤٠

(٢) خطاطيف جمع خطاف بضم الخاء : حديدة حجناء تستخرج بها الدلاء وغيرها ، حجن بضم فسكون جمع أحجن : وهي الموجة ، نوارع : جواذب ، يقول لك خطاطيف هذه صمتها أجز بها إليك ، على سبيل التمثيل ، يريد أنه مشدود إليه بأسباب لا يستطيع أن يتخلص منها .

(٣) حنس : انقبض أوجع وتحنى : الأغلى ج ١١ ص ٦

حياة مترفة أدنته من حياة الملوك ؛ إذ كان يأكل ويشرب في صحاف الذهب والفضة .

وواضح - كذلك - بمن تلك النشأة وهذا الارتباط ببلاطى آل المندرو آل غسان أنه أسلم حزماً كبيراً من حريته الشخصية لما يفرضه عليه مقامه في قصور الملوك من الالتزام بخلق معين ، والوقوف بشعره عند حد معين ، حملة يدور في محور من يكتنفه منهم ويرعاه ، لا يتجاوزهم إلى غير ، ولا يرى غير ما يدور في محيطه المسمى ، ولا يحس إلا بما يحدث هناك .

ومن ثم ينظر الدارس في شعره فيجد لا يكاد يتجاوز الحديث عن بني المندر وبني غسان ، مدحاً أو رثاء أو اعتذاراً .

ومن ينظر في شعر النابغة يلمس أثر هذا الوسط المتحفز الترف في شعره .
إذ يجد نفسه أمام شاعر يدرك أثر الكلمة في سامعيه ، فهو لذلك حرص أشد الحرص على انتقاء عباراته والفاظه بما لا يعطى فرصة لظاعن ، يتقرب إلى السمان على حساب النابغة .

ويلاحظ أنه مع شاعر لا يقول كل ما يفد على خاطره ، بل هو المتحفز الذى يتروى في إراز أفكاره ومعانيه ، وما يرال وراءها بالعقل ومعاودة النظر ، حتى تستقيم له العبارة ، ويصح المعنى ، ويتسق مع متطلبات بيئته .

ويدرك أنه يمايش شاعراً جعل من شعره وسيلة لتحقيق مآربه الفردية أو القبلية فشعره مصنوع بما فيه من مدائح ومرأى واعتذاريات ، إذ قلما تجد فيها تعبيراً ذاتياً عن حس صادق أو شعور أصيل ، فدور العقر فيه أوضح من دور الماطمة ، وهذا لاشك أحد آثار البيئة الحضارية المترفة التى قضى فيها جل سى عمره ، والتى سلحته عن الفطرة العربية الخالصة ، ونأت به عن البيئة البدوية بأحلاقياتها رقيماً .

ونظرة إلى مدائمه التى خلمها على الملوك المتوجين في الحيرة والشام تحملك تقطع بأنه شاعر أجاد الصمت ، وبرع في الوقوع من القوم على ما يرمى غرورهم ويستجيب لما حرم ؛ وذلك بحشد طائفة من الصفات الامامة وتحليلتها ببعض الخصوصيات ، تبدو كأنها جميعاً حلية يخصهم بها من دون غيرهم .

مثال : ذلك باثيته التى قالها في مدح عمرو بن الحارث النسائي وآنائه ؛ فقد بدأها

باستهلال يخاطب فيه ابته ، وبيتها شكواه مما يهتم له وبشجيه وبطيل ليله ، ليخلص
من ذلك إلى الحديث عن ممدوحه حديثا مستقيضا يقول فيه :

إذا ما عزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بهصائب (١)
يصاحبنهم حتى يفرن مضارمهم من الصاريات بالدماء الدوارب (٢)
تراهن خلف القوم حزراعيونها حلوس الشيوخ في ثياب المراتب (٣)
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب (٤)
على عارفات للطعمان عوابس بين كلوم بين دام وجالب (٥)

فالشاعر يمدح النفسانة بالفروسية والشجاعة التي حملت جماعات الطيور المتوحشة
تتبع خطوطهم لإيقانها بأنها حاصلة على ورائسها وناقمة على زادها من أعدائهم ، ولتقتها من ،
ذلك ترى جانحة على استعداد للانقضاض ، ثم يمضي في إتمام الصورة فيرر شجاعة القوم
من حلال تصور حيولهم بما عليها من أثر للطمان وجروح دامية ومتجمدة ، ويظل
في انتقالاته تلك حتى تكمل صورة الفروسية ، فينتقل إلى صفات أخرى يمتدحهم بها
حيث يقول :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود ، والأحلام غير عوارب (٦)
محلتهن ذات الإله ، وديهم - م قوم فما يرجون غير الموائب (٧)

-
- (١) عصائب جمع عصاية : جماعات .
(٢) الصاريات : المتهودات ، الدوارب : المدرية .
(٣) حرر بصم الحناء وسكون الزاى جمع آخر : الذى ينظر بمؤخر عينه ، المراتب .
ثياب سوداء .
(٤) جوانح : مائلات للوقوع .
(٥) عارفات : صابرات ، كلوم : جروح ، دام : سائل دمه ، جالب : متجمد
عليه الدم .
(٦) الأحلام : العقول ، العوارب جمع عازب : الغائب .
(٧) محلتهن : منزلتهن ، ذات الإله : الله يقصد كئاسهم .

رقاق الأعمال طيب حجراتهم يحبون بالريحان يوم السباسب (١)
 تحميمهم يفيض الولايد بينهم وأكسية الإضريرج فوق المشاجب (٢)
 يصونون أجسادا قديما يميمها بمخالصة الأوذان حضر المناكب (٣)
 ولا يحجبون الخير لأشر بدمه ولا يحسبون الشر صربة لازب (٤)
 حبوت بها غسان إذ كنت لاحقا بقوس وإذ أعيت على مذهبى (٥)

فيصفهم بالجلود وبالعقل الحاضر ، وبالمسلك بالدين القويم - وكانوا نصارى -
 والقيام على حلقة ، ثم يرجع من ذلك إلى وصف مظاهر الترف والنعم التي تنعم حياتهم
 فهم رقاق الأعمال ، وهم على عفة ، يعاظون على طقسهم الدينية يحبون بالأزهار في
 يوم السباسب - ولعله يقصد به يوم الشعانين أحد أعياد العنصرة - تحميم الحواري
 والإمام ، ويعفظون أجسادهم الثروة المنة من قديم بثياب مزر كشة من الخبز الخالص
 خضراء المناكب ، ثم يخلص من ذلك إلى صفة عقيدته يحرم على مدحهم بها
 تقريرا لاستعطافهم على قومه ، فيقول إن الإنسانين متفتحو العقول يدركون أن السلوك
 البشرى لا يقف عند الخير لا يتجاوز ، ولا يقف عن الشر يتخطاه ، بل لابد من
 عبادة الشر للخير ، ولا بد من نهاية لأشر بالخير ، وكأما يبيته ذلك إلى أن يكشف
 عن حقيقة مقصده ، فيعلن أنه في تلك القصيدة لسان قومه الفاطمي ، وأنه يقدم هذه
 المدحة وهو وشيك العودة إلى قومه بعد أن ضاقت السبل أمامه بسبب من أسر من
 أهله وعشيرته

فأنت أمام مدائح عامة لا تخص واحدا من دون غيره ، ولا تنف على جماعة من

(١) الحجرات جمع حجرة بضم فسكون : موضع شد الإرار من الوسط ، وطيب
 الحجرة : كناية عن العفة ، السباسب جمع سبب : المفارة
 (٢) الولايد : الجوارى والإمام ، الإضريرج : الحرير الأحمر ، المشاجب جمع
 مشجب أعواد تعلق عليها الثياب .

(٣) الإردان جمع رذن بفتح الراء والذال الخبز ، وحلوصها : صفاؤها وزوال
 شوبها ، والمناكب جمع منكب بفتح الميم وكسر الكاف : مجتمع رأس المضد والكشف
 (٤) لارب : لارم .

(٥) أعيت عليه مذاهبه : ضاقت سبله وسرت .

دون الناس ثم هي لا تكشف عن خصوصية في السلوك ، ولكن الشاعر بما كساها من جرل الألفاظ ، وعجم التعبير ، وجعل الصور قد نثت فيها روحا من عنده ، وأبرزها في معارض حضارية المعنى ، تكشف عن مظاهر الترف والنعيم التي يربطون في ثيابها . . . وهو بذلك حولها من موات حامد إلى صفات تليق بالحياة .

* * *

ومثال ذلك بائيته التي يعتذر بها إلى للنعمان بن المذثر والتي يقول فيها :

أمانى أبيت اللدن ألك لثني	وتلك التي أهتم منها وأنصب
مبت كأن المائدات فرشن لى	هراسا به يعلى فراشى ويقشب (١)
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة	وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى حيازة	لمباغتك الوائى أعش وأكذب
ولسكنى كنت امرأ لى جانب	من الأرض فيه مستراد ومذهب (٢)
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم	أحكم فى أموالهم وأقرب
كفمك فى قوم أراك اصطفتهم	فلم ترم فى شكر ذلك أذنبوا
وإنك فمس وللوك كواك	إذا طلعت لم يبد منهم كوكب
فلا تتركنى بالوعيد كأنى	إلى الناس مطلى به القار أجرب (٣)
ألم تر أن الله أعطاك سورة	ترى كل ملك دونها يتذبذب (٤)
ولست بمستبق أخا لاتله	على شعث أى الرجال المهذب (٥)
فإن أك مظلوماً فمبدا ظلمته	وإن تك ذا عتي فمشك يعتب (٦)

(١) الرواس بفتحيتين : شجر كثير الشوك ، العائدات : الزائرات فى المرض ، قشب : يجدد .

(٢) جانب من الأرض : متسع ، مستراد : يذهب فيه الإنسان كما يريد ، لمعلمه إلى إكرام الفساسة له .

(٣) القار : الفطران .

(٤) السورة بضم السين : المنزل ، يتذبذب : يضطرب ولا يصل إليها .

(٥) مله : تضمه وتجمعه ، شعث : فساد .

(٦) العتي ، الرضا ، بمتب بضم العين وكسر التاء ، مطلى العتي والرضا .

يقول للنعمان إن أبناء لومك إياي على ما بدر مني جملتي مهموما مكدودا لا يكحل النوم عني ، فأقضي ليلى مؤرقا مسهدا كأني أنام على شوك . وبحاف له بأنه لم يرتكب ذنبا يسيره ، فهو ما زال على عهد الوفي الخاص ، أما ما بانك عني فهو وشاية الراشدين قصدوا به إقصي ما بيني وبينك من علائق . وكل ما صدر مني أني قصدت ديار الساسنة طالبا صفحهم عن عشتري ، فأزلوني خير منزل ، وأكرموا وفادتي ، وأحسنوا معاملتي ، وأحزوا لي العطاء ، فلم يكن مني إلا أن رددت لهم هذا الصنيع بدمهم ، كما يفعل ملك من تهره نزوا لك من الشعراء - محتجا بذلك لمساكنة من واقع مدوس لدى النعمان - وليس معنى ذلك أني حررت عليك ، ولا كفرت نعمتك ، ولا انحرت إلى الفساسة دونك ، وأين هم الفساسة وغيرهم منك ، فأنت من الملوك كالشمس بين الكواكب ، إذا سطع صرورها احتفت أضواء الكواكب - موحيا بذلك إلى أنه يرحو منه أن يسطع عليه بالزبد حتى يوارى كل من عداه - ثم يصيح باستمطافه ، فيطالب إليه أن يهفو عنه لأن غضبه عليه جعل الناس يمتثلون له كأثر يبر أجرب طلي القار وأبعدت عنه الإبل صيانة لها منه . وما ذلك إلا لثرتك في نفوس الناس ومكانتك منهم وذلك إحدى خصوصياتك التي وهبها الله لك . ولكنه بعد إنكاره تهمة الخروج عليه واستقصاء كل ما يزيل آثار تلك الوشاية ينتقل إلى طريق آخر ، فيقول له ، ولو صح أني ارتكبت هذه الهفوة ، فهل يمكن لإنسان أن ينأى عن الخطأ ، ولن يكون لك صديق إذا عزلت من صداقتك كل من يصدر منه هفوة . وأياما كان صبيك معي على راس بكل مائراء في ، إلى ظلمتي فبعد ظلمه سيده ، وإن عفوت عني فذلك أمر طبيعي ؟ إذ مثلك يعتب ويصفح .

ولاشك في أن البون شاسع بين مدائحه واعتدالياته ؟ إذ هو في اعتدالياته يعتمد على تصوير ضيقه ومعاناته ، وهو فيها مرهف الحس والشعور ، يقطر العقل ، يلحس بها قلب محاطيه ، ويرقع عقله بالحجة الجاية والبرهان القاطع ، حتى تمكن في آخر الأمر من إدارة رأسه واستلال الحقد والصب من صدره ولقد وصح من هذه الاعتداليات أن الدابة ليس حبيرا بطبائع النفس البشرية بسبب بل هو حبير بطبائع الملوك ، ما بما يؤثر فيهم ، وأقرب شيء إليهم أن تعترف بضعفك أمامهم ، وتقر بسيادتهم عليك .

وواضح أن الدابة لم يحصل على ذلك إلا من مشاكسة القصور ، وممايشة الأمراء

- ٢٢٣ -

والمالوك، ومخالطة الحاشية ورجال الدولة والسياسة، مثقف بثقافتهم، وتعه - لم منهم أساليب محاطة الملوك مديحا واستمطافا واعتدار، .

وهكذا اسلخ من طبيعته البدوية، دون أن يحس في ذلك بغضاضة، أو يشعر بما يشعر به أهله من ضيق، بل كان على العكس من ذلك يرى أن ذلك السبيل حقق له العباداة ببر قومه - رضوا بذلك أم كرهوا - وهم بحاجة إلى ماله كما هم بحاجة دائما إلى جاهه ومكانه عند الماذرة والفسانة وأمل من مظاهر ذلك أنهم أكبروه وصروا له القبة الحمراء في سوق عكاظ ليحكم في الشعر والشعراء، ويقدم هذا ويؤخر ذلك .

* * *

ومن ثم يتضح الفرق بين النابغة وامرئ القيس، مع اتفاق البيئتين الخاصة بهما؛ فامرؤ القيس كان في رتبة الأمير ابن الملك الذي يشعر بأصالته فيما هو فيه، وهو مستقل عن الآخرين، يصنع ما يروقه، ويتحرك من منطلق ذاتي، أما النابغة فيحسن بأنه ما حقق ذلك الذي هو فيه إلا باستمداده من غيره؛ فالنعمان مصدر نعمته، وهو لذلك مشدود إليه، لا يستطيع العكاز من أسره الذي يعلقه في يدي سيده .

خطاطيف حجن في جبال متينة تمد بها أيد إليك نوارع

وكان هذا الفارق بين الشعارين أساس اختلافهم في الفنون الشعرية التي تمازجها؛ فهما - على الرغم من اتفاقهما في البيئة الخاصة - مختلفان فيما يلونها ويشكلها، مختلفان فيما يحدوها وما يبدأ عنها .

ولم يقف اختلاف النابغة عن امرئ القيس عند حد الاختلاف في الدافع إلى القول وما نشأ عن ذلك من الاختلاف في الفنون الشعرية . . .

وذلك لأن الناظر في شعر الشعارين نظرة موازنة يلاحظ أن من بين الفوارق المميزة لكل حرص امرئ القيس في تصويره على الصور التفسيرية المدعمة بالتشبيه وغيره من ألوان البيان بينما يحرص النابغة في تصويره على الصور البيانية القائمة على النظرة المحسية المستقصية لأحراء الصورة، والوقوف منها على الجوانب المصورة، كما رأينا في تصويره جيوش الحارث الثناني وما نحتقه من انتصارات، وتصوير العساسنة في سلمهم، فيتحدث عن سجاياهم وشيمهم ومعتقداتهم البدئية حديثا يرسم لهم صورة رائمة في قوله :

لهم شبيهة لم يعطها الله غيرهم من الجود، والإحلام غير عوازل

إلى آخر ما ذكرنا من ذلك آنفا ولا يعنى ذلك أن النابغة لا يستخدم - في تصويره - الصور النفسية ، ولكن الذى أعنيه - ذلك أن النابغة لم يكن يحتفل بهذه الصور احتفال امرئ القيس ، ولا كان يعتمد عليها في تصويره اعتماد امرئ القيس . من ثم ركز النابغة جهده في الوقوع من مدحها على المعاني التي يتمدح بها ، وعرضها في ترتيب متناهي أخذ ؛ وأينا في صوره - لذلك - معاني حضرة جديدة لم تعرف ولا لشاعر العصر العربي لشاعر البدايات الخالص ، تمثل سلوكهم ومعتقداتهم الدينية ، ومظاهر الترف والبعيم في حياتهم .

يبد أن مواراة النابغة بـعدي بن زيد تكشف عن ما بين الشاعرين من علائق تنبى عما أخذ النابغة من عدى في ذلك ، خصوصا في اعتدالته .

كما يتضح الفرق بينه وبين زهير الذى ارتبط بيئته القباية ، ولم يخرج عليها على الرغم مما أتيح له من أسباب الترف والنعمة ، فانجبه بمدائحهم إلى من يقدم الخبز لأهله وعشيرته ، فلم يمدح أشخاصا بقدر ما مدح أفعالا ، على عكس النابغة الذى قصد إلى مدح الأشخاص ليدفعهم من وراء ذلك إلى الأعمال . ومن ثم افترق زهير في مدائحهم عن النابغة ، فائسمت مدائح زهير بالصدق الواقعى واللفى ، وكانت نابغة من شعور منسق مع الموقف ، أما مدائح النابغة فكانت معتمدة على الفن المصنوع الذى لا يقوم على تجاوز نفسى ، ولا انساق عاطفى . ولا ريب في أن ذلك أثر من أثار البيئة الحضرية التى ضمت النابغة .

يبد أن بين الشاعرين تشابها يتمثل في نزوف كل منهما عن الهجاء ، وتحفظه به . إذا اضطر له اضطرار ، وهما في ذلك متأثران بخلق البدايات العربية المترفة أو المتحضرة . المزوج بالوقار الذى أضفاء على كل منهما مركزه بين عشيرته وتقدمه في السن ، فلما كان زهير يمتنع من الخوض في عرس مهجوه ، والإقذاع في شتمه وسبه ، كان في قوله يهجو عامر بن الظمیل ردا على هجائه إياه :

إن بك عامر قد قال جهـلا فإن مطية الجهـل السباب

- ٢٢٥ -

فكن كأيك أو كأي براء تواءمك الحكومة والصواب (١)
ولا تذهب بملك طاميات من الخيلاء ليس لمن باب (٢)
وانك سوف تحلم أو تنامى إذا ما شئت أو شاب النراب (٣)

ولعل هذا الاتجاه للتحفظ في هجائه كان أحد الأسباب التي مكنت له في نفوس
معاصريه من مختلف القبائل والعشائر حكوه بين الشعراء في أسواقهم الأدبية .

-
- (١) أبو براء : عامر بن مالك ، ملاعب الأسنة ، وهو عم عامر بن الطفيل .
(٢) طاميات : فائضات ومرتفعات . ليس لمن باب : ليس لمن عرج .
(٣) أو شاب النراب : ضرب النابضة ذلك مثلاً لعامر ، وأنه لن يحلم أبدا .
(١٥ - الأدب العربي)

(٤)

العباس بن مرداس السلمي

مولده ونشأته :

أبو الهيثم^(١) العباس بن مرداس بن أبي عامر ينتهي نسبه - على الخلاف فيه^(٢) - إلى سليم بن منصور بن قيس عيلان بن مضر ، أما مولده ونشأته شأن مولده معاصريه ، لم يكن ميسورا أن يعرف على وجه التحديد متى ولد . وكل ما تحمله كتب التاريخ من مجموع الروايات التي تناول نشأته أن حياته تورعتها الجاهلية والإسلام . وأنه قضى في الجاهلية من عمره ما يمكن معه من أن يكون فارسا ذائع الصيت بين قومه ، وأن يكون شاعرا له شأنه ، فهو بحق مخضرم .

وكان أبوه - مرداس بن أبي عامر - من سادة سليم ورسائنها ، حضر يوم شعب جيلة مع بني عامر ، وأبلى فيه بلاء حسنا واشتهر - إلى جانب مروسيته - بالكرم حتى لقب بالفيض ، وكان شريكا لحرب بن أمية في القرية ، التي دفن فيها بعد موته وقد ادعاه كليب بن أبي عهمة السلمي لنفسه ، واستولى عليها^(٣) ، وفي ذلك قال العباس قصيدته النونية يطالب فيها كليبيا بالكف عن الظلم ، وإعادة القرية إلى أصحابها ، وفيها يقول^(٤) :

(١) اختلفت الروايات في كنيته بين « أبو الهيثم » ، و « أبو الفضل » ، راجع الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمرو بن يوسف بن عبد الوارث على هامش الإصابة طبع للتجارية ج ٣ ص ١٠١ ، ومعجم الشعراء لأبي عبد الله محمد بن عمران اللرباني طبع الحلبي ص ١٠٢ (٢) انفتت الروايات على نسبه حتى جده أبي عامر ، ثم اختلفت فيما بعد ذلك راجع الاستيعاب ج ٣ ص ١٠١ ، ومعجم الشعراء ص ١٠٢ . والأغاني ج ٤ ص ٣٠٢ ، والإصابة ج ٢ ص ٣٦٢ ، وطبقات بن سعد ج ٤ ص ٢٧١ ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٦٣ . (٣) الأغاني ج ٦ ص ٣٤١ طبع دار الكتب . (٤) انظر ديوان العباس ص ١٠٨ بتحقيق د / يحيى الجبوري طبع بمطبعة ١٩٦٨ .

- ٢٢٧ -

أكلب مالك كل يوم ظالما والظلم أنكد وجهه ملمون
إن القرية قد تبين أمرها إن كان ينفع عندك التبيين
حيث انطلقت نخطها لى ظالما وأبو يزيد بج-وها مددون

وقد تزوج مرداس أكثر من زوجة ، كان أشهرهن تماضر الخنساء بنت عمرو بن
الشريد السلية الشاعرة ، وكانت تزوجته بعد زوجها الأول رواحة بن عبد العزى ،
وبقيت مع مرداس حتى مات فعزنت عليه ورثته .

وكان تعدد زوجات مرداس سببا في احتلاط الأمر على المؤرخين ، حين أرادوا
للتعريف بأم العباس بن مرداس ، فقد سبق إلى وهم الكثيرين أن الخنساء هي أم
العباس (١) .

لكن الذى نبين لى من البحث أن أم العباس هي هند بنت سة بن سنان - وكانت
رنجية سوداء - وهي إحدى المنجيات على ما ذكره ابن حبيب (٢) ؛ فالخنساء لم يرد فى
شعرها ما يدل على أن العباس ابنها ولم ترد إشارة فى شعر العباس تفيد أنها أمه . وقد أيد
الجاحظ ما ورد عن ابن حبيب ، فقد ذكر فى رسالة سفر البضان على السودان ما يشير
إلى أن أم العباس رنجية ، وذلك فى أثناء القصيدة التى أوردها لسيح بن رباح الرنجى
فى هجاء جرير بن الخطفى حين انتقم الزنج ، وفيها عدد الشاعر أبناء الرنجيات مقتضرا
بما لهم من مكانة ، ومنهم : حماف ابن ندبة ، وعباس بن مرداس ، وابنى شداد - عترة
الفوارس وأخاء هراسة - وسليك بن السلسكة . ومطلع قصيدته تلك :

ما بال كلب من كليب سبنا - إن لم يوارن حاجبا وعقالا (٣)

وقد ولدت الخنساء لمرداس معاوية ويريد وعمر وعمرة وكانت شاعرة - فكانوا
إحوة العباس لأبيه على الصحيح ، أما عبد الله بن رواحة بن عبد العزى المعروف
بأبى شعيرة فليس أحبا للعباس بن مرداس ، ولكنه ابن الخنساء زوج أبيه ، وكان

(١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ، والأصمعيات لعبد الملك بن
قريب الاسمى بتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . ودائرة المعارف الإسلامية
ج ١٢ ص ١٤٤ ، ص ١٤٥ . (٢) انظر المحبر لمحمد بن حبيب ص ٤٥٥ ، ص ٤٥٦
(٣) انظر رسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٢
طبع بالخارجى بالقاهرة .

لقد أسلم مع سليم وارتد مع من ارتد منها، ولحق بطليحة مع محبة، ويدكر أنه أسلم بعد ذلك ودخل فيها دحل فيه العباس^(١)، ومن إخوة العباس أيضا عمارة بن مرداس الذي قتله بنو خولان في حقل من نواحي صعدة، ورثاه العباس بقصيدة، جاء فيها :

أبعد عمار الخير نرجو سلامة وقد بتكت آرابه ومفاصله
فلا وضعت عندي حصان حمارها ولا ظفرت كفى بقرن أنازله
لأن لم أزر خولان في عقر دارها بأرعن رجاف نزجى قنابله^(٢)

وقد تزوج العباس في الجاهلية حبيبة بنت الضحاك بن سفيان السلمي - وكانت شاعرة -، ولكنها فارقته حين علمت بإسلامه، وقالت تهجوه وتوعده بما ينتظره. إذ فارق دين آبائه :

لعمري لئن تابعت دين محمد وفارقت إخوان الصفا والصنائع
لبدأت تلك النفس ذلا بمزة عداة اختلاف المرهفات القواطع^(٣)

ثم تزوج بعد إسلامه، لكننا لم نقف على اسمها، وكان له من الولد : كنانة، وسعيد، وعبيد الله، وجامحة، وقد أسلم جامحة وكان له محبة بالنبي صلى الله عليه وسلم، وروى عنه صلى الله عليه وسلم بعض الحديث، وكان تواقا للجهاد في سبيل الله فقال يارسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك، فقال : هل لك من أم؟ قال نعم . قال فآلزمها فإن الجنة تحت أرجلها^(٤)

* * *

أما حياة العباس فمن ثنايا الأخبار القليلة المتناثرة هنا وهناك نستطيع أن نقرر

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٦٥، ص ٢٦٦

(٢) الديوان ص ١٣٧، وانظر صفة جزيرة العرب لأبي محمد الحسن بن أحمد الحمزاني ص ٢٨٠، ص ٢٨١ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣، ومعجم البلدان ج ٧ ص ٢٨٧، ص ٢٧٩ .

(٣) الأغاني ج ١٤ ص ٣٠٤

(٤) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢٧٤

أنه كان ذا مكانة مرموقة في قومه ؛ لما ضم من شمائل وصفات ؛ فقد كان عاقلا مترنا حرم على نفسه الخمر في الجاهلية ، ولما قيل له ألا تأخذ من الشراب ، فإنه يزيد في جرأتك ويقولك ، فقال : أصبح سيد قومي وأمسى سفيهم^(١) . واعتزازه بمسكاته في قومه وزعامة أمته جعل منه فارسا منوارا يشاركون في حروبهم ومدائنهم ، ومتطاعا مع رغباتهم ؛ ولقد صور ذلك في شعره ، واعتخر بشجيمان قومه في مثل قوله :

وكما إذا ما الحرب شبت نشبها ونضرب فيها الإلج والنتقاعسا
فأبنا وأبقى طعننا في رماحنا مطارد حطى وحمرا مداعسا^(٢)

وحينما أغارت بنو نصر بن معاوية على ناحية من أرض بني سليم نهم المباس لمقاومتهم في جمع من قومه وقائلهم حتى أكثر فيهم القتل^(٣) ، وصور ذلك في ميمته التي منها قوله :

وما زال منهم رائغ عن سبيلها وآخرهم وى للدين ولهم
لن غدوة حتى استبيحوا عشية وذلوا فساكنوا لحة المتلحم^(٤)

واشترك في أكثر أيامهم مثل يوم الفيفاء ، وبرة ، والأكديد^(٥) ، ويوم تثليث ، وفي هذا اليوم تولى المباس زعامة سليم حين غزت مرادا فجمع لهم عمرو بن معد يكرب ، طالتقى الجيشان بثلاث ، وصيرا ولم تظهر طائفة منهما بالأخرى ، وفي ذلك قال قصيدته الحميدية ، وهي إحدى القصائد المنصقات^(٦) .

كما كان في كثير من شعره الجاهلي اللسان الناطق بأعجاد قومه ، المدافع عنهم ، المفتخر ببلائهم ، وشجاعة مرسائهم . على نحو ما قال في الرد على خصمهم عبد الله بن جندل غداة يوم وبرة :

ألا أبلغا عن ابن جندل درهطه وكيف طلبناكم بكرز ومالك

-
- (١) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٢٦٥ ، وانظر قطب السعور في أوصاف الخمر ص ٤١٦
(٢) الديوان ص ٧١
(٣) الأغاني ج ١٣ ص ٦٦ طبعة ساسي (٤) انظر الديوان ص ١٤٦
(٥) انظر العقد الفريد ج ٥ ص ١٣٤ ، ص ١٧٤ ، ص ١٧٦
(٦) انظر العمدة لابن رشيقي ج ٢ ص ١٦٨

غداة لجناكم بمحسن وبابنه وبابن المـلى عاصم والمـارك
نذيقكم الموت يبنى سرادقا عليكم شـباحد للسيوف الدواتك
تلوح بأيدينا كما لاح بارق تـلا في داج من الليل حالـك
صبحناكم الموج العناجيج بالضحي تمر بنا مر الرياح السواهـك^(١)

يـد أنا نلاحظ وجود حصومة بينه وبين ابن عمه خفاف بن نـدة من قوله :
وعـل الله يـمكن من خفاف فأسقيه القى غـمـا يـحـيد^(٢)

وترجع هذه الحصومة إلى تنازعهما على زعامة قومهما بعد مقتل صخر بن عمرو بن
الشريد في يوم « ذات الأثل » الذي كان يتولى تلك الزعامة آنذاك^(٣) . وقد ولدت
هذه الحصومة معارك شعرية بين الشاعرين ، لبست ثوب المناقضات ، وكان للعباس
منها إحدى عشرة قصيدة .

وكما يكشف شعره عن هذه المعركة اللسانية بين الشاعر وابن عمه ، يكشف كذلك
عن معركة أخرى حربية نشبت بينه وبين أحد الصناديد المدودين في عصره ، هو
عمرو بن معد يكرب ، في نحو قوله :

ألا أبلغا عمرا على نأى داره فقد قلت قولاً حائراً غير مهتد
أتهدى الهجاء لامرئ غير مفعم وتهدى الوعيد لامرئ غير موعـد
فإن تلقى تلقى امرأ قد بلونه حديثاً وإن تفجر على تفـد^(٤)

وفي الحديث عن تلك الحصومة يذكر ابن عبد ربه أن عمرا قد فر من العباس في
إحدى المعارك ، وأن العباس أسر ربحانة أخت عمرو الذي أشار إلى ذلك الحدث في
مطلع قصيدته المبدية حيث يقول :

(١) الديوان ص ١٣٠

(٢) الديوان ص ٤٢

(٣) راجع أيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد جاد وآخر ص ٣٩٩ طبع الحلبي

(٤) الديوان ص ٤٧

أمن ربحانة الداعي السميع يؤرقى وأصحابي هجوع (١)
وكان العباس في جاهليته على علاقة طيبة باليهود - خصوصا يهود حير - الأمر
الذي حمله يدافع عنهم ويبيح قتالهم في حربهم مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة
مثل قوله في إجلاء بني النضير من ديارهم ، والتحزن لما أصابهم :

لو أن أهل الدار لم يتصدعوا رأيت خلال الدار ملهى وملها (٢)

وقوله في الرد على حوات بن جبير وما قاله فيهم :

أخوات ادر الدمع بالدمع وابكمهم وأعرض عن المكروه منهم وسكبأرهم (٣)

يؤيد هذا ما رواه صاحب الأغاني من تحاور بين العباس بن مرداس وحوات بن
جبير أمام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ؛ فقد قال حوات : يا عباس أنت الذي
رئيت اليهود رقد كان منهم في عداوة رسول الله ما كان ؟ فقال عباس : إنهم كانوا
أحلائي في الجاهلية ، وكانوا أقواما أنزل بهم فيكرموني ، ومثلي يشكر ما صنع إليهم
من الجليل (٤)

* * *

هذا العباس في الجاهلية وقبل أن يدخل الإسلام كما صورته الأخبار والإشارات
المتناثرة هنا وهناك .

أما حياته في الإسلام فسكانت أوضح منها قبل ذلك شيئا ما ؛ فقد خرج في قومه
عام الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقوه بقديد فأسلموا جميعا ، وقالوا اجعلنا في
مقدمتك ، واحمل لواءنا أحمر ، وشعارنا مقدم ، ففعل ذلك بهم (٥) ؛ لفتحوا بذلك
صفحة جديدة بعد مقاومة وعناد في مواجهة الدعوة الإسلامية ، وإصرار على عبادة
الأصنام وكان لكل منهم يتممب لعبادته ويكب عليه . روى أنه كان ارداس وثني يعبده

(١) العقد المرید ج ١ ص ١٤٦

(٢) الديوان ص ٣٨ (٣) الديوان ص ٤٠

(٤) الأغاني ج ١٤ ص ٣١٨ طبع دار المکتب .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٣٠٧

وهو حجير يقال له « ضمار » - فلما حضر مرداس الموت قال العباس : أى بنى أعبد
« ضمار » فإنه يملكك ويضرك ، فبينا عباس يوما عند « ضمار » إذ سمع من جوف
« ضمار » مناديا يقول :

قل للقبائل من سليم كلها أودى ضمار وعاش أهل المسجد
إن الذى ورث النبوة والهدى بمدابن مريم من قریش مهتدى
أودى « ضمار » وكان يعمد مرة قيل الكتاب إلى النبی محمد (١)

لا يفتنناهما من القصة وأحداثها أكثر من أن نعرف أن العباس بن مرداس
ورث عن أبيه وثنا ، قام بعبادته قبل أن يعتنق الإسلام ، وأن هذا الوثن كان يسمى
« ضمار » ، أما ما عدا ذلك مما يثار حوله الشكوك فلسنا فى مجال تحقيقه وبحث مكانه
من الحقيقة .

لقد أسلم العباس بن مرداس بعد هذه الحياة الوثنية ، وحسن إسلامه ، حتى أصبح
من جنود الإسلام المدافعين عنه ، والداعين إليه فى كل مكان ، فشهد مع الرسول
صلى الله عليه وسلم فتح مكة ، ويوم حنين ، حمل لواء مرداس يوم فتح مكة وخفاف
ابن ندبة تحت قيادة خالد بن الوليد (٢) ، أما فى يوم حنين فقد أبلى هو وقومه بلاء
حسنا ، وأشرك شعره فى المعركة ، فتمنى فيه بأعجاد المسلمين ، وأوضح دور بنى سليم فى
المعركة فى نحو قوله :

ويوم حنين حين سارت هوازن إلينا وضاقت بالفوس الأضالع
سبرنا مع الضحاك لا يستقرنا قراع الأعادى منهم والوقائع
أمام رسول الله يخفق فوقنا لواء كخدروف السحابة لامع (٣)

بيد أنه فى يوم حنين كان ما يزال خاضعا لمؤثرات الجاهلية ، ولم تكن مبادئه
وسلوحياته وأسلابه قد أخذت منه مكان القيادة والتوجيه ، فقد روى أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أعطى الأقرع بن حابس التميمى مائة من الإبل من غنائم حنين ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٢٧٢

(٢) انظر امتاع الأسماع للمقرئى ج ١ ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٣

(٣) الديوان ص ٨١

وأعطى عيينة بن حصن الفزارى مائة من الإبل ، وأعطى العباس دون المائة فسخطها فقال يمانب الرسول صلى الله عليه وسلم :

كانت نهـأبا تلاميها	بكرى طى للمهر فى الأجرع
وإقاعى القوم أن يرقدوا	إذا هجع الناس لم أهجع
فأصبح نهى ونهب العيب	د بين عيينة والأقرع
وقد كنت فى الحرب ذائد	رىء لم أعط شيئا ولم أمنح
إلا أفايل ^(١) أعطينـا	عديد قوائمها الأربع
وما كان حصن ولا حابس	يفوقان شيخى فى المجمع
وما كنت دون امرىء منه	ما ومن تصع اليوم لا يروع

فقال صلى الله عليه وسلم : أذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه ، فأعطوه حق رضى ، فكان ذلك قطع لسانه^(٢) .

ولم يكن موقفه هذا هو أول مواقفه المادية التى تدل على ما استقر فى نفسه من روح الجاهلية ولم يتأثر بمدد بالخلق الإسلامى فقد سبق هذا موقف آخر شبيه بذلك ، حين عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رد سبائهم وأموالهم إليهم ، ورد المهاجرون والأنصار نصيبهم ، وقالوا ما كان لنا فهو لرسول الله ، أما زعماء الأعراب من المؤلفة قلوبهم فكان لهم غير هذا الشأن ، فقد قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عباس بن مرداس لقومه : وهنتموى^(٣) .

(١) أفايل ؛ الأنيل : العنبر من الإبل والغنم ، وجمعه إفال - بكسر الهمزة - وجمع الجمع أفايل .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣١٣ طبع المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ ، وإمتاع الأسماع للمقريزى ج ١ ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، والطبقات الكبرى ج ٤ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ والاستيعاب ج ٣ ص ١٠٢ .

(٣) السيرة النبوية ج ٣ ص ٣٠٩ الطبعة السابقة .

لكن الإسلام ظل يتغلغل في نفس العباس طي مر الأيام حتى أصبح موضع ثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقامه على صدقات بنى سليم ومازن ابني منصور^(١) ، وبعثه مع رجال إلى قومه بنى سليم ليحضرهم على الجهاد ويرغبهم في الصدقة استعداداً لنزوة تبوك^(٢) ، وهكذا حتى جاء اليوم الذي كان فيه العباس بن مرداس واحداً من رواة حديث النبي صلى الله عليه وسلم - وإن كان مقلاً - فقد روى أبو داود وابن ماجه عنه حديثاً في عموم المغفرة للحجاج يوم عرفة^(٣) ، وقال عنه المعجل : هذا حديث غريب ، وليس يروى عن العباس بن مرداس سوى هذا الحديث^(٤) ، غير أن الحافظ ابن حجر العسقلاني تعرض لهذا الحديث بالدفاع والتصحيح ، والرد على ابن الحوزي الذي أورده في الموضوعات وأشار إلى أن له أحاديث أخرى غير هذا الحديث^(٥) .

* * *

ومع ما مرت به حياة العباس بن مرداس من تقلبات وتغيرات - حيث انتقل من الجاهلية إلى الإسلام - لم يغير مقامه ، فقد ظل يقم ببادية بنى سليم في الجاهلية ولزمتها في الإسلام فترة من الزمن يبدو أنها امتدت حتى خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يحضر من بادية بنى سليم لبشترك مع النبي صلى الله عليه وسلم في النزوة ، ثم إذا فرغ من مهمته عاد إلى بلاده ، ولم يبق في مكة ولا في المدينة^(٦) ، ولما انتقل إلى البصرة حين اختطها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - كان ينزل في بواديها^(٧) ، مما يتضح معه مدى تعلقه بأرض قومه ، وارتباطه بالحياة البدوية . وإثارة العيش في أكشاف البادية على الحياة في المدينة أو الحاضرة .

وكما لم تحدثنا المصادر التاريخية عن ميلاد العباس في جاهليته ، لم تحدثنا كذلك عن وفاته في الإسلام إلا الحديث المحتمل الذي لا يدعمه السند القاطع ، فابن حجر

(١) راجع تهذيب تاريخ ابن عساکر ج ٧ ص ٢٥٥ ، وأنتساب الأشراف ج ١ ص ٥٣٠

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٤٦ (٣) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠

(٤) القول المسدد في الذب عن مسند الإمام ص ٤٩ .

(٥) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠ . (٦) الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٣٣

(٧) الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٢٧٣ .

المسألة التي يقدر أنه مات في خلافة عثمان رضى الله تعالى عنه (١) ، وصاحب الأغاني ثم يحدد لوفاته سنة بعيمها ، ولكنه ذكر أنه مات في الإسلام (٢) ، أما الزركلى مذكر أنه مات بالشام سنة ١٦هـ (٣) ، دون أن يشير إلى المصادر التي استقى منها هذا التحديد.

على أى حال المقطوع به أن العباس بن مرداس مات في الإسلام ، وقد أنارت وفاته أشجان أحبه سراقه بن مرداس ، وأخته عمرة بنت الحنساء فرثياه بشعر يفرض أسى وحزنا على فراقه ؟ وكان مما قاله سراقه :

أعين ألا أبكي أبا الهيثم وأدري الدموع ولا تسأى
وأثني عليه بآلائه بقول امرئ موجه مؤلم
فما كنت بألمه بامرئ أراه ييئس ولا موسم
أشد على رجل ظالم وأدعى له أهية ميثم (٤)

وقالت أخته عمرة :

لنبيك ابن مرداس على ما عرام عشيرته إذ حم أمس رواها
لدى الخصم إذ عهد الأمير كعام فكان إليه فصلها وجدالها
ويعضله للحاملين كديتها إذا أنهات هوج الرياح طلالها (٥)

شعره :

واضح من حياة الشاعر ونشأته أنه بدوى حالص البداوة ؛ فهو مرتبط بقبيلته ، حربص على مكانته معها ؛ لا يرضى بالحياة بين عشيرته ولا فوق أرض سليم بديلا ، حتى حين تيسر له أن يجد متسعا من الحياة خارج حدود باديته لم يقبل أن يستبدل بها أى موطن آخر ، على الرغم مما فى هذا الوطن الجديد من مغريات ، وما يتوفر له من عوامل الجذب - ويكفى أن يكون من بين ذلك ملازمة الرسول صلى الله عليه وسلم -

(١) راجع تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠

(٢) انظر الأغاني ج ٤ ص ٣١٨ طبع دار الكتب .

(٣) الأعلام ج ٥ ص ٢٢٥

(٤) الأغاني ج ١٤ ص ٣١٩ طبع دار الكتب .

(٥) المرجع السابق ج ١٤ ص ٣١٩ وشرح الحماسة للمرزوقي القسم الثالث ص ١٠٩٩ .

فهو تحت إلحاح الضرورة لا يجد مندوحة من مفادرة البادية حتى إذا أدى ما عليه ، من واجب الجهاد عاد إليها . بل إنه حين فسكر في الخروج إلى البصرة على عهد عمر رضى الله عنه ، أبى أن يكون خروجاً إلى المدينة ، فأثر بادية البصرة ، ليستبدل بادية ميسرية .

ولسنا بصدد البحث عن السمر في إشار العباس بن مرداس حياة البادية على حياة الحاضرة ؛ فهذا له مجال آخر غير بحثنا ، إنما الذى يعنيننا هنا أن نحاول التعرف على أثر ذلك فى أدبه .

والذى يطرق بما وصلنا من شعر العباس يلاحظ أثر هذه البيئة البدوية فيه واضحا كل الوضوح ؛ يلاحظ ذلك فى هجونه الشعرية ، ويلاحظه فى أدبكاره ، ويلاحظه فى معانيه وأحليته ، ويلاحظه فى أسلوبه ومنهجه الفنى فى عرض أسكاره ومعانيه ، ويلاحظه فى معجم ألفاظه والأعلام التى ترد فيه .

فالشاعر يكاد يقصر شعره على الفخر والهجاء . ولا ريب فى أن هذين الفنين هما أبرز فنون الشعر البدوى الخالص من التيارات الأخرى ، وذلك لأن البدوى الفارس الذى استقرت حياته بين قومه فى البادية لا يحرك نفسه إلى قول الشعر إلى موقف يتطلب منه الاعتزاز بنفسه وبقبيلته ، فينطلق معددا مفاحره على اختلاف مظاهرها . أو موقف يتطلب منه الرد على من أساء إليه أو إلى واحد من أبناء قبيلته أو تناول على خلق من أخلاقهم ، أو شذ عن أحد أعراقهم ، فينطلق لسانه عندئذ بتصوير هذه العيوب ، وإبراز تلك الثائب ، حتى يتحاشاها هو ومن على شاكلته . . . أما ماعدا ذلك من فنون الشعر فيلاحظ أن الشاعر لم يقبل عليها إقباله على هذين الفنين ، ولكنه تناول ما تناوله منها فى شعره عرضا وليس باعتبارها فنا مستقلا ، وما استقل منها بالتناول فهو قليل نادر ، على ما سنفصله إن شاء الله تعالى .

* * *

١ - لقد كان الفخر - ومارال - من ألزم الصفات للسان ، بيد أنه يختلف من فرد إلى آخر ، وفقا لظروفه البيئية ، فما يفتخر به الإنسان فى الحاضرة غير ما يفتخر به فى البادية وما يفتخر به فى إحدى الحواضر غير ما يفتخر به فى حاضرة أخرى ، كما أن لكل بادية مفاحرها التى يمتز بها ساكنوها . بل إن المفاخر فى الموطن الواحد تختلف باختلاف مراحل العمر وأطواره ؛ فى مرحلة قديفتخر الإنسان بالطيش والاندفاع وراء

العاطفة ، لكنه في مرحلة أخرى يتميز بالحكمة والأناة والبروى . وقد تبعه الإنسان بفخره إلى تعداد مناقب قومه ، وقد يكون ذلك بتعداد مناقبه الشخصية ، وقد يجمع بين هذا وذلك ثم إن ما يفخر به الشاعر قد يكون صفات عريضة ومحاسن جسمية ، وقد يكون فضائل نفسية وسجاءا خلقية .

ونحن حين نتفحص شعر العباس بن مرداس نلاحظ أنه جمع بين ذاته وقومه ، فكما افتخر بنفسه افتخر بقومه ، وأنه حرص على التنفى بالفضائل النفسية والسجاءا الخلقية التي قامت عليها نفسه ، وارتكزت عليها قبيلته .

من ذلك ما قاله في الفخر على حفاف بن ندة ، فهو ليث يحمى عرينه ، ولا تغلبت من بين برائه مريسة أتجه إلى قنصها (١)

إن تلقى تلق ليثا في عرينته من أسد حفاف في أرساغه ودع (٢)
لا يبرح الدهر صيد قد تقنصه من الرجال على أشدائه القمع (٣)

وقوله لحفاف أيضا إنك حين تشتمى لا تنال منى ، لأنك لو تبينت لأمرلرفت أنك ترمى هضبة صلبة على عرض ناصع طاهر لا يقبل الدم ولا التجريح ، وإنى فارس أبى من قوم أباة شجيمان (٤) .

ألا أيها المهدي لى الشتم ظالمنا تبين إذا راميت هضبة من ترمى
أبى الدم عرضى ، إن عرضى طاهر وإنى أبى من أباة ذوى غشم (٥)

(١) الديوان ص ٨٧

(٢) الأرساغ جمع رسخ - بصم الرء - والرسغ مفصل ما بين الساعد والكف .
والساق والقدم . والفدع - بفتحين - عوج في المفاصل كأنها قد فارقت مواضعها ،
وأكثر ما يكون في رسغ اليد أو القدم .

(٣) القمع - بفتحين - عظم نأىء في الحجرة من الخارج ، أو طبق الحلقوم
وهو مجرى النفس إلى الرئة .

(٤) الديوان ص ١١٠

(٥) الغشم - بفتح فسكون - الظلم ، يقال غشمت الرجل ظلمته أشد الظلم .

وإني من القوم الذين دماؤهم شفاء لطلاب الثرات من الرغم (١)
وقوله يخبر على عمرو بن معد يكرب ، حين افتخر عليه عمرو بن محسبه واسمه
وعشيرته ، يقال ناقصا عليه مفاحره ، ومفتحرا بأصوله وأحسابه ؛ فهو ينتمى إلى قيس
ابن عيلان المصري ، وأحسابهم راحداهم ذئمة لا يسيبها الجمل (٢) :

وإن تك من مد المشيرة تلقى إلى الفرع من قيس بن عيلان مولدى
إلى مصر الجراء نعى حردودا وأحسابا ومحددا عير قعد (٣)
وسائل نسا عايها ربيعة إنها أحونا وإن نقصر عن الجهد نردد

وفي طلال للإسلام بدأ العباس يتجه بالفخر متجها آخر ، فاعتزله في شرفه بقومه
أكثر وصوحا ، وارتكزه في شرفه على شجاعة قومه وإقدامهم ، ليس لإنشاء الظلم ،
ومرض السلطان . ولكن لنصرة الإسلام ، والسعى لرضا الله ورسوله ، من ذلك
قوله مفتخرا بما كان من قومه الدين أمدوا جيش المسلمين يوم حنين بألف فارس
لينصروا رسول الله ، فاصوا المعركة حاملين الراية في أعلا الرمح يدفعون بها في
ميدان القتال فصبغوها بدماء الأعداء (٤) :

نصربا رسول الله بن عصب له بألف كمي لا نمد حواسره
حملا له في عامل الرمح راية يدود بها في حومة الموت ناصر (٥)
ونحن حضنها دما فهو لونها عداة حين يوم صفوان شاحره

وهم حاضوا غمار الحرب في حين حاملين أرواحهم على أكمهم في ثبات وصبر
خلف الصحاك بن سفيان الذى أمره الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم في ذلك اليوم
دون أن يحذروا غضاضة ؛ فهم إنما خرجوا لنصرة الرحمن ودينه (٦) :

(١) الثرات جمع ترة - بالكسر - وهى مصدر ونزه يتره إذا قتل حميمه وللقصود
الثأر ، والرعم - تثنية الراء - الكره والذل ، يقال فعل هذا الشيء على رعمه .

(٢) الديوان ص ١٣٠

(٣) القمدد - بهم فسكون وضم - الجبان ، الخامل يقدم عن المكارم .

(٤) الديوان ص ٥٦

(٥) عامل الرمح أعلاه بما إلى السنان بقليل

(٦) الديوان ص ٥٤ ، ص ٥٥

واذكر بلاء سليم في مواطنها وفي سليم لأهل الفخر مقتنجر
قوم هم نصروا الرحمن وانبعوا دين الرسول وأمر الناس مشنجر
وعن يوم حنين كان مشهدنا للدين عرا وعمد الله مدحر
إذ ركب الموت مخصرا بطائنه والحيل ينجاب عنها ساطع كدر
نحت اللواء مع الصحاك يقدمها كما مشى الليث في غاباته الحدر (١)

ويطل العباس في خرو على هذا النجم، فيكرر إلحاحه على أن قومه ودوا للرسول،
وناصروه، ودافعوا عن دين الله، حتى عر بهم وتحقق النصر بألف الفارس السلمي
الصادقين المحلصين، مثل قوله (٢) :

وأنا مع المهادي إلى محمد وينا ولم يستوفها . مشر الها
فتان صدق من سليم أءرة اطاعوا لما يصون من أمر حرا
بما عز دين الله غـير تسجل وردنا على الحى الذى قعه صمما
عداة وطشا المشركين ولم نجد لأمر رسول الله عدلا ولا صرفا

ولا ريب في أن أثر الإسلام - هما - واضح، حيث حول العباس في نثره من الفخر
الشخصي والفخر القبلي إلى الفخر ناشترا كما هو وقومه في معركة من أخطر معارك
المسلمين، ومساهماتهم في أحداث يوم من أبرز أيام الإسلام الناصلة، دون غرض شخصي،
أو دافع قومي، يوضح ذلك قوله (٣) :

رضا الله نرى لا رضا الناس نبتنى والله ما يسدو جميعا وما يخفى

وقوله مشيدا بقيادة الصحاك بن سفيان السكلابي الذي ولاه الرسول صلى الله عليه
وسلم قيادة بني سليم، ومفتخرا باستجابتهم له، كالأسود تأهبت للمراك طاعة لربهم،
وحبا لرسول الله حسب (٤) .

(١) يقال حدر الأسد لزم عرينه وأقام به .

(٢) الديوان ص ٨٩ ، ٩٠

(٣) الديوان ص ٩٠

(٤) الديوان ص ٩٥ ، ٩٦

— ٢٤٠ —

ثم الذين وفوا بما عاهدتهم جند بعثت عليهم الضحكا
رجلا به ذرب السلاح كأنه لما تكلفه العدو يراكا

* * *

وبو سليم منقون أمامه ضربا وطعما في العدو دراكا
يشون تحت لوائه وكأنهم أسد العرين أردن ثم عراكا
ما يرتجون من القريب قرابة إلا لطاعة ربهم وهواكا

ولأن خير العباس - في الغالب - يدور على خفره بالشجاعة والإقدام في الحرب ،
والتمناى في طاعة الله ورسوله . . . حاء خفره بمترجا بالحاسة ، أو قل إن خفره لون من
ألوان الحاسة ؛ فأنت لا تسكاد تدثر له على ممقبة يفتخر بها غير مناقب الفارس المقاتل .

هذا إلى أن خفره أو حماسه ذلك يكاد يدور حول معركة حنين . . . ويبدو أن
لقرب إسلام العباس وقومه من هذه المعركة أثره في إبرازها في شعره ، وخفره بما كان
من قومه فيها ؛ فهم - إلى ذلك - تكشف عن فرحة كامنة في النفس بالدخول في
الدين الجديد ، ومصاحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولعل في هذا تفسيراً لقوله في
يوم حنين وحده سبع قصائد منها قوله (١) :

جفنا أسد غابات إليهم جنود الله ضاحية أسير (٢)
وأم الجمع جمع بن قبيس على حنق نكاد له نظير
واسم لوهم منكثوا لسرا إليهم بالجنود ولم يعوروا (٣)

* * *

٢ - وإذا كان الفخر من ألزم الصفات للإنسان ، فإن المهجاء - في الغالب - بما
يستلزمه الفخر أو يستدعيه ويتطلبه ، خصوصاً في البيئات البدوية ، وذلك لأن الفخر

(١) الديوان ص ٥٠ ، ٥١

(٢) ضحاً يضحو ؛ برز للشمس .

(٣) غار الماء يغور ؛ ذهب في الأرض وسفل فيها ، والقصود ؛ ولم يفروا .

إنما هو امتداح الإنسان نفسه أو قبيلته ، فهو - كالممدح - في مقابلة المهجاء ، أى أن المهجاء يحتذى الفخر والممدح تماماً ، فإذا كان الفخر - كما قررنا - يختلف باختلاف الشاعر وبيئته وملايساته ، فإن المهجاء - كذلك - يختلف باختلاف بيئات الشاعر وملايساته وثقافته .

والهجاء في شعر العباس بن مرداس يدلّيك عن أنه دمع إليه دفعا ، فلم يكن بطبعه ميالا إلى هذا الفن الشعري ، وإنما هو فيه واقع تحت تأثير بعض أترابه ممن كانوا يثيرون غضبه بما يبدونه نحوه من أحقاد ، وإسبيونه من عنت وضيق ، مثل ابن عمه خفاف بن ندبة ، وعتبة بن الحارث ، وعمرو بن معد يكرب . والشاعر يوضح ذلك بنفسه ويفسر اتجاهه إليه حين يواجه من يلومه في المهجاء بالاستنكار عليهم وذلك في أثناء هجائه سفيان بن عبد ينفوت بقوله^(١) :

الام على المهجاء وكل يوم تلاقيني من الجيران غول

ويلاحظ أنه في هجائه اعتمد على سلب الصفات الخلقية ، والصفات النفسية ، يصف مهجوه بعدم الوفاء ، ونكران الجليل كقوله لسفيان ابن عبد ينفوت^(٢) :

ألا من مبالغ سفيان عفى وظنى أن سيلقه الرسول
ومولاه عطية : أن قبلا حلا منى وأن قد بات قيل
سئتم ربكم وكفرتموه وذلكم بأرضكم جميل
ألا توفي كما أوفى شبيب فحصل له الولاية والشمول

أو يصفه بالقدر ويصمه بالخنا والخيانة ، كما في قوله يهجو عتبة بن الحارث^(٣) :

كثر الضجاج ومامنيت بنادر كعتيبة بن الحارث بن شهاب
جلات حنظلة الخيانة والخنا ودنت آخر هذه الأحقاب^(٤)

(٢١) الديوان ص ١٣٥

(٣) الديوان ص ١٣٦

(٤) الخيانة : الخيانة . والخنا - بالفتح - الفحش في الكلام .

(١٦ - الأدب العربي)

وقد يكون الهجاء في أثناء الفخر ، فيأبى مزيجاً من الهجاء والفخر والحماسة ، كما في قوله يرد على عمرو بن معد يكرب هجاءه ، ويميره بالتخاذل أمامه (١) :

ألا أبلغا عمرا على نأى داره	فقد قلت قولا جاثرا غير مهتد
أنهدى الهجاء لامرئ غير مفحم	وتهدى الوعيد لامرئ غير موعد
فإن تلقى تلقى امرأ قد بلوته	حديثا وإن تفجر على تفند
ألم تعلمن يا عمرو أى لقيتكم	لدى مآقط والحيل لم تتبدد
وما زلت أحمى صحبتى وأذودم	برحى حتى رحت قطر بطردى

إنه فارس حتى في هجائه ؛ فهو عف اللسان ، لا يعيب مهجوه بما تتقذى به الاستماع ، وإنما هو إلى الواصف المقرر أقرب منه إلى الدام الشاتم الذى يتصيد المعاييب ليعم بها من يهجوه ؛ فلا نجد في هجائه فحشا يخدش الحياء ، كما في رده على ابن عمه خفاف ابن نديبة حين هجاه (٢) :

خفاف ما تزال تفجر ذبيلا	إلى الأمر الفارق للرشاد
إذا ما عايتك بنو سليم	ثميت لهم بداهية نآد
وقد علم العاشر من سليم	بأى فيهم حسن الأيادى
فأورد بأخفاف فقد بليتيم	بى عوف بحيسة بطن واد

ولعل أوسع ميادين هجائه تلك المناقضات التى دارت بينه وبين بعض معاصريه ممن كانوا ينافسونه على الزعامة ، كذلك التى كانت بينه وبين خفاف بن نديبة ، فقد هجاه خفاف بقصيدته التى منها (٣) :

يا أيها المهدي لى الشتم ظالما	ولست بأهل - حين أذكرك - للشتم
أبى الشتم أنى سيد وابن سادة	مطاعين فى الهيجا مطاعيم للجرم
هم مسحوا الضرا أباك وطاعنوا	وذاك الذى يرى ذليلا ولا يرى

(١) الديوان ص ٤٧

(٢) الديوان ص ٤٦

(٣) ديوان خفاف ص ٥٩

مأجابه العباس نائضا قوله ، رادا عليه قوله (١) :

ألا أيها المسدى لى الشتم ظالما فبين إذا راميت هضبة من ترمى
أبى الدم عرضى ، إن عرضى طاهر وإنى أبى من أباة ذوى غشم
وإنى من القوم الدين دماؤهم شفاء لطلاب الترات من الرغم (٢)

وكذلك صنع فى مناقضاته مع خوات بن جبير ، وعبد الله بن جندل (٣)

* * *

٣ - وكان إلى جانب هذين الفنين الأصليين فى شعر العباس بنى مرادى شعر فى بعض فنون الشعر التقليدية مثل الرثاء والمدح ، والنزل وشعره فى هذه الفنون قليل .
ويبدو أن ذلك يرجع إلى بيئة الشاعر وطبيعة الفارس فيه ؛ فالبادية بأخلاقياتها تنأى على الشاعر أن يتعلق الآخرين ويتمدحهم ، والهروسية تتمازج مع البكاء على الميت ، وهذه تلك ترى فى المرأة حرما يجب أن يحصى ولا ينزل إلى ميدان القول وحديث اللسان .

من ثم لم يؤثر له شعر فى الرثاء إلا قصيدة رثى فيها أخاه عمار بن مرادى ، وإلا ما يسكى فيه يهود بنى النضير حين أخرجهم الرسول صلى الله عليه وسلم من ديارهم .
وحق هاتين المرتيتين لهما من الملابس ما ينأى بهما عن فن الرثاء .

أما رثاؤه أخاه عمار فلعل الدافع إليه حب العباس إياه ، والظروف التى أحاطت بهقتله ؛ إذ قتل فى حقل صعدة فى بلاد اليمن بعيداً عن موطنه ، إذ كان قد ترك دياره ، وذهب إلى أرض اليمن حيث قتل ، ولقد أشار العباس إلى ذلك فى رثائه الذى قال فيه (٤) :

(١) ديوان العباس ص ١٠٥

(٢) الترات جمع ترة - بالسكسر - مصدر وتره إذا قتل حميه ، والمقصود بالثرة الثأر ، والرغم - بثليث الراء - السكسر والذل .

(٣) لمزيد من التفصيل فى هذا الموضوع راجع للمؤلف (الممارسة فى الأدب العربى)

(٤) الديوان ص ١٣٧ ، ص ١٣٨

أبعد عمار الخير نرجو سلامة وقد بتكت آرابه ومفاصله^(١)
 ولا وضعت عندي حصان فارها ولا ظفرت كفى بقرن أنازله
 لئن لم أزر خولان في عقر دارها بأرعن رجاف تزجى قنابله^(٢)
 وأضفى غليلي من سرة قضاعة وكل صقيل يملأ الكف حامله
 فمن مبلغ عمرو بن عوف رسالة ويملي بن سعد ثؤور يرأسه
 بأني سأرحى الحقل يوما بفارة لها منكب حاب تدوى رلازله^(٣)
 أقام بدار الثور في شر منزل وحلى يياض الحقل يزهر خامله

والناظر في هذه المراثية يجد أنها إلى الحماسة أقرب منها إلى الرثاء، فهو يهدد ويتوعد
 قاتلي أخيه بالنار منهم والانتقام .

فلذا نظرنا في مراثية يهود بن النضير وجدنا فيها مدفوعا بالوفاء لما كان بينه وبينهم
 من علاقات قديمة وصداقات وطيدة ، تلفت فلم يجد أحدا منهم حوله ، فلم يكن له بد من
 أن يملأ أسفه لبعدهم عنه ، في قوله^(٤) :

ولو أن أهل الدار لم يتصدعوا رأيت خلال الدار ملهى وملعبا
 فإنك عمرى هل أريك ظمائنا سلسكن على ركن الشظاة فنيا^(٥)
 عليهم عيين من ظباء تبالاة أوانس يصيبين الحليم المحربا
 إذا جاء باغى الخير قلن وجاءة له بوجوه كاللذنانير : مرحبا
 وأهلا ، ولا ممنوع خير طلبته ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنبا
 فلا تحسبني كنت مولى ابن مشكم سلام ، ولا مولى حي بن أخطبا

* * *

- (١) بتسكة: قطعه والآراب جمع إرب - بكسر الهمزة وسكون الراء - المضروب الكامل :-
 (٢) الجيش الأرعن : العظيم الجرار ، زجى الشيء رجاء أى ساقه ودبه ، وقنايل
 - بفتح القاف - جمع قنبل - بفتح القاف وسكون الدون وفتح الباء - الطائفة من الناس
 ومن الخيل ، قيل هم ما بين الثلاثين إلى الأربعين .
 (٣) المنكب - بفتح فسكون - مجتمع رأس المضد والكشف ، وعريف القوم
 ولله المقصود هنا ، والحاب ، يقال : حاب يحوب حوبا : أتم .
 (٤) الديوان ص ٣٨ (٥) نيأب اسم موضع .

وأما مدحه فلم يعرف له قبل الإسلام سوى مدحه قيس بن عاصم وأبي حليس ،
ولكل من الدحتين من الدوافع ما جعل العباس يتنكب مذهبه ، ويرغم نفسه على
هذا الفن ، وذلك لأن قيس بن عاصم كان من الشخصيات المثالية التي أخذت العباس
بما أثر عنها من كريم الخلال ، وطيب للفعال ؛ فمدحه قيساً قصة ، وذلك أن
رجلاً^(١) من بني القين من قضاة جاور قيس بن عاصم ، فأحسن جواره ولم يرمه
إلا الخير ، فلما فارقه ونزل في جوار جوين الطائي ، أبي عامر بن جوين ، وثب عليه
رجال من طيء فقتلوه وأخذوا ما معه ، فما كان من العباس إلا أن اندفع يمدح قيس
ابن عاصم لحمايته جاره ، ويذم رجال طيء على ما بدر منهم من القدر والحياة
في قوله^(٢) :

لعمري لقد أوفي الجواد ابن عاصم	وأحسن جارا يوم يمدح بكره
أقام عزيزاً مستدى القوم عنده	فلم ير سوءات ولم يخس غدره
أقام بسعد يشرب للماء آمناً	ويأكل وسطاها ويربض بحره

كما أن وراء مدحه أبا الحليس دافعا أقوى ، وذلك أن أبا الحليس قتل خويلد الذي
قتل هريم بن مرداس أبا العباس ، فلم يكن من العباس إلا أن يذكر هذا الصنيع
له ، ويشيد بموقفه ، ويثنى عليه ، ويشكر له إقدامه على الثأر من قاتل أخيه في
قوله^(٣) :

أنا من الأنبا أن ابن مالك	كفى ثائرا من قومه من تقيبا ^(٤)
ويلقاك ما بين الخيس خويلد	أرى عجباً ، بل قتله كان عجباً
فدى لك أحمى إذ ظفرت بقتله	وأقسم أبني عنك أما ولا أبا
فمثلك أدى نصرة القوم عنوة	ومثلك أعياذ السلاح المجربا

(١) انظر الأغاني ج ١٤ ص ٧٢

(٢) الديوان ص ٦١ ، ص ٦٢

(٣) الديوان ص ١١٢

(٤) تنيب في الأمر : لم يبال فيه .

فليس للمدح من طبائع العباس ، ولا التكبسب بالشعر ديدنه . إنما هو يدح على صنائع تشد انتباهه ، وتستحوذ على إعجابه ، فيجد أن من واجبه مدح صانعيها على ما صنعوا ، فهو مدح على خلق ، وليس مدحا لذات المدح .

ولما اعتنق الإسلام ، ووجد نفسه أمام المثل العليا تتحرك ، تحركت مشاعره فياضة ، فاندفع بالثناء الصادق ، والمدح الخالص للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما جاء من هداية ونور كشف للناس السبل وأخذ بأيديهم ، من ذلك قوله (١) :

يا خاتم النبأ إنك مرسل بالحق كل هدى السبل هدا
إن الإله بى عليك محبة فى خلقه ، وعهدا سماكا

وعهد صلى الله عليه وسلم خير البرية ، نشر كتاب الله الذى جاء بالحق ، وأنار بالبرهان العقول فبدد ظلام الجاهلية الدامس (٢) :

رايتك يا خير البرية كلها نشرت كتابا جاء بالحق معلما
ونورت بالبرهان أمرا مدمسا وأطفأت بالبرهان نارا مضرا
وظل العباس يتبع مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلما وقف على منقبة جلاها ، وأبرزها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم محلى فى أداء رسالة ربه بمقل ورشاده كما يقول (٣) :

من مبلغ الأنوام أن عمدا رسول الإله راشد حيث بما
دعا ربه واستمع الله وحده فأصبح قد وفى إليه وأتما

وهو صلى الله عليه وسلم خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب (٤) :
يا خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب إذا تعد الأنفس

ولم يفته فى هذا الصدد أن يقارن بينه صلى الله عليه وسلم وبين سبقه من الأنبياء فقد جاء بالحق الناطق ، وكان أمينا على الفرقان ، وأول شافع ، وآخر مبموت تخاطبه الملائكة (٥) :

(١) الديوان ص ٩٥ (٢) الديوان ص ١٤١ (٣) الديوان ص ١٠١

(٤) الديوان ص ٩٣ ، ص ٩٤ (٥) الديوان ص ١١٦

نى أنانا بعد عيسى بنـاطق من الحق فيه الفصل منه كذلك
أميناً على الفرقان أول شافع وآخر مبعوث يعجب الملائكة

فالمدح فى شعر العباس يمد بحق وليد الحياة الإسلامية ؛ إذ لم يكن قبل الإسلام
حرصاً على مدح واحد بعينه حرصه على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما أثر من
مدحه فى الجاهلية إنما هو مدح على صنائع بخصوصها ، ولولا تلك الصنائع لما سمع له -
فى هذا الفن - صوت .

* * *

وأما غزله فهو - على قلته - غزل تقليدى ، لا يشف عن عاطفة ، ولا يكشف عن
ميل ، وسكل ما أثر من شعره فى ذلك أبيات قليلة جاءت فى مطالع بعض قصائده .
اللهم إلا ثلاثة أبيات جاءت مستقلة ، وفيها يصف المرأة بحسن الطلعة وجمال العينين ،
وأنها شابة مخدومة لا تقوم بشئون نفسها إلا أن تلهو باللعب بالأطفال ، كأنها خليل يعبد
الراحة فيمن يقوم على رعايته (١) :

قليلة لحم الناظرين يزينها شباب وغفوض من العيش يادر
أرادت لتنتاش الرواق ولم تقم إليه ، ولكن طأطأته الولائد (٢)
تناهى إلى لمس الحديث كأنها أخو سقطة قد أسلته العوائد

وما عدا هذه الأبيات الثلاثة مقدمات عزلية يبتدىء بها بعض قصائده لينتقل منها
إلى غرضه ، وفى هذه المقدمات يقف على الأطلال والرسوم ليناجى من عرف من النساء
فيها ويمتها بصفات الحسن والجمال ثم ينتقل إلى غرضه ، مثل قوله (٣) :

لأسماء رسم أصبح اليوم دارسا وأقفر منها رحر حان وراكسا (٤)

(١) الديوان ص ١١٦

(٢) انتاش الشيء تناوله وأخذه ، والرواق بيت كالفساطيحمل على عمود واحد ،
ورواق البيت مقدمه ، ورواق العين حاجبها ، والولائد جمع وليدة مؤنث الوليد .

(٣) الديوان ص ٦٨

(٤) الرحر حان والرواق : الواسع المنبسط .

غنى عسيب لا أرى غير مائل حلاء من الآثار إلا الروامسا (١)
 ليالى سلمى لا أرى مثل دلهما دلالات وأنساب يهبط للمعصم آتسا (٢)
 تضوع منها المسك حق كائنا ترجل بالريحان رطبا ويابسا
 مدعها وإن كان قد أتاها مقادنا لأعدائنا نرجى الثقال السكوداسا (٣)

هالشاعر متأثر ببديته أيما تأثر في توجيهه إلى هذا الفن ، وذلك لأنه في جاهليته فارس بدوى ، له بين قومه من المسكنة والمثلة ما يرتفع به عن تناول المرأة في شعره وانتهاك حرمتها التي يرى أن مركزه مرض عليه حمايتها من أى انتهاك . . . ثم هو في إسلامه مشغول بمبادئ الدين الجديد ، حريص على أن لا يخرج على حدوده وآدابه ؛ حفاظا على مكانته التي عرفه عليها المسلمون ورسولهم صلى الله عليه وسلم ، خصوصا أن العمر قد تقدم به ، فلم يكن مقبولا أن يخوض شيخنا فيما تروى عنه شبابا .

* * *

تلكم هي أبرز فنون الشعر التي أدار العباس بن مرداس شعره عليها ، وهو فيها جميعا يتوسل بالوصف ، فالوصف في شعر العباس وسيلة لا غاية ، ولذلك لم يخص الوصف بالقول ، إنما هو في ثنايا آخره أو محاته أو مدحه يجد نفسه مضطرا لأن يتوسل بالوصف

ومع ذلك فالوصف في شعر العباس مقتضب لا استقصاء فيه ، سطحي لا عمق فيه ، بسيط لا تركيب فيه ، ساذج يقوم على المراثيات المحيطة به وهيئتها المادية ، فالتأثير في شعره يقوم على الحقائق قبل أن يقوم على التخيل والتهويل ، والبساطة في الوصف والتصوير ، ومن أحفل شعره بالوصف ما جاء في قصيدته العينية التي يصور فيها صبر بن سليم تحت

(١) العسيب : الشق في الجبل ، والروامس جمع رامسة ورامس ، والرامس ، من الطير والدواب ما يطير أو ما يخرج في الليل ، والرامسة : الريح التي تثير التراب وتدفن الآثار .

(٢) المعصم جمع أعصم عصما : الحيوان في ذراعية أو إحداهما بياض وسائر أسود أو أحمر .

(٣) السكوداس جمع كادس ، يقال : كدس الخيل إذا ازدحمت في سيرها فركب بعضها بعضا ، والسكداس - بضم الكاف وتخفيف الدال - الحب المحصور المجموع .

قيادة الضحك في مواجهة هوازن يوم حنين ، ومما يقول (١) :

ويوم حنين حين سارت هوازن إلينا وضقت بالنفوس الأضالع
صبرنا مع الضحك لا يستفزنا قراع الأعادي منهم والوقائع
أمام رسول الله يمتفق موقفا لواء كخذروف السحابة لامع (٢)
ندود أخانا عن أخينا ولو ترى مصالا لسكنا الأقربين نتابع
ولكن دين الله دين محمد رضينا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بهد الفضلالة أمر وليس لأمر حمه الله دابع

وماذا يرجى من شاعر هو في جاهليته بدوى لآئمه الحياة وظروها حتى يتأني ويتأمل ويتمق وينظر فيما حوله ويستقصى ما يقع في متناول نظره . . . بل إن الزعامة وواجباتها ، والحروب وأهوالها أتمجعله عن مثل تلك النظرات ، ولولا الفطرة الشاعرة لما تمكن من قول الشعر ، فهو يقول الشعر عن فطرة لم يتمكن من تهذيبها بالصنعة الفنية ثم هو في إسلامه معتز بما يقدم له الإسلام من أخلاقيات ومبادئ ، فهو حريص كل الحرص على أن يعيش في إطار هذا الدين الجديد ، لا يند عن آدابه وأفكاره في كل صغيرة وكبيرة ، فهو يرسم الصدق فيما يقول ؛ ويتوحي الحق فيما يمرض ، في مثل قوله (٣) : يصف ما حل بالمشركين من هلاك ودمار على أيدي جنود الله حين راحوا يحصدون هاماهم ويقطفون أعناقهم بسيوفهم حتى أكثروا فيهم القتل ، فرملوا نساءهم اللاتي لم يجدن إلا الدعاء على من أصاب أزواجهن :

غداة وطئنا المشركين ولم نجد لأمر رسول الله عدلا ولا صرنا
بمترك لا يسمع القوم وسطه لنا رحمة إلا التذامر واللقفا (٤)

(١) الديوان ج ٨١ ؛ ص ٨٢

(٢) الخذروف : كل شيء منتشر من شيء

(٤) الديوان ص ٩٠

(٤) الرجمة : الكلمة ، يقال : لم أسمع له رحمة ؛ والتذامر : الغصب والتوعد ؛ يقال : تدمر تغصب ؛ وتذمر عليه تذكر له وتوعدة ؛ واللقب - بفتح اللون وسكون اللقاف - مصدر لقب ؛ يقال : لقب رأسه نقفا صربه عليها حتى خرج دماغه .

— ٢٥٠ —

بيض تطير الهام من مستقرها ونقط أعناق الحكاة بها قطنا
فلم تركنا من قتل ملحب وأرملة تدعو طي بعلمها لهفا (١)

* * *

والناظر في أساليب الشاعر وألفاظه ، وفي معانيه وأخيلته لا يستطيع أن يغير
ما قرره دنونه الشعرية من قبل ، فهو - كذلك - بدوي حضري ، تتمزج لديه الطبائع
البدوية بالطبائع الحضرية .

تقرأ شعره - وهو الذي لم يفادر البادية إلا للضرورة - فتعجز فيه أمام تلك البهولة
والوضوح التي تنسج بها أكثر ألفاظه ، كما تعجز فيه أمام تلك البساطة القوية التي تبدو
عليها تراكيبه .

ولسكن مع شيء من التروى والتأمل نجد تفسير ذلك قويا واضحا . وذلك لأن
الشاعر - كما عرفنا من نشأته - لم يسلم نفسه للبادية تماما ، فهو لم ينطو على نفسه في
بداوته ، ولم يقبع بين محاريبها وجبالها وطوائفها ، بل كان دائم التنقل والترحال ، -
متخذاً من الساع المرقمة التي يسكنها قومه وسيلة لتلك النجمة الدائمة ، أضف إلى هذا
أن مركزه بين قومه فرض عليه أن يكون على رأس الوفود . من كل مامنه الفرصة
ليخرج من نطاق البادية ، وليتعامل مع غير البدو من سكان المدن والحوضر . هذا
إلى ما كانت تتمتع به بادية بني سليم - على امتدادها - من قرب إلى الحواضر المدنية
شمالا وجنوبا ، إذ كانت تمتد في غرب الجزيرة من الجنوب إلى الشمال بامتداد الحرة
المتدة من قرب عشيرة إلى قرب مدينة يثرب ، وأوديتها الشرقية مساحة في عالية نجد
حتى حمى الربداء الواقع غربي حمى ضربة : وتمتد بلادهم جنوبا حتى تشمل منهل الدفينة .

فلما كان الإسلام وأقبل على الدين الجديد ، وشرف بصحبة الرسول صلى الله عليه

(١) لحب الشيء - بالتضمين - أثر فيه بالضرب أو القطع ونحوه ، والهمف :
الحزن والأسى .

وسلم حتى روى عنه بعض الحديث . . اجتمع إليه كل أسباب اللينة والسهولة ليكسوها ما طبع عليه من أخلاقيات البادية ثم الإسلام .

ولقد تميز الإسلام بالظهور في ألفاظه ، ليس بالسهولة والبسر محسوب ، بل بالمصطلحات والألفاظ الإسلامية ، فقد احتوى شعره على طائفة ليست بالقليلة من تلك المصطلحات والألفاظ ، مثل (دين الله ، والهدى ، والشرائع) في قوله (١) :

ولكن دين الله دين محمد رضينا به فيه الهدى والشرائع
ومثل (جنود الله) في قوله (٢) :

فجئنا أسد غابات إليهم جنود الله ضاحية تسير
ومثل (رسول الله) في قوله (٣) :

بذي لجب رسول الله فيهم كتيبتة تعرض للضراب
ومثل (الإسلام) في قوله (٤) :

فإن يهدوا إلى الإسلام يلقوا أنوف للناس ما سمر للسمير
ومثل (الشرك) في قوله (٥) .

الضاريون جنود للشرك ضاحية يبطن مكة والأرواح تبتدر
ومثل (المؤمنون) في قوله (٦) :

كانوا أمام المؤمنين دريئة والشمس يومئذ عليهم اشمس
ومثل (الكفار) في قوله (٧) :

فإن تبتنى الكفار غير ملومة فإن وزير للنبي وتابع

-
- | | | |
|------------------|------------------|------------------|
| (١) الديوان ص ٨٢ | (٢) الديوان ص ٥٠ | (٣) الديوان ص ٣٤ |
| (٤) الديوان ص ٥٢ | (٥) الديوان ص ٥٥ | (٦) الديوان ص ٧٤ |
| (٧) الديوان ص ٨٠ | | |

- ٢٥٢ -

ومثل (المدل والصرف) في قوله (١) :

غداة وطئنا المشركين ولم نجد لأمير رسول الله عدلا ولا صرفا

إلى غير ذلك من الألفاظ القرآنية والمصطلحات الإسلامية التي صيغ بها شعره ، فأصبح مميزا آتم التميز عن شعره في الجاهلية ، وإن اسمح في الجاهلية والإسلام بسمة السهولة والوضوح والبساطة .

فإذا وجهها النظر إلى معاني الشعر عند العباس وجدناه - خاضعا لبيئته - يمتاز بالصدق والصراحة والوضوح ، إلى جانب البساطة والقرب والإيجاز ، مع الاختلاف البين بين معانيه الجاهلية والإسلامية ، وذلك لأن الشاعر الصادق - على وجه العموم - يستجيب في معانيه لما تضطرب به مشاعره ، وما تفيض به أحاسيسه ، دون تكلف أو تصنع .

ففي شعره الجاهلي تبرز المعاني الجاهلية ليقدم من خلالها الشاعر أفكاره ، من ذلك أنه حين أراد الاختيار بقومه وإظهار عزمهم ومنعتهم ، قدم ذلك من خلال معنى جاهلي معروف ، حيث وصفهم بالظلم في قوله (٢) :

أبي الدم عرضي إن عرضي طاهر وإن أبي من أباة ذوى غشم

وكما كانوا في الجاهلية يفتخرون بالأصول والأنساب ، افتخر العباس كذلك ، حين فاخر عمرو بن معد يكرب في قوله (٣) :

وإن تك من سعد العشيرة تلفني إلى الفرع من قيس بن عيلان مولدى
إلى مضر الحمراء تنمى جدودنا وأحسابنا ومجدنا غير قعدد

أما في شعره الإسلامي فأفكاره ومعانيه إسلامية خالصة ، حتى يحيل إليك أنه غسل

(٢) الديوان ص ١٠٥

(١) الديوان ص ٩٠

(٣) الديوان ص ١١٩

— ٢٥٣ —

نفسه تماما من كل ما هو جاهل الأمر الذى يلات النظر ؛ إذ كيف يتأتى لشاعر أن
يفصل نفسه - هكذا - تماما عن مرحلة النشأة والتكوين الفنى .

فالمعصر فى الحرب ليس بالقوة والشجاعة ، وإنما هو بحراسة الله ونصره فى
مثل قوله (١) :

فمضى ويحرسنا الإله بحفظه والله ليس بضائع من يحرس
والجهد والكفاح مع ما يلاقى من عنف وإرهاق ، هو لإرضاء الله ليس غير ،
والله وحده يعلم خفايا النفوس وظواهرها ، كما فى قوله (٢) :

رضا الله نوى لارضا الناس نبتى والله مايسدو جميعا وما يخفى
إلى غير ذلك مما يتلى به شعره . وهكذا تغير تصور الشاعر بإسلامه ، فأصبحت
مرائيه غير مرائيه فى الجاهلية .

* * *

وإذا وجهنا النظر إلى خيالاته وصوره وجدنا البيئة البدوية - بكونياتها وحيواناتها.
وظواهرها الطبيعية - ماثلة تماما فى شعره . فالحيل إذا اندمجت فى الحرب بقوة ، وأراد
لتصويرها ، لجأ إلى مرائيه المتكررة فى هذه البيئة فانتقى منها ما يقرب الصورة ويوضحها ،
فلم يجد سوى السيل العرمم الذى لا يكاد ينسب عن ناظر بدوى مثله ، وذلك قوله فى
تشبيهه الجنود مندعين بعنف فرسانا ورجاله (٣) :

على الحيل مشدودا علينا دروعنا ورجلا كدفاع الأتى عرمرما (٤)

والجيش إذا كثر جنوده ، وكشف عتاده ، وأصبح يتراجع فى حركته يشبه

(١) الديوان ص ٩٠

(٢) الديوان ص ٩٠

(٣) الديوان ص ١٠١

(٤) الرجل - بفتح وسكون - الماشى على رجله ، والآف - بتصغير الياء ، السيل
يأتى من بعيد ، والعرمم : الشديد

- أنجموم المتلاثلة في السماء ، يراها الناظر ولا يحيط بها حصرا ولا عدا ، وذلك في قوله (١) :

ورجاجة مثل لون النجوم م ، لا العزل فيها ولا الحسر

واللواء الخافق الذي تهفو إليه الأفئدة ، وتنطلق إليه النفوس يشبه طرف السحابة المنتشر في الفضاء في شدة الأنظار ، وتمسكه منها ، كما في قوله يشبه لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين (٢) :

أمام رسول الله يخفق قوقنا - لواء كخذروف السحابة لامع (٣)

والسيوف القوامع في أيدي الجمود تشبه السحاب البارق المتلألئ خلال الظلام الحالك ، كما في قوله (٤) :

ندية سكم والموت ينفى سرادقا عليكم شياحد السيوف البواتك
تموج بأبدينا كما لاح بارق تلالاً في داج من الليل حالك

وإلى جانب مشاهد الطبيعة البدوية ، نرى حيواناتها وطيورها يستمد منها الشاعر أحيائه وصوره ، فجنود المسلمين يوم حنين يشبهون الأسود (٥) :

فكنا أسد لية ، ثم حق أبجناها وأسابت النصور

وبنو معاوية بن بكر أمام الإسلام يشبهون الأعنام في قوله (٦) :

كأن بني معاوية بن بكر إلى الإسلام ضائنة تخور
والخيل في الحركة تشبه المعبان في قوله (٧) :

إلا سواج كالمعبان مقربة في دائرة حولها الأخطار والمكر

(١) الديوان ص ٦٥ (٢) الديوان ص ٨١

(٣) الخذروف : كل شيء منتشر من شيء .

(٤) الديوان ص ٢٣١ (٥) الديوان ص ٥١

(٦) الديوان ص ٥٢ (٧) الديوان ص ٥٤

— ٢٥٥ —

واللواء في المركبة يشبه العقاب الذي يحلق في السماء ثم ينقض على فريسته فيخطفها،
مثل قوله (١) :

بمسكة إذ جئنا كأن لواءنا عقاب أرادت بعد تحليقها خطفا
لي غير ذلك من الصور المستزعة من البيئة البدوية التي آثرها الشاعر على الحاضرة
حتى بعد إسلامه ، وانتقاله إلى البصرة على عهد عمر بن الخطاب على ما سبقت
الإشارة إليه .

(٥)

حسان بن ثابت

نشأته وحياته :

حسان بن ثابت بن للنذر بن حرام الخزرجي ، من بني البجار من قبيلة الخزرج ، ولد بالمدينة ، ونشأ في بيت شرف وجاه . ويكاد يجتمع المؤرخون على أنه عاش مائة وعشرين عاماً نصفها في الجاهلية^(١) . نشأ بين قومه ، وعاش في مجتمع يثرب الذي يضم الأوس والخزرج واليهود ، والذي كان يئن من الحروب المتصلة بين الأوس والخزرج ، بتأثير اليهود وإدخالهم نار الفتنة بينهم ، حتى تتمكن قبصتهم من السيطرة على مصائر الأمور فيها ، فكان لسان قومه المدافع عنهم في تلك الحروب ، وكان في مواجهته الشعراء الأوسيان : أبو القيس بن الأسات ، وقيس بن الخطيم^(٢) . اتصل في الجاهلية بالنساسة ومدحهم ، وكان يتردد عليهم ، وقيل إنه اتصل ببلاط الحيرة ، وحل محل الدابة حين كان على خلاف مع النعمان بن المنذر . ولما أسلم بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم أصبح شاعر الإسلام ، الذي يدافع عن النبي وعن المسلمين ، ويقتنع قريشاً بهجائه اللاذع ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحثه على هجائهم ويدعوه ، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اجههم وجبريل معك^(٣) » . وقد نال منزلة رفيعة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يقسم له في الثنائيم ، وأهداه نستاناً ، كما أهداه سيرين أخت مارية القبطية ، فأعجب منها ابنه عبد الرحمن ، واستمر الخلفاء من بعده صلى الله عليه وسلم على تقديره وإجلاله ، حتى مات في خلافة معاوية ، بعد أن كلف بصره .

شعره :

الناظر في شعر حسان يرى أنه قسمان متميزان ، أحدهما تسرى فيه روح

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٣٤ وما بعدها ، والشعر والشعراء ج ١ ص ٣٠٥ وما بعدها .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٥ وما بعدها . (٣) الأغاني ج ٤ ص ١٣٨ وما بعدها .

الجاهلية بقيها وأحداثها ، وثالثاً تسرى فيه روح الإسلام بمثلها وقيمه وأخلاقياته وأحداثه

قال ابن سلام : حسان أشعر شعراء القرى الخمسة ، وهو كثير الشعر جيدة ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تماضت قريش واستبقت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لانتقى (١) ، وكان للشعر للوضوح أثره في ضعف شعر حسان الإسلامى ، فهو لا يمثله تماماً ، حتى ظن الأصمعى أن إسلام حسان كان من أسباب ضعفه ، وقال : الشعر نكسك بابه الشعر ، وإذا دخل في الخير ضعف ، هذا حسان بن ثابت دخل من فحول الجاهلية ، ولما جاء الإسلام سقط شعره وقال : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه في الإسلام ، لحال الذى صلى الله عليه وسلم (٢) ، والحقيقة - فيما أرى - أن الذى أضعفه هو ما أدخل عليه مما رواه ابن إسحاق في التنازى ، بل لقد اختلط الأمر على الرواة فنسبوا إلى حسان ما قاله غيره ، كما نسبوا إليهم ما قاله حسان (٣) ، أصب إلى هذا ما فعلته الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان رضى الله عنه في نفوس المتحزبين ، فقد عمل الأمويون على إثارة المسلمين ضد على رضى الله عنه ، فضعفوا شعرا في مدح عثمان على لسان حسان شاعر الرسول ، كما حملت عليه أشعار في مدح الربيع بن العوام ، وعبد الله بن عباس .

وأيا ما كان الأمر فبما وصلنا من شعر حسان قصائد جاهلية وأخرى إسلامية وثقها الرواة ، تكشف عن اتجاهات حسان وشاعريته من ذلك ميمته التى يفخر فيها بقومه ومآثرهم ، والى عرصها على النابغة في سوق عكاظ ، ومطلها :

ألم تسأل الربع الجديد التسكما بمدح أشداخ فبرقة الظلما
وفيهما يقول :

لما حاضـر نعم ونام كأنه شتار يخ رصى عزة وتكرما

(١) تماضوا : روى بعضهم بعضاً بالاضحية وهى الإيك والشتيمة . طائفة تحول للشعراء ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٣٠٥

(٣) راجع السيرة النبوية لابن هشام وقارن بالديوان .

(١٧ - الأدب العربى)

مق ما تزنا من معد بعصبية وغسان نزع حوضنا أن يهدما
بسكل فتي عارى الأشاجع لاهه قراع الككاة يرشح للسك والهدما
لنا الجففات الفريلمن بالضحى وأسياما يقطرن من نجوة دما
أبي فملنا المرووب أن نطق الحما وقائلنا بالعرف إلا تكلما

وكان لحسان دور فعال في الصراع الدائر بين الأوس والخزرج قبل الإسلام فقد شارك بشعره في هذا الميدان ، حيث شبت نار المناقضات بين شعراء القبيلتين . من ذلك ما قاله في الغضر حين اهرمت الأوس أمام الخزرج في يوم الربيع بعد قتال عنيف كاد يفنيهم ، وكان حريصا أن يبدأ قصيدته بمطلع يتفوز فيه بليلى بنت الخطيم الأوسية ، وذلك قوله :

لقد هاج نفسك أشجانها وعاودها اليوم أديانها^(١)
تذكرت ليلى أي بها إذا قطعت منك أقرانها
وحجل في الدار غربانها وخف من الدار سكانها
وغيرها معصرات الرياح وسح الجنوب وتهانها
مهاة من العين تمشي بها وتقيها ثم غزلانها
وقفت عليها نساءلها وقد ظعن الحى : ما شأنها ؟
فميت وجاربي دونها بما راع قلبى أدوانها

ولما اعتق الإسلام أحلص نفسه للدفاع عنه ، فكان الجندى النهاب بشعره لسكل معركة ، ووقف مع عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك للرد على شعراء المشركين في هجائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثال عبد الله ابن الزبيرى ، وأبوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمر بن العاص . كما تراه في همزته التي يهجو فيها أباسفيان بن الحارث ، ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها يقول :

ألا أبلغ أباسفيان عفى فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركتك عبدا وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أنهجو له ولست له بكفاء مشركا خيركا الفداء

(١) أديانها جمع دين : الداء والمراد الحب القديم .

هجوت مباركا برا حنيفا أمسين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
إن أبي ووالده وعرضي لمرض محمد منكم وقاء

ولما يسكى عبد الله بن الزبيرى قنلى قريش فى معركة بدر بميميته التى يقول فى
مطامها :

ماذا طى بدر وماذا حوله من فتية يمس الوجوه كرام
أجابه حسان بن ثابت ناقضا عليه قوله بقصيدة ميمية طى الوزن نفسه والفاقية ،
سحاء فيها :

ابك بكت عيناك ، ثم تبادرت بدم يهل غروبها سبجام
ماذا بكيت به الدين تتابعوا هلا ذكرت مكارم الأرقام
وذكرت منا ماجدا ذاهمة سمح الخلائق صادق الأقدام
أعنى السبي أحا المكارم والندى وأبر من يولى طى الأقسام
ولمثلة ولمثل ما يدعوله كان الممدح ثم غير كهام

ولما قال ابن هبيرة قصيدته الهائية فى انتصار قريش على المسلمين فى أحد ، أجابه
حسان ، يقض قوله ، وإسغه رأيه وآراء من اتبعوه على حرب الله ورسوله ولا طاقة
لهم بذلك ، فالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه جند الله ، والمشركون أعداء الله ،
وسوف يخزى الله أعداءه بأيدي حموده . . . ثم ينهى قصيدته بالحديث عن مكارم
الرسول وأصحابه ، ومنتهم على قريش فى إطلاقهم أسرى بدر ، وفيها يقول :

سقتم كسابة جهلا من سفاهتكم إلى الرسول لجند الله مخزينا
أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتل لاقيا
جمعتموهم أحابشا بلا حسب أئمة الكفر عرتكم طواغيا
ألا اعتبرتم بحيل الله إدقنات أهل القلب ومن ألقينه فيها
كم من أسير مكسكاه بلا ثمن وجز ناصية كسا مواليا

ولما بكى كعب بن الأشرف اليهودى قنلى بدر فى عيليته التى قال فيها :
طحنن رجا بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل الأدمع

أجابه حسان بقوله :

أبكي لكب ثم طي بعبرة	منه وعاش مجدعا لا يسمع
ولقد رأيت ببطن بدر منهم	قتلى تسح لها الميون وتدمع
فأبكي فقد أبكيت عبدا راضعا	شبه السكيب إلى الكليمة يجمع
ولقد شفا الرحمن منا سيذا	وأهان قويا فأنلوه وصرعوا
ونجنا وأملت منهم من قلبه	شعف يظل أخوه يتصدع

ولما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد تميم سمة الوفود - بعد فتح مكة -
وفيه عطارد بن حاجب بن زرارة قام اليرقان بن بدر فقال قصيدة يفخر فيها بقومه
منها قوله :

نحن الكرام ، فلاحى يعادلنا مما الملوك ، وفيما يقسم الربع
وكان حسان غائبا فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء وسع ما قاله
اليرقان قال عينية يمارضه بها ، وفيها يقول :

إن الدوائب من فخر وإخوتهم	قد يبدوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريره	تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
نوم إذا حاربوا صرخوا عدوهم	أو حاولوا النفع في أشياءهم ففعلوا
فإن في حربهم فأنرك عداوتهم	شرا يحاض عليه السم والسم
أكرم يقوم رسول الله شيعتهم	إذا تماوت الأهواء والشيع

وفي هذه القصيدة يظهر مدى تأثير حسان بالدين الجديد ، إذ نثر بالرسول وبما
أتى من أمور الدين التي يجب على كل ذي عقل أن يدين بها ويتبعه فيها .

ومن إسلاميات حسان التي يظهر فيها تأثره بالفكر الإسلامي ، دليته التي
يقول فيها :

وقد زعمتم بأن تعموا ذماركم	دماء بدر زعنم غير مورود
وقد وردنا ولم نسمع لقولكم	حق شربا رواء غير تصريد
مستمعين بحبل الله غير منجدم	مستحكم من حبال الله محدود
فيما الرسول وفيما الحق تتبعه	حق المات ولصر غير محدود

واف وماض شهاب يستضاء به بدر أنار على كل الأماجد

وهكذا واصل حسان بن ثابت رحلته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى الإسلام ، يتصدى لكل عدو ، حتى إذا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء ربه ، وقف حسان يبيكه ، وما قاله في ذلك دلقته التي يقول فيها مصورا حزنه والله لفراق الرسول :

ما نال عينك لأنام كأنما	كعلت مآقيا بكحل الأرمد
جزعا على المهدي أصبح ثاويا	يا حير من وطىء الحمى لاتبعد
وجهى يقبك الترب ، لهفى ليتنى	غيبت قبلك فى بقيق الغرقد
بأبى وأمى من شهدت وفاته	فى يوم الاثنيى النى المهدي
مظلت بهـ مد وفاته متبليا	متلدا ياليتنى لم أولد ^(١)
أقيم بمدك بالمدينة يدهم ؟	ياليتنى صبحت سم الاسود ^(٢)
أوحل أمر الله فينا عاجلا	فى روحة من يومنا أو فى عد
فقوم ساعتنا ، فنلقى طيبا	محضا ضرائب ، كريم المحتد ^(٣)

ومن يقارن بين شعر حسان فى الجاهلية وشعره فى الإسلام يجزم بأن قائل هذا شعر ذاك ، ولولا الصياغة اللفظية لما كان بين الشعرين أدنى صلة . وهذا يدل على مدى قائل الشاعر بالإسلام ، فقد تحول به إلى إنسان آخر يختلف تماما عنه قبل الإسلام .

بيد أن الناظر فى شعر حسان قبل الإسلام وبمده يلاحظ . أن أثر البيئة الحضرية الحسية والفكرية والدينية - يتضح فى جرالة الفاظه وسهولتها ، وفى إحكام عباراته ودقتها ، كما يتضح فى معانيه التى تكشف عن بيئته الحضريتين فى ثرب وجوار الغساسنة من جهة ، وفى ظل الإسلام ومكره وعقائده ومبادئه من جهة أخرى .

(١) للتبلى : من أدركته الحيرة . ومثله المتلدد .

(٢) صبحت : سقيت صبحا (٣) الضريبة : الطبيعة والسجعية ، والمحتد : الأصل

(٦) كعب بن زهير

نشأته وحياته :

كعب بن زهير بن أبي سلمى ؛ أحد حلقات السلسلة الممتدة من شعراء بيت زهير - كما أشرنا من قبل - نشأ في بيت يكتنفه الشعر من كل جانب ، لقنه أبوه الشعر ، فكان هو وأخوه بجير من رواة أبيهما زهير . ويدكر الرواة أن زهيراً كان يخرج بابنه كعب إلى الصحراء ، فيلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يحيزه ، إندرىباً له وتقريناً على صوغ الشعر (١) . وقد ولد في خطفان قبل مجيء الإسلام ، ولم ينقض العصر الجاهلي إلا وله من الشهرة والسكينة في الشعر ما جعل الحطيئة زميله يقول له : قد علمت روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضفي موضعاً بمدك ، وإن الناس لأشعاركم أروى ، وإليها أسرع (٢) .

أدرك الإسلام كما أدركه بجير أخوه ، والحطيئة وكان بجير أسبقهم إلى الإسلام ، فهجاء كعب هجاء تألم له رسول الله ، فتوعدده وأهدر دمه ، من ذلك قوله :

ألا أبلغنا عنى بجيراً رسالة	فهل لك فيما قلت - ويحك - هل لك
شربت مع المأمون كأساً روية	فأنهك المأمون منها وعلمك
وخالفت أسباب الهدى وتبعته	على أى شيء - ويب غيرك - ذلك
على خلق لم تلف أما ولا أبا	عليه ، ولم تدرك عليه أخاً لك

بمعت إليه بجير محذراً ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم متذكراً ، فيبدأ بأبي بكر ، فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بهامته ،

- (١) أنظر الأغانى ج ١٥ ص ١٤١ طبع الساسى ، وأمالى المرتضى ج ١ ص ٩٧ طبع المحلى ، ومقدمة ديوان كعب طبع دار الكتب المصرية .
- (٢) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٠٤ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٦ ، والأغانى ج ٢ ص ١٦٥ ، ص ١٦٦ طبعة دار الكتب .

فقال . يا رسول الله هذا رجل يبائلك على الإسلام ، فبسط اليى صلى الله عليه وسلم يده ، فحسركب عن وجهه ، وقال هـذا مقام الماندى بك يا رسول الله ، أنا كمب بن زهير . وآمنه صلى الله عليه وسلم ، واستلشده^(١) ، فقال لاميته المشهورة معتذرا عما بدر منه ، ومادحا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به ، ومن حوله من صحابته ، ومطلمها^(٢) :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متم إثرها لم يفسد مكبول

وبها يقول :

أبثت أن رسول الله أوعدنى	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك ناهله لا	قرآن فيما مواعيط وتفصيل
لاتأخذنى بأقوال الوشاة ولم	أذنب ولو كثرت عى الأقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به	أرى وأسمع مالم يسمع القليل
لظل يبعد إلا أن يكون له	من الرسول بإذن الله تنزيل
حق وضعت عيى لا أنازعه	فى كف ذى نقات قبلة القليل
إن الرسول لـور يستضاء به	مهند من سيوف الله مـلول ^(٣)
فى عصبة من قریش قال قائلهم	يعطن مكة لما أسلموا : رولوا ^(٤)
زالوا ، مارال أنكاس ولا كشف	عد اللقاء ، ولاميل معاريل ^(٥)
شم المرانين أطلال ، لبوسهم	من نسج داود فى الهيىعاسرايل ^(٦)

والاظر فى هذه القصيدة يرى شاعرية كمب وتفننه فى الانتقالات ، ودقة التصوير،

(١) الشمر والشعراء ج ١ ص ١٥٤ ، وابن سلام ج ١ ص ٩٩

(٢) الديوان ص ٦ وما بعدها طبع دار الـكتب المصرية .

(٣) المهند : السيف المصنوع من حديد الهند ، وهو أفضل السيوف .

(٤) رولوا : انتقلوا ، يعى : هاجروا .

(٥) الانكاس جمع نكس : المصيف ، والكشف جمع أ كشف : من لآرس له ،

الميل جمع أميل : من لا يحسن الركوب ، معازيل جمع معرول : من لاسلاح له .

(٦) المرانين جمع عرنين : الأنف ، والشم : حدة فى طرف الأنف . مع كشمير .

وحسن العرض ، لكنه مع كل ذلك جاهل في كل ما قدم ، سواء في مطالعة النزلى ،
أو في مديحه للرسول صلى الله عليه وسلم وللمهاجرين ، بحيث تسكاد لائتم رائحة الدين
الجديد ، وهذا دليل صدق الشاعر ، إذ لم يعرف بعد عن الإسلام شيئاً ، وإذا مزج
الإسلام نفسه ، صدر في شعره عن قيمه وأفكاره ، مثل قوله :

أعلم أنى مقى ما يأتى قدرى	ليس بحبسه شح ولا شفق ^(١)
بيد الفق معجب بالعيش منتبط	إذا الفق لناها مسلم غلق ^(٢)
والمرء والمال ينمى ثم يذهب	مر الدهور ويفنيه فيمسق
فلا تحاى علينا الفقر وانتطرى	ضل الذى بالى من عنده ثق
إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا	ومن سوانا ولنا نحن نرتق

ومثل قوله :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبى	سمى الفق وهو غبوء له للقدر
يسمى الفق لأمر ليس يدركها	والنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش محدود له أمل	لأنتهى العين حق يلتهى الأثر

ومن يردد نظره في ديوانه يدرك الفارق الكبير بين كعب الجاهل في خلقه
وسلوكه ، وبين كعب المسلم الزاهد المتسامح الذى برد طي هاء من هاء ، بالحكم
والمواظ ، طالبا منه مقابلة صفح ، عنه بالسكوت ، حتى لا يخرج عما الترمه من آداب .
مثل قوله^(٣) :

إن كنت لا ترهب ذى لما	تعرف من صفح عن الجاهل
فاخش سكوتى إذ أنا منعت	بيك لمسمع خبا القائل

(١) الشفق : الخوف .

(٢) العلق بفنح وكسر . المستحق ، يقال : علق الرهن إذا استحق .

(٣) حزانة الأدب ج ٤ ص ١٢ ، والحيوان ج ١ ص ١٥

— ٢٦٥ —

فالسامع الدام شريك له ومطعم المأكل كالأكل
مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل

ولقد كان كعب أحد الفحول المقدمين في الجاهلية والإسلام ، إذ كان في
شعره الفنان الأصيل الصادق ، المدقيق الحس ، الرائع التصوير ، الذي يملك أزمة البيان ،
غيوجه أنى شاء .

الفصل الثاني

فنون الشعر الحضري

في حديثنا عن فنون الشعر البدوي قررنا - من واقع الحياة العربية البدوية - أن شعر البادية كان استجابة صادقة لما أملتته البادية على أبنائها من اتجاهات فنية ، وقيم خلقية وسلوكية . وكذلك كان الحال في الشعر الحضري ؛ فقد تطلبت الحاضرة من الشعراء تنازلات عن بعض القيم البدوية فلم يجدوا مناصا من الاستجابة إليها ليحققوا لأنفسهم التلاؤم مع ما يجد عليهم من أخلاقيات .

وفي مقدمة هذه التنازلات استبدال الدعوة إلى السلام بالدعوة إلى الحرب والحض عليها ، والتحميس لها ، أو على أقل تقدير السكوت عن الحرب وما يتصل بها

وتحول الشاعر من مدح القيم والأفعال إلى مدح الأشخاص لدوائهم سمياً وراء كسب ، وطلب الجزيل عطاء .

وتهالك الشاعر في سبيل الحصول على الأعطيات والجوائز بالتفنن في الاعتذار على اختلاف أساليبه واتجاهاته وممانيه .

واستبدال للتمع بالبادية بالشاعر ، مما دمه إلى تعرية الراء وتجريدها بما يسترها في جراءة ، لتبدو للأعين مظاهر جاذبيتها وإغرائها ، وإلى الحديث عن الخمر ووصف آثارها على شاربيها ، وتبجح بحالها ودنانها وكثوسها بالوصف المستقصى

اتخاذ للشعر سلاحاً من أسلحة الدعوة الدينية ، ووسيلة من وسائل الوعظ ، يصل بها الشاعر إلى نفوس سامعية ، يقرر العقيدة ، ويوضح الفكرة ، ويدفع الخصم المهاجم بنقض هجائه ، ويبيكى قتلى الحروب الناشبة بين الداعين إلى الدين وخصومهم .

متحقق من ذلك الشعر أغراض جديدة وأخرى مطورة عدلت لتناسب مع البيئة الحضرية .

— ٢٦٧ —

ومن ثم أمكن أن نحصر فنون الشعر الحضرى فى فنون ثمانية هى : المدح ،
والهجاء ، والاعتذار ، والفخر ، والفزل ، والديليات ، والمواعظ ، والرثاء ،
والوصف .

ولا ريب فى أن أثر الحضر يختلف فى ذلك من شاعر إلى شاعر ، وفقا لمدافعه
الفنية ، وطيبة الحضارة التى تكتنفه .

(١)

للمدح :

كان من المدح من أبرز فنون الشعر الحضرى ، ولقد اتجه شعراء العصر بهذا الفن متباينى الدواعى فانشعب الطريق بهم فى المعانى والصور بما يتناسب مع الصفات التى يمدح بها . فبينما نجد النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر ، ويمتدح إشعاعه على الصفات التى يحمدها فيه من كرم وجود فى قوله :

الواهب المائة المكاء زينها	سمدان توضع فى أوبارها اللبد ^(١)
والآدم قد خيست فتلا مرافقها	مشدودة إر حال الحيرة الجدد ^(٢)
والرا كصات ذبول الریط فانقها	برد المواجر كالغزلان بالجرد ^(٣)
والخيل تمزغ غربا فى أعنتها	كالطير تنجومن الشؤب بذى البرد ^(٤)

ونسمع صوت حجر بن خالد يمدح النعمان - كذلك - مركزا على كرمه وجوده ، فى قوله :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد	كفعل أبى قابوس جزما وناثلا
يساق النعام النمر من كل بلدة	إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فإن أنت تهلك يهلك الباع والذى	ونضحى فلوصل الحمد جرباء حائل ^(٥)

(١) المكاء - بكسر الميم - الغلاظ القوية ، ويريد الإبل ، وتوضع : موضع ، والسمدان - بفتح السين - صراع ، اللبد : ما تلبس من الشعر .

(٢) الآدم - بضم فسكون - النوق البيض ، حيدت - بضم الخاء وكسر الياء المضمة - ذلت ، فتلا - بضم الفاء - كناية عن قوة خلقها ومتانتها .

(٣) الرا كصات : الساحبات ، الریط : ثوب طويل ، فانقها : نعمها ، الجرد - بفتح الجيم والراء - موضع .

(٤) تمزغ غربا : تسح سحبا شديدا ، الشؤبوب : السحاب أو دومات مطره .

(٥) الباع : الشرف ، والذى : السكرم ، والقولص : النافذة الشابة ، والحائل ، أى

حمل عليها الفحل فلم تلمح

فلا ملك ما يباغضك سعيه ولا سؤة ما يمدحك باطلا
نجد العباس بن مرداس قبل الإسلام مادحا بدويا ، فلا نعت له إلا على مدحتين
إحداهما يمدح فيها قيس بن عاصم ، ويمدح في الثانية أبا الحليس ، وهما مدحتان على
مواقف وأحلاق .

ونجده في ظلال الإسلام يتجه بمدحه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيركز
مدائح على ما جاء به من هداية ونور كشف للناس السبل وأخذ بأيديهم كافي قوله :
ني أنا ما بمد عيسى بما طق من الحق فيه الفصل منه كدلسكا
أميناً على الفرقان أول شافع وآخر مبعوث يجيب الملائكا

فالشاعر إنما يمدح فيه صلى الله عليه وسلم ما جاء به من الحق ، وأمانته على القرآن ،
وشفاخته المأمولة وكان ذلك تمهيدا للشعر المدائح النبوية ، فقد كان مدح الرسول صلى
الله عليه وسلم أحد مظاهر الحرب الدائرة بين المشركين والمسلمين ؛ إذ كان المشركون
يعتمدون على مهاجمة الرسول وهجائه .

أما مدح غير الرسول صلى الله عليه وسلم فكان في الغالب موجهاً إلى جماعات ،
لا إلى أفراد ، من ذلك ما قاله كعب بن زهير في مدح الأنصار استجابة لرعبته صلى الله
عليه وسلم حين غضبوا لتعريضهم في لاميته الاعتذارية ؛ وذكر بلاءهم مع الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وإخلاصهم في الدعوة والدفاع عنها :

من سره كرم الحياة فلا يرل	في مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا المسكارم كابرا عن كابر	إن الخيسار هم بنو الأحيار
والبائعين نفوسهم لبئهم	للموت يوم تعانق وكرار
يتعلمون ، يرونه نسكا لهم	بدماء من علقوا من الكفار

(٢)

الهجاء :

عرفنا - فيما تقدم - أن الهجاء سلب المحامد عن المهجو .

كما عرفنا أن شعراء الجاهلية البدو لم يوردوا قصيدة بالهجاء، وإنما كانوا يقتاتون لونه في سياق الفخر، أو كانوا يمججون بين الهجاء والفخر، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن هجاء خصم يستلزم الفخر عليه بالانصاف بما يسلب عنه من المحامد، فهو لون من اللقابلة والمطابقة .

والناظر في شعر الحضر - على اختلاف اتجاهاته - يلاحظ أن طائفة من شعراء الحضر لم يشدوا عن المنهج البدوي في فن الهجاء، وهو يأتي في طوايا الفخر، ويحرص فيه الشاعر على التلطف والتحفظ، دون إهحاش أو إقذاع، على نحو ما رأينا في شعر النابتة من هجاء وشعر دار به حول قبيلته وما كان بينها وبين بني أسد من تحالف، وما كان بينها وبين بني عامر من حروب . من ذلك قوله :

إن يك عامر قد قال جهلاً فإن مطيعة الجهل السباب
ممكن كأنيك أو كأني براء توافقت الحكومة والصواب
ولا تذهب بحلمك طاميات من الخيلاء ليس لمن باب
وإنك سوف تحلم أو تنأى إذا ماشيت أو شاب الغراب

وغير حفي ما لجأ إليه الشاعر من السخرية من مهجوه، والتهكم به، دون إقذاع أو إهحاش، وكل ما وجهه إليه أنه أوماً إلى وصفه بالحق والجهل، ويملق اتصافه بالحلم على مستحيل

وعلى هذا النحو - أعشى قيس في هجائه يزيد بن مسهر الشيباني، حين حس قومه للأنار من اعتدى على واحد منهم وقتله، وكان القتال واحداً من بني قيس بن ثعلبة، مهدده الأعشى وهجاء لذلك في قوله :

أبلغ يزيد بن شيبان مألكة أبا ثلثت أما تنفك تأنكل (١)
الست منتهيا عن نحت أنلثنا ولست ضائرها ما أطت الإبل (٢)
كناطح صخرة يوما ليونها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل (٣)

فقد لجأ إلى السخرية بطريق الاستفهام ، قائلا : ألا تنهى عن السعى بالشر
والحقد عليا ، والوقوع في أعراضنا بالقيم والسب ١٢ إلك لن نال منا شيئا ، ولن تضير
إلا نفسك ، كما يحدث للوعل الذى يطلع الصخرة قاصدا إضعافها وإيهانها ، فلم يل
منها بقدر مائل من نفسه .

كما سار في هجائه علقمة بن علاثة ، معتمدا على التمريض والإيهام المؤلم في قصيدتين ،
في أولاهما ، ازن بينه وبين خصمه ومماهره عامر بن الطفيل في قوله :

علقم ما أتت إلى عامر الناقص الأوتار والوتر (٤)
يأعجب الدهر متى سوبا كم ضاحك من ذا وكم ساخر
ولست بالأكثر منهم حصي وإنما المرة للكاثر (٥)
علقم لا آسفه ولا تجمان عرضك للوارد والصادر
ولست في السلم بدى نائل ولست في الهيجاء بالجاسر (٦)

وحاء في الثانية قوله :

نبيتون في المشق ملاء بطونكم وجارانكم غرثي بيتن خمائصا (٧)

(١) مألكة - بضم اللام - رسالة ، تأنكل : تسمى بالشر أو تنضب وتغلى
حتى لكأنك تأكل نفسك .

(٢) الأثلة : شجرة ، يقال نحت أثلته : نقصه وعابه ، أطت : أتت .

(٣) الوعل - بكسر الهمزة - صرب من الماعز الجبلى .

(٤) الأوتار جمع وتر ، وهو النأر ، وناقص الأوتار : الآحد بالنأر ، والوتر :

الذى يترك نأره في الاعداء فلا يستطيعون نقصه .

(٥) المقصود بالحصي : العدد .

(٦) المائل : المطاء ، والجاسر : الجرىء .

(٧) المشق : زمن الشتاء ، غرثي : حائمة ، خمائص : ضامرات البطون .

وكان إلى جانب تلك الطائفة التي لم تفرد له هجاء قولها ، طائفة أخرى اضطرت إلى إفراده بالقول اضطارا ، كما رأينا في مناقضات العباس بن مرداس التي شبت بينه وبين خفاف بن ندبة ، وخوات بن حبير ، وعبد الله بن جذل ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في الحديث عن العباس .

ويلاحظ أن العباس - مع ذلك - لم يخرج على المنهج العام ، من التزام عفة اللسان ، والبعد عن الإغشاش والإقذاع ، وإن ماله إلى التصريح في بعضها كما في قوله :

أكليب مالك كل يوم ظالما	وانظلم أنسكد وجهه ملعون
فأفعل بقومك ما أريد بقومه	يوم الغدير سميك المطعون
وأظن أنك سوف تلقى مثلها	في صفحتيك سمانها مسون
قد كان قومك يحسبونك سيذا	وإخال أنك سيد مقبون

وليس البعد عن الإغشاش والإقذاع هي سمة هذا الهجاء ، بل إن من مميّاته كذلك البعد عن المبالغات والنهويل ، فهو قريب إلى الحقيقة كما تقدم ، وكما رأينا في هجاء حسان أنا سفيان بن الحارث . بل إن روح الإسلام لتتضح في هجاء الشعراء المسلمين ، حين يضطرون إلى الرد على من هجّاهم من المشركين ، كما رأينا في هجاء كعب بن زهير ، وقصاري ما كان يضمنه الشاعر المسلم أهاجيه تمير الكفار بالثالب أو بالسكفر ، على ملاحظته صاحب الأغاني في قوله : إن حسانا وكعبا كانا لا يمارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقوف والأيام والآثر ، ويميراهم بالثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يميزهم بالسكفر ، فكان في ذلك الزمان أشد النول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلخوا وفقهوا الإسلام كان أشد النول عليهم قول ابن رواحة (١) .

ولم يكن هجاء المشركين وقفا على هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فقد انبرى كثير من شعراء المسلمين يدافعون عن الرسول ومحبيه ودعوته ، ويردون عنهم هجاء من يتعرض لهجائهم من شعراء المشركين ، فالتسع في ذلك الجوامع ميدان المناقضات .

وهكذا بدأ أثر الحضارة الإسلامية واضحا جليا في فن الهجاء ؛ وكان قصارى

الشاعر أن يصف مهجوه بما يعنيه به من خلق ونموت ينهر منها المسلم والذوق العربى
مما . كما نجد فى قول كعب بن مالك الأنصارى الخزرجى يهجو أبحار بنى النضير ،
ويذرى بموقفهم المشيد من الرسول صلى الله عليه وسلم مع توفر الأدلة العلمية والدينية
لديهم على صدقه صلى الله عليه وسلم (١) :

لقد خزيت بمدرتها الجبور	كذلك الدهر دو صرف يدور
وذلك أنهم كفرو برب	عزى أمره أمر كبير
وقد أوتوا معاً فهما علما	وحاهم من الله النذير
مقالوا : ما أنيت بأمر صدق	وأنت بمنكر منسا جدير
أرى الله النسي برأى صدق	وكان الله بحكم لا يمحوز
فأيده وسلطه عليهم	وكان نصيره نعم النصير
فمورد منهم (كعب) صريعا	فدلت بعد مصرعه النصير
فما كره فأنزله بمنكر	و (محمود) أحوثه جسور
متلك بهو النضير بدار سوء	أبارهم بما اجترعوا المبير
عداة أناهم فى الزحف رهوا	رسول الله وهو بهم بصير
فذاقوا غب أمرهم وبالا	لكل ثلاثة منهم بصير

وشعر المبعاء فى هذا المجال كثير ، يدور فى الغالب حول هذا الاتجاه .

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٠٣

الاعتذار :

الاعتذار هو اتصال الإنسان بما نسب إليه ، واحتجاجة لنفسه . وهو من شمرى وطيد الصلة بغنى المدح والمجاء ، فالمجاء قد يكون من دواعى الاعتذار ، أما المدح فهو سقيه وصوره الذى يشبهه فى كثير من أبعاده ، غير أن المدح ينبع من عاطفة الشكر والرصا والأمل ، بينما الاعتذار تمتزج فيه عاطفة الخوف بماطفة الشكر والرجاء .

وهو من الفنون التى نشأت فى الحضرة ، وندر أن يجد شاعرا بدوياً يعتذر . ولعل ذلك يرجع إلى ألفة العربى من أن يضع نفسه فى موضع يضطر معه إلى الاعتذار ، حتى إنهم فى أهاجهم كانوا يتحفظون ويلجئون إلى التعريض أو الإبهام والإيهام - على ما رأينا - حتى لا يضطروا إلى الاعتذار والتأسف على ما سلف منهم .

ولما طأطأ العربى فى بعض الحضرة رأسه تحت أغراء المنح والمطام ، وجرى لاهة وراء الملوك والأمراء مقدما بين يديه تملقه ولفاته فى صورة مدائح يشتري بها ما ينجو به عليه من المال . . . عندئذ هانت على العربى نفسه ، وضاعت قيمة الألفة بين ما ضا فى غمار حياته الجديدة ، فلم يجد فى الاعتذار ما كان يجده البدوى فى باديته .

وحرص على أن يفتن فى الوصول إلى قلب سامعه طلبا لرضاء عنه ، وعفوه وغفر ما قدم من خطأ ، فاخطت بعض الشعراء لهم فى الاعتذار أساليب أصبحت قبيحا ؛ مداهب تنسب إليهم وترتبط بهم ، وذلك بأن يذهب فى اعتذاره مذهبا لطيفا ويقصد مقصدا عجيبا ، يصل من خلاله إلى قلب المعتذر إليه ليستل منه ما انطوى عليه ويسج إعطافه ، ويستجلب رضاه ؛ وذلك لأنهم وجدوا أن إثبات المعتذر من الاحتجاج وإقامة الدليل والبرهان على نفي التهمة خطأ فاحش ، يريد البار اشتعالا لا مع الملوك ، ودوى السلطان . وحق المعتذر العاقل أن يتلطف فى حديثه ، فيقنع - فى أثناء ذلك - برهانه بمتزجا بالتضرع والاستنجاد والدخول تحت هموم الملك ، و : الرجا والأمل بمعاودة النظر فى الكشف عن كذب الناقل ، ووشاية الوائى ،

أن يلجئه ذلك إلى الاعتراف بما لم يجنه خوف تكذيب سلطانة أو رئيسه فإن ذلك مهلكة ، وإنما عليه أن يحيل الكذب على الناقل والحاسد (١) .

والاعتذار في الشعر العربي - على ذلك - ينشعب في اتجاهين :

أولهما : اتجاه الشعراء طالبي المطايا والمناسب في توجيه اعتذارهم إلى من أدمعهم الحياة المترفطة على أن يكونوا في ركابهم من ملوك الحيرة والشام ، حرصا على مسكاته ، وتطلعا إلى عطية .

وثانيهما : اتجاه الشعراء المسلمين الذين سبوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في شركهم إلى الاعتذار عما سلف منهم ؛ والتأسف على ما كان في جاهليتهم .

ولا ريب في أن اختلاف الدواعي إلى الاعتذار، ينشأ عنه اختلاف المنهج والأسلوب .

وكان على رأس الاتجاه الأول عدى بن زيد العبادي ، وتلميذه في ذلك النابغة الذبياني ، وقد وحه الشاعران اعتذاراتهما إلى الزمان بن النذر على نحو ما ذكرنا في ترجمتهما ، وقد أثر عنهما في ذلك قصائد كثيرة طوال ، ذكرت نماذج منها في ترجمة كل منهما .

وكان على رأس الاتجاه الثاني كعب بن زهير في لاميته المشهورة التي قل في مطلعها :

بانت سعاد قلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مسكبول

وهو فيها يكشف عن الفارق بين الاتجاهين ، فبيدما يقدم أصحاب الاتجاه الأول اعتذارهم بين يدي آماليهم ، نرى كعبا يقدم اعتذاره بعد أن تحقق مأموه ، ونال عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمينه ، وإلى ذلك يشير في قوله :

لقد أقوم مقاما لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لفل يرعد إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله توسيل
حق وضمت يميني لا أأزعه في كف ذي نقات قبيلة الفيل

(١) راجع العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٧٦ بتحقيق الشيخ محمد محي الدين .

(٤)

الفخر :

يمتاز الفخر الحضري من الفخر البدوي بتميز المحامد والنعوت الحضريّة من المحامد والنعوت البدوية ، إذ الفخر لا يخرج عن قعداد الشاعر ما يشتمل عليه من ذلك ، وكل هاعر يتأثر بوسطه وبيئته في تقدير للصفات ، وتحديد الفضائل ، إذ كثير منها نسبي ، فليس ما يفخر به ابن البادية - بالضرورة - مثل ما يفخر به ابن الحاضرة ، ومن هذا النطلق أقرر أن ما يفخر به ابن الحاضرة المادية لا يتفق بالضرورة - مع ما يفخر به ابن الحاضرة الإسلامية .

يتضح ذلك إذا نظرنا في شعر شاعر مثل طرفة بن العبد الذي استلمه الماديات فلم يشعر بسكايه إلا بالإصاف بكل ما هو مادي وهو الفارس الذي لا يضارعه فارس ، الجواد ، السكير العربد ، المتلاف ، المكب على ملذاته ومتعه على الرغم من عشيرته ، وذلك في قوله :

إذا القوم قالوا من دى؟ حلت أنى	عنيت ، لم أكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التسلاع عصابة	ولكنى متى يسترد القوم أرفد
فإن تبني في حلقة القوم تلقى	وإن نلتنى في الحوانيت تصطد
وإن يلتقى الحى الجميع تلاقى	إلى ذروة البيت الشريف المصد
ندا ماى ييض كالنجوم وقينة	تروح إلينا بين برد ومجسد
وما زال كثر أبى الخور ولدتى	ويبعى وإفراق طريقي ومتملد
إلى أن تحسمتنى العشيرة كلها	وأفردت أفراد البعير المعبد

ومن ذلك المورد قدم امرؤ للقيس غره على نحو ما رأينا ، وهو دائماً الذى الأثير عند الفتيات ، الذى فرغ من كل ما يشغل العظيم من عظام الأمور ليهتم بالنافه من ألوان الحياة ، فليس يعنيه إلا تبسكير في رحلة صيد يمتطى فيها فرسه القوى ، ومن حوله ثلة من الشبان الفارحين ومهمم الجوارى لينتهوا إلى حفل تنحدر فيه الدبايح وتعد الموائد .

فإذا قلبنا النظر في شعر الحضرة الإسلامي وجدنا شعراء يفخرون بقيم اصطفاها
الإسلام من القيم العربية لتصبح قبا إسلامية ، يحرص عليها المسلم ، ويمتد بالتزامه بها ،
وأشتاله عليها .

وكان أهم ما يهتم به المسلمون في العصر الأول لمجيء الإسلام من هذه القيم
الإخلاص للدعوة ، والوفاء لمهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإقدام على الموت في
معارك الجهاد طلبا للشهادة ، والخلوص من الشرك وتوابعه ، والوقوف في وجه المشركين
دفاعا عن الرسول والدعوة ... الخ .

من ثم كان الفخر في هذا الوسط الإسلامي مزيجا من الفخر والحماسة الإسلامية ،
كما نجد في شعر حسان حين وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على صرحى قریش
يناديهم : يا أهل القلب بئس عشيرة النبی كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ،
وأخزجتموني وآوانی الناس ، وقائلتهوني ونصرني الناس ثم قال : هل وجدتم ما وعد
ربكم حقا ؟ فقال حسان بآيته التي تصور فيها هذا المشهد وفيها يقول :

متأدرا أبا جهل صريعا	وهتة قد تركنا بالجيوب
وشية قد تركنا في رجال	ذوى حسب إذا سبوا حسب
ينسأديهم رسول الله لما	قد فنام كباكب في القلب
ألم تجدوا كلامي كان حقا	وأمر الله يأخذ بالقلوب ؟
فما بطفوا ، ولو نطقوا لقالوا	صدقت وكنت ذا رأي مصيب

وفي غمرة الفرح بنصر الله يوم بدر ينطلق لسان حسان مصورا بطولة القائد
المعظم ومن خلقه المسلمون يستمعون بحبل الله ، معددا ما يفخر به كل مسلم في مثل
هذا الموقف ، فيقول .

مستشعري خلق المادى يقدمهم	جلد النعيزة ماض غير رعديد
أعنى رسول إله الخلق فضله	على السبرية بالقوى وبالجلود
مستمعين بحبل غير منجذم	مستحكم من حبال الله مدود
فينا الرسول وفيما الحق ننبه	حق المات ونصر غير محدود

فأى معامد ونموت يعتز بها المسلم فوق هذه المعامد والنموت ؟
 إنها كما ترى قيم الإسلام التي دعا إليها القرآن الكريم ، وتخلق بها الرسول صلى
 الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله تعالى عليهم .
 وصفوة القول : إننا هنا أمام نشر حماسي يدور حول انتصار الجماعة ؛ فهو نشر
 تغلب عليه الروح الجماعية من خلال الأخلاق والقيم والمبادئ الإسلامية ، ولا ريب
 في أن الفارق شاسع بين هذا الفخر ونشر أمثال طرفة وامرئ القيس ممن نشأ في
 احضان الحضارة العنصرية بمبادئها وقيمها المادية .

(٥)

الغزل :

من الغنون للشعرية التي يلتقي فيها البدوى مع الحضري ، لكنهما لا يلتقيان إلا على الاسم العام ، أما للبهج وللماني فهما مختلفان تماما ، وإذا كان الشاعر البدوى يرى في المرأة حرما لا ينفك ، وإنما يطفح حوله في خشوع ، فإن الشاعر الحضري كان يرى فيها متعة الحواس ، ومنهل العرايز والشهوات فهو حين يتعرض لها إنما يتعرض لمباح ، يتمتع نفسه بالنظر إلى ما يخفى من جسمه ، ويتمتع غيره بتعريضها مما يسترها ، على نحو ما رأينا في شعر امرئ القيس الذي يقول فيه مصورا إحدى منامراته اللسائية التي يفخر بها ، ويرى أن ذلك قصارى ما يصبو إليه رجل مثله :

جئت وقد نضت لدم ثيابها	لدى الستر إلا لبسة المتفضل ^(١)
مهففة بيضاء غير مفاضة	ترائبها مصقولة كالسجنجل ^(٢)
أصد وتبدى عن أئيل وتتنق	بناظرة من وحش وجرة مطفل ^(٣)
وجيد كجيد الرثم ليس فاحش	إذا هي نصته ولا بمعط ^(٤)
وفرع برين المتن أسود فاحم	أنيث كقنو النخلة المتمشكل ^(٥)

-
- (١) نضت : حلعت ، والمتفضل : من يلبس ثوبا واحدا إذا أراد الحفة في العمل .
- (٢) المهففة : لطيفة الحضر صامرة البطن ، والمفاضة : المرأة عظيمة البطن مسترجية اللحم ، والترائب : جمع تريبة . موضع القلادة ، والعقل : إرالة الصدا والندس والسجنجل : المرأة .
- (٣) أصد : تعرض ، وتبدى : تظهر ، وخذ أسيل . فيه امتداد وطول ، وجره موضع ، ومطلل التي لها طفل
- (٤) الرثم : الظن حالص للبياض ، نصته : رفته ، والفاحش : ما حاور القدر المحمود من كل شيء ، والمعط : الخالي من الخلى .
- (٥) الفرع : الشعر التام ، والمتن . الظهر ، الأنيث : الكثير ، والقنو : المدق ، والمتمشكل : المتدلى .

ونضحى فتيت المسك فوق ثيابها نؤوم الضحى لم تلتطق عن تفضل (١)
وعلى هذا النحو يسير المنخل اليشكري في تصوير واحدة من مفاخره مع المنجدة
زوج النعمان ، وفيها يقول (٢) :

ولقد دخلت على الفتى	ة الحذر في اليوم المطير
السكائب الحسناء تر	قل في الدمقس وفي الحرير
بدنعتهم فتدأمت	مشى القطاة إلى النذر
ولثمتها فتفتت	كتنفس الظى البهر (٣)
فدنيت وقالت يا منى	خل ما بجسمك من حرورا
ماشف جسمى غدير حبه	لك ، فاهدئى عى وسيرى

ولم تذف حسية الغزل في الشعر الحضري عند حد هذه القصص التي تدور حول
مغامرات الشاعر مع المرأة ، بل إنك لتجد الشاعر الحضري في ذلك العصر لا تقيم عينه
من المرأة إلا على محاسنها للحسية ، وأوصاف جسمها المادية ، مما يكشف عن انهماك في
المادية انهما كما يشبه من قريب تهالك بعض الشعراء المحدثين في البيئات المادية . من
ذلك ما قاله الأعشى متغزلا في امرأة شدة جمالها :

غبراء فرعاء مصقول عوارضها	تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجى (٤)
كأن مشيتها من بيت جارتها	مر السحابة ، لا ريث ولا عجل
تسمع للعللى وسواسا إذا انصرفت	كما استمان بريح عشرق زجل (٥)
يكاد يصرعها - لولا تشدها -	إذا تقوم إلى جارها الكسل (٦)

(١) البيت كله كناية عن الترف والنعيم .

(٢) الأصمعيات رقم ١٤

(٣) البهر من البهر : وهو ما يمتري الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من

تتابع الانقباس .

(٤) الغراء : البيضاء واسمة الجبين ، والفرعاء : طوبلة الفرع من شعر وعوارص ،

والوجى : الذي رق حاوره من كثرة المشى .

(٥) الوسواس : صوت العلى العشرق - بكسر العين - شجيرة مقدار ذراع لها

أكام فيها حب صفار إذا جفت فثرت بها الريح تحرك الحب نسمع له حشخشة على الحصى ،

والزجل : ذو الصوت المطرب . (٦) البيت كله كناية عن السمن والترف .

إذا تقوم بوضع المسك بصورة والزئبق الورد من أردانها شمل (١)
 ماروضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل (٢)
 يوما بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل (٣)

فالنزل الحضري كما ترى في الغالب يدور حول الماديات ، سواء في علاقة الرجل
 بالمرأة ، أو في محاسنها الى تأسره ، ومن ثم لا تسكاد تجدد هذا النزل خارج الحضري
 الحسي ، أما الحضري الإسلامي فلم يكن أمام شعرائه مجال لتناول المرأة بأي صورة من
 صور تناول اللهم إلا النزل التقليدي في مطالع القصائد ؛ إذ كان ما يشغلهم من أمور
 الدعوة أعلام صوتا من ذلك ، أضف إلى هذا أن استجابة الشعراء لأهيم الإسلام تمنعهم
 من الخوض في ذلك ، فلم يكن الكثير منهم قد انضج أمامه بعد ما يرفضه الإسلام - الام
 وما يقبله من ذلك .

(١) ضاع المسك : انتشر ، وأصورة جمع صوار : الرائحة الطيبة ، والزئبق : دهن
 الياسمين ، والأردان جمع ردن - بضم الراء - السك .
 (٢) الحزن : الأرض الغليظة ، والمراد به هنا موضع من بلاد النجاة فيه رياض
 وقيعان .

(٣) الأصل - بضم الصاد - جمع أصيل ، الوقت من العصر إلى الغلام .

(٦)

الدينيات والمواعظ:

الحديث عن الدين وما يتصل به من الآسكار والمقائد ، والدعوة إليه ، والحث على التخلص بقيمه ، ولفت القلوب والعقول إلى أسرار الحياة ، ونظام الكون ، والمسير المحتوم . - إلى غير ذلك من المواعظ ونشعرى جد على الشعر الحضري ؛ وقد تأثر الشعراء في العواضر المختلفة بالفكر الدينى - على اختلاف معادير - المسيحى واليهودى ، والوثنى ، ثم الإسلامى ؛ واعتنق شعراء العرب بعض تلك الآسكار ، وأخلصوا أنفسهم للدعوة إليها من حلال شعرهم .

وكان فى مقدمة هؤلاء الشعراء شاعر الحيرة عدى بن زيد العبادى ، الذى أحاص أكثر شعره لتلك الفن ، وتناولته من مختلف اتجاهاته ، فقص من أحداث الأمم الغابرة وحكاياتهم ومواقع لهم ما يثل أمام الناظر ، فيجرد الإنسان من أدراك الحياة وشوائب المادة ، ويحميه من الاغترار بها والانخداع بظواهرها . وبما قدمنا من نماذج شعره ما يقرر ذلك

وسار قربا من مسار عدى شاعر الطائف أمية بن أبى الصلت الذى نسب إليه شعر يتحدث فيه عن إله العالمين ، خالق السماوات والأرض ، ومشىء الكون ، مستدلا على وجود الله بنظام هذا الكون ويتحدث فيه - كذلك - عن الموت والنفاء ، والبعث والنشور ، والعذاب والثواب نحو قوله الذى نسب إليه على شك فى صحة تلك النسبة :

إله العالمين وكل أرض	ورب الراسيات من الجبال
بهاها وابتى سبعا شدادا	بلا عمد يرين ولا رحال
وسواها وزينها بـور	من الشمس المضيئة والهلل
ومن شهب تلالاً فى دحاها	مرامها أشد من النصال
وشق الأرض فانبجست عيوبا	وأنهارا من العذب الرلال
وكل معمر لا بد يوما	وذى دنيا يصير إلى زوال

ورجع الشك في نسبة هذا الشعر لأمية إلى معانيه بالمعاني الإسلامية ، وليس هذا بالسبب الذي يشكك في نسبة الشعر إلى أمية ؛ خصوصا إذا ذكرنا أنه ممن كان يسمى للنبوة ويعد نفسه لادعائها

وقد أوضحنا - في أثناء حديثنا عن عدى بن زيد - مكان شعر أمية الديني من شعر عدى .

وأيما كان الأمر فإن الشعر الديني في هذه اللواتي لم يخرج عن الأمور العامة ، والقضايا البسيطة التي اجتمعت عليها الديانات السماوية كلها .

ولما كان الإسلام لم يتوقف الشعراء المسلمون عند هذا الحد ، بل تجاوزوه إلى عرض قيمه الخاصة ، والحث على مناصرتهم ، بينما حرص شعراء المشركين على محاربتهم والصد عنه .

ولعل أوضح مثل لذلك ما نجده من شعر كعب بن زهير :

لو كنت أحب من شيء لأعصى	سمى الفتى وهو محبوب له القدر
يسمى الفتى لأمر ليس يدركها	والأفس واحدة والهم ممتشر
والمرء ما عاش بمدود له أمل	لانتهى العين حتى ينتهى الأثر

(٧)

الرثاء :

فن الرثاء من الفنون المشتركة التي حفل بها شعر الحاضرة كما حفل بها شعر البادية؛ وإن كان في البادية أكثر شيوعاً، وأشد انفعالا وتفجعا، وذلك لما يواجهه شاعر الحاضرة من مبادئ وقيم تذكره دائماً بالمصير المحتوم الذي يتناول كل كائن مخلوق، بحيث تخف حدة الاتباع والتفجع ازوال المفاجأة في زول اللوت .

ومن ثم يلاحظ المدارس أن شعر الرثاء في الحواضر العربية غلب عليه العزاء والتعلي على اختلاف اتجاهات الشاعر فيه، من تذكر لما نزل بالملوك النابرين، وتأمل في سنن السكون ونظام الحياة؛ وهو فرصة للنظر المأسى فيما حول الشاعر، وصوغ ما انطبع على صفحة مسكره وعواطفه من إنعكاس لهذا النظر، يتمثل دعوة الآخرين إلى تقبل ما يأتي به القدر بنفس راضية على الرغم من مرارته وألمه .

بيد أن الشاعر لم يكن ليقف عند حد التأسي والتعزية، بل كان يضطر إلى سرد طرف من سمات الميت وخصائصه الخلقية، وكأنه بذلك يعال للتعزية بفقد هذا الشخص من دون الآخرين الذين يموتون في كل يوم ولا ينالون من اهتمام الشاعر ما يجده يرثيهم ويتعزى عن قديمهم؛ ولذلك دار شعر الرثاء حول الموقى ذوى المسكنة في قوس معاشيهم .

ولعل ذلك يتضح من رثاء فضالة بن كعدة الذي قال فيه أوس بن حجر، طالبا من نفسه التجميل في الجزع لوقوع المخذور، دون أن يفرق في ذلك بين شخص وآخر، فقد أودى بن ضم كريم الأخلاق من سماحة ونجدة وحزم، وعقل، كما أودى بن مجرد عن هذه الصفات جميعا :

أيتها النفس أجملى جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة والسج دة والحزم والقوى جمعا

الألمسى القذى يظن بك الظـ ر كأن قد رأى وقد سمعا^(١)
 الخلف المتاف للـرزا لم يتمتع بضمف ولم يمت طبعيا^(٢)
 أودى وهل تنفع الإشاحة من شيء لمن قد يحاول البدعا^(٣)
 ويتضح من رثاء امرئ القيس إياه ، وفيه تأملات حزبية ، ونظرات باكية إلى
 مايجرى في السكون ، وذلك في قوله :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب^(٤)
 عصفير وذيان ودود وأجرا من مجلحة الدناب^(٥)
 وكل مكالم الأخلاق صارت إليه همى وبه اكتسابى
 يعض اللوم عاذلى وإنى ستكفى التجارب وانتسابى
 إلى عرق الثرى وشجت عروقى وهذا الموت يسلبنى شبابى^(٦)
 ونفسى سوف يسلبها وجرى يلاحقنى وشيسكا بالتراب^(٧)

ولما كان الإسلام ، تأثر الشعراء بتعاليمه السامية الواضحة التى قأبى على الشاعر
 المبالغة في التفعج والتعسر ، واستجابوا لقيمه التى تفرض على الجميع روح الجماعة ،
 فلم ييكنوا ميتا لداته ، وإنما ييكون فيه تأثر الأمة بفقده .

وصادف ذلك ما كان بين المسلمين والمشركين من صراع بالغ درجة عالية من التعدى

(١) الألمسى : حاد الذكاء ، يريد أنه يحمدس الأمور ولا يحطىء ، وأنه بطن
 صادق الظن جيد الفراسة .

(٢) المرزا : الذى تصيبه الرزايا فى ماله لسكرمه ، يتمتع : يصاب ، والطبع - بكسر
 للباء - اللثم .

(٣) أودى : مات ، الإشاحة : الجدل فى طلب الشيء ، البدع : الأمور الغريبة .
 (٤) موضعين - بكسر الضاد والعين - لأمر غيب : يريد به الموت ، ونسحر :
 نلهمى ومخدع .

(٥) الدناب المجلحة : المصممة على الشيء التى لا ترجع عما تريد ، يعنى : نحن فى الضعف
 مثل هذه المحلوقات ، وهى ركوب الإثم أجرا ، من الدناب التى تصمم على ما تريد .
 (٦) وشجت عروقى : اشتبكمت واتصلت ، يقول : إن أصله فى حسبه ثابت راسخ .
 (٧) : الجرم البدن ، والوشيك : السريع .

فألبيس الرثاء ثوب الفخر ، ومزج الفخر بالرثاء ، في بكاء من استشهد من المسلمين ،
ومن قتل من المشركين في الحروب التي دارت بين الطرفين في مطلع الإسلام . وكان
محور هذا الرثاء - كما فرصه الموقف - تمداد المناقب ، ووصف المثوى الأخير وما ينتظر
الشهيد من جزاء .

بيد أننا نلاحظ في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم مزيدا من التفجع والتوجع
لمعقده ، إذا قورن برثاء غيره ، لكننا إذا وضعنا في الاعتبار مكان الرسول من نفس
المسلم لم نجد في ذلك زيادة ولا مبالغة ، وإنما هو التصوير الصادق لما يحس به الشاعر
من فداحة المصيبة ؛ فهي إذن أمور نسبية ، لا ندرك أبعادها إلا بالنظر المدقق الفاحص .
ومن أبرر المرائي الجماعية ، وبث الأحران للمصائب العامة ما قاله أبو أسامة معاوية
ابن رهير حليب بنى محزوم وهو مشرك حين مر بهيرة بن أبي وهب فرأى إعياءه من
الحرب وبما أصاب قومه من الهزيمة في غزوة بدر ، مصورا أساء وحزنه لما ألم بهم ،
فأحرا بنفسه وقبيلته وشهوده الحرب :

ولما أن رأيت القوم حفوا	وقد زالت نعماتهم لفر
وأن تركت سراة القوم صرعى	كأن خيارهم أذباح عتر
وكانت جمه وامت حماما	ولقينا المناسيا يوم بدر
وأبلغ إن بلغت المرء عنا	(هيرة) وهو ذو علم وقدر
بأنى إن دعيت إلى أفيد	كررت ولم ينق بالكرم صدى

وهذا الأسود بن المطالب - وكان قد أصيب له في بدر ثلاثة من ولده زمعة وعقيل
والخارث بن زمعة - يسمع نائحة من الليل فيسأل غلامه عمن تبكى ، فأخبره بأنها تبكى
بعميرها لما ضل ، فانهجر ساحتها غاضبا نائحا يقول :

أتبكي أن يضل لها بعير	ويعمها من السوم السهود
ولا تبكي على بكر ولـكن	على بدر تقاصرت الجودود
وبكى إن بكيت على عقيل	وبكى حارثا أسد الأسود
وبكيتهم ولا تسمى جميعا	وما لأبى حكيمة من بديد
الا قد ساد بعدم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا

بينما يقول عبد الله بن الربيع السهمي يبكي شهداء بدر ، فيسمى أبطالهم ، ويشيد
بتواقفهم وحسن بلائهم ، وإقدامهم على الموت في غير خوف ولا تردد :

— ٢٨٧ —

ماذا على بدر وماذا حـمـله من فتية يفيض الوحوه كرام
تركوا نديها خلفهم ومنبها وابنى ربيعة خير خصم فنام
والحارث الفياض يبرق وجهه كالبدر جلى ليلته الإظلام

* * *

وإذا بكى باك فأعود شجوه فعلى الرئيس الماحد ابن هشام
حيا الإله أبا الوليد ورهطه رب الأنام وخصمهم بسلام

وهو رثاء - كما ترى - يمازجه الفخر والمدح ، فهما عنصران يكادان لا يفارقان
المراى فى الشعر الإسلامى ، إذ المرأى فى هذا الوسط البيئى منبثقة من الصراع القائم
بين معسكرى الإسلام والشرك .

(٨)

لوصف :

يكاد شعراء الحاضرة لا يقلون عن شعراء البادية اهما ما بن الوصف - على ماسبق
الإشارة إليه - ولا يخرجون طي منهم فيه ، من تنوع في معارضه ، حيث وصفوا
الذاتيات والموضوعيات ، ووصفوا المدركات الوجدانية والمدركات العقلية والمدركات
الخيالية ، كما وصفوا الماديات والمدركات الحسية .

١ - وكان من أهم ما استأثر ببن الوصف لدى شعراء الحاضرة المادية مجالس
البحر ، وما يدور فيها من رقص وطرب ، حيث أفردوا القصائد لذلك ، وقلبوا نظرم
في مشاهدتها ، فوقعوا منها على لوحات كثيرة ، متعددة الأحداث ، وتفننوا في تلوين
كل لوحة بما يناسبها . وكان من القدمين في ذلك عدى بن زيد الذي تناول البحر
بالوصف ، فقدمها في صورة رائعة من حلال أوانها وكؤسها - على ماسبق الإشارة
إليه - وشاركه في هذا الأعمى الذي برع وأجاد فتمكن من استحضار مجالسها مشخصة
مجسمة بما يلتزمون فيها من عادات تشبه الطقوس ، وما يتزيا به السقاة والمفنون من
أزياء ، وما يكون عليه الإمام من خلاعة وثثن . يوضح ذلك ما تراه في مملقته من قوله:

وقد عدوت إلى العانوت يقبى	شاو مثل شاول شلشل شول ^(١)
في منية كميوف الهند قد علموا	أن ليس يدمع عن ذى الحيلة الحيل
نازعتهم قضب الرياحن متكثا	وقهوة مزة راووقها حضل ^(٢)
لا يستيقون منها وهى راهنة	إلا بهات، وإن علوا وإن نهلوا ^(٣)

-
- (١) عدوت : ذهبت ، شاو : يشوى اللحم ، ومبنى مثل - بكسر ففتح - شاول ،
شلشل - بصم الشينين - شول : أنه حفيف الحركة شيط ،
(٢) قنّب - بضم القاف والضاد - جمع قضيب: النسن والقهوة : البحر، والراووق:
لوعاء الذى تروق به البحر ، حضل : كى بذلك عن اتصال شربهم .
(٣) علوا : من العال - بفتح العين - الشرب بعد الشرب تباعا ، ونهلوا من النهل:
أول الشرب ، إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .

يسمى بها ذوزحاجات له نظف مقامس أسفل للسربال متمل (١)
 ومستجيب تحمال الصننج يسمعه إذا ترجع فيه للقينة الاضل (٢)
 والساحبات ذبول الحز آونة والرائلات على أعجازها السجل (٣)
 من كل ذلك يوم قد لهوت به وفي التجارب طول اللهو والنزل

وهو كما ترى - وصف لأحد أيام نهمه ، غدا فيه إلى الحمار يصعبه نية كسيوف
 الهند - رونقا ومضاء ويتبهم رفيق خفيف الحركة نشيط ؛ فتجاذبوا في متكسهم
 أغصان الريحان ، وكثوس الحجر التي لم يقطع دورانها عليهم ، دون أن يصيبهم ملل ،
 قشربوا وسكروا ، فإذا أهوا طلبوا للزيد من الساقى وكان غلاما حدثا يباق في أذنه
 قرطا ، ويلبس قميصا قصيرا . هذا إلى ذلك العود الذى تنشق ألحانه مع صننج كانت
 تعزف عليها في أثناء عانها قيمة في ثوب واحد رقيق شفاف ، ومن ورأها الفتيات
 الحسنات ترفل في ثياب الحر السابغة .

ولا يقف عند حد وصف الحجر وأوانها وعالساها ، بل إنه ليصف فعلها بمقول
 شاربها ، وأثرها في قلوبهم ، وصفا يبالغ من لدقة فيا مبلغا يعلن عن مدى شغفه بالحجر
 وافتنانه بها ، مثل قوله في أسلوب قصصى رائع :

أبأنى يؤامرني في الشمو لـ لا لافقات له : غادها (٤)
 أرحسا نباكر جسد العصبو ح قبل الفوس وحسادها (٥)

(١) ذو رجاجات : يريد الساقى ، نظف جمع نطفة : القرط به لؤاؤة صافية ، ويعنى
 بمقامس أسفل السربال أنه قصير القميص ، والمتمل : المطبوع على العمل والنشاط .
 (٢) المستجيب : العود ذو الأوتار ، سمي بذلك لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصننج ،
 من آلات الطرب . وكى بالشرط الأول عن انساق ألحانها . والقينة : الأمة المعية ،
 والفضل - بضم الفاء والضاد - اللاسة ثوبا واحدا .

(٣) المعجل - بكسر ففتح - جمع عجلة - بكسر فسكون - وهى قرية الماء .

(٤) يؤامرني : يشاورني ، الشمو : الحجر ، غادها : انطلق بها إليها .

(٥) جد - بكسر الحيم - نشاط ، والصبوح : حمرة الصباح .

(١٩ - الأدب العربي)

دقمنا ولما يصح ديكما	إلى جونة عند حدادها (١)
تنخلها من بكار القطاف	أزرق آمن إكسادها (٢)
ومات له : هذه هاتها	بأدماء في جبل مقتادها (٣)
فقال : تريدونى تسمعة	وماذاك عدلا لأندادها (٤)
فقلت لمنصفنا : أعطه	فلما رأى حضر شهادها (٥)
أضام مظلته بالسرا	ج والليل عامر جدادها (٦)
دراهمنا كلها جيد	فلا تحبنا بئقسادها (٧)
وقام وصب لنا قهوة	تسكننا بعد إرعادها (٨)
كمتا تكشف عن حمرة	إذا صرحت بعد إزبادها (٩)
كموصلة الرأل في جربها	إذا جليت بعد إتمادها (١٠)
وجال علينا بإبريقه	محضب كف بفردادها (١١)

- (١) جونة - بفتح فسكون - جرة وحدادها : خمارها .
- (٢) تنخلها : تخيرها ، وبكار القطاف : أول ما يقطف ، والأزرق ، تمغير أزرق ، يعنى به أزرق المينين ، آمن إكسادها - بكسر الميم - لا يحاف كسادها .
- (٣) الأدماء : الباقة البيضاء ، ومقتاد الباقة : الفلام الذى يراها .
- (٤) الأنداد : الأمثال .
- (٥) المنصف - بكسر الميم وفتح الصاد - الخادم ، والحضر - بفتح الحاء وسكون الضاد - الحضور ، ويقصد بالشهادها : الدرهم .
- (٦) المظلة : الحانوت أو الخباء . والجداد - بضم الجيم وتشديد الدال - الأهداب والأستار .
- (٧) التناقذ : المد والنقد وتبين الزائف من الصحيح .
- (٨) تسكننا : اسكن إلها .
- (٩) السكيت : الجراء ، صرحت : ذهب زبدها .
- (١٠) الرأل - بفتح الراء وسكون الهمزة - مرغ النعام ، شبه الخمر بمجوصلته في الحمرة . حليت : أخرجت ، من جلوة العروس ، والقاعدة : إذا قدمت عن الطلب .
- (١١) الفرصاد - بكسر الفاء - التوت الأحمر .

- ٢٩١ -

فبانث ركاب بأكورها لعينا وخيل بألبادها(١)
ورحنا تنعما نشوة نيجورينا بعد إقصاءها(٢)

٢ - واستأثر كذلك بفن الوصف - لديهم - مشاهد الطبيعة وتقلبها، ومظاهر
السكون ودقائقه ؛ فرأينا منهم من يستأثر به مشهد الأمطار والسيول التي تلم بالديار
فيقبعها من مبتدئها إلى منتهاها ، كما صنع امرؤ القيس في معلقته ؛ إذ خص جزءا كبيرا
منها بوصف وميض البرق ولعانه المتداخل في السحاب المتراكم ، وكيف جلس هو
وأصحابه بين حامر وإكام يتأملون سح الماء ، وهم طول الأمطار، حتى تحولت في الأرض
سريولا تجرف كل ما يصادفها من أشجار ، فلم تترك بها بخلا ولا بيتا ، وما زالت المياه
تترأيد ، والسيول تشد حتى عات آجام السباع ففرقت ، وأصبحت رءوسها فوق سطح
الماء كأنها جدرور البصل ترى ؛ وذلك قوله :

أحار ترى برقاً كأن وميضه كاعم اليدين في حبي مكال(٣)
يضىء ساء أو مصابين راهب أهان السليط في القبال المقتل(٤)
قمدت له وصحبى يسد حامر وبين إكام بعد ما متأمل(٥)

إلى آخر الصورة التي ذكرت أبحاثها كاملة في ترجمة الشاعر ، ووضح فيها أنه
- على منهجه البياني - يعتمد في توصيحه مقصده ، وإبرار الصورة على التشبيه يختلف
أنواعه وأدواته .

-
- (١) الأكواد - جمع كور - الرجال ، والألباد - جمع لبد - قطعة الصوف
توضع تحت السرج .
(٢) الإقصاء : القصد والاعتدال .
(٣) حار : ترخيم حارث ، وميض البرق : لهمانه ، والحي من السحاب : المتراكم
ومثله المكال .
(٤) السليط : الزيت ، والقبال : القنائل ، والمنصرود بقوله : أهان السليط :
أكثر منه .
(٥) حامر وإكام : موضعان ، بعد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .

ولم تكن هذه الآيات وحدها هي التي نسبت لامرئ القيس في وصف الله ومشاهد الطبيعة ، فقد نسب إليه مقطوعة أخرى في النرض ذاته - وإن كان أبو عمر ابن الملا ينسبها لقي الرمة - وفي هذه المقطوعة يعرض الشاعر فيصور مطرا قرى للشبه بالظن السابق ؛ فالمطر ينهر حتى يعم الأرض ، ويقلع فتبدو الأوتاد من الأرض ولكنه يمود أكثر مما كان فتتوارى عن الأنظار ، وتظل متوالية متدوقة حتى تقا الأشجار ولا يبدو منها إلا أعاليها ، فتترامى كأنها رؤوس مممة قطعت وبها عماء ؛ وما يزال على هذا الانصباب والتدفق فترة ، تستدر السحب ريح الصبا الشالية فيسقط المطر في المطول ، وتقابلها ريح الجنوب فتعجز السحب بالمطر كذلك ، وتسيل حتى تضيق بأمواجه الأرض المروعة باسم خيم وجفاف ويسر :

ديعة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر (١)
تخرج الود إذا ما أشجذت وتواريه إذا ما تشكر (٢)
وترى الضب خفيها ماهرا ثانيا برئنه ما يمعق (٣)
وترى الشجر في ريقه كرووس قطعت فيها الخمر (٤)
ساعة ثم انتحاهما وابل ساقط الأكناف واه منهمر (٥)

(١) الديعة : المطر الدائم، وهطلاء : كثيرة المطل، والوطف : الدنومن الأرض طبق الأرض - بالباء المفتوحة - تطبقها وتممها لكثرة مطرها ، تحرى : تبعه الأمكنة وثبت فيها ، وتدر : يكثر ماؤها وترسل درها .
(٢) الود - يفتح الواو - الودد ، وأشجذت : أفلمت وسكنت ، وتشد تحتفل ويكثر مطرها .

(٣) خفيها ماهرا : يريد مسرعا في عدوه ، وبرئ الضب : يقابل الإصبع من الإ وما يمعق : لا يصيبه المطر والتراب وذلك لحفته في عدوه .

(٤) الشجر : الأرض ذات الشجر الكثير ، وريق المطر : أوله ، يعني أن يصر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها فتبدو كأنها رؤوس قطعت وفيها الخمر وال (٥) انتحاهما : قصدها ، الوابل : المطر الغزير ، والساقط الأكناف : الدنا نواحي الأرض . واه . متخرق ، المنهر : المنسكب .

راح تمر به الصبائم اتحى فيه شؤبوب جنوب منفجر (١)
 نبع حق ضاق عن آذيه عرض خيم جفاف فيسر (٢)
 قد غدا يحمل في أنفه لاحق الإطلين محبوبك تمر (٣)

* * *

٣ — كما احتفل شعراء الحاضرة بإيراد إحدى وسائلهم الحيوية بالوصف ؛ من
 حيوان ، وآلات حرب ، ونحو ذلك . فهذا أبو دؤاد الإيادي يصف فرسه في قصيدة
 من روائع شعره تبلغ نحو ثمانية وعشرين بيتا خصها كلهم — في وصف الحصان ،
 بجم فيها :

وقد أعدو بطرف هيـ كل ذى ميمة سكب (٤)
 أسبل سلجم المقبل لاشخت ولا جأب (٥)
 مسح لا يوارى العير منه عصر الذهب (٦)

(١) راح : عاد بالمطر في آخر النهار . تمر به : بفتح التاء — تمر به وتديره ،
 والشؤبوب : دمة المطر ، والجنوب : ريح . منفجر : سائل .
 (٢) نبع : سال ، والآذى : الموج ، وحيم — بفتح الحاء وسكون الياء — وجفاف —
 بضم الجيم — وإسر — بضم الياء والسين : أما كن .
 (٣) يحامى في أنفه : يريد في أنف المطر أى في أوله ، ولاحق الإطلين : فرس
 ضامر الكشحين ، المحبوك : الموثق الخلق ، ومثله المر — بضم ففتح — من الجمل المر
 وهو المحكم القتل .
 (٤) الطرف — بكسر الطاء ، الفرس الكريم ، والميكل : الطويل في ضخامة ،
 ذوميمة : ذو جرى سائل ، ومثله السكب .
 (٥) أسبل الحد : مستو ، سلجم : طويل ، للمقبل . يعنى حين تراه مقبلا ، والاشخت
 الدقيق ، والجأب : الغليظ
 (٦) المسح : الذى يصب في حريه ، والمصر — بفتح الميم والصاد — الملجأ ،
 واللمب : شق في الجبل ، يعنى أن الحصان لشدة اندفاعه في الجرى لا يتوارى عنه العير
 وإن التجأ إلى شق في الجبل .

له ساقا ظليم خا	ضرب فوجيء بالرعب (١)
ومتنان خظانان	كزحلوفا من الهضب (٢)
يمز العنق الأجر	د في مستأمن الشعب (٣)
ترى فاه إذا أقبل	مثل الساق الجسب (٤)
نبيل سلجم اللجبين	صافي اللون كالقالب (٥)
حديد الطرف والمنك	سب والعروق والقلاب (٦)
جواد الشد والإحضا	ر والتعريب والمقب (٧)

وهذا أوس بن حجر في وصف القوس ، وقد سار فيه على منهج الاستقصاء والتفصيل . فبدأ بالقوس منذ كان غصنا في شجرة بعيدة المنال ؛ إيعاء إلى ندرة هذا القوس ، فقام أحسن الأقواس الممددة للحرب ، صنعته خبير ، حين أبصر شجرته جشم نفسه العناء . حتى تمكن من الحصول على هذا النصف ، وقام بصقله وإعداده ، فأخرجه وسطا بين الطويل والقصير ، ملء السكف ، حين يستعمل يسمع لصوته رنين ، فإذا شد النازع السهم عاد إلى القبض ، ثم يعتمد عنها لقوة دفعها وصلابتها :

ومبضوعة من رأس فرع شظية	بطود تراه بالسحاب مجللا (٨)
على ظهر صفوان كأن متبونه	عطن بدهن يزلق المتسولا
يطيف بها راع يحشم نفسه	ليسكلا فيها طرفه متأملا

(١) الظليم : ذكر النعام ، والخاصب : الذي رعى الربيع خضبت قوائمه ، وساقا الظليم قصيرتان .

(٢) الخطاة : المسكتزة ، والزحلوفا : المكان الزلق .

(٣) الأجرد : قصير الشعر ، والشعب : الموصل المركب في الحارك وهو موصل

العنق مع السكاهل ، يقول : قد ركب في أصل متين ، وإذا سار هز عقه .

(٤) الساق - بفتح السين واللام - الأرض المتجردة من النبات .

(٥) القلب - بضم القاف وسكون اللام - الشوار يكون نظاما واحدا .

(٦) المنكب : مجتمع رأس العضد والسكف .

(٧) كل ما ذكر في البيت مضافا إلى (جواد) أنواع من الجرى .

(٨) المضبوعة : المقطوعة ، والشظية : الفتلة من الشيء ، والطود : الجبل .

على خير ما أبصرتها من بضاعة فوق جبيل شاخ الرأس لم تكن
فأبصر الهابا من الطود دونه فأشترط فيها نفسه وهو مصمم
وقدأ كلت أظفاره الصخر كلما فما زال حتى نالها وهو مشفق
أمر عليها ذات حصد غرابها على خذيه من براية عودها
عزدها صفراء ؛ لا الطول عابها كتوم طلاع الكف لادون مائها
إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها وإن شد فيها الفزع أدبر سهمها
للمس بيما أوتسكلا (١) لتبلغه حق تسكلا وتعملا
يرى بين رأسى كل نيقين مهيلا وألقى بأسباب له وتوكلا (٢)
تعيسا عليه طول مرقى توصلا على موطن لو زل عنه تفضلا
رقيق بأخذ المداوس صيقلا (٣) شبيه سفا البهى إذا ما تنملا
ولا قصر أرى بهما فتعطلا ولا عسها من موضع الكف أفضلا (٤)
إذ أنبضوا عنها ثلما وأزملاد (٥) إلى منتهى من عسها ثم أقبلأ (٦)

وصفوه القول : إن شعراء الحضرة الجاهلى فى فن الوصف اختلفوا عن شعراء البادية فى أمور من أهمها :

١ - الموصوف ؛ فما يشير اهتمام الحضرة يختلف عن ذلك الذى يشير اهتمام البدوى ، ولا ريب فى أن الشاعر إنما يركز مصوره على الشيء الذى يشد نظره دون غيره ، وإلا أصيب شعره بالفتور والوهن .

(١) التبكّل : الفنمية . (٢) أشترط نفسه : ألزمها .

(٣) ذات الحد : السكين ، وغراب السكين : حدها ، والمداوس جمع مدرس كمنير : آلة الصيقل التى يشتف بها النفس .

(٤) السكتوم . التى لا يوجد فى عودها شقوق ، وطلاع الكف . ملء الكف والمعجس . المقبض .

(٥) الإنباض : تحريك الوتر فى القوس ، والنثيم : صوت القوس ، والأزمل الرنين .

(٦) معنى إقبال السهم إلى المقبض وإدباره أن القوس لينة فى صلابة عود ، فإذا شد الفازع السهم عاد إلى المقبض ، ثم ابتعد عنها لقوة دفعها وصلابتها .

— ٢٩٦ —

٢ — المنهج الاستقصائي ، فكل واحد من شعراء البيهقيين يعتمد في وصفه على الاستقصاء ، بيد أن شاعر الحضر في استقصائه يلجأ إلى الوصف التأملي المتفحص ، كما رأينا في شعر أوس بن حجر ، وشاعر البادية في استقصائه يلجأ إلى الوصف القصصي ، فهو يقدم نموت موصوفة في تتابع قصصي ، تسكمل بمناصرة الصورة كما يراها الشاعر ، على ما رأينا في وصف زهير وليد .

الفصل الثالث

الشعر العربي بين البادية والحاضرة

من المقرر أن الأدب العربي على اختلاف أنواعه وفنونه يلتقي مع آداب الأمم الأخرى في المشتركات الإنسانية التي لا تتميز فيها أمة عن أمة ، ولا يختلف فيها فرد عن فرد ، ففي الآداب جميعا ترى صورة الإنسان في صراعه مع ما يصادفه من عقبات في حياته تتوفاه عن مواصلة المسار ، لا يختلف في ذلك أدب عن أدب ، وفي الآداب جميعا ترى القيم الإنسانية الفطرية تدور حولها الأحاسيس والشاعر والانتعالات رضا بها أو سخطا عليها ، دعاء عنها أو برماها . . .

ومن المقرر كذلك أن البيئات - زمانية كانت أو مكانية - تباعد كل أمة عن أختها في أمور كثيرة من أبررها - في ميدان الأدب - الرؤية العقلية والخيالية لما تصادف في الحياة الواقعية ، والإدراك التصوري للملاقات لقاعة بين عناصر موقف من المواقف المجابهة ، وكيفية نقل هذا المعنى المرئي أو الصورة المدركة إلى الآخرين ، ثم بالأسلوب الأنسب في عملية النقل هذه .

من هذا يتقرر أن أدب كل بيئة له من الخصائص ما يتميز به عن أدب البيئة الأخرى ، وهو غير تفرضه عايه ظروف البيئة بكل أبعادها ، ولا يحق - لذلك - أن يحمدا أدب أمة أو جيل لخصائصه ، ويذم أدب أمة أو جيل لخصائصه ؛ إذ هي من ضروريات البيئة التي لا جهد لأحد فيها ، إنما يذم أدباء بيئة ما إذ تجاوزوا ما تملبه عليه بيئتهم أو تجاوزوه ؛ لأن أدبهم عندئذ يكون مصصا لا يعبر عن ذات أصحابه .

فإذا أردنا أن نتعرف على خصائص الشعر العربي الجاهلي في بيئة البداوة والحضرة فعنى هذا أننا نقصد إلى الكشف عن خصائصه المعنوية والخيالية وخصائصه الموضوعية ، وخصائصه الأسلوبية ، وخصائصه الشكائية ، إذ الحال الفنى الذى يعبر بيئته من شعر بيئة أخرى يكاد لا يخرج على هذه المناهى الأربعة .

الخصائص المنوية والخيالية :

المقصود بالمعنى هنا المدركات التى يقف عليها الشاعر فى أثناء تفكيره فى موضوعه، فالمعنى الشعرية هى الحقائق التى تشد انتباه الشاعر فى موضوعه ، وعليها يقوم البناء الشعرى ؛ لأن الشاعر حين يتناول موضوعا ما من الموضوعات أو حدثا من الأحداث لا يمكن بأى حال أن يستقصيه ويلم بكل أطرافه ، وإنما هو بحسه الخاص يقع على جانب منه يتأثر به ويميل فيه . هذا الجانب الخصوصي يبرئانه هو الذى السكى أو الفكرة الأصلية التى يقدمها الشاعر وهو ذلك حاضغ لثقافته ومداره الخاصة النابعة من بيئته .

والناظر فى شعر البادية العربية ، وشعر الحاضرة العربية يصادف عدة ملاحظات :

١ - وهو يلاحظ أن المعانى فى الشعر البدوى واضحة صريحة صادقة فلا يحول بينها وبين متلقيها غموض ؛ وذلك أحد آثار البيئة فى مقومات الشخصية لديهم ، فقد فرضت عليهم البيئة الصحراوية المفتوحة التى لا تعتمد فيها الحياة إلا على الضرورى من الحجب ، والتى لا يفيد فيها الالتواء والتخفى ، والتى لا كيان فيها لجبان أو ضعيف .. فرضت عليهم تلك البيئة أن يتخلقوا بخلق الشجاعة ، ذلك الخلق الذى ينطلق به اللسان فى غير موارد ولا لتواء ، والتى تكشف به السرائر فى تحد وتحديد ، وكأ نرى فى المعانى التى شدت اهتمام السفري فى زوجه أمية إذ يقول (١) .

لقد أعجبني لا سقوطا قناعها	إذا ما مشيت ، ولا بدأت تلفت
تبيت - بعيد النوم - تهدى غبوقها	لجاراتها إذا الهدية قات (٢)
تحمل - بنجاح - من النوم بيتها	إذا ما بيوت بالمدمة حلت
كأن لها فى الأرض نسيا تقصه	على أمها ، وإن تكلمك تبت (٣)

(١) المفضليات رقم ٢٠

(٢) الغرور : اللاب الذى يشرب فى العشى .

(٣) اللسى : الشئ العسى أو المفقود ، تقصه : تتمقب أثره ، أمها - بفتح الهمزة -

قصدها ، تبت - بفتح مسكون - أو جرت .

أمة لا يخزي شأها حليها إذا ذكر السوان عمت وجلت (١)
إذا هو أسمى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسأل أين ظلت (٢)

فالشفرى يرى أن محاسن المرأة تقوم على الوقار ، والسكرم ، والبهمة عن أسباب
اللوم والذم ، والحياء ، حسنة السيرة والسمة لمفتها وجلالها ، يسعد بها زوجها لأنها
موضع ثقته

وقار المرأة في تصور الشفرى يعنى أن قائمها لا يسقط عن وجهها في انتهاء سيرها ،
وأنها لا تلتفت حولها . وكرمها في تصويره يعنى الإيثار ؛ فهي تؤثر حاراتها في الجذب
بغوق الابن ، ويعدّها عن أسباب اللوم يعنى حصانة بينها عن كل يوم أو ذم . وحياتها
يعنى أنها لا ترمع رأسها عن الأرض في مسيرها كأنها تبحث عن شيء مقدّس ، وأنها
لا تكلّم إلا ناقص ، وحسن سيرتها يعنى أن الحديث عنها لا يحمل الخزي لزوجها ،
وسعادة زوجها بها ترجع إلى اطمئنانه إلى مسلكها وثقته فيها ، فلا يخالج بعمه شك
ولا ارتياب

وكما يرى في تصوير دريد بن الصمة ارتباطه بمشيرته وتمسكه لها ، إذ يقول :
وما أنا إلا من غربة : إن غوت غويت ، وإن ترشد عرية أرشد

فارتباطه بمشيرته عزية يعنى في تصويره أنه يكون حيث كانت ، فإن ضلت ضل معها ،
وإن اهدت اهدى معها .

وليس وضوح المعاني خاصة بدوية ، فإن معاني الشعر الحضري في هذا العصر
كانت كذلك واضحة ، بيد أنها في غالبها تنقسم الملو والمبالغة ، كما يتسم بعضها بالالتواء
والمواربة ، وذلك بتأثير البيئة الحضرية ، وما تستقرمه المميشة وهما من تحفظ في التعبير ،
يلتقى على ذلك الشاعر الحضري الذي ولد ونشأ في الحاضرة لمدى بن ريد ، والشاعر
البدوي الذي تحضر مجسده وحسه دون عقله وهـ كره ، كاللابة الديباني والاعشى .

(١) الأصمعيات ص ١١٢ طبع دار المعارف .

(٢) انظر حماسة البحتري ص ٢٠

وسمة النلو والمبالغة تبرز أوضح ما تبرز في شعر المدح وما يتصل به من هجاء وثناء واعتذار ؛ وقد غلبت المبالغة على هذه الفنون لصدور الشعراء فيها عن طمع في المكافأة وتطلع إلى الجراء ، كما نرى في مدائح عدى والمبالغة والأعشى وأضرابهم ، انظر من ذلك إلى أعشى قيس يمدح هوذة بن علي سيد بني حنيفة فيمضى يجمع من الصفات مايفك عقدة الأيدي فتبسط بالمعطاء ، وذلك قوله :

إلى هوذة الوهاب أهديت مدحتي	أرجى نوالا فاضلا من عطاءك
سمعت بحرب الباع والجود والبدى	وأدليت دلوى فاستقت برشائك (١)
فنى يحمل الأعباء لو كان غيره	من الناس لم يهص بها متأسكا
وأنت الذى عودتى أن ترشقى	وأنت الذى آويتنى فى ظلالك (٢)

تجود المبالغة المزوجة بالتصريح بالسؤال وطلب المعطاء

وانظر إلى المبالغة الذبائى يمدح النعمان بن المنذر فيقدمه في صوره تعلن عن تلك المبالغة لاقى تجاور بها الحد وذلك فى قوله :

فما الفرات إذا هب الرياح له	ترمى أوأذيه العرين بالزبد (٣)
يمده كل واد مترع لجنب	فيه ركام من الببوت والخصد (٤)
يطل من خوفه الملاح متمصا	بالخيزرانه بمد الأبن والبجد (٥)
يوما تأجود منه سيب ناملة	ولا يحول عطاء اليوم دون غد (٦)

(١) الباع : السكرم ، والرشاء : جمل الللو .

(٢) ترشقى : تميلنى وتفنىنى .

(٣) أوأذيه : أمواجه ، العبران - بكسر العين الشاطئان .

(٤) مترع : مملوء ، لجنب : ذو صوت شديد ، واليببوت : شجر ، والخصد - بفتح الخاء والضاد - المحطم من الأشجار .

(٥) الخيزرانة : سكان السفينة ، والأبن : الثعب ، والبجد - بالتحريك -

الكرب .

(٦) السيب : المعطاء ، والمبالغة : الزيادة ، يريد أن عطاءه ومر .

فهذه مبالغات لا يعرفها البدوي الخالص فرضتها على أمثال هؤلاء - مما تجد نماذج
بعضه في ترجمات من ضمنهم بحثنا هذا - أخلاقيات الحاصرة ، واستدعاءاتها التي تبسيع
للشاعر مالا يبيحه البادية .

ومن هذا المعين قدم الباطنة اعتذاراته للنعمان ، مثل قوله :

أتاني - أبيت اللعن - أنك لنتى وتلك التي أهتم منها وأنصب (١)
فبت كأن المائدات مرش لي هراسا به يعلى فرائثي ويتشب (٢)

ومثل قوله :

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أناني ودوني راكس فالضواجع (٣)
فبت كآني ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع (٤)
يسهد من ليل التمام سلبها الحلى النساء في يديه قماقع (٥)
تناذرها الراقون من سوء ممها تطلقه طورا ، وطورا تراجع (٦)

* * *

(١) أنصب : أجهد جهدا شديدا .

(٢) الهراس ، بفتح الهاء - شجر كثير الشوك ، والمائدات : الثرائر في للرض.
يتشب : يجدد .

(٣) في غير كنهه ، يريد على غير ذنب منه ، والسكنة : الحقيقة . راكس : واد
في منازل بني أسد ، والضواجع : منحني الوادي .

(٤) ساورتنى : لدغتنى ، وضئيلة : أغمى دقيقة الجسم ، والرقش جمع رقشاء : المنقطة
نقطا بيضاء وسوداء ، والنافع : القاتل .

(٥) يسهد : يجمع النوم ، وليل التمام - بكسر التاء - أطول ليالي الشتاء ، والسليم :
المدوخ ، والقماقع : الأصوات ، كانوا يجعلون الحلى في يد المدوخ اعتقادا منهم
بأنها تكشفه .

(٦) تناذرها الراقون : خوف بعضهم بعضا منها ، يريد أنهم من خبثها لا تجيب الرقي ؛
بل تجيب مرة ، ولا تجيب مرة .

ومن ثم نجد الشاعر البدوي الذي تحضر بفكره وعقله في ظل الإسلام لا يخرج على المعاني البدوية في انوضوح والصراحة والصدق، دون مبالغة أو تهويل، فهو في ظل القيم الإسلامية صريح واضح صادق، كما كان في ظل القيم البدوية؛ إذا كانت تلك القيمة من القيم البدوية التي أقرها الإسلام وحرس عليها ودعا إليها بمثل وأحلاقياته، ولعل في مدائح العباس بن مرداس وكعب بن زهير، وحسان وعبد الله بن رواحة ومفاخرهم الإسلامية ما يؤكد ذلك ويقرره. فهم إنما يفخرون بما هو قائم، وإنما يمدحون بما صدر عن المدوح من حميد الأعمال، وما يتصف به من كريم الخلال.

فمدح العباس بن مرداس في إحدى خرياته يعتز بأنه وقومه نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودين الرحمن، مركبوا الموت دون خوف:

واذكر بسلام سليم في مواطنها	وبى سليم لأهل الفخر ملتخر
قوم هم نصرُوا الرحمن واتبعوا	دين الرسول وأمر الناس مشتعرا
ومح يوم حنين كان مشهدنا	للدين عرا وعد الله مدخر
إذ نركب الموت محضرا بطائه	والخيل يسجاب عنها ساطع كدر

وهذا كعب بن زهير - في أخبار جاهليته - يمتدح لرسول الله، ويضطر إلى الاستواء في ذلك، دون أن يخرج إلى التهويل والمبالغة، لعل أنه هذا النهج ليس مما يستسيغه الرسول صلى الله عليه وسلم.

أثبت أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة ال	مقرآن فيها موايعظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم	أذب ولو كثرت في الأقاويل

وهذا حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم فلا يتجاوز الاعتدال، ولا يشد من ذكر الحقائق:

ألا أبلغ أبا سفيان في	فأنت مجوف نخب هـواء
أن سيفونا تركتك عبدا	وعبد الدار سادتها الإمام
هوت محمدا فأجبت عنه	وعند الله في ذلك الجزاء
أتهجو وأست له بكفء	فشركا لخيركا الفداء
هوت مبارك برا حنيفا	أمين الله شيمته الوفاء

٢ - ويلاحظ أن المعاني والأفكار في الشعر الجاهلي - بدوية وحضرية - بسيطة
وطرية ، لا تعقيد فيها ولا تركيب ؛ فدور العقل فيها دور المحصى المتبوع ، لا دور الصانع
الركب ، أى أنها معان حسية لم تخضع لصناعة العقل ، فهي على حالها لم يطرأ عليها
تغيير أكثر من ضم بعضها إلى بعض ، على نحو ما نرى في تأني التمس على الرضوخ
للهموان والضميم ، فيقرر أنه لا يقبل الهموان كريم ولا عاقل ، ولا يرضى به إلا حمار ذليل
أو جماد لا يعقل ، وذلك في قوله (١) :

إن الهموان حمار الأهل يرميه والحري ينكره والرسلة الأجد (٢)
ولا يقسم على خسف يراد به إلا الأذلان: غير الأهل والوند (٣)
هذا على الخسف معقول برمته ودا يشج ولا يبكي له أحد

فالهموان لا يقبله إلا من يشبه هذين - الحمار والوند - في الرضا بالذل ، وعدم
الإحساس بما يصنع به

إن الشاعر يتمدح بالأنفة وإباء الضيم ، ويرى أنه لا يقبل الضيم عاقل ، وإنما هو
أحد اثنين ، حيوان يجهل ما يراد به ، أو جماد لا يدري من أمره ولا من أمر غيره
شيئا ، وكل منهما وضع في موضع التسخير والإذلال ، وواضح أنه استمد هذا الملحق
من بيئته التي يعيش فيها ، دون أن يعيب إليه من عنده شيئا ، سوى أنه قرن
هذا بذلك .

وطى نحو مارأيا في تصوير رهير الحرب في صورة بشة تدعو العقلاء إلى النفور
منها والبعد عنها ، فهي أسد ضار ، ونار مشتعلة ، ورحى تطحن للتجاربين ، وأنثى
لا تلد إلا الأبناء المشؤم ، وتجارة لا تروح مالا ، ولا ريب في أنها معان مطروحة في
البيئة لم يصنعها عقل الشاعر بقدر ما لاحظها وانتأها من بين غيرها ليمر بها الحرب
فيحقق مقصده ويفر منها .

(١) انظر حماسة البحتري ص ٢٠

(٢) الرسالة - بفتح فسكون - الدافق الذلول ، والأجد - بصم الهمزة والجسيم -
الموثقة الخلق .

(٣) المير - بفتح فسكون - الحمار .

وهذا المنهج في اساطة المعاني يسير عليه عدى بن ريد شاعر النعمان في مختلف فنونه الشعرية من حريات ومواظله واعتداليات ، من ذلك قوله .

من رأنا واحداث نمسه	أنه موف على قرن روال (١)
وصروف الدهر لا يبق لها	ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد اناخوا عدينا	يشربون الخربالماء الزلال (٢)
عمروا دهرنا بميش حسن	آمنى دهرهم غير عجال
ثم أضجروا نصف الدهر بهم	وكذاك الدهر يودي بالرجال
وكذاك الدهر يرمى بالفق	في طلاب الديش حالا بعد حال

ووجودنا هذا وشك الزوال ، ولن يفات من الموت كائن حتى صم الجبال ، فليس في هذه الدنيا واحداثها ما يفتح باب الأمان لها ، ولا يخذ عن إنسان بما توهمه حياة بعض الناس ، وما عليه إلا أن ينظر في مصيرهم ، مذاك مصير كل حي .

ولا تكاد تجد شاعرا بدويا أو حضريا - يخرج على هذا المنهج ، فهم جميعا لا يصنعون معانيهم ، وإنما يستمدونها من البيئة المحيطة بهم ، فيضمون بعضها إلى بعض لتتحقق المقصود ، حق في تلخيص خبراتهم وتقديمتها في صورة حكم ، لا يلجأ الشاعر إلى تركيب معانيه وتقديمتها في صورة عقلية ، وإنما هو ملاحظ محض ، كما نجد في حكم زهير بن أبي سلمى ، حين يقول :

فلو كان حمد يخلد للناس لم نمت واسكن حمد الناس ليس يخلد

وحين يقول :

وهل يلبث الخطى إلا وشيجه وتفرس إلا في منابتها للخلد

وكما نجد في حكم الباقية إذ يقول :

ولست بمستبق أحدا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

فأنت مع لشعر العربي الجاهلي أمام معان إنسانية حسية يقدمها الشاعر بما يترأى له في بيئته ، دون أن يتحول بها إلى معنى ذهني أو صورة عقلية مركبة أو معقدة .

(١) القرن - بفتح مسكون - الطرف . (٢) للماء الزلال : الصافي .

ويلاحظ أنها قريبة المأخذ ، فهي مع صراحتها وبساطتها لا عمق فيها ، وكيف
يتعمق من حرمة بيئته الاستقرار والهدوء ؛ فهو دائم الحركة ، مستمر الرحلة ، لا ينزل
إلا لينحل ، ولا يقيم إلا ليسافر ، سواء كان من ساكني الحضر أو قاطني البادية ؛
فظروف الحياة في شبه الجزيرة دأمة للتقلب والتغير .

ولكنهم استمضوا عن عمق الفكرة بدوة العجز ، في تتبع الحركة ، واستقصاء
المشاهد ، غفلوا من شعرهم لوحات تتجسم فيها الملقى ، وأشخص الأحداث والمواقف
كما في قول زهير بن أبي سلمى يصف ممدوحه حين يستنث بهم فيطيرون إليه بخيلهم .
ورما هم ليسعدوه بما ألم به ، غير هيا بين ، فالقتل إحدى أمانهم من قديم (١) :

إذا فزهوا طاروا إلى مستغيثهم طوال الرماح لاضفاف ولا عزل (٢)
فلن يفتنوا فيشتقي بدمائهم وكانوا قديما من مناسياهم القتل
وكا رأينا آنفا في وصف البقرة الوحشية التي شبه بها ليبد بن ربيعة العاصري ناقته .
وكا في قول زهير يصف أحد مشاهد الصيد ؛ فيلم بدقائق الحدث حتى يحملنا
نعايشه ونحس بإحساسه ، وتلف تاهقه .

إذا ما غدونا نفتنى الصيد مرة متى نره فإننا لا نخافه (٣)
فبيننا نبغى الصيد ماء غلامنا يدب ويخفي شخصه ويضائله
وتال : شياء رائعات بقرة يستأسد القرمح حو مسايه (٤)
ثلاث كأقواس السراء ومسجل قد أخضر من لس العمير جحافل (٥)

(١) ديوان زهير ص ١٠٢ .

(٢) عزل - بضم فسكون - جمع أعزل : من لا سلاح له ، وفزعوا : نهضوا للآغاثة .

(٣) نخائله : تمسك به وصيده دون أن يرانا .

(٤) المستأسد . البت الذي طال ، والقرمح : مجارى الماء ، والجور . البات

الضارب إلى السواد

(٥) السراء : سير تؤخذ منه القسي ، شبهها بها في الضمور ، والمسجل . حمار
الوحش ، والعمير : نبت ، ولسه : أحده بمقدم القم ، والجحادل من الجير والإبل
والخيل بمرة الشفاء

وعلى هذا سار شعراء الحضرة في معانيهم ، كما نجد أمراً القيس في وصف مرسه وهو يجري :

وقد افتدى والطير في وكناتها بنجرد قيد الأوابد هيكل (١)
مكر مفر ، مقبل مدبر معاً كجلود صخر حطه السيل من عل (٢)
كيت يرل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل (٣)

وكما نجد الأعشى في تصوير جيش عمرو بن الحارث النخعي ، حيث يصور جماعات الطير من النسور والمقبان تتبع الجيش تنتظر رادها من أشلاء القتلى :

إذا ما غزوا بالجيش خلق فوقهم مصائب طير نهدي بمصائب (٤)
يصادونهم حتى ينزرن منارهم من الصاريات بالدماء الدوارب (٥)
تراهن حلف القوم خزراً عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المراتب (٦)

ومن هذا للانطلاق في الماني حرصوا في أوصافهم على أن لا يخرج عن نطاق الموصوف المعسوس ، وحرصوا في مدائحهم على أن لا يخرج عن المعتمدة التي دعت الشاعر إلى المدح شكراً عليها وعرفاناً بها دون مبالغة أو مغالاة ، وأقاموا مراتبهم على تمديد مناقب الميت ، وبكائه والتمحيص على الثأر له إن كان قتيلاً ، دون أن يتعمقوا في أسرار الموت أو يتجاوزوا سطوح الأحداث ، بل إن من تناول الموت في حديثه لم

(١) الوكنات جمع وكنة - بضم الواو - مواقع الطير، المنجرد : الماص في السير، والأوابد جمع أبدة : الوحوش ، والهيك : الفرس العظيم الجرم .
(٢) مكر - مفعول - اسم آلة من كر إذا عطف ، ومفر : اسم آلة من فر ، جملة كأنه آلة الكر والفر ، والجلود : الحجر العظيم الصلب ، وحطه : القاء ، من عل : من فوق .

(٣) الكيت : ما كان لونه بين الأسود والأحمر ، والحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس ، والصفواء والصفوان : الحجر الصلب .
(٤) المصائب : الجماعات .
(٥) الصاريات : المتعودات ، والدوارب : المدربة .
(٦) خزر الميرون - بضم الخاء - جمع أخزر : الذي ينظر بؤخر عينه ، والمراتب : ثياب سوداء .

يقنأوله من الوجهة العقلية الخفية ، إنما تناوله من الوجهة البارزة المكشونة ، فالوت ضرورى محتوم لا يمنع منه مانع ، ولا يصح من عاقل أن يفر منه ، هل ما رأينا فى عيانية أبى ذؤيب . ونحذفون فى غزلهم عن جبال المرأة ، وما أقاموا من علاقات فى صراحة تسكاد فى بعضها تخدش الحياء ، بيد أن بعضهم قد سار بالازل مسارا نفسيا فيه شيء من التعمق والأناة على ما رأينا فى نونية عنتره .

هذا ويظن كثير من الدارسين أن معانى الشعر الجاهلى - بدوية وحضرية - ضعيفة التماسك ، راحة الروابط ، فهى معان مفككة ، قائمة على الاستطراد ، بحيث تستطيع أن تقدم فيها وتؤخر ، وتحذف وتضيف ، دون أن تتأثر بذلك القصيدة ، فهى ليست - كما يتطلبه النقاد المحدثون - بناء عضويا تاما ، بقدر ما هى مجموعة مشاهد أو مواقف لا يشد بعضها إلى بعض رباط وثيق ، وإن كانت تسمى وحدة عامة ، وإطار - محدود ؛ فالقصيدة الجاهلية - على ما يرون - خالية من الوحدة الفنية ؛ فليس فيها وحدة بناء ولا وحدة غرض

ويعلل هؤلاء ما يرونه بعدم معرفة العرب الجاهليين بالترتيب المطلق أو النظر الفلسفى ، مما اضطرهم إلى رؤية المشاهد مقطوع بعضها عن بعض ، فلا صلة ولا نظام .

وفى الحق أن هذا رأى مجاف للصواب ، بعيد عن الواقع ، دمع إليه التمجلى فى الحكيم ، أو التسليم بما قرره بعض المستشرقين دون أناة وترو ، ومماودة نظر فيما بين أيدينا من شعر هؤلاء . ولو أننا قبل أن ننظر فى الشعر الجاهلى ترفنا على دقائق الحياة البدوية - على ما فى ذلك من عسر - ونقلنا أنفسنا لشاركهم معيشتهم ونجاورهم فى بيئتهم بكل أبعادها لما وجدنا فى شعرهم هذا التفكك المزعوم ؛ فالمعيب علينا نحن ؛ لأننا ندرس شعر قوم لا نعلم من أحوال معيشتهم ، ومن ظروف بيئتهم إلا النذر اليسير ، فكيف نمنسب أنفسنا قضاة يتضون القضاء المبرم فى شعرهم .

على الدارس الصادق النية أن يتوقف عند كل إشارة ترد على ألسنتهم ويبحث عن مدى أثر ذلك فى علائقهم الإجتماعية والشخصية ، وأن لا يمر من الكرام على تلك الأما كنن التى يتحدثون عنها ويقفون عليها ، بل لابد لنا من تعرف على تلك الأما كن

وذكرياتهم فيها ، كما يجب على الدارس أن يعنى بالتعرف على حال الشاعر النفسية قبل أن يصدر حكمه على ما يقول

إننا إذا ما نجحنا في تحقيق ذلك قبل مواجهة شعرهم ضمننا لأنفسنا النجاح في أن نصدر في أحكامنا من فوق أرض صلبة لاتهمز من تحت أرجلنا . وهذا ما سوف نحاوله مع بعض شعرائهم إن شاء الله تعالى .

وصفة القول في هذا أن ما صدر على الشعر الجاهلى - في هذا الميدان - من أحكام لا يقوم على الدراسة العلمية الموضوعية الخالية من الزيف ، بل هي أحكام لاتخلو من التجنى والارتجال والتسرع .

* * *

أما الخيال فيقصد به الصورة التي يرى الشاعر فيها معانيه بخياله بعد تأثره بها ، أو هي الترجمة العاطفية للحقائق العقلية التي يتكلم منها الموضوع .

فإذا كانت المعاني خاضعة لثقافة الشاعر ومعارفه العقلية الخاصة ، وإن الأخيلة خاضعة لعواطفه وتأثراته وانفعالاته الخاصة كذلك ، فليست واحدة منهما من المشتركات العامة ، وإنما كل منهما يختلف من شاعر لآخر وفقا لما خضع له عقله وحسه من مؤثرات يحمل أو تدق .

والناظر في الشعر الجاهلى - بدوية وحضرية - يلاحظ أنه حافل بألوان الخيال - سواء في ذلك الخيال الابتكاري والخيال التفسيري^(١) - غير أنه لا يخرج عن حدود البيئة الجاهلية ، يمثل ذلك قول عبد العزى الطائي موضحا حرصهم على الثأر :

(١) الخيال الابتكاري هو الخيال الذي يقوم على الابتكار ، حيث يعتمد فيه صاحبه على تكوين مجموعة من العناصر المختزنة في القهن ؛ ويلها من شتات ليصنع منها صورة جديدة تكشف عن إحساس داخلي تجاه موقف أو مشهد . أما الذي يقوم على التفسير والتصوير فهو ما يقدمه الأديب من إضافة الصورة التي يراها ويعبر عنها إلى صورة أخرى أقرب منها إلى إدراك المتلقين ، وأوضح في تصوراتهم ، ويعتمد في هذا النوع من الخيال على فنون البيان من تشبيه واستعارة وكناية إلى غير ذلك . انظر للمؤلف كتاب في الأدب العربي المعاصر القسم الثاني ص ٧٥

إذا ما طلبنا تبلننا عند معشر أبيتنا حلاب الدر أو نشرب الدما^(١)
فالشاعر يرى الحرص على الثأر في صورة رفض الدية بالغة ما بلغت ؛ لأن قبولها
فقد الدل والهوان ، ولذا جعل رفضها إباء وليس مجرد رفض .

وعلى هذا النحو يواجهنا تأبط شرا ، حيث يبرز الحرص على الثأر في صورة الثريزة
طرية التي لا يهدأ له بال ، ولا يغمض له جفن حتى ينال ثأره ، وذلك في قوله :
قليل غرار النوم أكبر همه دم الثأر أو يلقى كميًا مسقما
فطالب الثأر ولقاء البطل الذي سقمت وجهه الهواجر أكبر ما يهتم به وينصب له .
والشاعر يرينا هذا الاهتمام والصبب الدائمين في قلة النوم التي يعاني منها .

كما يمثل قول امرئ القيس في وصف الدهر :

أزال من المصانع ذا نواس وقد ملك الحرونة والرمال^(٢)
وأشعب في الحالب ذا حليل وللزباد قد نصب الجبال^(٣)
ونجح كندة الأحبار طرا يهـرو واصطفي حجرا فزالا

ومثل قول الشفري في وصف الذهب الجائع :

فهدا طابوا يمارض الريح هاما يخوت بأذنان الشباب وبعل^(٤)
فلما لواء القوت من حيث أمه دعا فأحابت به نظائر نحلى^(٥)

(١) التبل - بفتح فسكون - الثأر ، وحلاب الدر : الإبل التي تحلب ويشرب لبنها .
- حماسة البحترى ص ٢٨ طبع بيروت ، والمفصليات القصيدة رقم ٤٢ ، والأصمعيات
بيدة رقم ٤٢ .

(٢) المصانع - الحصون والقصور ، وذو نواس : ملك اليمن ، والحرونة : الموضع
خطه ، يريد ملك السهل والجبل

(٣) أشعب في الحالب : يعنى أشعب الدهر محالبه في ملك من ملوك حمير يقال له
أصميج . ويقال للسكبد الحليل .

(٤) يمارض الريح : يتقبلها ، وهاما : مسرعا ، يخوت : يعض ، والأذنان -
أراف ، والمسل : المشى السريع .

(٥) لواء : مطه وامتنع عليه ، أمه : قصده ، نحل جمع ناحل : الهزيل .

مهلهلة شيب الوجوه كأنها قداح بكفى ياسر تتقلقل (١)

وكذلك الشأن في الخيال التفسيري ، فهو مستمد من البيئة الجاهلية حيث يخلق الشاعر فيفتزع من البادية أو الحاضرة الجاهلية الشكل أو الهيئة القريبة التي تبرز رؤيته الخاصة في صورة تشبيه أو استعارة أو كناية ، وهو في ذلك دقيق ، يجمع الاطراف من هنا وهناك فتتراى جليلة واضحة ، كما تتميز بالعارفة والروعة على الرغم من تكرارها وتشابهها ليس في شعر الشاعر حسب ، بل في شعره وشعر غيره ، ولقد بلغت بهم دقة التصوير هذه حدا جعل من الميسور علينا أن نتعرف على مواطنهم بما فيها من هضاب وسهول وأودية ، وبما تحتويه من حيوانات متوحشة ومستأنسة ، ونتعرف على مألوفاتهم وعاداتهم وأعرافهم ، وما كان يدور فوق أرضهم ، كل ذلك نراه ونتعرف عليه إذا ما نظرنا في أختيتهم التفسيرية ، مثل قول الأعشى في مدح الحاق :

لشيب لقرورين " يصطليانها وبات على الغار الندى والمعلق

مثل قول عليم بن أرقم في وصف المرأة :

بيوما توافينا بوجهه مقسم كأن ظبية تمطو إلى ناضر السلم (٢)

ومثل قول المنخل الميثكري :

ولئنهم - أ - فتلتحت كتففس الظفر الهير

ومثل قول المهامل في حديثه عن طول الليل ، يرى النجم في بطشه يشبه انفصال الصغيرة التي تجول في المطر فتخشى الرلق فلا تسرع :

كأن النجم إذ أوى سحيرا فصال إجان في يوم مطير

أما لاكواكب فيراها في ثباتها وعدم تحركها كأنها فوق حدبات التناج عطلت على وليدها فهي لا تتركه :

(١) مهلهلة : قليلة اللحم ، القداح : أداة القمار ، والياسر : المقامر ، وتتقلقل :

تتحرك وتضطرب .

(٢) المقسم : الجميل المتناسق ، يقال قسم الوجه حسن ، تمطو : تقناؤ ، والسلم :

شجر بدوى .

كأن كواكب الجوزاء عوذ ممطلة على ربع كدير^(١)

وامرؤ القيس بمدثنا عن طول الليل فيراه بعيرا ثقيلا يتمطى ، ويرى نجومه
مشدودة إلى الجبل بحبل متين فلا تتحرك :

فقلت له لما تمطى بصاحه وأردف أعجازا وناء بكلكل^(٢)

فيالك من ليسل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت يذبذل^(٣)

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل^(٤)

ولعل ارتباطهم يبيثهم الارتباط الوثيق في معانيهم وأخيلتهم هو القى فرض عليهم
المحدودية والحسية في المعاني والأخيلة

يبدأنهم أكسروا تلك الحواجز وتجاوزوها بما ولدوا من المعاني وما ابتكروا
من الأحيلة .

كما أنهم لم يستعملوا الحسية المعاني والأخيلة حق لا تتحول إلى تعانيل حامدة تشيع
الضيق واللل ، بل أمدوها بأسباب الحياة بما حرصوا عليه فيها من دقة التصور والمستقصية
فأصبحت الصور مسرحا لحركة واقعية تترامى فيها تحركات الكائنات المصاحبة لهم في
عصرهم ، فأنت أمامها كأنك تعيش بينهم ترى ما كانوا يرون وتتعامل كما كانوا
يتعاملون معها ، على نحو ما ترى في مطلع معلقة زهير بن أبي سلمى التي يتحدث فيها
عن مائل حبيبته المسكية بأمر أوفى :

أمن أم أوفى دمنة لم تسكلم بحومانة الدراج المثلث^(٥)

(١) عوذ جمع عأدة الناقة حديثه النتاج ، والربع بضم فسج : للفصيل ينتج في
الربيع ، وهو أول النتاج

(٢) عطى . تمدد ، والأرداف : الأنباع ، والأعجاز . المآخير ، وناء : بعد ،
الكلكل : الصدر .

(٣) معار الفتل : محكم الفتل ، بديل : اسم جبل بسجد .

(٤) الأمراس : جمع مرسة : العجان ، والمصام : موضع الوقوف ، والجندل :
الصخر ، والمصم جمع أصم : الصلب .

(٥) الدمنة : ما أسود من آثار الدار ، وحومانة الدراج ، والمثلث : موضعان .

ودار لهما بالرقتين كأنها مراجيع وشم في نواشر المعصم (١)
برا المين والآرام يشين حلقة وأطلاؤها ينهض من كل مجثم (٢)

رائظر فيما قدمنا في فن الوصف من معلقة امرئ القيس يصف البرق والمطر من معلقة لبدي يصف الديار المشية ، ويصف البقرة الوحشية وما قدمنا من شعر زهير يصف مشهد الصيد ، إلى غير ذلك تجد أمامك للشخصيص الحى المتحرك الماطق النابض القلب

وصفوة القول أن الشعر الجاهلى - بدوية وحضرية - في معانيه وأحليته وتيق الارتباط بالبيئة الجاهلية - بادية كانت أو حاضرة - ؛ فهى السبع الذى استمد منه الشعراء معانيهم ، ومن أحداثها نسجوا أخیانهم ، وكانت صدى صادقا للحياة الجاهلية وما يتردد في أجوائها ومن ثم تميز شعرهم عن شعر غيرهم ، ففاض بالحركة الواسعة التى لا تكاد تتوقف منذ مطلع القصيدة حتى منتهى سوان كان الشاعر فيها موضوعا أو دانياء

الخصائص المضمونية

المقصود بالمضمون أو المحتوى الشعرى هو تلك الفنون الشعرية التى يتناولها الشاعر وما يتضمنه كل فن من أحداث ومواقف ، وأنت حين تنظر في مضمون الشعر الجاهلى ترى الحياة البدوية الجاهلية في الشعر البدوى ، كما ترى الحياة الحضرية بمختلف ألوانها في الشعر الحضري بكل شخوصها وأحداثها ، فلا يكاد الشاعر يتناول موضوعا خارجا عن بيئة ؛ فصدقهم ليس فى التعبير عن الموقف حسب ، بل هو كذلك شامل

(١) الرقنتان : مرتان إحداها قريبة من البصرة والآخرى قريبة من المدينة ، والمراجع جمع مرجوع من قولهم رجمه رجما ، أراد الوشم المجدد ، ونواشر المعصم هروقه ، الواحد ناشر ، والمعصم موضع السوار من اليد .
(٢) المين أى البقر المين ؛ واسعات الميون ، والآرام جمع ريم : الظى الأبيض حالى البياض ، وخلة : يخاف بعضها بعضا ، إذا مصى قطع منها حاء قطيع آخر ، والأطلاء جمع الطلاء : وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية ، والجثوم اللسان والظير والوحوش بمنزلة البروك للبعير .

للاصدق في تناول الموضوعات ، حق ما هو قائم على الخيال من تلك الموضوعات لن تجدده طارئا على يثنته ، إنما هو موجود بالفعل فيها ، سواء كان وجود الموضوع ملاسا للشاعر أو لغيره ، فموصوفات البدو عربية بدوية جاهلية ، والمرأة التي يقتنولونها في غرلهم عربية بدوية جاهلية ؛ والخلائق التي يتمدحون أو يفخرون بها خلائق ونموت عربية بدوية جاهلية ، وأحاسيسهم ومشاعرهم وتجاربهم التي يضمنونها حكمهم عربية بدوية جاهلية كذلك ، فأنت مع الشعر البدوي إذن منمرور في الحياة البدوية الجاهلية تماما .

وكذلك الحال مع شعر الحاضرة لا يشتد الشاعر فيه على يثنته ، وإنما هو في كل ما يتناول خاضع لقيمه وأخلاقياتها وأعرافها ، من ثم لم يكن غريبا أن نجد الشعر العربي الجاهلي يجمع بين التناقضات في مضامينه أو ما يشبه التناقضات ، فبينما نجد الشاعر البدوي يتمدح بالمعة والسكرم والشجاعة في مواجهة الأعداء نجد الشاعر الحضري الذي عاش العصر بحمصه وحمصه يتمدح بالجرأة على التسلل إلى المرأة في فراش زوجها ، واستهلاك الماء في الخمر والقمار والجري وراء المتع الجسدية ، أما الشاعر الحضري الذي عاش الحضرة العسكرية والقصيدية في ظلال الإسلام ، فإنه يتجه بهنجره اتجاهها يخالف اتجاه شاعر البادية الخالصة واتجاه شاعر العصر المأدى ؛ إذ يذوب شخصه في أمته وقومه ، وهو لا يمتزج بمسلك شخصي إلا أن يكون هو المسلك الجماعي ، ولا يفخر إلا بما يتلاءم مع قيم الإسلام ومبادئه كما رأينا في شعر العباس بن مرداس ، وحسان بن ثابت وكعب بن زهير ، وعبد الله بن رواحة وغيرهم

* * *

وهم في هذا على خلاف غيرهم من الشعراء ، إذ نجد كثيرا من أشعار البيئات الأخرى غير العربية توغل في الأحداث الخيالية المنفرة التي لا واقع لها إلا في الخيال والتصور ، على نحو ما نرى في أساطير اليونانيين ؛ فالأحداث التي ضمنها اليونانيون أشعارهم أحداث أسطورية غريبة تمثل مرحلة من مراحل الطهولة العقائدية ؛ إذ هم يتحركون من منطلق يخالف عن مطلق الشعراء العرب الجاهليين ، وبينما ينطلق اليونانيون من بيئة ينصنع

أمرادها لقوانين تمنح السطوة والسلطان لطائفة مخصوصة ، ينطاق العرب في بيئة لاسلطان على الفرد فيها إلا لأخلاقه وأخلاق أسرته ، وبينما يتحرك اليونانيون حركة محسوبة عليهم من السادة محددة لهم ، يتحرك العرب الجاهليون حركة مطلقة إلا بما يقيد هو به نفسه

ومن ثم لم يكن غريبا على الشعر الاوربي القديم أن يكون مضمونه ملحيا أسطوريا ، كما لم يكن غريبا على الشعر العربي الجاهلي أن يكون مضمونه موضوعيا بدويا ، بل الغريب أن يتضمن أحدهما ما تضمنه الآخر ؛ لأن البيئة هنا كانت تختلف عنها هناك ، والبيئة الاوربية الخاضعة للنظام الاجتماعي القائم على تقديس طائفة من الناس لثانيهم - هم من يتسلمون كرسي الحكم - كانت تتيح لهؤلاء القديسين أن يفرضوا سلطانهم ويحيطوه بالنسوة والعنف والجبروت، مما ألجأ الناس إلى أن يهربوا من ذلك الواقع الأليم إلى واقع آخر يصنع لهم الخيال يجدون فيه المتعة إلى حوار بطولات أسطورية مصنوعة تحدث ما يتمنون هم أن يحدثوه ولكنهم يعجزون عنه . إلى غير ذلك مما تجده في أشعار هؤلاء الاوربيين القدماء . والامر في البيئة العربية البدوية الجاهلية كان على خلاف ذلك - كما ألحنا في مبتدأ هذا الحديث - لم يكن هناك ما يدفع البدوي إلى أن يلجأ إلى عالم الخيال يأسج فيه شخصيات أبطاله ويصنع الأحداث والمواقف الأسطورية المثرة .

نعم الفنون الشعرية مشتركة بين الشعراء على اختلاف بيئاتهم ، لكن الذى يتميز به شعر بيئة عن أخرى هو ما يتناولهُ الشاعر من حقائق يَبْئُتهُ ، فالوصف مثلاً من شعري تجده في الشعر اليوناني القديم ، وتجده في الشعر الروماني ، وتجده في الشعر العربي الجاهلي وتجده في الشعر الفارسي كما تجده في الشعر الحديث ، لكن الموصوف عند قدامى اليونانيين غير الموصوف عند العرب الجاهلين ، وما تجده عند البدو الجاهليين غير ما تجده عن الحضرة الجاهليين وما تجده عند هؤلاء وأولئك لا تجده في شعر الفارسيين وقال مثل ذلك في كل فنون الشعر بل إن في الموضوع الواحد اختلف في شعر البيئة الواحدة تبعاً لاختلاف البيئة الخاصة للشعراء ، فالبطولة التي يجدها عترة في نحو قوله .

ما استمیت انی نفسہا فی موطن
و اغمس طرہی مابدت لی جاری

حق ارفی مہرہا مولاہا
حق یواری جاری مآوہا

إني امرؤ سمع الخليفة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواما
البطولة التي يعتز بها عنزة هنا هي تمسكه من نفسه ، وسيطرته عليها ، وكبحه
جأحها ، فلا ينال من أنثى شيئاً بدون حق مشروع . هذه البطولة لاشك تختلف عن
البطولة التي يفخر بها عروة بن الورد ، الذي يؤمن بأنه خلق لرعاية الضعفاء والمهلك
من قبيلته ، ويستقد - لذلك - بأن البطولة هي قيامه على هذا الذي خلق له ، وليس
مقبولاً لديه أن تهلك عشيرته (معتم وريد) وهو قاعد في الحى ، لا يخاطر بنفسه من
أجلهم ، فذلك عار أى عار ؛ إذن فالبطولة أن يقتحم مع رفاته من الصعاليك حتى
بعض القبائل ليحصلوا منها على ما يشاءون من الفنائم ليقدموا للمحتاجين ما يشبعهم ،
وذلك في قوله :

أهلك معتم وزيد ولم أقم	على ندب يومى ولى نفس مخطر (١)
ستفزع بعد اليأس من لا يخافنا	كواسع فى أخرى الوام الممر (٢)
نطاعن عما أول القوم بالقسا	وبيض خفاف وقمن مشهر (٣)
ويوما على غارات نجد وأهله	ويوما بأرض دات شت وعرعر (٤)
يرح على الليل أضياف ماجد	كريم ومالى سارحاً مال مقتر (٥)

وهذه وتلك تختلف عن بطولة الشنفرى التي يعتز بها في قوله :

-
- (١) معتم - بضم مسكون وفتح - وريد : بطنان من عبس . وندب - بفتح النون
والدال - خطر .
- (٢) كواسع : خيل تطرد إبلاء وتسكسها . والوام : الإبل السائمة . وأخرى :
آخر ، والمنفر : الذعور .
- (٣) البيض : السيوف ، وفي البيت على هذه الرواية إقواء ، ورواية الديوان
(ذات لون مشهر) ، وعليها فلا أقواء .
- (٤) الشت - بفتح الشين - والعرعر - بفتح مسكون - من أشجار البادية .
- (٥) يريح : يرد ، ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبلاه ، وسارحاً :
سائماً في المرعى ، ومقتر : فقير مقل

وليلة نحس بصطلى القوس رها واقطمة الاتى بها يتبل (١)
دعست على غطش وبغش وصحبتى سمار وارربز ووحروأفكل (٢)
فأيمت نسوانا وأيمت إلهة وعدت كما أدأت والليل اليل (٣)
وأصبح عى بالغميصاء جالسا هريقان ؛ مسشول وآخر يسأل (٤)

فالبطولة هنا فى المقدرة على تحشم الصعاب فى سبيل الفلك والقتل والعدوان ولا شك فى أن كلا منهم ضمن شعره ما ضمنته ناسه بتأثير بيئته الخاصة داخل إطار البيئته البدوية، فأصبح خاصة من خواص شعره التى يتميز بها .

ولا ريب فى أن البطولة البدوية تختلف تماما عن بطولة الحضارة المادية ، واتى بمثلها امرؤ القيس فى قوله :

ويضة خدر لايرام خباؤها تتمعت من لمو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا وأهوال مشر على حرامس لو لشدون مقنلى
حقت وقد مضت لنوم ثيابها لدى السر لا لبسة المنفصل
فقال . عين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك العاية تنجلى

وكذلك انشأن على النطاق العام ، تحدث البيئته العربية فى الشاعر العربى ما يوجهه إلى مضامين خاصة يتميز بها الشعر العربى عن غيره من الشعر . فالحديث عن النباى والظباء ، وحمر الوحش ، والخيول ، والدئاب ، والخيول ، والرمال ، والرياح ، والسكواكب ، والأمطار ، والسيوف ، والرماح ، والببال . إلى غير ذلك من أبر خواص الشعر البدوى .

-
- (١) النحس : الجهد والضر والرد ، يصطلى القوس - بها . يوقدها ليتدفى بها ،
والأقطع - بضم الطاء - جمع قطع بكسر القاف : فصل السهم ، يتبلل - يتخذ منها النيل .
(٢) دعست : مشيت ، والغطش : الظلمة ، والبغش : الطراف الخفيف ، السمار : شدة
الجوع ، الارربز : الرد الشديد : الوجر . الخوف ، والأفكل : الوعدة والإرتعاش ،
(٣) أيم المرأة أفقدها زوجها حياها أيا ، والأليل : شديد الظلمة .
(٤) الغميصاء : مكان بنجده .

الخصائص الاسلوبية :

الأسلوب هو الصياغة اللفظية التي تشف عن الممانى والأخيلة التي يعبر بها الشاعر عن المضمون ، وهو - كذلك - القالب الفني الذي يصب فيه الشاعر معانيه وأفكاره ، مستجيبا لتكوينه الفني الذي وجهته إليه بيئته . والشاعر الصادق تناسب من بين شغفه الألفاظ المناسبة لشعوره وأخيلته ومعانيه في الشكل الذي يتلاءم مع البيئة التي نشأ فيها طبيعيا واجتماعيا ودنيا ؛ ولذلك كانت أساليب الشعر مرآة تمكس مضمونه وأخيلته ، فهما متلازمان ، ترى في الألفاظ ما يحس به الشاعر ، وتعرف من أحاسيس الشاعر على طبيعة الألفاظ .

١ - والنظر في شعر البدو الجاهليين يجد ألفاظه جزلة قوية - على وجه العموم - بيد أنها تتردد بين الوعورة والحشونة وبين السلاسة والمذوبة بما يتلاءم مع المحتوى الشعري ، والجو النفسي الذي يفرضه الموضوع على الشاعر .

فمع الجزالة والقوة ترى الحشونة في الألفاظ الشعرية ، حين يعزى نفسه عن اعتزال الناس إياه بصاحبة قلبه الشجاع ، وسيقه الصارم وقوسه الحيدة للصنع ، وذلك في قوله :

وإني كغمانى فقد من ليس حاربا	بحسنى ، ولا تى قربه متمل (١)
ثلاثة أصحاب . - وؤاد مشيع	وأبيض إصايت ، وصفراء - يطل (٢)
هتوف من الماس المتون يزنبها	رصائع بيطلت إليها وعجل (٣)
إذا رل عنها السهم حنت كأنها	مررأة ععلى برن وتة - ول (٤)

وحين يصور صراع الحياة الذي يحوضه هو وأصحابه ضد محاطر الصحراء ومن يترصد من الأعداء ، يذكر أنهم يقطعون الغارة في النهار ، فإذا جنهم الليل وجدتهم

(١) التمل : التلهم .

(٢) مشيع - بصم الأول وفتح ما قبل الآخر - شجاع ، والأبيض : السيف ، والإصايت - بكسر الميم - المصقول ، والصفراء القوس ، واليطل - بفتح فسكون ففتح - الطويلة المدق . (٣) الهتوف : ذات الصوت المنغم ، والمتون : الطهور ، والرصائع جمع - صيمة : ما يرصع به ويحلى ، ونيطت به : علفت ، والمحمل - بكسر الميم وسكون الحاء - ما يعلق به القوس على الكتف .

(٤) رل السهم : حرج ، والمرزأة : كثيرة الرايا والمصائب .

في مغازة أخرى را كبين ظهور المهالك والمطاب ، دون رفيق - في الغالب - سوى أرجلهم التي تعودت العدو السريع ، وهم - لذلك - مغفوعون دائماً ، حتى في النوم ، فإذا ناموا لم ينم قلوبهم ، بل ظل يكأؤهم ويرعاهم حيلة العدو راصد من وحش أو إنسان ، بل إن النوم لا يكاد يلم بعيونهم إلا عرارا ، فهي معلقة بسيوفهم التي لا تلبث أن تستقر في صدور من يهجمون عليهم ، ويضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ ؛ فهم دائماً مستوحشون حتى أصبحوا يؤثرون الوحشة لما يرون فيها من الأنس ؛ إذ لا يأنسون إلا بالقنار التي تعودوا عليها فعرفوا دروبها ومسالكها معرفة تحملهم لا يضلون قصدهم كما لا تصل الشمس قصدها (١) :

يطل - بموهاة ويصيرها	جحيشا ، ويرورى ظهور المهالك (٢)
ويسبق وقد الريح من حيث يلتحى	بمخرق من شدة المتدارك (٣)
إذا خاط عينيه كرى النوم لم يرل	له كالىء من قلب شيهان فأنك (٤)
ويجمل عليه ربيضة قلبه	إلى سلة من حصد أخضر بآنك (٥)
إذا هـره في عظم قرن تهلت	نواجذ أهواء المسايا الفواحك (٦)
رد، الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى	بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك (٧)

كما ترى الحشونة في الفاظ رهير بن أبي سلمى حين يصف البقرة الوحشية التي يشبهه به ناقته في سرعتها في قوله :

(١) أمالى لىالى ج ٢ ص ١٣٨

- (٢) يظل : يندو ، والمومة : النلاة ، جحيشا : منفردا ، يرورى : يركب .
 (٣) وقد الريح : أولها ، يلتحى : يقصد ، والمخرق : السريع ، والشد : العدو ، والمتدارك : المتلاحق .
 (٤) خاط عينيه كرى النوم : نام ، والسكأى : الرقيب ، والشيهان : الجادى الأمر
 (٥) الربضة : الرقيب ، والسلة - بفتح السين - الواحدة من سل السيف ، والأخضر : السيف ، والبآنك : الدافع .
 (٦) القرن - بكسر القاف - الكف والنظير ، تهلت : تلالأت وأشهرقت .
 (٧) أم النجوم : يقصد الشمس .

كغلساء سفهاء الملائم حرة مسافرة مزعومة أم فرقة (١)
غدت بسلاح مثله يتقى به وبؤمن جأش الخائف المتوحد (٢)
وسامتين تعرف العتق ميمها إلى جذرمذلول السكوب محدد (٣)
وناظر تسين تطهران قذاها كأنهما مكحولتان بإعد (٤)
طباها ضجاء أو حلاء خالفت إليه السباع في كناس ومرقد (٥)

إلى آخر الأبيات التي ذكرناها في بحث رهير .

ومع الجزالة والقوة ترى السلاسة والمذوبة في نحو قول المهمل بن ربيعة في رثاء أخيه كليب :

دعوتك يا كليب فسلم نجفى وكيف يجينى البلد القفسار
أجبنى يا كليب خلاك ذم لقد خفت بفارسها نزار
سقاك النيث إنك كنت عينا وإسرا حين يلتبس اليسار

وتراها في قول الحساء ترثى صغرا :

قذى بمنيك أم بالعين عوار أم ذرفت إذخات من أهل الدار ؟
كأن عبي لقد كراه إذا حطرت فيص يسيل على الحدين مدرار

(١) الحساء : بقرة الوحش ، سميت بذلك لتأخر أبقها ، سفهاء الملائم ، السفح : سواد في حرة ، والملائم : الخدان ، ومزودة : مذعورة ، ومسافرة : ترحل من موضع إلى موضع ، والفرقة : ولد البقرة .

(٢) يريد بالسلاح قريبها ، والجأش : الصدر ، والمتوحد ، الوحيد المفرد .

(٣) السامعتان : الأذنان ، والعتق : الإصالة ، ومعروفة العتق ميمها كناية عن أن أذنيها محددتان متصبتان . إلى جذر : مع أصل ، فإلى بمعنى مع . ومذلوك : أمليس ، السكوب جمع كعب : مابين المقدين في القرن ، يريد أن قرنهما أملسان محددا الرأس .

(٤) الباطرتان : العينان تطهران قذاها : ترميان به وتنفيانه . والإعد : كهل أسود (٥) طباها : دعاها ، ضجاء : بفتح الضاد والحاء - رعى الضحى ، وخلاء : حلو المكان خالفت إليه : السباع : اختلفت إلى ولد البقرة : والكاس : بكسر الكاف - بيت في الشجر تستتر به البقرة أو تستر أولادها من الحر والبرد :

فالمين تبسكى على صخر وحق لها ودونه من جديد الأرض أسترار

وتراها في قول زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف :

يمينا نعم السيدان وجدتما على كل حال من سجيل ومبرم
تداركتما عيسا وذبيان بمد ما تمانوا ودقوا بينهم عطر مشم
وقد قلتما : إن ندرك السيم واسما بمال ومعروف من القول نسلم

كما نراها في قول عنتره يفخر بإقدامه وشجاعته

بكرت نخوفى الحتوف كأنى أصبحت من غرض الحتوف بمعرل
فأجبتها إن المنيسة منهل لابد أن أسقى بكأس المنهل

جزالة الألفاظ وقوتها هي السمة العامة في الشعر البدوي ، إذ يندر أن نجد في شعر بدوي لفظا رقيقا ، وإذا وجد كان - في الغالب - علامة السهل والتزييف ، أما خشونة الألفاظ على ممع المتأني فهي سمة تلازم بعض الشعر البدوي ، وينأى عنها البعض الآخر ، ويلاحظ أن الخشونة تغلب على الألفاظ حين يفخر الشاعر أو يصف ، كما تغلب السلاسة والعدوية حين يتفزل أو يرثى أو يمدح ، فهي إذن ليست من أمارات البداوة الخالصة ، بيد أن الجزالة والقوة هي الأمانة الناطقة على البدوي إذ هي الملازمة لاستدعاءات البداوة بما تحويه من أسباب الحياة .

* * *

أما الشعر الحضري فألفاظه تختلف باختلاف منشأ الشاعر ، ولون الحضارة التي تأثر بها ، فبينما يحتفظ الشاعر البدوي المتحضر لألفاظه بالجرالة والقوة ، يميل الشاعر الحضري الذي نشأ في الحضرة إلى الزفة والليونة فيها إلى الحد الذي يشكك المتأخرين في صحة ما نسب إليه من الشعر ، كما حدث لمدى بن زيد العبدي ، الذي قال فيه ابن سلام : « عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ، ويراكن الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد (١) » .

(١) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ١٤٠ بتحقيق محمود شاكر ، ومعنى يراكن الريف : يلارمه وبطل الإقامة فيه .

ويلاحظ أن شعر البدوى المنحضر مع قيامه - في العموم - على الألفاظ الجزلة ،
اختلف في بعض حالاته ، ومن حيث الوعورة والخشونة ، فشعر البدو الذين تأثروا
بالحضارة المادية في الحيرة وغيرها من عواصم الإمارات العربية في الجاهلية تردت
ألفاظه بين الوعورة والسهولة حسبما يستدعيه المقام ، أما شعر البدو الذين تأثروا
بالحضارة الإسلامية فإن ألفاظه ظلت وسطا بين الوعورة والسهولة ، فلم تخشن لدرجة
الصعوبة على المناطق والمسامع ، ولم تلن لدرجة الانحدار والهبوط عن مستوى الفصاحة ،
لقد تأثر الشعراء في ظل الإسلام بالألفاظ القرآنية ، وبالأحلاق الإسلامية ، ثمالوا إلى
القرب من السامعين ، والتأسق بين ما يلفظون وما يتناولون من فنون وأسكار .

٢ - والنظر في الشعر البدوى يلاحظ أن العبارات فيه تؤدي وظائفها الفنية في
وضوح واستواء ، لاغموص فيه ، ولا اضطراب ، ولا إعراب ، فالشاعر متمكن من
لغته ، مدرك مدلولاتها ، مستوعب صيغها ، مباحش أطوارها ، ليس غريبا عليها
ولا متطعلا طارئا ، يقمطك بأن ما يقدم صنيع عفو الخاطر ، دون معاناة أوكد ،
وإن كان قد ردد النظر فيه مرارا وراجعه ، حتى صحت له صيغته وعباراته بالشكل القوي
التسق مع مزاجه الفطري ، واستمداده البدوى ، فالنسيج محكم ، والبناء متكامل ،
والعبارات تامة ، والألفاظ بجودة مصقولة .

كما يلاحظ أن صورهم الفنية تمتد - في الغالب - على الخيال التفسيري أو المبالغة
البيديمية ، والإيماء الكنائية ، وأنهم في هذا وذلك دائرون داخل الإطار البدوى
لا يشدون عنه ، ولا يتناولون ، عليه ، بيد أن دورانهم هذا لم يكن دورانا عفويا دون
قصد وتمدد ، بل كانوا مدفوعين إليه لتحقيق التجويد ، وإحراز التفوق

ونظرة إلى حكاية عترة عن جواده في الممركة :

فأزور من وقع القسا بلباسه وشكا إلى بهيمة وتممحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولما كان أو علم الكلام مكلم

وإلى قوله بصف القديس في الروع :

وخلا القديس بها فليس يبارح عردا كفعل الشارب المنزح
(٢١ - الأدب العربي)

هزجا يحملك ذراعاه بذراعاه قدح المكب على الزناد الأجذم^(١)
 ترينا اتجاه الخيال المسمى واعتماده في إبراره على التفسير والمقارنة ، حيث أقامه
 على الاستعارة والتشبيه .

ونظرة إلى قول عبد الله بن سلمة الفامدى الأزدي :

ألا صرمت حبالنا جنوب وفرعنا ومال بنا قضيب^(٢)

ترينا كيف جمع فيه بين الاستعارة في (صرمت حبالنا) ، والتكناية في (ومال
 بنا قضيب) فإنه يكتفى بذلك عن التفرق ، وابتعاد كل عن الآخر .

ونظرة إلى قول عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ، ولكن الرماح أجرت

ترينا - إلى جوار الاستعارة - التمثيل الذى يعبر بطريق الإيماء ، والاختصار ،
 وذلك في قوله (ولكن الرماح أجرت) ، أى شقت لسانى . يعنى بذلك أن رماح
 قومه أسكته ومنعته الكلام .

وليس يبعد عنا شعر زهير ، والحارث بن حلزة في معلقتهما .

وإلى جوار هذه الصور التى تعتمد على الخيال التفسيري ، تجسد الصور التى تعتمد
 على الخيال الابتكاري ، ويلاحظ أن هذا اللون من الصور يغلب في شعر الفرسان
 الصماليك وغير الصماليك ، ولعل ذلك راجع إلى اشتغالهم عن المقارنة ، والبحث عن
 المثل المشابه لتقديده ، فلم يكن لهم بد من الاعتماد على عرض الحدث بتفاصيله القصصية
 فتحقق لهم ذلك لأنواع من التصوير .

(١) هزجا : مصوتا ، والزناد : حجران يضرب أحدهما بالآخر فتخرج منه النار
 والأجذم : مقطوع اليدين .

(٢) المفضليات ج ١ ص ١٠٠ ، صرمت : قطعت ، والحبالى : جمع حبل ، وهو
 جمع لم يرد إلا نادرا ، ويقصد بالحبالى المودة ، وجنوب : اسم امرأة ، وفرعنا :
 علونا في البلاد ، وقضيب : واد بنجد ، مال بها : سلسكته .

ونظرة في شعر عنتره والشنفرى وعروة بن الورد وغيرهم من الفرسان الأبطال ،
تقننا على هذا الملحظ .

* * *

فإذا وجهنا النظر إلى شعر الحضرم لم نجد اختلافا كبيرا بين العبارات الفنية ، والصور
البيانية عما وجدنا في الشعر البدوي ، أهم إلا في الحدود التي تفرضها البيئة على الشاعر
الصادق الذي يمتد في عباراته وصوره على ما يحيط به في بيئته .

ولا ريب في أن ما يمجده الشاعر الذي يقيم في جوار المناذرة أو النساسنة من مادة
صوره غير ما يمجده الشاعر الذي يقيم في جوار الرسول صلى الله عليه وسلم وفي ظلال
القرآن ومدينة الإسلام من ذلك

ومن ثم لم يكن غريبا أن نسمع صوت الأعرابي يستمر من كنائس المسيحيين
صورة الحراب في قوله .

كدمية صور محرابها بمذهب ذي مرمر مائر
وأن نجد المرقش الأكبر يشبه صياح اليوم بصوت البواقيس في أوائل الليل في قوله :
وتجمع ترقاء من اليوم حولنا كما صربت بمد الهدو النواقيس (١)
ولا كان غريبا أن يمرض النابتة النديان في مدح النساسنة لبعض أعيادهم ، كعيد
الشمانين (السباسب) ، في قوله :

رقاق المعال طيب حيرانهم يحيون بالريحان يوم السباسب
كما لم يكن غريبا أن نسمع صوت كعب بن زهير في اعتذاره لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم يبطن مكة لما أسلموا : زولوا

* * *

٣- والناظر في الشعر الجاهلي - بدويه وحصريه - يلاحظ أن الموسيقى فيه
ناصجة تماما ، سواء في ذلك ما يحدثه الورد ، وما تحمده القافية ، ويحدث عن العرفي

(١) أنترقاء - بفتح التاء - الصياح ، والهدو : أوائل الليل .

ذلك فيجده كامنا في الوصول بمصدرى الموسيقى الشعرية - الون والقافية - إلى أرقى درجة ؛ فقد تمكنوا في هذا العصر من اللبس الموسيقى ، وبرعوا في تجربة الاوزان ، وملكوا زمامها ، فلاءموا بينها وبين القافية ، ثم استطاعوا أن يتخبروا من هذين ما يتسق مع المعنى ، فضموا الشعرهم أسلوبا فنيا متميزا يتأزر فيه الشكل للمادى مع الإيقاع الموسيقى مع المضمون الشعرى . على نحو ما نرى في شعر أصحاب الملقات ، ودريد بن الصمة ، والمتلمس ، والشنفرى ، والثقب العبدى ، وأبى دؤاد ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وغيرهم كثير ممن لا يحصى عددا .

وقد حاول بعض الدارسين أن يبحث تميز شعراء بعض المناطق عن غيرهم في الموسيقى الشعرية ، لكن الوسائل إلى ذلك ما زالت محدودة لاتتيح الوصول في هذا الصدد إلى رأى قاطع واضح ، ولعل في مستقبل الدراسات الأدبية ما يمكن من تحقيق ذلك .

ويمكن اشتغل بهذا اللون من الدراسة والبحث الدكتور عوستاف فون غرنباوم ، وقد خرج من دراسته تلك بنتائج خطيرة كان من أهمها - مما يتصل بموضوعنا - ملاحظته من أن التفنن في الأوران الشعرية في العراق كان أغنى في هذا العصر مما كان عليه في أى مكان آخر .

وما لاحظته من نمو بحر الرمل في الشعر الحيرى ، وإهماله في سائر المناطق الأخرى من بلاد العرب ، فقد أكثر شعراء الحيرة من هذا البحر ولم يستعمله في الشعر القديم إلا أبو دؤاد في ثلاث قصائد ، وطرفة في ثلاث قصائد ، وعدى بن زيد في سبع قصائد ، والثقب في قصيدة واحدة ، والأعشى في اثنتين .

ولما بحث عن اللمة في نمو هذا البحر في شعر الحيرة - مع إهماله في سائر البلاد العربية - أرجع ذلك إلى أن الرمل استعير من الوزن البهلوى الثماني المقاطع كما صورته بنفيسته (المجلة الآسيوية ٢ : ٢٢١ سنة ١٩٣٠) ، وأنه عدل على نحو يلائم العروض العربى .

وما لاحظته من نزوع مدرسة الحيرة إلى بحر الخفيف ، الذى نجد منه خمس عشرة قصيدة لأبى دؤاد ، وسبعا لعدى بن زيد ، وخمسا للأعشى (١)

(١) راجع (دراسات في الأدب العربى ص ٢٦٥ وما بعدها ترجمة الدكتور إحسان عباس وآخرين .

ولا ريب في أن هذا اللون من الدراسة - على طرائقه - يحتاج إلى بحث ونقص
للشعر الجاهلي في عتاف بيثانه ، حتى تتحقق من صحة ما يتقرر في هذا الصدد .

٤ - والنظر في الشعر الجاهلي يلاحظ أن للشعراء - بدوا وحضرا - منهجا
يكاد يكون ثابتا ، لا يختلف إلا في النذر اليسير ؛ فهم في مجموعهم يبتدون قصائدهم
بمقدمات تمهد للموضوع ، يلب عليها أن تكون وقوفا على طلل ، أو دعوة إلى وقوف ،
أو تغزلا في امرأة ، ثم في براعة فنية يخلصون إلى الموضوع مدحا كان ، أو غزا ،
أو غزلا ، أو رثاء . . .

كما يلاحظ أن الشاعر يعنى بتقديم موضوعه من خلال أفكاره في أناة وروية
- على اختلاف بين البدوي والحضري - في مظهر ذلك - فهو لا ينتقل من فكرة إلى
أخرى حتى يطمش إلى تمام عرضها ، محتوينا في ذلك الصور المختلفة التي قد تميز في
إيضاحها ، مستقصيا كل الجوانب والأبعاد ، حتى أصبح من ينظر في القصيدة من
معاصرنا يشغل بالعكس عن تاليتها ، فيتوهم أن القصيدة مفككة الأفكار ، أو أنها
متمددة الأغراض والمقاصد - فأصبح - في تقدير هؤلاء - من عيوب الشعر الجاهلي
الافتقاده إلى الوحدة الموضوعية .

وفي الحق أن هذا ليس عيبا في الشعر الجاهلي ، وإنما هو عيب في معاصرنا نحن
اليسيرون في القصيدة الجاهلية بخطى أمحايها ، ولكن يسرون بخطاهم في العصر الحديث .

ومن ثم كان للقصيدة العربية شكل متميز ثابت ، لا يكاد يختلف فيه شاعر عن آخر ،
فهم إلا في بعض الأحوال التي يغفل فيها الشاعر المقدمة ، أو يضطره المقام إلى الإسراع
توجعا في عرض أفكاره ، فيتجاوز الاستقصاء والاستيعاب التصويري ، كما في المراثي ،
والمواعظ ، وبعض القصص .

الباب الرابع

النثر بين البدو والحضر

الفصل الأول

فنون النثر قبل الإسلام وخصائص كل فن

لا أشك في أن العصر الجاهلي قد عرف للنثر الأدبي باعتباره وسيلة من وسائل البيان ، ولا أشك كذلك في أن ما عرفه الجاهليون من فنون النثر لم يكن على غرار ما عرفه غيرهم من الأمم ؛ إذ لسلك أمة ما يناسبها من فنون المقال وفقا لدواعي القول عندها ؛ ألا يحق لنا أن نطلب في الأدب العربي من فنون النثر ما نجد في الأدب اليوناني أو الروماني أو نحو ذلك .

أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التي يزعمون فيها أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفني ؛ لأن عرب الجاهلية لو كانوا يجهلون النثر الفني لما كان لتحديثهم بالقرآن الكريم قيمة ؛ فالتحديث المعجز لا يسكون عن فقر ، وإنما يكون عن مقدرة في ذلك المجال . هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفني لما استطاعوا أن يتذوقوا البيان القرآني ويحلوه المعنى المؤثر في نفوسهم ، سيكون سببا في إسلام عمر بن الخطاب ، وعاملا من عوامل التشكك في نفس الوليد بن المغيرة وضربائه من الجاهليين الذين وجدوا في القرآن ما يدهمهم إلى التروى في الحكم ، ومماودة للنظر ، لولا خوفهم من ثورة قومهم ، وحشيتهم من ضعف سلطانهم الموروث .

ولا أشك في أن أكثر نثر هذا العصر لم يصلنا ، لعدم تسجيله في كتاب يحفظه ، ولما ضادته بالقرآن الكريم واشتغال العرب به من أسلم منهم ومن لم يسلم ، مما كان له أبعد الأثر في الانصراف عن أكثر نثرهم الموروث ، وضياعه بمرور الوقت وفقد من حفظوه .

كما لا أشك في أن القليل الذي وصلنا من نثر هذا العصر يمكن أن يلقى الضوء على هذا الفن الأدبي عند الجاهليين ، على الرغم مما قد اعتراه من إضاعات وتغيير في بعض عباراته ، وتحريف في بعض أصوله ؛ إذ هو - مع كل ذلك - يطلنا على فنونه السائدة

بينهم ، ويعرفنا بكثير من قضاياهم التي كانت تشغل تفكيرهم ، كما يقفنا على منهمجهم البياني في ذلك الفن .

هذا فيما يتصل بالثر قبل الإسلام ، أما بعد مجيء الإسلام ، والحض - في ظله - على تعلم الكتاب ، واستئلاها في تدوين المهم من أمور الحياة العربية الإسلامية ، فإن حال الأدب المنشور يختلف عن حاله فيما تقدم ؛ فقد وثقه التدوين ، وقام على حفظه طائفة من السكاكين كل في ميدانه الخاص ، ابتداء بالقرآن الكريم .

فالثر العربي - في ظل الإسلام - يختلف من هنا عن الثر العربي قبل الإسلام .

ثم إنه يقوم على دعائم مختلفة من ألوان البيان العربي . . واختلاف هذه الدعائم ليس اختلافا في أسلوب الأداء ، ولا اختلافا في الشكل ، ولا في الموضوع فحسب ، بل هو فوق ذلك كله يختلف في المصدر ؛ وذلك لأن دارس الثر العربي في صدر الإسلام يجد نفسه أمام ثر عربي ليس صادرا عن كائن عربي ، بل هو منزل من رب العرب والمجمع رب العالمين ، ذلك هو القرآن الكريم ، ويجد نفسه أمام ثر عربي صادر عن كائن عربي ، بيد أن له من الظروف ما يجعله في مراكز الريادة والقيادة والقوة ، تهوى إليه أمثدة العربي وغير العربي من مختلف بقاع الأرض ، وذلك هو الحديث النبوي الشريف ، كما يجد نفسه أمام ثر عربي حاض لسل ما تخضع له فنون الأدب من تأثر وتطور واختداء .

من ثم لا يستطيع دارس للأدب العربي في ظل الإسلام أن يتجاوز في دراسته القرآن الكريم والحديث النبوي ؛ فالقرآن - وإن كان ليس من صنع بشر - بيان عربي مبين . وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم بيان عربي ، تسج أول من تلمذ على القرآن الكريم وتأدب بأدابه . . . ومهمة الدارس أن يتناول كل بيان في بلسان اللغة التي يدرس آدابها .

بيد أن الأمر يختلف في دراسة القرآن عنه في دراسة غيره من الآداب ؛ إذ دراسة القرآن الكريم لا تتناول الأطوار الفنية له ولا المؤثرات الخارجية التي خضع لها ؛ إذ كلام رب العالمين لا يخضع لمؤثرات خارجية ، ولا يمر بأطوار فنية ، إنما ذلك شأن النتاج البشري الذي يخضع صاحبه نفسه للتغيرات ، ويعرف حياته بمديد من الأطوار .

- ٢٣٠ -

أما من يقول بأن القرآن الكريم ليس نثراً ، كما أنه ليس شعراً ، وإنما هو قرآن (١) ، فهو يتلعب بالألفاظ في محاولة للتلاعب بالعقول ، وليس نرفعا بالقرآن الذي قال منزله في وصفه إنه « بلسان عربي مبين » ، واللسان العربي شعر ونثر ، فإذا لم يكن القرآن شعراً - وهذا واضح - مقرر بالنص القرآني أيضاً - كان نثراً دون شك أو جدال . لكنته نثر ذو سمات خاصة في قيوده البيانية ، وفي شكله ، وفي أسلوبه ، إلى غير ذلك ، كما أنه ذو سمة خاصة في مصدره .

* * *

والناظر فيما تناقله الرواة من النثر منسوباً إلى من قبل الإسلام يلاحظ أنه يدور في محاورين متميزين :

أحدهما محور التعبير الموجز الذي يعتمد على الإشارات البيانية والذاكرة الحافظة في حمل الحدث القصصى ، دون إجهاد في بناء قصصى ، أو في نقل خبرات الأديب بالحياة وهذا هو المعروف بالمثل والحكمة .

والثاني محور التعبير الخطابي الذي يعتمد فيه صاحبه على وسائل التأثير الفنية في الوصول إلى عقل المخاطب وحسه ، وهذا هو المعروف بالخطب والوصايا والمحاورات والمنافرات ، فهذا كله تعبير لصوت صاحبه وهيئته ومنهجه فيه دور كبير .

فالفنون الأدبية التي قدمها النثر الجاهلى هي المثل ، والحكمة ، والخطابة ، والوصايا ، والمحاورات ، والمنافرات ، وأما ما روى من القصص الجاهلى فلا أستطيع أن أسلكها ضمن فنون نثرهم ، لأنها من صياغة رواتها ، وإن كانت أحداثها جاهلية ، فهي أدب غير جاهلى يعالج قضايا وأحداثاً جاهلية ، بيد أنها - إلى ذلك - تشير إلى أن الجاهليين صاغوا هذه الأحداث في قصص وتدأولوها فيما بينهم ، والناظر في كتاب الأغاني يجد حافلاً بألوان من القصص الجاهلى .

(١) انظر من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ص ٢٥ الطبعة العاشرة

(١)

الحكم والأمثال

الحكمة :

قول بليغ موجز يفيض به لسان حكيم يجمع خلاصة تجاربه وخبراته بالحياة ، ويقوم على مقررات ثابتة مسلم بها تقبلها العقول ، وتقاد لها النفوس وللشاعر .

والحكمة من أنسب ما يتداول في البيئات القبلية التي تمتاز برجل القبيلة ، ويكبر شبابها شيوخها ، ويلتصقون بهم ، يأخذون عنهم ، ويتأسسون طريقهم ، مهم لهم للمارة للرشدة ، وللقيادة للوجهة . ومن ثم كثر في العصر الجاهلي الحكماء ، وكان في كل قبيلة حكيم - إن لم يكن أكثر من حكيم - تفزع إليه في الشدائد ، وتلجأ إلى رأيه في المضلات ، وتجلس إليه في وقت السلم تأخذ منه ما يمينها على مستقبل الأيام .

وحفاظا من الحكيم على مكانه ، وحرصا على أن تعلق به القبيلة ، كان يهتم كل الاهتمام بصياغة حكمته ، ويديرها في رأسه مرارا حتى تكون وافية شافية .

ولذلك كان للحكمة من الخصائص الفنية ما يميزها عن غيرها ، وإضمن لها أداء الغرض منها ، والوصول إلى قلب وعقل متلقيها ، ومن أبرر تلك الخصائص :

اعتناء الحكيم بانتقاء ألفاظه وحرصه على أن تكون تلك الألفاظ الموحزة قادرة على أن تغم المعنى المجرد إلى المعنى الحسي لتصنع منها صورة قريبة التناول ، واضحة للدلالة ، ذات إيقاع ينسجم مع محتواها .

وحرصه على أن يشحن تلك الألفاظ بخلاصة حبراته وتجاربه الإنسانية ، معتمدا على الصدق والإخلاص والتعميم .

ثم دقته في نظم تلك الألفاظ بطايرها لنقل ما تحمل لعمريحا أو تديحا .

ومن أشهر الحكماء الجاهليين :

١ - أكرم بن صفي التيمي ، وكان من المعبرين ، ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يمان إسلامه مركب متوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات قبل

للطريق وقد نسب إليه حكم كثيرة منها : شر النصرة المتعدى ، رب قول أنفذ من صول (١) . رب عجلة تهب ريثا (٢) . إذا مزع النؤاد ذهب الرقاد . رب كلام ليس فيه أكتتام . ليس من المذل سرعة المذل . ويل للشجى من الخلى .

٢ — عامر بن الظرب للعدوانى ، وهو من المعمرين كذلك ، ويقال : إنه لما أسن واعتراه اللسيان أمر ابنته أن تقرع بالمصا إذا هوفه (٣) هن الحكم وحرار عن القصد ، وكانت من حكيما العرب . . وفى ذلك قال للتلمس (٤) :

لدى الحلم قبل اليوم ما تقرع المصا وما علم الإنسان إلا لبعلا
ودد نسب إليه كثير من الحكم والوصايا، منها : رب زارع لنفسه حاصد آخره .
للمقل نائم والمهوى يقظان . من طلب شيئا وجده .

وكتب الأدب تفيض بالحكم الجاهلية ، لكن أكثرها يذكّر غير منسوب إلى قائله ، مما كان عاملا من عوائل اختلاط الحكم الجاهلية بغير الجاهلية ، وإيجار الحكمة لا يتيسر لدارس أن يتلمس مصدرها .

المثل :

واضح من التسمية الفرق بينه وبين الحكمة ، وإذا كانت الحكمة تعتمد على خبرات قائلها وتجاربها ، فإن المثل يعتمد على المائلة والشبهة ؛ إذ يلاحظ فيه مشابة موقف لموقف آخر فيقال فى هذا ما قيل فى ذاك . فالمثل : قول موجز ساير يشبه مضربه بمورده . ويمتاز المثل بأنه يوصى إلى حادثة أو قصة أو خبر تضمنت تلك العبارة السائرة ، بحيث تقتزن القصة بها ، فإذا ذكرت العبارة مثلت القصة الأصلية وتراءت فى الأنق ؛ وبذلك يمكن أن تتعرف على كثير من أحداث الجاهلية بالنظر فى أمثالهم . وكما يشير المثل إلى موقف واقعى ، قد يشير إلى حادثة مفترضة ، يقصد بها الوصول

(١) الصول — بفتح فسكون — الاستطالة فى الحرب .

(٢) الريث : البطء .

(٣) فـه : حاد ومال .

(٤) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٨

إلى عقل سامعها وقلبه ، فيتخيل أحداثها واقعة بين حيوانات أو أناس أو جماد أو نحو ذلك ، ومن ثم كان من الأمثال الحقيقي والاقتراضى .

ولعل العرب قصدوا بالأمثال أن تكون وسيلة من وسائل النشر الأدبي ؛ إذ حملوا العبارة القصيرة السائرة قصة ذات دلالة خاصة ، وأصبح من السهل الميسور على كل عربي أن يتداول القصة العربية من غير حاجة إلى كتابة ولا إلى مجهود شاق في حفظها ونقلها ، فيسكنى أن تنثر تلك العبارة في جميع ليستيبدووا الحدث الاصل الذى قيلت فيه .

وبذلك يكون للنمل رسالتان يؤديهما ، أحدهما . تشبيه حدث بآخر والإيحاء بأن ما جرى هناك جدير بأن يحدث هنا ، ثانيهما : إذاعة القصة العربية ونشرها بأيسر السبل ، وأقربها إلى ذوق كل عربي . من ذلك :

واق شن طبقة :

قيل إن شا هذا رجل من دهاة العرب ، خرج يبحث عن امرأة مثله يتزوجها ، فرائقه رجل في الطريق إلى القرية التى يقصدها ، ولم يكن يعرفه . قال شن : أنحمنى أم أحملك ؟ فقال الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب ، وكيف تحملى أو أحملك ؟ فسكت شن حتى قابلتهما جسارة ، فقال شن : أصاحب هذا الممش حتى أم ميت ؟ فقال الرجل : ما رأيت أجهل منك ، ترى جسارة وأسأل عن صاحبها أميت أم حى ، فسكت شن ، ثم أراد مفارقتها ، فأبى الرجل وأخذته إلى منزله ، وكانت له بنت تسمى طبقة ، فسألت أباهما عن الضيف فأخبرها بما حدث منه ، فقالت : يا أبت ما هذا بجاهل ، إنه أراد بقوله أنحمنى أم أحملك : أحمدي أم أحدنك ، وأما قوله فى الجبازة فإنه أراد هل ترك عقبا يحيا به ذكره ؟ فخرج الرجل وجلس مع شن وفسر له كلامه ، فقال شن ما هذا بكلامك ، صارحه بأنه قول أبلته طبقة ، فتزوجها شن ، فقيل : واق شن طبقة وأصبح يضرب للتوافقين .

الصيف ضيقت اللبن .

قاله عمرو بن عمرو بن عدس وكان شيخا كبيرا تزوج بامرأة فضافت به ، فطلقها فتزوجت من جميلا ، ولكنهم أجدبت ، فبعثت تطلب من عمرو لبنا ، فقال : الصيف ضيقت اللبن ، وأصبح يضرب لى يطلب شيئا دونه على نفسه .

على أهلها تجنى براقش :

كنت براقش كلبة لقوم من العرب فأغبر عليهم ، فهربوا ومعههم براقش ، فانبهع
القوم آثار براقش ، فهجموا عليهم فاصطلموهم ، فقيل : على أهلها تجنى براقش ،
يضرب لمن يعمل عملا يرجع ضرره إليه .

كيف أعادوك وهذا أثر فأسك :

أصل هذا المثل - على ما حكته العرب على لسان الحية - أن أخوين كانا في أبل
لها فأجدت بلادها ، وكان بالقرب منهما واد خصيب وفيه حية تحميه من كل أحد ،
فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المسكلى وهربت فيه لأبلى وأصلحتهما .
فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحدا لا يهبط ذلك الوادي إلا
أهاسكته ، قال : فوالله لأتبعن ، فهبط الوادي ورعى به إبله زمنا ، ثم إن الحية
نهشته فقتلته ، وقال أخوه : والله ما في الحياة بمسد أخى خير ، فلأطلبن الحية
ولأقتلها أو لأتبعن أخى ، فهبط ذلك الوادي وطلب الحية ليقتلها ، وقالت له الحية :
ألست ترى أني قتلت أخاك ؟ فهل لك في الصلح وأدعك بمسد الوادي تكون فيه
وأعطيك كل يوم دينار ما بقيت ؟ قال : أو فاعلة أنت ؟ قالت : نعم . قال : إني أفعل ،
خلف لها وأعطاه الموائيق لايضرها ، وجعلت تعطيه كل يوم دينار ، فكثر ماله
حتى صار من أحسن الناس حالا ، ثم إنه تذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعني العيش وأنا
أنظر إلى قابل أخى ؟ فعمد إلى رأس وأخذها ثم عمد لها فرت به فتبعها فاضربها فأخطأها
ودحات الجحر ، ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه ، ولما رأت ما فعل
قطعت عنه الدينار ، وخاف الرجل شرها وندم ، وقال لها : هل لك في أن تتوائق
ونعود إلى ما كنا عليه ؟ وقالت : كيف أعادوك وهذا أثر فأسك ؟ يضرب لمن
لا يفي بالمهد .

(٢)

الخطابة

الخطابة أحد دُيون النثر ، وهي ليست وقتاً على أمة دون أمة ، لكنها في كل وسط تتشكل بما يتناسب مع متطلبات الخطابين ؛ إذ هي كلام منشور يتجه به صاحبه إلى من يجتمعون إليه ، بقصد الوصول إليهم بما لديه من أفكار .

ولا ريب في أن أنسب البيئات لازدهار الخطابة ما ظلتها الحرية ؛ حيث يستطيع كل فرد أن يعبر عما في نفسه ، وأن يخاطب مجتمعه بما يجد ، ويسمى على توجيهه إلى ما يرى .

ولا ريب في أن البيئة العربية في "العصر الجاهلي" كانت من أنسب البيئات لازدهار هذا الفن وتطويره ، بيد أن الشعر كان - في أول الأمر - المستحود على اهتمام العرب . وكان الشاعر يقدم على الخطيب ، لمرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم ما ترمم ، ويفرحهم شأنهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتحدوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر (١) . بل لقد أصبحت الخطابة ملازمة للسيادة فكانت من أهم ما يتميز به السادة ؛ وما كان يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته ، ولم يكن يتماطى الخطابة في هذا العصر - غالباً - إلا سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدر الفضل ، وسبق إلى ذرا المجد ، ويحسون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس السكرية ، والمجاميع الحفيلة (٢) .

فالخطابة - كما يتضح من ذلك - إنما احتفل بها الجاهليون لأن الشاعر - في رأى بعض السادة - انحط بشعره إلى مستوى ألفة العربي الشريف ، وأبى أن يكون واحداً

(١) العمدة ج ١ ص ٨٢ ، والبيان والتنبيين ج ١ ص ٢٤١ ، ج ٤ ص ٨٣ بتحقيق

عبد السلام هارون

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي ج ص

من هؤلاء الشعراء ، ترغما عن أن يظن فيه التمسك بالشعر وامتناعه . ولم يختلفوا بها
لقداتها ولتوفر دواعيها وأسبابها .

ومن ثم يلاحظ الناظر فيما وصلنا من خطابتهم - على تشكك في صحة نصه - أنه
توقف عن التطور والنمو ، فلم يكن الخطيب يطمع في أن يصل من سامعيه إلى أكثر مما
يصل إليه الشاعر منهم . وطأت قصاراه أن يستحوذ على قلوبهم ، ويملك مشاعرهم ،
دون أن يهتم بأن يتجاوز التأثير إلى الإقناع ، لأن التصدد إلى الإقناع يحتاج إلى التدبر
قبل الكلام ، ومراجعة ما يقال ، وترتيب الحجج ترتيبا تقع به في مواضعها . . .
إلى غير ذلك .

فالمخطابة الجاهلية كانت إلى الشعر أقرب ، ولولا تحال الخطيب من بعض قيود
الشعر لكانت شعرا ، لأن أفكارها ومفانيها وأغراضها كانت في أكثرها شعرية ، فإذا
ما تحقق في مبنائها البناء الشعري أصبحت المخطابة قصيدة بكامل مفهومها .

* * *

ومن يردد نظره فيما وصلنا من خطابة ترمز إلى هذا العصر يلاحظ أنها تتميز
بخصائص بيئية من أبرزها :

١ - ضيق أسلوبها ؛ فقد أصبح يتردد بين أن يكون حكا وأمثالا يسردها
الخطيب لتقوم بدور التأثير ، وبين أن يكون أسجعا ذات قود إيقاعية تقترب بالمخطابة
من الشعر خطوات ، وبين أن يكون أفكارا متباينة لا يشدها إلى بعضها إلا رابط
نفسى . مثال ذلك ما جاء على لسان هانيء بن قبيصة الشيباني في قومه يوم ذي قار ،
يحرصهم على القتال :

« يا معشر بكر ! هالك معذور خير من ناج فرور إن الحذر لا ينبجى من القدر .
وان للصبر من أسباب النصر . المنية ولا الدنيا . استقبال الموت خير من استدباره .
الظعن في ثمر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور » .

فهى - كما ترى - جملة من حكم شئى ، لا يربطها رابط فنى ، سوى التأثير النفسى .

- ومثال ذلك - كذلك - قول الأوس بن حارثة يومى ابنه مالهكا :
« يا مالك ! المنية ولا الدنيا ، والعتاب قبل العقاب ، والتجالد ولا التبلد واعلم

— ٣٣٧ —

أن القبر خير من الفقر . وشر شارب المشف . وأقبح طاعم للقتف . والدهر يومان ،
فيوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك ولا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر ، فكلهما
سينحسر .

وقال أكنم بن صبي في خطبته أمام كسرى :

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ،
وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . المصدق منجاة ، والمكذب مهواة .
والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والمجز مركب وطىء . »

« آفة الرأى الهوى ، والمعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن
ورطة ، وسوء الظن عصمة »

« إصلاح ساد الرعية حـير من إصلاح فساد الراعى ، من وسدت بطائنه كان
كالعاص بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرى . »

٢ - ضيق أعراضها ؛ وسكا ضاقت أساليب الخطابة الجاهلية ضاقت أغراضها ،
وانسكشت ضرورها ، تبعاً لما تقتضيه البيئة العربية إذ ذاك ، وحسباً تقسم به حياتهم
البدوية من البساطة والسذاجة ، سواء في ذلك حياتهم العقلية والسياسية والاجتماعية .
ومن ثم قصرت أعراض الخطابة على المناورات والمفاخرات ، والخص على القتال ،
والتهريض على الأخذ بالثأر ، وإصلاح ذات البين ، والنسكاح ، والإرشاد ، وحطاب
الحامل والوفود ، والوصايا ، وسجع الكهان .

ومع كثرة هذه الأعراض عددياً ، نلاحظ أنها كثرة لاثرى ، فليس في هذه
الأغراض ما يدفع الخطابة إلى الترقى فنياً ؛ إذ كلها يكاد يدور في محور - إن لم يكن
واحداً - فهو أدنى إلى التوحد .

فبحال المناورات والمفاخرات يعتمد على دقة للمحظ . واستغلال الصمات في إخم ،
الحصم ، دون أن يهتم بابتسكار للمى ، وتنميق العبارة ، وتجويد الأسلوب .

وميدان الخص على القتال ، والتهريض على الثأر ضيقته طبيعة العرب المنهية
للاتقاضي ، المستمدة للقتال . والتهريض يحتاج إلى الابتسكار والتنميق والترتيب إذا
كان موجهاً إلى إنسان في حاجة إلى إثارة أو إقناع ، أما إذا كان عربياً جاهلياً فهو ليس

(٢٢ - الأدب العربى)

في حاجة إلى شيء من ذلك ، ومن ثم فالتحريض بالنسبة له ليس أكثر من تنبيه ولفت نظر ، ومثل هذا ليس في حاجة إلى تفان وتحسين وترتيب

والإصلاح والإرشاد والوصايا أغراض حددتها حياة العربي ، والشكل الإجتماعي الذي يسود بينه ، فليس شيء من ذلك في غالب الأمر بموجه إلى جمهور ، وإنما هي أقوال من فرد إلى فرد أو بضمه أمراد لهم في القبيلة مركز القيادة والتوجيه . ومثل هذا لا يحتاج إلى تشيقي للكلام وإعدادة إعدادا خاصا ، فالقائل والسامع في مركز متقارب من قيادة القبيلة ، وليس بينهما غالبا سوى فارق السنين . . . فهي أقرب إلى الحكم النشورة منها إلى الخطابة .

أما خطب المحافل والوفود فتعقدها طبيعتها السياسية ، وشكلها الرسمي الثابت ؛ إذ هي لا تتجاوز تحية في استقبال وفد ، أو شكرا في توديع مضيف ، ولا شك في أن مثل هذا لا يطور من القول ، ولا يسهم في تطويره بالتقدير الذي يحسب له .

وما سيجع السكمان بأومر حظا من تلكم الاعراض السابقة ، بل إنه أضيقها جميعا ، وأبعدا عن مباشرة الإثراء لهذا الفن .

إذا فهي أغراض كثيرة ، لسكنها - كما رأينا - مع كثرتها لا يتسع ميدان واحد منها لأن يطلق عقل الخطيب ، فيصول ويجول ، ويقلب المعاني على مختلف الوجوه ؛ بل هي جميعا تسكد تصدر عن منبع واحد ، لا تختلف مذاقه وإن اختلفت ألوانه ودواعيه ، فهي إلى الحديث السائر أقرب من أن تكون عملا أدبيا ذا قيم فنية معينة ، أو قواعد أسلوبية يرتكز عليها . . . بيد أنهم - إلى ذلك - تمارفوا على سنن وتقاليد تنبع في خطابهم ؛ فكانوا يخاطبون على رواحهم في الأسواق المظلمة ، والمجامع الكبار (١) . وكانوا يلوثون المائم على رءوسهم ، ويمسكون بالمحاصر (٢) والقضبان ، ويعتمدون على الأرض بالقسي ، ويشيرن بالمعصى والقنا ، حتى كانت المحاصر لا تفارق

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٧

(٢) المحاصر جمع مخصرة : ما يختصره الإنسان فيمسكة بيده ، من عصا أو مقرة أو عكازة أو قضيب .

أيدي الملوك في مجالسها^(١) . وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجنان ، وحضور البديهة ، وقلة التلث ، وكثرة الربى ، وجهارة الصوت وقوته ، وكانوا يعمدون فيه للتنضح والارتعاش والحصر والتمثر في الكلام . . إلى غير ذلك مما عفى بتفصيله الجاحظ . في بيانه .

٣ - قصر بنائها ، ولعل ذلك من أهم ما يلاحظه المدارس على خطب الجاهليين ، وهو قصر فرضته طبيعة الحياة الجاهلية على الخطيب ، وليس قصرا مقصودا أرادته الخطيب تحقيقا لهدف واضح ؛ فالبيئة لا تستدعى طول الخطبة إلا إذا كانت ذات حياة فكرية نامية ، وإلا إذا كانت ذات حضارة معقدة ، من كل ما يتطلب البسط في الحديث ، والتفصيل في القول ، والتكرار في الأفكار رنية التقرير والتأكيد ، وبسطا للحجة ، وتقوية للإبراهيم لكن البيئة العربية في ذلك الحين لم تكن تعقدت بها الحضارة ، ولم تكن عزتها المدنية ، فقد كانت الحياة فيها بسيطة ساذجة ، ومن ثم كان العربي بعيدا عن الفلسفة والتعقيد ، ولم يتيسر له من الموامل ما يخرج به عن طبيعته الفطرية السائدة التي تدفعه إلى أداء فكرته بأوجز عبارة وأوضح أسلوب . وهذا مرئد الخبير أحد أقبال^(٢) حمير يخطب في الصالح بين سبيع بن العارث أخى ذى جدر ، وميثم بن مثنوب بن ذى رعين حين تنازعا الشرف ، وتشاحنا حتى خيف أن يقع بين حبيهما شر فیتفانى أصلاهما ، وذلك قوله : « إن التغبط ، وامتطاء الهجاج^(٣) . واستحقاق الهجاج^(٤) سيقفكما على شفاوة في توردتها بوار الأصلية ، وانقطاع الوسيلة . فتلافيا أمر كما قبل انتسكات المهد . وانحلال المقد . وتشدت الألفة . وتباين السهمة^(٥) . وأنما في فسحة رافهة . وقدم واطدة . والمسودة مثرية^(٦) . والبقيا

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أقبال جمع أقبال : من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم .

(٣) امتطاء الهجاج : ركوب الرأس وعدم التروى .

(٤) استحقاق الهجاج : التمسك بالخصومة .

(٥) السهمة : القرابة .

(٦) مثرية : متصلة .

معرضة^(١) ، وقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب بمن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيت ما آلت إليه عواقب سوء سمعهم ، وكيف كان صيور أمورهم ، قتلوا للقرحة قبل تفاقم النأى^(٢) ، واستفحال الداء ، وإعواز الدواء ، فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء ، وإذا استحكمت الشحناء تقضبت^(٣) عرى الإبقاء ، وشمل البلاء .

هذا مع استثناء بعض الخطب ؛ فقد كانوا يطيلون سببا في حطب النكاح ، وإصلاح ذات البين .

ولا يمكن بحال أن تتصور وصول خطبة من خطبهم كاملة مفصلة كما قالها صاحبها ؛ لعجز الرواة عن استظهارها كلها ، فهم إما يحفظون منها ما كان أشد قرعا للسمع ، ووقعا في النفس ، بعبارة تحمل ذات المعنى الأصيل ، وإن اختلفت عنها شيئا في بعض اللفظ .

ومع هذا فلا يمكن كذلك أن تتصور خطيبا جاهليا يحيط به بيئة الجاهلية بكل أبعادها وأغوارها يحطب فيطيل الإطالة التي نهدها في الخطابة بعد ذلك المصير لما قدمنا آنفا ، ولا تطبع للعرب الجاهليين على الإيجاز ، ولأنها أسهل للمعظم ، وأسرع شيوعا من الخطب الطوال .

٤ — عدم الاهتمام بالمقدمات ؛ فقد كان الخطيب في الجاهلية يهجم على أغراضه مباشرة من غير تقديم ولا تمهيد ؛ إذ الخطبة بالنسبة له لا تخرج عن أى عمل يقوم به العربي في تلك البيئة بما تشتمله من صراحة ووضوح وانكشاف ، وبما تنطوي عليه الحياة فيها من قسوة وخشونة . . فليس شء مما يقع عليه نظر العربي مرت عليه يد التهذيب والتثقيف إلا أن تكون ضرورة الحياة هي التي تفرض عليه تهذيبه أو تثقيفه ، وليس في محراثه المكشوفة الواسعة ما يلفتة إلى الالتواء .

(١) معرضة : ممكنة .

(٢) النأى : الإنساد .

(٣) تقضبت : تغطت .

هذا إلى أن شدة الحياة خلعت على نفسه الضيق والتبرم - وإن لم يعرفها في نفسه -
فما يدفعه إذا قال إلى أن يبدأ بما يريد أن يقول ، وإذا سمع أن يطلب سماع ما يراود أن
يقال سؤسب .

ثم إن الخطيب العربي - إلى ذلك - لم يكلف نفسه وضع خاتمة ينهى بها كلامه إذا
ما انتهى من عرض فكرته لذلك السبب الفطري ذاته .

ومن ثم لم تكن في الخطبة الجاهلية أقسام واضحة ، وإنما هي أقوال مباشرة ،
كما تبدأ وتنتهى ، وفي خطبة مرثد للخير التي قدمناها آنفا ما يشير إلى تلك السمة في خطابة
الجاهليين ويقررها ، فضلا عن أن تلك السمة هي الطبيعة الواضحة التي لو وجد غيرها
في خطابهم لكان تزييدا أو شذوذا .

٥ - ساذجة الأمكار التي تشتملها الخطبة الجاهلية وبساطتها على العموم ، وذلك
لضآلة نصيب العرب في تلك الآونة من الثقافة العسكرية ، فقد كان جبل همهم - في
الثقافة - أن يعرف المرء شيئا أو أشياء عما يحيط به مما تتطلبه الحياة في بيئته تلك
فعلى من يريد الثقافة أن يعرف شيئا عن مواعيد النجوم ومطالع الكواكب ، وعن
أسرار الرياح في هبوبها وتذوقها ، وعن تاريخ القبيلة ، وأيام العرب ، أو تاريخ
أمتهم . . . إلى غير ذلك من المعلومات السطحية البسيطة التي لا تخرج عن ذلك الإطار
الضيق المحدود ، والتي لا تنحوج إلى كد ذهن ، أو إعمال فكر ، أو قصد إلى ترتيب
وسعى إلى استنباط ، وإنما هي حقائق مقررة قسارى ما تتطلبه أن يستوعب ويستذكر .

ولم يقف الأمر بالأمكار عند حد الساذجة في طبيعتها ، بل لقد كانت ساذجة
كذلك في عرضها ، فلم يكن هناك اهتمام بترتيب الأمكار وتسلسلها وارتباط بعضها
ببعض . . . ولكن الخطيب يرسل أفكاره حسبما تتوارد في مخيلته ، دون أن يعتق
بتسلسلها وترتيبها ، حتى ليسر على القارئ في كثير من الأحيان أن يحدد موضوع
الخطبة الذي يقصد إليه الخطيب .

٦ - التزام السجع ؛ فقد التزموه في خطبهم ، ليكون بدلا من موسيقى الشعر
خلا تلتصق الهوة بين اللينين ، ولتكون الخطبة أسهل في السمع ، وأقرب من القلب ،
ولتكون الخطبة أسرع في الشبوع وأبعد في القديوع .

وفي مقدمة من التزام السجع في الخطابة كهان العرب ، بيد أنهم يمتازون عن غيرهم من الخطباء الجاهليين في إضافتهم إلى السجع غرابة اللفظ ، واستعمال صيغ في القسم غريبة . . . ولعل ذلك كان منهم بقصد إضفاء الغموض على أنفسهم ، والمبالغة في السيطرة على نفوس السامعين ، وتأكيده ما سيطر على الأنسكار من قدرتهم على السحر . والساحر - كما يستعين بالطلاسم - يستعين بالإيقاع الصوتي ، والألفاظ الغريبة ليتمكن من التأثير في الجماعة ، فهو من وسائل الإيحاء التي يعتمد عليها الكهان ، ونظرة إلى مثال من الخطب المسجوعة لغير الكهان ، وآخر مع سجع الكهان تقرر لدينا ما نقول .

قال علقمة بن علاثة في منافرة له مع عامر بن الطفيل : « إني لبر وإياك لفاحر . وإني لودود وإياك لعاقر ، وإني لواف وإياك لغادر » فأجابه عامر بقوله : « إني أشرك منك أمة (١) ، وأطول منك قمه ، وأحسن لده (٢) ، وأجمل جمة (٣) » .

وقالت الزبراء كاهنة بني رثام تنذر قومها ، وتنبئهم بمباغتة عدوهم لهم : « والوحد الخفافق ، والليل انفاسق ، والعصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادى ليأدو حتلا (٤) ، ويحرق أباينا عصلا (٥) ، وإن صغى الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون عنه مولا (٦) » .

ويقرر ذلك ما ذكره عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاش حين سئل عن السر في إشارته السجع على المنشور فقال : إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكنني أريد القائب والحاصر ، والراهن والغابر ، فالخلفه إليه

-
- (١) يعنى أكثر قوما .
 (٢) اللدة : ما تجاوز شحمة الأذن من الشعر .
 (٣) الجمة : مجتمع شعر الرأس .
 (٤) يأدو وختلا : يميل خدعا .
 (٥) يحرق بضم الراء وكسرهما : يحك بعضها ببعض حتى يسمع لها صوت . وعصلا جمع أعصل : الناب الموج في صلابة .
 (٦) الملل : الملجأ . انظر الأملالي ج ١ ص ١٢٦ .

أسرع ، والآذان لسماعة أنشط ، وهو أحق بالتيقيد وبقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزن عشره ، (١) .

أضف إلى هذا أن هذا الاتجاه يرجع إلى أنهم قوم فطروا على قول الشعر ، وتأثرت لذلك لغة النثر عندهم واتجهت - عن قصد منهم أو عن غير قصد - إلى محاكاة لغة الشعر في مجازها وخيالها ، وموسيقى ألفاظها .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٧ .

الفصل الثاني

حضارة الإسلام وأثرها في العرب وآدابهم

(١)

أثر الإسلام في الحياة العربية

جاء الإسلام فقلب نظم الحياة الأساسية في شبه الجزيرة العربية رأساً على عقب ، ثم امتد منها إلى العالم أجمع في سنة ٦١٠ م بعث محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه إلى عشيرته بمكة ، ثم إلى العرب جميعاً والناس كافة ، فبدأ يصل الناس بالدين الجديد ، ويأخذهم بمبادئه ، ويتعهدهم بقيمه ، حتى أصبح الناس غير الناس حساً وشموراً ، واعتقاداً وتسلكيراً ، وخلقاً وسلوكاً .

ولا أعنى بذلك أن كل ما جاء به الإسلام كان جديداً أو غريباً على الإنسان ، وإنما هو عقيدة هادفة ومبدأ قاصد أقر من عادات الجاهليين وأخلاقهم ما يوائم منهجهم ، وعدل بما ينحرف منها عن طريقه ، وهدم ما يتنافى منها مع قيمه ومثله ، مقياً مكانه مبادئ تحقق ما يهدف إليه ، وتقرر ما يريد للإنسان من كرامة وعزة .

جاء الإسلام فلم يكن مقارناً لما كان عليه العرب في حياتهم من كل الوجوه ؛ فهو دين جاءت به السماء في اللحظة المناسبة ، بعد أن أعدت لاستقباله النفوس ، وأحست بالحاجة إليه للشاعر ، وبمحت هذه العقول فتاهت وضأت ، ودعت إليه دواحي الفطرة المتبلورة في الأحياء من بني البشر . . . فهو دين الفطرة المستقيمة .

لغت الناس إلى الروحانية ، وكانوا مستسلمين لأوهام وعادات جمعت مشاعرهم ، وسدت الطرق في وجوههم ، وربطهم بالله الذي يجدر بهم أن يعطيهوه ، ويأمنوا له ، ويؤمنوا به ، . . . إنه ليس إلهاً خاصاً ، ولكنه إله الجميع (رب العالمين) ، وهو لا يغيث .

شئ، (لا يمزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض)^(١)، وهو واحد لا شريك له ، ولا ولد (الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد .) ، وهو خالق السكون وما فيه ومن فيه : يحيط علمه بكل شئ ، ويمتد سلطاناه إلى كل شئ (على كل شئ قدير) ، وهو يريد الخير للناس جميعا (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)^(٢) ، (ما يريد الله ليكمل عليكم من حرج ولعلكم تريد ليظركم وليتم نعمته عليكم)^(٣) ، ومن هذا المنطلق يأخذ بأيديهم مبتدئا بهم عن السوء ، لتسمو نفوسهم ، وتترق مشاعرهم ، ويحضهم على التمسك بما دأبه التي يريد لهم عليها ، مقررا أن ذلك سبيل فوزهم بمحبه لهم ، ورضوانه عليهم (إن الله يحب المتقين)^(٤) ، (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)^(٥) ، (إن الله يحب المحسنين)^(٦) ، (والله لا يحب المفسدين)^(٧) ، (والله لا يحب الظالمين)^(٨) ، (إن الله لا يحب المعتدين)^(٩) . مؤسسا هذا المحب على خطى ما هو مذكور في الحياة الآخرة من جنة ونار يجارى بالجنة من استقام بعد أن يبعث من موته ويحاسب ، ويجارى بالار من ضل وانحرف كذلك .

وأقام عقيدتهم على العسر والتدبر ، فجعل للمقل دورا في الحياة هو من أهم الأدوار؛ إذ به يبحث ويفحص ويوازن ، ليمس إلى ما يعتقد؛ ومن ثم أخذ الإسلام بيد الإنسان في جولات كونية بين الأرض والسماء ، يديه فيها إلى ما تطوى عليه مفردات هذا السكون من دلائل تقفه على الحقيقة ، وتهديه إلى الصواب ، فمنحه بذلك الثقة ، وفتح له أبواب الانطلاق ، فجأ آفاقا بعد آفاق . « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فتنأ عذاب النار »^(١٠) ، « أفلا يظفرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت »^(١١) ، « وأسقط عنهم أغلال التبعة والتقليد الأعشى ، ودعهم إلى أن يسروا في طريقهم على هدى وبصيرة ، منبها إلى أن

-
- (١) سبأ : ٣ (٢) البقرة : ١٨٥ (٣) المائدة : ٦ (٤) التوبة : ٤
 (٥) البقرة : ٢٢٢ (٦) البقرة : ١٩٥ (٧) البقرة : ٢٠٥
 (٨) آل عمران : ٥٧ (٩) البقرة : ١٩٠ (١٠) آل عمران : ١٩١
 (١١) الفاشية : ١٧ - ٢٠

الجراء مبني على العمل « ولا تزر وازرة ورر أخرى » (١) ، « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٢) .

وأسس حياتهم على الاجتماع والآلهة ، فوطد دعائم الأخوة ، وقوى روابط الوحدة ، فنبههم إلى وحدة الأصل البشري : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (٣) . « وأرشدكم إلى أهمية الوحدة القائمة على وحدة العقيدة : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٤) ، ثم وجههم إلى دعائم ذلك المجتمع الموحد المثالي فأوضح أن المجتمع القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٥) ، فانتقل بهم من البيئة الفردية التي يعيش فيها الإنسان لنفسه ، والتي يدعوها إليها إلى نوع من حميد الصفات حرصه على نفسه حسب ، إلى مجتمع يقوم على الحب والتكافل والتضامن في مختلف مظاهر الحياة ومساكنها ، وخلصهم بذلك من عادات وتقاليد كادت تصبح عرفا وقانونا يلتزمون به ، من معاملات ربوية ، وانسكاب على الميسر والقمار ، وهضم لحقوق طائفة من طوائفهم أو جلس من أجناسهم وصل بهم في بعض الأحيان إلى وأد البنات ، وقتل الأبناء . وهكذا تحول العرب من ذر منشور إلى مجتمع متلاحم الحيوط ، محكم النسيج .

وأنهض مجتمعهم على مبادئ الحرية والكرامة ، والعدل والمساواة ؛ ليس لإنسان على آخر من سلطة موروثية ، وإنما الجميع سواء ، لافضل لمربي على عجمي ، ولا إكرام على عقيدة ، ولا اغتصاب لحق ، ولا عدوان على مسلم .



وهكذا جاء الإسلام قوما - أول ما جاء - هيأتهم الحياة لاستقباله ، وسار - حين تابوه - مبتعدا بهم شيئا شيئا عما ألفوه واستبد بهم من أعراف وعادات ، حتى تلفتوا بمد حين فوجدوا الطريق غير الطريق ، والحياة غير الحياة ، ونظروا فرأوا كل شيء قد تغيرت معالمه وتبدلت ألوانه وظلاله . . واختلقت مذاهبه واتجاهاته .

(٢) الزلزلة : ٧ - ٨

(٤) الأنبياء : ٩٢

(١) الأنعام : ١٦٤

(٣) الحجرات : ١٣

(٥) آل عمران : ١١٠

— ٣٤٧ —

وهكذا كان الإسلام تغييرا جذريا وعرضيا لجرى التاريخ الدينى والأدبى والإقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى . . . وغير ذلك من الجوانب التى تواجه الإنسان وتوجهه . ولكنه - مع كل هذا - قد لقي مقاومة عنيفة ، وحربا لاهوادة فيها ، شملت الحرب النفسىة والمادية والمعنوية ، وكل ما يمكن أن تقع به حرب من قوم استبدت بهم الشهوات ، وسيطر عليهم حب الذات ، وجرفتهم الماديات ، فأصلتهم عما هم فى حاجة إليه .

وكان هذا للتنوير المتظلم ، وتلك المقاومة النيفة سر إقبال الشعوب الأخرى - غير العربية - عليه فى مدى بضع عشرات من السنين .

(٢)

أثر الإسلام في الأدب العربي

من يتابع الأدب العربي في العصر الجاهلي ، ويقارن بينه وبين الأدب العربي فيما بعد يحىء الإسلام يجد الفرق الكبير ، والبون الشاسع بين الأدبين بحيث لا يكون متمسرا أن يميز باحث بين أدب كل من المرحلتين مع ما يبدو هناك من أصول أدبية ثابتة ، وقوانين مشتركة تربط بين أدب الجاهليين وأدب الإسلاميين تلك الأصول والقوانين هي التي تضمني على الأدبين صفة العربية . وهذه سمة مشتركة بين جميع الآداب الإنسانية ، حيث تتأثر بكل ما يمرض للانسان من تغيرات ، وما يطرأ على بيئته من مؤثرات .

وتأثر العرب بالإسلام أمر لا شك فيه ولا جدال ، بل إن كلمة تأثر هذه تدل على حقيقة ما كان ، إذ شمل تأثيرهم به كل مناحي حياتهم ، ولا يدل على ذلك إلا أن نقول : إن العرب تغيروا بالإسلام فأصبحوا ناسا غير الناس السابقين .

وبدأ تأثر العرب بالإسلام أول ما بدأ حين سمعوا القرآن الكريم في أول علاقته بهم ، وهم ما يزالون على دين آبائهم ، وما يزالون على إصرارهم وعنادهم ، ولـكنهم حين صكت أسماعهم بمض آيات القرآن الكريم فسرت في كل أجسامهم كانت كالرعدة تصيب الإنسان فتذهله عن التبصر السريع ، فلقد ذهل العرب حين سمعوا القرآن وشملتهم حيرة لم يكن واحد منهم ليتوقعها ، فهم ما لكو ناصية القول ، وهم أرباب البيان ، والكلمة فيهم هي كل شيء ، هي القلب النابض ، وهي الخيال الساج ، وهي المشاعر الجياشة ، وهي - إلى ذلك - العقل المفكر فيها .

لقد أدهل العرب روعة نظم القرآن ، وحيرتهم قوة أسره ، فانطلق لسان الشافئ المنفض قبل المادح المهب مبرا عن ذلك التسلط الذي يلزمه بحمسه ووجدانه في آياته للكرمة . وهذا عتبة بن ربيعة أحد رعماء قريش يكشف عن بعض نواحي الدهول والحيرة في قوله حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الآيات من أول سورة هصات ، وقد سأله فومه حين عاد إليهم عما وراءه .

« ورأى . . أنى سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالسكھانة يا ممشر قريش أطيعونى ، واجملوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه » .

ثم هذا الوليد بن المغيرة أنى النبى صلى الله عليه وسلم ، مقال : اقرأ ، فقرأ عليه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (١) .

فقال : أعد . فأعاد صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لشمر ، وما يقول هذا بشر (٢) .

فالمبارس لتاريخ الأدب العربى يلاحظ أن من أهم عوامل التحول فيه على مدى تاريخه الممتد ظاهرتين لا تسكدان تمارقاه منذ ظهور الإسلام ، ولتقاء العرب بكتابه الكريم ، واجتماعهم على مبادئه وقيمه .

١ — أما أولى هاتين الظاهرتين فهو القرآن فى ذاته ، ذلك الكتاب العربى الذى توارى أمامه كل ما أنتج العرب من أدب ، وما قدموا من بيان ، فتمت له الصدارة ، وخاضت له الريادة والقيادة ، وأصبح هو المثل الذى يحاول كل عربى ومسلم أن يحتذى فى حياته كلها أدبية كانت أو سلوكية أو إجتماعية أو تشريعية . . إلى غير ذلك من شتى مجالات الحياة التى قن لها القرآن ، وقاد إليها ، ووجه نحوها .

لقد رأى العرب فى القرآن صالتهم التى طالما بحثوا عنها فلم تسعفهم مقدرتهم حتى تصوروا . . رأوا فيه ما انتقدوه فى آدابهم ، وما تمنوه ولكنهم لم يدركوه ورأوا فيه السكال للتعبير الذى اهتمل الأسس الثلاثة بنامها ، واتى حاولوا أن يضمونها كلامهم فوقفوا دون ثالتها عاجزين فقد أسس العرب بلاغة اللسق على ثلاثة ، لا ينفى واحد منها عن الآخرين . . هذه الأسس الثلاثة هى :

(١) النحل : ٩٠

(٢) الرسالة الشافية للجرجانى ص ١٢٥ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الطبعة الثانية .

(١) اللوسيقى التى تحدثها الحروف بترتيبها ومخارجها ، وحركاتها ومناسباتها لما معها من كلمات ، حتى تصبح الكلمة مصدر نغم ورنين يهز النفس ، ويستأثر بالمشاعر ، وتنبه وجدان المتلقى لاستقبال ما توجه له الكلمة من معنى ، وما يفيض به القى من مضامين .

(ب) القى القدى لعمله الكلمة لتصل به بين مشاعر الإنسان وبين عقله .

(ج) الدقة فى التصوير المعنوى وما يترتب عليه من الإبداع فى تلوين الخطاب ، وترديده بين ألوانه المختلفة ، فيوداع النفس مرة ، ويجاذبها أخرى ، ويعمد إلى طرائف المعانى فيسوقها إليها وإلى شق وجوه البيان فيوردها عليها ، حتى يتمكن من السيطرة التامة الكلمة على جوانبها ، وحتى تصبح تلك النفس — من تفضيلها له وموافقتها إياه — كأنها هى الرغبة فيه ، القاصدة إليه التى تحاول أن يتصل أثرها بالكلام ، وليس الكلام هو القدى يحىء إليها بهدف معالجتها والتأثير فيها (١) .

فمع أن الدسق البليغ يجب أن يشتمل على هذه الأسس الثلاثة، إلا أنه يرقى في ميدان البلاغة فيما لوضوح الأساس الثالث فيه ، حتى إذ كانت الدقة فى التصوير المعنوى ، والإبداع فى التلوين البياني شائعا فى كل جوانب الكلام بحيث لا تفتقده فى جهة واحدة من جهاته ، بل بحيث لا يقل فى جهة عنه فى جهة أخرى . . أحس الإنسان أمام مثل ذلك الكلام بالمعجز الذى لا أمل فى اجتيازه ، إلى جواز إحساسه بالافتتان به .

وإنما كان لهذا الأساس الثالث تلك الأهمية لأنه فى الحقيقة هو القدى كان يترامى للمربى ولا يتمكن من الوصول إليه فى تعبيراته . فنصوت الموسيقى — وهو الأساس الأول — من الأصوات الطبيعية فى تركيب لمة المرب ، وإنما هو يتفاوت بين السكال والنقسان .

ونصوت الفكر — وهو الأساس الثانى — لم يكن صعبا عليهم أن يفنوا عليه فى كثير مما جادت قرائح أدبائهم .

أما البعيد القريب منهم فهو هذا الصوت الثالث ، فقد كانوا يرونه فى تصوراتهم أملا ،

(١) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٥ ، ص ٨٨ ، ودلائل الإعجاز ص ٤٠ وما بعدها بتحقيق المراعى .

ولكنهم لا يجدونه في كلامهم واقفاً، وإذا هم حارلوا الوصول إليه تبين لهم قصر باعهم عن أن يمتد إليه ليتمكن منه .

حق إذا جاء القرآن الكريم فوجشوا باشغاله على ذلك الأساس - بالإضافة إلى تسمه القصة في الأساطير الأولين - فلم يجدوا بدا من الخضوع أمامه ، والاستسلام لروعه ومن ثم أصبح قصارى جهد كل عربي ومسلم أن يتعرف على شيء مما في التعبير القرآني وبني عليه أدبه ، ويروض عليه لسانه .

٢ - والظاهرة الثانية هي أن المسلمين اتجهوا بكل ما أوتوا من ثقافة ومعرفة يبعثون عن راحى الإعجاز البياني القرآني ، ويكشفون عن مظاهرها ، ويربطون بين ذلك وبين الآداب - خصوصاً الأدب العربي - فكان ذلك الاتجاه ميداناً لفتح ~~الناجحة~~ ^{التي} ~~للمسلمين~~ ، واستثمار ما أوتوا من أدوات وأسباب في ذلك الميدان ، وحرص على أن يتزودوا بكل ما بين حق يكشفوا عن شيء من هذه النواحي البلاغية للمعجزة في النص القرآني . . مما خلف لديهم لها جيديداً في مقنناته وفي اتجاهاته . . ذلك هو فن القول ، ولم يكن من قبل علماً مؤسلاً ولا فناً يستند على المنهج المدرس والقوانين للعدة . وهذا من غير شك له في التحول الأدبي أثره البعيد . ولقد أشار البطليوسي إلى هاتين الظاهرتين في قوله :

إن العرب طلبوا الأدب واهتموا بمداسته وترويض أنفسهم عليه لغرضين: أحدهما يقال له الغرض الأدنى . والثاني الغرض الأعلى ؛ فالغرض الأدنى : أن يحصل للتأدب بالنظر في الأدب والخبرة قوة فيه يقدر بها على انظم والدثر . والغرض الأعلى : أن يحصل للتأدب قوة على فهم كتاب الله تعالى . وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ومصابته ، ويعلم منها الأحكام وتفروع الفروع . وتنتج النتائج، وتقرن القرائن على ما تقتضيه مبادئ كلام العرب ومجاراتها لما يفعل أصحاب الأصول (١) .

وهكذا أصبح القرآن الكريم منذ بدء الحياة الإسلامية رائداً لكل أديب، ومنار كل قائل، ومنهل كل متعلم، وميدان كل دارس - هذا إلى كونه وحى السماء للشتمل على كل أسس التشريع، والمحتوى على كل قوانين السلوك - وكان ملء عيون العرب

(١) البطليوسي في (الاقتضاب في شرح أدب الكتاب) لابن قتيبة ص ١٤ ط

وأسماعهم ، لا شريك ينازعه هذا المركز ، ولا صارف من شعر أو أدب أو فكر
أو فن يصرفهم عنه ، ولا شاغل من شواغل الحياة أيا كانت ألوانها يشغلهم عن البحث
فيه ، والأخذ منه .

هذا ولقد جمع الإسلام أصحاب آدابه ، ووجدهم في تجربتهم الوجودية ، وأصبحت
أحاسيسهم ومشاعرهم غير أحاسيس الجاهليين ومشاعرهم .

وهذه المفارقة تناول ما يؤثر في الأحاسيس والمشاعر ، كما تناول الوحدة في
الاستجابة لتلك التأثيرات ؛ إذ المارق كبير بين إنسان بشعر بالنيه ، ويحس بأنه يعيش
في فراغ ، تخيفه الهواجس ، وتفزعه الهوائف ؛ تسكف الشمس فينخلع فؤاده ،
ويضطرب فكره . وتثور الريح فيتوقع الانتقام ، ويتف موقف الاستسلام . وبين
إنسان يعرف مكانه في هذا الوجود ، ويعرف علاقته بكل كائن فيه ، ويدرك أبعاد تلك
العلاقة ؛ فهو يسير على هدى وبصيرة .

ثم إن هذه المعرفة ليست مقصورة على فرد أو أفراد لذاتهم ، ولسكنها معرفة عامة
شائنة ، تمتد جذورها في نفس كل مسلم باسم الإسلام ، وفي ظلال تواليه وقيمه .

ولقد وحد الإسلام أصحاب آدابه في منارهم الفكرية الأساسية ، فجعلهم جميعا
يديرون بدين واحد ، ويمتقدون عقيدة واحدة ، ومن ثم فالتكريم يسير في مخطط
موحد ، لا يختلف في موضوعه أو أساسه من شخص إلى آخر ، ولسكنه يعتمد على
أسس ثابتة واحدة .

وعلى العكس من ذلك كان أصحاب الآداب في الجاهلية ، فقد كان لكل منزعه
الذي يوجه فكره ، وعلاق حسه ، وبهيج وجدانه ، ويحرك ضميره .

وكذلك وحد الإسلام أصحاب آدابه في الاستجابة الخارجية ، فجعلهم جميعا
يخضعون لسلطان مبادئ واضحة محددة ، تنص على الشكل وعلى طريقة التعبير ؛ لأن
مبادئ الإسلام التي شملت كل محلم ليست مبادئ مهوشة ، ولا مبادئ تقتصر على
الموميئات ، كما أنها ليست مبادئ طافية تعيش على السطح . . ثم هي ليست مبادئ
فلسفية تبحث عن الأضواء لتختفي فيها ، درن أن تعنى بالظواهر .

إن مبادئ الإسلام تنسم بالشمول ، وتمتاز بالاستقصاء ، فهي في الأعماق تهتم
بالظواهر وتدكر بها ، وهي فوق السطح تبحث عن الخفايا .

ومن ثم إن هذه المبادئ كما وجهت الإنسان إلى الفكرة والعقيدة ، حرصت على أن تتدخل في توجيهه إلى الشكل بطريقة التمييز، فكان أن وسعت آدابها بالوحدة في ذلك كله .

أضف إلى هذا أن أصحاب آداب الإسلام جميعا يشتركون في الخضوع لنظام سياسي وإجماعي واحد، يرتبط بمبادئهم الموحدة، ويعتمد على عقيدتهم ، ويقوم عليها . وليست سمة الوحدة مقصورة على الآداب ، ولكنها تتناول كل ما يمكن أن ينشأ من التطورات المحلية المتولدة عن الإسلام وأخلاقه وأعرافه في كل أجيال الحياة التي تجدد بعد ذلك .

وصفوة بالقول : إن السائد المدارس يلاحظ أن من أهم ما طرأ على العرب بمجىء الإسلام ~~قيمة~~ ^{أحد أهم} قيمة فنية ، وثانيتها قيمة سلوكية ، ومن كلا القيمتين اتخذ الأدب العربي سمته الجديدة ، واكتسب مميزاته ، ظهر ذلك في محالات الأدب المختلفة من ألحان اللغة وأسلوبها ، وفنون الأدب وطرائقه وأفراضه . . إلى غير ذلك .

الفصل الثالث

أعلام من النافرين المسلمين

من المقرر أن دراسة الأعلام الفففة فى نمايا دراسة الأدب ليس مقصودا بها الدراسة التاريخية الخالصة ، وإنما المقصود بها التعرف على الوجهة الفنية لهذا العلم ، وللاؤثرات التى خضع لها منذ نشأته ، ليتمكن الباحث من الوقوف على سر موافقته أو مخالفته معاصريه أو غيرهم فى اتجاهه الفنى ، ولتتعرف المدارس على أطوار الأدب وءؤثراته فى وسط أو بيئته أو عصر من العصور من خلال تمرره على ذلك فى العاصر التى تتكامل بها الحياة للفنة فى ذلك الوسط أو البيئته أو العصر .

ودراسة الأعلام الشعرية ليست مقصودة لتمامها ، وليس ضروريا أن توجه هذه الدراسة إلى أعلام بشرية ، بل قد تكون تلك الأعلام كيانا فنيا بارزا ، لا يدرك من خلال الخلق البشرى وماتعرض له فى نشأته وحياته من مؤثرات ، وإنما يدرك من خلال العمل الفنى ذاته والمظهر فى أساليب عرضه ، ومساهمج تقديمه . . إلى غير ذلك ، وذلك إنما ينطق بـ فيما بين أيدينا - على القرآن الكريم ، والبيان النبوى الشريف ، وذلك لأن القرآن الكريم بيان رب العالمين أنزله على الناس معجزة لىديه ؛ فمساكنه من أدب العرب إذن مكان الصدارة والمثل الذى يحتذى ، كما أن البيان النبوى - وإن يكن بيانا شريا - لا ينظر إليه فى مجال الدراسة الفنية ، بصفته بيان كائن مخلوق خضع لأطوار الحياة التى مرت به ، واستجاب فيه للمؤثرات الفنية المختلفة ، وإنما بصفته بيانا مطريا وجه إليه صاحبه للقيام بمهمة مخصوصة هى مهمة الرسالة الدينية .

من ثم لم يكن غريبا على أن أجعل التمرير بالقرآن الكريم والحديث النبوى على رأس أعلام النافرين المسلمين ، إذ هما بالنظرة المتقدمة يؤديان فى دراسهما تلك دور العالمين العيين .

(١) القرآن الكريم

هو معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي قدمها بين يديه ليثبت صدقه في دعوته لمن يحتاج في تصديقه إلى شاهد ودليل . « وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه . قل : إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » (١) .

وهو هدى للناس ، يأخذ بأيديهم إلى الطريق السوى والشاطئ الأمين . « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٢) . « كتاب أنزلناه إليك لنخرج الناس من الظلمات إلى النور . بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » (٣)

وهو يحمل دعوة الحق ، ويقرر ما تقدمه من كتب سماوية . « الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ممن قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » (٤)

وهو تذكير للناس ، وتنبية إلى مسئولياتهم وما يتعلق بهم من واجبات . « وإنه لذكر لك ونقومك وسوف تسألون » (٥) .

ثم هو كتاب قوى الجانب ، تهوؤ الأئمة ، لا يساميه كتاب ، ولا يدنو منه كلام ، معصوم من الباطل . « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٦) . « الله رل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ، تقشعر منه جلود الذين يحشون رهم ثم تالين جلودهم وتلوهم إلى ذكر الله » (٧) .

(٣) البقرة : ٢

(٤) آل عمران : ٢ ، ٤

(٦) نعل : ٤١ ، ٤٢

(١) المـكـوت : ٥١ ، ٥٠

(٣) إبراهيم : ١

(٥) الزحرف : ٤٤

(٧) الزمر : ٢٣

وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : « إن هذا القرآن مآدبة الله في أرضه فتملوا من مآدبته ما استطعتم ، وإن هذا القرآن هو جبل الله ، فهو نوره المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يموج ميتوم ، ولا يزيع فيستعتب ، ولا ينعد عجايبه ، ولا يخناق عن كثرة الرد » (١) .

نزوله وحفظه .

أنزل القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منجما على حسب الأحوال والمواقف ، بحيث تم إنزاله في ثلاث وعشرين سنة . وكان هذا المهيح الإلهي في إنزال القرآن مثيرا لدهشة الجاهليين واعتراضهم ظما منهم أن ذلك وسيلة يمكن بها مضايقة الرسول الكريم ، بطالبوه بأن ينزل عليه جملة ، ولكن كان في إجابة القرآن ما يسكت « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به قؤادك ورتلناه ترحيلا » (٢) . وقال جل شأنه في ذلك أيضا : « وقرآنا مرصفا لتقرأ على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » (٣) . فإنزال القرآن على تلك الهيئة أحد مظاهر الإعجاز البياني فيه ؛ إذ لا يمكن لسائر مخلوق أن يصوغ بيانه على مدى ثلاث وعشرين سنة ليتجمع في النهاية على تلك الهيئة من الإحكام والانساق ، دون أن تلبو عبارة عن جارتها - مع فارق الزمن للامتد بينهما - أو تتنافص مسكرة مع أخرى ، أو يختلف مستوى الصيغة في موطن عنه في موطن آخر ، وأن لسائر مخلوق أن يكون على حال واحدة يوما واحدا ؟ إن طبيعة المخلوق خاضعة للتغير والتبدل لحظة بعد لحظة ، ومن ثم فنتاجه لا يستقيم على هيئة واحدة ثابتة .

ومنذ بدأ نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم وجه المسلمين إلى حفظ ما أتى به الوحي واصطفي من صحابته من يقومون بكتابة الوحي على حسب ما يوجهه ربه ؛ ضمانا لحفظه على الهيئة التي يريد الله تعالى عليها ، حتى إذا اكمل الدين ،

(١) رواه الحاكم عن ابن مسعود

(٢) آية ٣٢ سورة الفرقان .

(٣) آية ١٠٦ سورة الإسراء .

وأتمت الدعة ، ورمع الرسول إلى الرفيق الأعلى ، كان القرآن في صدور المسلمين وبين أيديهم مرتباً على هيئته الحكمة : « إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » (١)

ولما اشتدت الحرب بين المسلمين وللتدين على عهد الحليمة الأول ، وتقل كثير من القراء حفظ القرآن الكريم ، حتى عمر رضى الله تعالى عنه على القرآن من الضياع ، فدعا أبابكر إلى جمع القرآن من صدور الحفظة ومن السبب والخاف قبل أن يفنى الحفظة فيضيع ويبسى ، ولكن الصديق أبى في أول الأمر ، وبعد إلحاح من عمر وأبى بكر ، وعهد إلى زيد بن ثابت - أحد كتبة الوحي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بجمعه ، فجمعه من السبب والخاف وصدور الحفظة مثل أبى بن كعب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى هريرة ، وأبى الدرداء . متحرراً في ذلك الدقة والحيلة ، فكان لا يقبل من حافظ شيئاً حتى يشهد شاهدان عدلان بصحته وأنه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما أتم جمع القرآن الكريم حفظ في بيت أبى بكر ، ثم انتقل إلى عمر حين تولى الخلافة بعد وفاة الصديق ، وبعد وفاة عمر انتقل إلى حفصة أم المؤمنين . ومن ثم كانت عملية جمع القرآن عملية الأمة في ذلك الحين . تصاور عليها أفرادها ، كل يقدم ما يستطيع في سبيل إتمامه حتى إذا تم لزيد جمع القرآن ، وجدناه موثقاً أنهم التوثيق ، متواتراً لا شبهة فيه ، ولا شك يدنو منه

وعلى ذلك المصحف اعتمد عمر رضى الله تعالى عنهما في إقراء المسلمين القرآن بعد أن اكتملت البلاد ، وكثر المسلمون ؛ فقد بعث إلى الشام ثلاثة ممن جمعو القرآن حفظاً ؛ هم معاذ بن جبل ، وعبد الله بن الصامت ، وأبو الدرداء ، ليقوموا بهذه المهمة متتقلين بين حمص ودمشق وفلسطين (٢) .

ولسكن انتشار الإسلام ، والساح الدولة الإسلامية ، وكثرة عدد المسلمين كان تأسرع وأقوى من جهد هؤلاء الثلاثة ، فلم يتمكنوا من توحيه كافة المسلمين الجدد إلى

(١) القيامة : ١٧ - ١٩ .

(٢) أنظر الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٥٦

القرأة الصحيحة ، فظهرت حاجة الأمة إلى مصحف إمام مكتوب يضبط القرأة ، ويلتزم به المسلمون في كل مكان فاستنسخ المصنف الذي جمع على عهد أبي بكر وجعل منه أربع نسخ ، أرسل واحدة إلى كل من الكوفة والبصرة والشام ، واحتفظ بالنسخة الرابعة عنده (١) . وطى هذا المصحف مضى للقرأة يقرئون الداس القرآن في بلاد المسلمين المختلفة .

من ذلك - على إجماله - يتضح أن القرآن الكريم أصدق بيان ، وأدق وثيقة تناقلتها البشرية في شتى أبعاد الحياة زمانا ومكانا ، وقد تعاونت كل آليات الحفظ ، ووسائل الصيانة على الإبقاء عليه بعيدا عن أى زيف ، وفوق كل اشتباه ، سواء كان ذلك بالكتابة في المصحف أو الحفظ في الصدور ، أو التلاوة الدائبة ليلا ونهارا في الصلاة وشق ضروب العبادة ، أو مراجعة آياته وتحييها والبحث فيها عن أحكام الشريعة وسنن الحياة ، أو كان ذلك عن تردد النظر فيه من أهل البيانات الأخرى وغيرهم ، بحثا عن سقطه وجريا وراء عثرة يشنون بها الحرب عليه . « وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٢) .

طبيعته :

يتكون القرآن الكريم من أربع عشرة ومائة سورة ، تقوم جميعها على منهج واحد ، ويربط بعضها ببعض نسق واحد ، ويضمها جميعا سياق واحد .

لكنها - إلى تلك الوحدة - تختلف طولا وقصرا ؛ إذ تتضمن أطول سورة ستا وثلاثين ومائتي آية ، وتتضمن أقصر سورة ثلاث آيات فقط .

وتختلف منزلا ؛ إذ نزل جزء من القرآن قبل الهجرة في مكة ، ونزل الجزء الآخر بعد الهجرة في المدينة ، ومن ثم أصبحت السور إما مكية وإما مدنية ، ولكل صفاته وخصائصه .

وتختلف غرضا ؛ إذ خطب بعضها المسلمون في أول الدعوة ، مدارت حول

(١) البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) فصلت : ٤١ - ٤٢ .

المقيدة وما يقررها في النفوس ، وخطوب يعضها المسلمون بمد الهجرة حين أصبحت لهم دولة ، فدارت حول الملائات الاجتماعية وما يتصل بذلك من تنظيمات سياسية ، وكثيرات مالية وجنائية .. الخ ؛ بيد أن سوره - مع هذا الاختلاف - تقوم على الوحدة العامة ، فلا تخرج على الإطار المحيط بها جميعا .

وأعراض القرآن الأساسية متمدة المظاهر دون تمارض ؛ فهو ذكر ، وهو هدى ، وهو موعظة ، وهو نور ، وهو - مع هذا وذاك - كتاب مبين ، أو قرآن مبين : فهو يقوم في كل أغراضه على الإبانة ، ومن ثم كان البيان والإبانة من أبرز خواص القرآن الكريم ؛ تصاحب كل عرض من أغراضه - قارئا كان للتلقي أو سامعا - فإن كان الغرض تذكيرا فهو مصحوب بالإبانة ، وإن كان هداية فهو مقرون بالإبانة ، فالإبانة هي القاسم المشترك بين كل أغراض التفسير القرآني .

والناظر في البيان القرآني يلاحظ فيه خصيصة لا يمكن بحال أن تطالب أو تنتظر من بيان أديب مخلوق أيا كانت إمكاناته الأدبية لديه ، ومهما أوتي من اللقدرة التعبيرية وآلاتها ؛ فالبيان القرآني لا يقتصر على جنس من أجناس التعبير ، وإنما هو يستعين بكل ما عرف من أجناس الأدب المنشور على حسب ما يتطلبه الموقف ، موضوعا ، وأشعاعا ، ومكانا ، و زمانا . وعاية (١) . ثم هو في كل جنس يتردد بين الإيجاز والإطناب والمسارة ، بحيث تراه في كل حالة البيان الأمثل ، والتعبير الأسمى الذي لا يداني .

هذا ويلاحظ من يتصل بالقرآن اتصالا درس أنه ميسر «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» (٢) . فالقرآن يسر يتلى ، وحير ينساب ، لا عسر فيه ، ولا حوائل تمنع عنه مريدا ، فهو قريب من كل نفس ، قريب من كل قلب وعقل . هو كتاب كلى إنسي وجان ، ليس للخاصة دون العامة ، ولا للعامة دون الخاصة ، فليس فيه ما في العلوم والفنون من مستملقات ومصطلحات لا يعرفها إلا أربابها ، ولا يعلمها إلا من راضى نفسه على تعلمها ، ليس فيه ما في كتب العقائد والفلسفات من لف ودوران ، وإقدام وإحجام ، وتحليق فوق الحقائق ، وتشتيت الدهن .. فما يرد على القرآن وارد إلا أصاب منه

(١) راجع بتوسع المؤلف : البيان القصص في القرآن الكريم .

(٢) القمر : ١٨ .

خيرا ، وتروى به براد طيب كريم ؛ فهو ليس كتاب العلماء وحدهم ، وليس كتاب الفقهاء ورجال العقائد وحدهم ، وليس كتاب من اهتدى ومن آمن وحده ، وليس كتاب من يهتدوا إلى الاهتداء والإيمان وحده . ليس كتاب طبقة أو طائفة من الناس دون باقي الناس . . . إنما هو كتاب رب العالمين للعالمين من إنس وجان ، كل يأخذ منه على قدر ما يباغ حبه وتدفع له بمسه وقلبه .



فالقرآن الكريم نمط مريد في الأساليب العربية ؛ له سماته وخصائصه التي تميزه عن أساليب المخلفين ، ولهذا التميز والتفرد مظاهر كثيرة من أبرزها : تميزه في نظمه ، وتميزه في أسلوبه ونهجه ، وتميزه في تناسقه وتلاوته ، وتميزه في الفيسام بأغراضه التعبيرية المختلفة ، وهذا التميز والتفرد الذي يتسم به القرآن الكريم يلمسه كل من يلتقي به على أية هيئة .

أنظر إلى قوله تعالى في تصوير أبي لهب ووجهه : ثبت يدا أبي لهب وتب . ما عى عنه ماله وما كسب . سيملى نارا ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد . نجد وحدة تعبيرية كاملة ذات مطلع وموضوع وقراءة ، وذات الساق في الجو الموسيقى والموضوع والألفاظ ، وذات مشاهد مصورة ، وصورها ذات ألوان وظلال . كل هذا وذلك يشته في روعة ودقه تلكم الثلاث وعشرون كلمة في خمس آيات

وأنظر إلى قوله تعالى : والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدهك يتما مأوى . ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى . أما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث ، تجد - كذلك وحدة تعبيرية كاملة - على نحو ما ذكرنا - تقدمها أربعون كلمة في إحدى عشرة آية .

ثم أنظر التعبير القرآني في سورة المسد - حيث للحرب والإبعاد - وفي سورة الصحرى حيث التطين والمهدئة ، تجد اختلافًا في كل شيء .

وسورة المسد عوذج من نماذج التحدى ، وسلسلة من سلاسل الدفاع عن الدعوة

ورسولها ، ومن ثم حمل مطلبها في أوله دعاء بالهلاك والبوار ، وختم بتقرير هذا الدعاء وتأكيده . وعلى هذا الدسق سارت السورة ، حتى قدمت امرأة أبي لهب في صورة حية تنذر بالهلاك والبوار - كذلك - ونثير السخرية منها والاستهزاء بها ، حيث ترى حامله وسيلة إحراقها هي وزوجها ؛ فإذا كان هو أبو اللمب وحامله ، فهي صاحبة الخطب وحامله . . فإذا كانا قريبين رأياها . أرا في - - ورة إسان تشتعل وتسمى بين الناس ، وتجر وراءها زارداها الذي يمدّها بالوقود

وسورة الضحى نموذج من نماذج التملية والتسرية ، والترويح والتطمين ، ومن ثم نسج مطلبها إطارا شفافا رقراقا صائيا ، من الضحى الزائق ، والليل الساجي ؛ إذ هما أصنى أوقات الليل والنهار وأشدها ، فيما كسرى الروح ، وتطابق النفوس فإذا هي مستترجة في ^{الأماني} ~~الأماني~~ . وفي داخل هذا المطلع ينشئ الديان القرآني صورة من سمات رقيقة بها الحب الصادق ، والحنان اللطيف ، والإقبال العاقل ، والرضا الشامل ، والرحمة الوديمة ، والشجى الشفيف ، والوعد القاطع . نأنت هنا أمام لوحة مائتة أتم الانشام ، وظلال كسرى منها الإيماءات الصادقة ، ليتسق المشهد مع حقائق الواقع ، مع الجوى النفسى ، مع أحداث الأحداث .

وفي معرض آخر انظر إلى قوله تعالى يفعد مراعم المشركين في شأن العقيدة : « أم اتحدوا آلهة من الأرض هم يشركون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا سبحانه الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يعمل وهم يسألون . أم اتحدوا من دونه آلهة قل : هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وقالوا : المجد الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشعرون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين . » . تجد البيان المناسق مع موضوعه ، وهو يقلب الأمور على شق وجوها ، بحيث لا يترك لدى مشتبّه شبهة ، ولا أدنى فرصة لانتارة من شك . فأنت هنا - في مجال المناقشة العقلية - مع بيان هادى . يمهـل على تفتيح الآفاق المختلفة أمام المشرّكين ، إنقاذهم من الردى والهلكة . فإذا نقلت نظرك إلى موطن آخر من مواطن العقيدة

— ٣٦٢ —

مع قوله تعالى . دقل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له
 كفوا أحد . . وجدت الأسلوب المقاطع المقرر ، القدي لا ياقش (لا يحتمل أدنى
 مراجعة أو تفكير .

وهكذا كما رددت نظرك في آيات القرآن وسوره وحدث البيان القدي لا يداني ،
 والنسق المعجز ، الذي أقر بروعته العدو الجاحد له مع المؤمن به المخلص إليه ، والذي
 أخذ العرب الأدباء أنفسهم به في نثرهم وشعرهم ، فتحولوا عن طريق أسلافهم ،
 وقدموا لها أدبا حديدا على مدى الأجيال المتلاحمة .

(٢)

الحديث النبوى

والذى يقصده بالحديث النبوى هنا هو ما أثر من كلامه صلى الله عليه وسلم ، وتواترت بثقله الروايات أو نص الدماء على أنه روى بلفظه ، فهذا الذى يتصل بدراسة فى الأدب العربى . أما ما عدا ذلك من حمرة الأحاديث على الله عليه وسلم التى حرص فيها الرواة على المضمون دون اللفظ ، فاختلفت ألفاظها من راو إلى آخر ، فهذه لا تتصل بما نحن فيه ؛ فهى من صياغة الرواة على اختلاف أزمته .

والحديث النبوى - على عمومه - نسق بيانى جديد على الأدب العربى إذ لم يسبق صلى الله عليه وسلم أحد إليه ، ولا عرف مثاله لاحد قبله ، حتى قال له الصديق مرة : لقد طفت على العرب ، وسمعت فصحاءهم فما سمعت أنصح منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبى ربى فأحسن تأديبى . فإذا ذكرنا مع هذا أن أبكر هذا كان فى علم العرب وأنسابها وأخبارها ولغاتها وآثارها النائية التى ينتهى إليها ويوقف عندها ، حتى لا يعدل به عدل استطعنا أن نضع هذا الحكم موضعه .

وأهم ما يتميز به الحديث الشريف أنه بيان عربى موحد العرض ، يحكم الدسق . يوضح لشريفا ، أو يوجه لإنسانا ، أو يصور موقفا من مواقف الإيمان أو الكفر . . إلى غير ذلك . فى إيجاز وإعجاز ، تحول به إلى حكم مأثورة ، وأمثال سارة . قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبرد كبردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه . وفى رواية أخرى عنها أيضا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو عده الماد لأحصاه . وهذا يعنى أن منطقته صلى الله عليه وسلم عرف الفكر قبل أن ينطلق إلى الفهم ، وأن العقل فيه من وراء اللسان ، فهو غالب عليه ، معصوف له ، حتى لا يعتريه لس ، ولا يتخونه نقص . ومن ثم قال كلامه صلى الله عليه وسلم ، وخرج قصدا فى اللفاظ ، محيطا بعمانيه ، تحبب النفس قد اجتمعت فى الجملة القصيرة والكلمات للعدودة بكل ما فيها ، فلا ترى من الكلام ألفاظا ، ولكن حركات نفسية فى الفاظ . ولهذا كثرت جوامع كله ، وحلص أسلوبه ، ولم يقصر فى شيء ، ولم يبالغ فى شيء ، وتم له من هذا الأمر

على - كمال المصاحفة والبلاغة - مالمو أراد مريد لمعجز عنه ، ولو استطاع إنسان بعضه لما تم له في كل كلامه ، ويكفيه أنه كان تلميذ القرآن ، به حبه الوحي ، ويرشده إلى القول الفصل بمثل قوله تعالى : « وحادلهم بالتي هي أحسن » ، و « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن قولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » .

ونظرة إلى نماذج من مأثور حديثه صلى الله عليه وسلم تطقت بما نطق به الجاحظ من قبل - فنقول : « لم يتكلم إلا بكلام قد حذف بالمصحة ، وشيد بالأنبياء ، ويسر بالتوفيق » (١) . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم للأتباع : « ما علمتكم إلا لتقولون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » . وقوله : « للمسلمون تتسكفأ دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدباهم ، وهم يد على من سواهم » . وقوله : « لا تزال أمتي صالحا أمرها مالم تر الأمانة مغنا ، والصدقة مغرما » . وقوله : « إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، للوطنون أكسادا ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون » ، وقوله : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تمتصوا بحبله حميما ولا تفرقوا ، وأن تصحوا من ولاء الله أمركم . ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . وقوله : « يقول ابن آدم : مالي ، مالي ، وإنما لك من ماله ما أكلت فأدميت ، أو لبست فأبليت ، أو وهبت فأمضيت » . وقوله : « أوصاني ربي بتسع : أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، وبالعدل في الرضا والغضب ، وبالقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطى من حرمي ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صنتي فسكرا ، ونطقي ذكرا ، ونظري عبرا » ، وقوله : « إن قوما ركبوا سفينة في البحر فاقسموا نصار لكل رجل موضع ، فنقر رجل موضعه بفأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصعب به ماشئت ، فإن أخذوا عليه نجما وبجوا وإن تركوه هلك وهلكوا » .

وعلى الإجمال يستطيع الناظر في الحديث النبوي أن يلمس أثره في الأدب العربي

- ٢٦٥ -

منذ صدر الإسلام إلى العصر الحديث، بما أدخل على الأدب من تراكم بيانية جديدة،
فرغ منزلة النثر وخطابه خطوة أبعدته عن سجع الكهان، وفتحت له آفاقاً جديدة
من ذون الأدب. هذا إلى أنه كان إلى جوار القرآن الكريم مساعداً على توحيد
اللهجات العربية، والحفاظ على لغة العرب وذوقها، وتوسيع مادتها، بما أشاع من
ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص، كما أنه فتح
أبواب دراسات جديدة لم يكن للعرب عهد بها، مثل علوم الحديث وما تفرع عنها من
تراجم المحدثين، وكتب الحديث، وما عليها من شروح وتعليقات واستنباطات بيانية
وتاريخية وتفسيرية... إلى غير ذلك.

(٣)

أبو بكر الصديق

تولى زمام الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، فعمد بن الخطاب ، فثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب ، فخرص كل منهم على أن تظل الدولة الإسلامية كما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تغيير كبير ، فكانت البيئة امتدادا لعصر الرسول ، لا تشكك تشد عنه في شيء ، وكان أثر القرآن الكريم وبيان الرسول عليهم ما رآه قريبا ، والصحابة جميعا ينهلون من معينهما البياني والأخلاقي والعقيدى ، لا يشاركنهما معين آخر فيه ، فكانوا - في مجملهم - مظاهر متحركة يتمثل فيهم البيان القرآنى والنبوى ، حيث سرى في نفوسهم بما يتضمنان من تعجب وترهيب ومواظب ، تنبذات ؛ فبدأ ذلك في سلوكهم حلقا رديما ، وعلى ألسنتهم يانا ناضجا تراءى في خطاباتهم وكتاباتهم

أما الصديق أبو بكر فكان وثيق الصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي بالإسلام ، وكان أول من أسلم من الرجال ، وظل الرويق اللاصق للمحمد صلى الله عليه وسلم ، والصديق المؤازر له في كل مراحل الدعوة ، حتى تولى الخلافة وهام على أمر المسلمين ، فكان أثر البيان القرآنى والبيان النبوى فيه واضحا ، تجلى في ذلك البيان الإسلامى المتدفق من لسانه تدفق السيل ، دأرا في إطار المعانى الإسلامية وقيمته الروحية ، كما برى في خطبته حين تمت البيعة له ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

(أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتُمونى على باطل فسدونى . أطيعونى ما أطعت الله بكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ، إلا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعكم عندى العوى حتى آخذ الحق منه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم) (١) .

وأهم ما يلفت نظر الدارس في هذه الخطبة إيجازها ، والدقة في اختيار ألفاظها ،
والعصمة في القوة في عباراتها ؛ فإذا عرفنا ملائمتها أدركنا وعيه رضى الله تعالى عنه
بالموقف وما يستدعيه ، وحرصه على أن يتلام في خطبته مع الموقف . وذلك أنه قال
هذه الخطبة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد وجه باضطراب المسلمين في
مواجهة الصدمة اضطرابا جعل للكثيرين منهم - وفيهم عمر بن الخطاب - يرفضون
التسليم بهذا البأ ويقولون إن الرسول لم يمت ، فأقبل في حزم وكشف عن وجهه صلى
الله عليه وسلم وقال : بأبي أنت وأمي طبت حيا وطبت ميتا ، وحرج إلى الصحابة فالتقى
فيهم خطبته المشهورة التي ارتكر فيها على القرآن الكريم ليقطع على كل شاك شبهة ،
وفيها قل : « من كان يبغ محمدا وإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي
لا يموت » ، ثم أخذ في تلاوة الآيات الكريمة التي ترد عليهم شبهاتهم مثل قوله تعالى :
« إنك ميت وإنهم ميتون » ، وقوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله
الرسال أولان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ، ثم تلا قوله عز وجل : « كل نفس
ذاتة لبوت » ، وقوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » ، فتاب الجميع إلى الرشيد ،
ورجعوا إلى العوالم^(١)

كما وجه في الموقف نفسه بؤادر اختلاف المسلمين حول قيادة الأمة ، فقد بلغه
أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عباد بن سقيفة بني ساعدة يقولون : منا أمير ومن
قريش أمير ، فرأه ذلك ، وحشى على الأمة من التمرد والطمع في الملك ، فبادر إليهم
هو وجمع من الصحابة حتى يقعو على هذه الفتنة في مهدها ، فلما انتهت بتولية أمر
المسلمين التي خطبته تلك .

ولا ريب في أن مثل هذا الموقف لا يتجدد خطبه أطول من ذلك ، ولا يتسع المجال
لمزيد من التفصيل والإضافة .

فإذا نظرنا في خطبة أخرى له ، وجدناه رضى الله تعالى عنه ملتزما بمنهج التراما
ديا ، حيث يحرص على مراعاة الموقف واستدعائه ، كما نرى في إحدى خطبه الوعظية
التي يقول فيها :

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٤٥ وما بعدها

« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أحلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتوها ، وحفظتم بتمه ، وضرائب أدتتموها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقرم وحاجتكم اعتبروا ، الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيه من كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم الآن ؟ أين الجبارون ؟ أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاصيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم فتلك مساكنهم خادية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . . ألا إن الله لاشريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يبطئه به حيرا ولا يصرف عنه به سوء إلا بطاعته وأتباع أمره ، واعلموا أنكم عباد مدينون وأن ما عده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إني لا حير بخير بعده الدار ، ولا شر بشر بعده الجنة ، (١) »

والخطبتان تحتلفان إطنابا وإيجازا بمقدار اختلاف الموقعين ، والإطناب في الخطبة الأخيرة يقوم على التعمير المشخص ، والخيال المفرط الذي يقلل المشاهد من عوالم غيبها السنون ليراهم السامعون من حلال آذانهم فإذا هم يجمعون بين ما كان وما يكون ، لتتضح العظة ، ويقنع بها العقل ، ويلبض لها القلب ببص الاستجابة والقبول .

أما مادة الخطبتين مستمدة من القرآن الكريم والبيان النبوي ، وروح الإسلام . ولم يقف الصديق بخطابته عند حد الموعظة والدعوة ، وبيان السياسة والمنهج الحكومي ، بل أضاف إلى ذلك غرضا آخر استغل الخطابة فيه ، وذلك أنه كان يخطب في الجيوش الخارجة للدفاع عن دين الله موصيا الجيش وتادنه ، مستقيا وصاياهم من روح الإسلام ، مقتبسا قدر الاستطاعة من وصايا القرآن الكريم والى صلى الله عليه وسلم حيث يدعوهم إلى التمسك بسماحة الإسلام ، في معاملة المغلوبين ، ويحذروهم من الحيانة والظفر ، وينهاهم عن التمثل بالقتيل ، وعن قتل الصغير والشيخ الكبير والنساء الآمنات . . الخ ، تلك الوصايا المقررة في ظلال الإسلام ، كما نرى في وصيته جيش أسامة بن زيد حين سيره إلى الشام ، وفيها يقول :

« أيها الناس قتلوا أو سيكم بعشر فأحفظوها عني . لا تخونوا ولا تملوا (٢) » ،

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٠

(٢) عل : حان في الفء .

ولا تندروا ، ولا تمثلها ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تقمروا^(١) نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما فرغوا أنفسهم له^(٢) .

وَأَمِ ابْنُ صَمَاتٍ الصديق في خطابته تأييد عن السجع ، وحرصه على إزالة الالفاظ ، ووضوح المعاني . وتمكنه من الكشف عما يحتلج بنفسه . ويريد أن يقفه إلى سامية .

(١) قمر النخلة - بفتح القاف والعين - استأصلها وقطعها .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٤)

عمر بن الخطاب

وأما الفاروق عمر بن الخطاب فقد كان أحد العبرين اللذين دعا الرسول ربه أن يميز بأحدهما الإسلام ، وكان هو الذي استجاب الله بإسلامه دعوة نبيه . وكان منذ أسلم المقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المصطفى لمشورته . وما زال على ذلك حتى توفي صلى الله عليه وسلم ، فظل على مكانه من حليفة رسول الله الأول ، فكان له الوزير والمعين والماصح والمستشار ، ولم يكن الاختلاف بينهما كبيرا ، فقد كان الفاروق قريب الشبه بالصدیق صدق عزم ، وضوح رؤية ، ومحبة بيان ، وبلاغة لسان ، وراحة عقل ، ونفاذ بصيرة ، وقوة شكيمة . وقد طبقت شهرته الخافقين حكمة ، وعدلا ، وحلما ، وعزما ، وحسن سياسة ، فأقبلت البلاد والممالك على الإسلام ودولة الإسلام قرارا من ظلم الملوك والحكام ، حتى اتسعت في عهده الدولة الإسلامية الساعا لم يعهد في التاريخ مثله ، فقد فتحت بلاد فارس والشام ومصر .

ولهذه الحلال مجتمعة كان له من التأثير في عقول وقلوب سامعيه ما يكشف عن مدى صدقه ، وقوة بيانه ، وهساحة لسانه ، كما يطلعا على ذلك مثل قوله في إحدى خطبه الوعظية :

« إن الله سبحانه ومحمد قد استوجب عليكم الشكر ، وانخذ عليكم الحبيب آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ، ولا رغبة منكم فيه إليه ، خلقكم تبارك وتمالى - ولم تكونوا شيئا - لنفسه وعبادته . . وسخر لكم مافى للسموات ومافى للأرض ، وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة وحكمكم فى البر والبحر ، ورزقكم من الطيبات لماكم تشكرون . ثم جعل لكم سمما وبصرا ، ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بنى آدم ، ومنها نعم احتص بها أهل دينكم ﷺ ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو تسلم ماوصل إليه منها بين الناس كلهم أنبهم شكرها ، وهدهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأتم مستخلفون فى الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . والله الممود مع الفتوح العظام فى كل بلد . . فنسأل الله الذى لا إله إلا هو الذى أبانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسايرة إلى مرضاته . »

ومن أهم ما يلاحظه الماهر في هذه الخطبة وغيرها من خطبه رضى الله تعالى عنه خلوها من السجع الذى كان يكلف السكهان به في ذلك العصر ، ويحرصون عليه كل الحرص ، والفاروق في ذلك ومن قبله الصديق ومثاران بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالقُرآن الكريم ، حتى لقد أثر عنه أنه أنكر على محار العبدى استخدامه للسجع دون حاجة إليه ، فقد روى الطبرى أن الفاروق سأل محاراً عن (مكران) الفارسية أثناء غزو المسلمين لها ، فقال محار : « يا أمير المؤمنين أرض مهلهل جبل ، وماؤها وشل (١) ، وتمر دقل (٢) ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل . إن كثير الجند بها جاعوا ، وإن قتلوا بها ضاعوا » . فقال عمر : « أسجاع أنت أم غير ؟ » فقال محار : بل غير (٣) .

كما يلاحظ أنه يسير فيها سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبه من الامتناع بحمد الله وتعجبه ، والاعتناء من القرآن الكريم والحديث الشريف .

وتتمتار خطبة الفاروق هنا بطول عباراتها ، حرصاً منه على تفصيل الحجّة ، وتوضيح البرهان ، وبسط القول ، منوع وقسم ، وصور وشخص ، وهو في كل ذلك يدور في محور نعم الله على الإنسان وما تستوجبه من شكر الله عليها .

وكما كان الصديق يخطب في الجيوش الحارحة للنزول موصياً وموجهاً . كان كذلك الفاروق ، ربما أثر عنه في ذلك أنه لما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أحابه حينئذ إلى الجهاد - وهو أبو عبيد بن مسعود - وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أشركهم في الأور ، ولا تجهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصاحبها إلا الرجل المسكيت (٤) الذى يعرف الفرصة والكف » .

وله إلى ذلك وصايا كثيرة يوصى فيها الأوصياء والقادة ، ومن ذلك ما أوصى به الخليفة من بعده ، وهي وصية طويلة جاء فيها :

« أوصيك بتقوى الله لأشريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً : أن

(١) الماء الوشل . القليل . (٢) التمر الدقل : الردىء .

(٣) راجع البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٥ .

(٤) المسكيت : الرزين المتبصر في الأمور .

تعرف سابقتهم ، وأوصيك بالانصار خيرا ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ،
وأوصيك بأهل الامصار خيرا فإنهم ردة^(١) العدو ، وجباة الأموال والنفوس ، لا نحمل
فيهم إلا عن فضل منهم . وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فإنهم أصل العرب ومادة
الإسلام : أن تأخذ من حواشي^(٢) أموال أغنيائهم فتد على فقرائهم . وأوصيك بأهل
الذمة خيرا ؛ أن تقابل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، وأوصيك بتقوى الله
وعدة الحذر منه ، ومحامته مقته أن يطلع منك على ريبة . وأوصيك أن تحشى الله في
الناس ولا تحشى الناس في الله ، وأوصيك بالعدل في الرعية ، والتفرغ لحوالهم
وئورهم^(٣) ، ولا تؤثر غنيتهم على فقرهم . وأمرك أن تشتد في أمور الله وحدوده
ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، واجعل للناس سواء عندك لا تبالى على من وحب
الحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وأياك والأثرة والمحاباة فيما ولأه الله مما أفاء الله
على المؤمنين ، فتجاوز ونظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ماقد وسعه الله عليك .

فالوصية كما ترى دستور ضمنه عمر نظام الحكم الذي يجب أن يكون في ظل
الإسلام ، تناول فيها كل ما يحتاج الحاكم والمحكوم إيضاحه وتقريره ، في أسلوب واضح
بين ، لا فضول فيه يضل معه السامع ، ولا إيجاز فيه يختل معه المقصود ، والكلام
- كما ترى - ينساب انسيابا لا تشعر معه بتسكف ، ولا تضيق الأذن بسماعه ، فهو
عبارات سهلة مع جزالتها وقوتها ورسالتها ووضوح المقصود منها .

(١) الردء : المعين ، فهم يعينونك على العدو .

(٢) حواشي الأموال في البادية : صفاء الإبل والغنم .

(٣) الثور جمع ثور : وهو هنا الحلة والحاجة .

(٥)

على بن أبى طالب

على بن أبى طالب ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أول من أسلم من الصبيان ، تربى في بيت النبوة ، ونشأ في كنف الوحي ، فكان القريب للقرب منه صلى الله عليه وسلم ، عايش القرآن ، وجاور الرسول ، فتخلق بمخاليق الإسلام ، ودان به في كل تفكيره وتصوره ، فلم يقل عن سابقه شأوا في خطابه وبيانه ، بل لقد أتبع له من دوافع الإنابة ما لم يتبع لغيره ، فأثر عنه خطب كثيرة تصدى فيها للخارجين عليه ، مما أفاض الفرصة للدرس عليه ، ونسبة ما قل إليه مما ضمنه كتاب « نهج البلاغة » للنسوب إليه كرم الله وجهه . ولقد تصدى لذلك كثيرون من المؤرخين والأدباء ، نفوا أن يكون هذا الكتاب كله من صبح على رضى الله تعالى عنه ، وإنما هو في أكثره عمول عليه ؛ لما تضمن خطبه من السب الصريح في السيدى أبى بكر وعمر ، والخط من هأنهما ، ولما ينطوى عليه من التناقض ، ولما فيه من العبارات الركيكة ، والجمال الضعيفة التي يحرم من له معرفة بنفس القرشيين الصعابة ، وبنس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين . . بأنها نسبت إليه باطلا وزورا (١) .

ومن ثم كان على المدارس أن يتحفظ في الأخذ عن كتاب « نهج البلاغة » وغيره من كتب المتأخرين ، ويرجع في ذلك إلى المصادر الأولى مثل البيان والتبيين للجاحظ فقد روى طرفا من خطبه ، مثل خطبته التي وجهها حين تقاعس بمض جده ، وأخذت جنود معاوية تنير على أطراف العراق ، وفيها يكشف عما في نفسه من ألم وضيق بصنيع هؤلاء المتفاعسين ، كما في قوله (٢) :

-
- (١) انظر (لسان الميران) لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣ طبع حيدر آباد ، وميزان الاعتدال للذهبي ج ٢ ص ٢٠١ طبع لكهنو ، وشذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ٢٥٧ طبع القاهرة ، ومراة الجنان للياقنى ج ٣ ص ٥٥ طبع حيدر آباد .
- (٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٣

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب النذل ، وقبلة البلاء ، ولزمه العنار ، وسيم الخسف ، ومع الصف (١) ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اعروهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتوا كلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتمهم وراءكم ظهرية ، حتى شات عابكم المارات .. يا محبا من حد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفسادكم عن حقكم .. حتى صرتم هدفا يرمى ، ويشتا يتهب ، ينار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون .. قد ورثتم (٢) صدرى عيظاً ، وجرعتموني الموت أنفاساً (٣) ، وأفسدتكم على رأي بالعصيان والخذلان » .

والخطبة من أولها تعان عن حاله كرم الله وجهه وحال الجيش ؛ وتكفي النظر إلى ما طلع به عليهم من تعريف بالجهاد حيث لم يطل الوقوف مع ما ينتظره المجاهدون ، قدر إطلالته الوقوف مع ما ينتظره المتقاعدون الفارون ، فأكتفى في الإخبار عن الجهاد بخبر واحد ، وأحبر عن من ترك الجهاد بحمسة أخبار متعاطفة في سلاسة حتى لتبدو كأنها خبر واحد يضم خمس صور من صور البلاء الذى يتوقع لمن يقعد عن الجهاد .

كما يعلن عن البراءة بما أوقع هؤلاء أنفسهم فيه ، فقد قام بدور القائد البصير ، فلم يترك لحظة تمر إلا حث بها جده على مواصلة القتال حتى لا تدور عليهم الدائرة ، ويقع بهم الخدور .

فالخطبة كما ترى إعداد منه رضى الله تعالى عنه ، وتبرؤ من التقصير أو الإهمال ، وضيق بموقف الجنود المتخاذل ، وشعور بالمرارة لما حدث .

وقد اضطرته حروبه مع الأمويين إلى الإكثار من هذا اللون من الخطب ، بيد أنه لم يف على ذلك ، بل أشرعته كثير من المواقف في مناسبات مختلفة ، منها قوله (٤) .

(١) الصف - بفتح النون والصاد - الإنصاف .

(٢) ورثتم : ملائمتهم ، من روى للقيح جوده إذا أكله .

(٣) الأنفاس جمع نفس - بالتحريك - الجرعة من الماء ونحوه .

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٢

« إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوادع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وإن المضار^(١) اليوم والسباق غدا ، ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أمه قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يضره أمه ، ومن قصر في أيام أمه قبل حضور أجله خسر عمله ، وضره أمه ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإنى لم أر كالجبة نام طالها ، ولا كالنار نام هاربها ، -

وهكذا نجد رضوان الله تعالى عليه في كل خطبه على اختلاف اللواقف والدواعي - خاضعا لقيم الإسلام ومبادئه ، سائرا بمجاء القرآن الكريم والبيان النبوي الشريف لا يشذ عنه ولا يخرج عليه ، في أسلوبه وعباراته والمفاظ وأخيلته ومعانيه .

(١) المضار : الزمان الذي نضمر فيه الخيل للسباق .

الفصل الرابع

فنون النشر الإسلامى وخصائصه

(١)

الخطابة

عوامل تطورها :

ظلت الجاهلية بمؤثراتها مهيمنة على الفكر والتصور والسلوك فى المجتمع العربى ، وبدأ هذا تسلط فى شتى أمعالمهم وأقوالهم ، حتى إذا جاء الإسلام بحضارته أخذت عوامل التحول تتتابع من حولهم ، وتهمزم المرة بعد المرة ، حتى إذا غمرتهم مؤثرات الإسلام رأينا تحولاً تاماً فى الفعل وفى القول وفى التفكير وفى التصور والتخيل .

ونستطيع أن ندس هذه المؤثرات الإسلامية إذا نحن نظرنا النظرة الفاحصة المقارنة . . أولاً : إلى العربى فى عهديه (الجاهلية والإسلام) ثانياً . إلى الزاد الفسكرى والعاطفى والوجدانى الذى قدمته البيئة الجاهلية لأهلها ، ثم الذى قدمته البيئة الإسلامية لأهلها .

ومن النظر فى تلك للمؤثرات نستطيع أن نقف على أهم عوامل التحول التى كان لها أكبر الأثر فى تطوير الخطابة العربية ، وتتلخص تلك العوامل فى :

١ — أمثلة الخطابة التى قدمها القرآن الكريم ، فقد وجد العربى فى تلك النماذج الخطابية شيئاً غير ما اعتاده — ربما كان هذا الشيء هو نفسه لكنه ما كان ليجد لديه القدرة عليه — لما إن سمع العرب القرآن حتى فتناوبه ، وذهلوا عن الأخذ منه والانتفاع به ، ولما أنصتوا إليه وقراوه أنسوا له ، فأقبلوا عليه ، فلذا بهم أمام عظم آخر من الخطابة يذاير ما عرفوا من أعماطها ، فهو يقصد إلى التأثير والإقناع مما فى أسلوب تربطه وحدة أقوى من الوحدة النفسية، مع اشتباهه — كذلك — على الوحدة النفسية.

فألموا أنفسهم ترسم خطأ ، وانتهاج سبيله ، والسير على هداه ، وأخذ ألسنتهم بقوانينه
الأسلوية ، وترويضها عليها حق تمتد إلى ذلك السبيل الجديد .

وذلك أنهم قرأوا اخطاب القرآن الكريم الموجه إلى بني إسرائيل في سورة البقرة :

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ الَّتِي أُسَمِّتَ عَلَيْكُمْ وَأَدْبُوا بِنَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَأَمْنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ . وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ . أَنْتُمْ مَرْوُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتَلَوْنَ السِّكَاةَ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ أَنْفُسَهُمْ مَلَأُوا رُءُوسَهُمْ وَأَنْهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي مَضَّيْتُكُمْ عَلَى الْيَمِّ .
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا هُمْ يُصْعِقُونَ » (١) .

ويتتابع الخطاب على هذا النمط حتى يقطع أكثر من ثمانين آية (٢). ومن أوبر ما يلبسه دارس هذا الفن عمق الأفكار التي يعرضها ، وترتيب هذه الأفكار ترتيباً لافاق في ولا تكرار ، ومسار النص ومنهج في عرض المواقف ، والنص - كما ترى - يسير في اتجاهه واضعاً مستقيماً كل ما يتعلق بالموضوع من جزئيات تدفع الخطاب في طريقه . ونميه ، متجاوزاً كل جرئية نجمد الموقف ، أو تحول الأنظار عنه هذا إلى أن الدارس يحفظ حرص النص على إداية ما قد يشأ عن طول الخطاب من الملل أو الانصراف والتحول . . وذلك بجمل الأسلوب مزاجاً من الخطاب والنية والتكلم (الالتفات) - مع الحرص على أن يكون لتلك الالتفات وظائف أخرى أسلوبية ليس لها محال الحديث عنها - وحمل مزاجاً من التذكير والمن ، والوعيد والوعيد ، والتساؤل المنهكم الساحر ، والوصف الشامل . . إلى غير ذلك .

وهكذا باقم الإعجاز حدا جمـل الخطاب قضية من قضايا المكر ، ذات مقدمات

(١) البقرة ٤٠ - ٤٨

(٢) البقرة ٤٠ - ١٣٣

وتتائج يصل إليها المتلقي ، وتقر في ذهنه بمجرد سماعه لذلك الخطاب . وما كذلك كانت خطابة العرب ، ولا وقع في أسماعهم من قبل خطبه تيسر هذا المسار (١) .

٢ — استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لمنهج الدعوة الذي أنتمه إليه ربه في قوله . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وجادلهم به أحسن » . وهذا المذهب في الدعوة تيسر أكثر ما يتيسر في الخطابة ، وهي حير ما يستمين به الدعاة إلى العقائد والمذاهب الجديدة ، وهي حير ما يستمين به الأنبياء والمصاحون في الدعوة إلى دياناتهم ؛ لأنها أمثل وسيلة تيسر الاتصال بالجمهور ، وتتيح الفرصة لمناقشة أفكارهم ، والإجابة على ما يطفو فوق سطح أذهانهم من حجاج ، ولأنها تمكن من التأثير في الجماعات ؛ ولذلك اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة بيت بها دعوته في نفوس العرب وغير العرب ، ويعتمد عليها في إقناعهم بصدق ما جاء به ، ولذلك — كذلك — اتخذها أداة يؤكد بها مبادئ الإسلام ، ويقررها في نفوس المسلمين . ومن ثم أصبحت الخطابة وسيلة المال والولاء الذين يبعثهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأمصار ، حيث يقوم الوالي أو العامل خطيباً في الناس حين يصل إلى مصيره ، ليبين لهم مسجده ، ويوضح لهم طريقته التي سيسير عليها معهم ، حتى أصبحت سنة يتبعها كل خليفة ، ويستهل بها عهده الجديد كل وال .

ومن ثم أهتم المسلمون بتعديل منهج الخطبة بما يتلاءم مع وظيفتها الخطيرة التي وظفوها فيها ، فعملوا خطبة أجزاء لما ابتداء واحتمام ، وبين هذين يمرض الموضوع مناسكا ، مرتباً ، واضحاً ، مقام مغرباً ، صادقاً . واشتروا في المقسمة شروطاً أملاها عليهم إحساسهم بجبل شأن الخطبة ، وتقديرهم الأبعاد التي يزونها بها من نفوس السامعين ، فالزموا فيها — إلى كونها مهددة للموضوع ، موطئة لا كسامه — الاقتناع بالتحديد والتجديد لله ، والصلاة والسلام على النبي .

٣ — ما استلزمه مجيء الإسلام من صراع بين من يدعون إليه ومن يردعون عنه ويقفون في وجهه ، كان عاملاً في انتماش الخطابة ، وباباً واسماً ينفذ الدعاة منه إليها ؛ سواء في ذلك المسلمون الداعون إلى الإسلام ، والمشركون الماوثون له .

(١) لمزيد من التفصيل انظر للمؤلف (أثر الإسلام في الخطابة العربية) ص ٥٥

وهكذا نتج عن ذلك الصراع حرب كلامية تساقطت فيها عن الخطابة عيوب الجاهلية ، ورادت بها - على الأيام - قوة وتأصلا .

٤ - انجاء الأدباء العرب نحو القرآن الكريم . . . بما كون أسلوبه ، ويقتبسون من آياته ، ويتابعون مسججه وأمسكاه ؛ أكبوا على القرآن بكليتهم ، ونقلوا عنه فيما كتبوا وخطبوا ، لا مرق في ذلك بين المظاهر من حيث الأسلوب والصياغة ، وبين الحقائق من حيث الأمسكاه والماني ، ومن حيث الصور والأخيلة . هذا إلى توسيع حلهم وكنامتهم بآيات من آياته يقتبسونها ، حتى قال الجاحظ : إن الخطابة إذا لم توشح بآيات من القرآن الكريم سميت شوهاء (١) . وقال كذلك : كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يوم الجمع آى من القرآن ، فإن ذلك يرفع الكلام للبهاء والوفار وحسن الوقع (٢) .

وتأثر النقد الأدبي بذلك فأصبح هيا في الخطيب ألا يتعدى بالقراءة القرآنية ، وأصبح عيبا في الخطيب ألا تبدو تلك الثقة القرآنية في خطابه ولم يف عند حد العيب ، بل لقد كان ذلك دليل عجز ، وعنوان خواء ، فقد أشار الجاحظ إلى عجز الأعراب الخفاة الذين لم ينفقوا في الدين عن إحادة الخطبة (٣) . ويحدثنا عمران بن حطان خطيب الخوارج المشهور فيقول : خطبت عند زياد خطبة طنت أى لم أفسر فيها عن غاية ، ولم أزع لطاعن علة ، فمررت ببعض المجالس فسمعت شيخا يقول : هذا الذي أحطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن (٤) .

ومعروف أن الأديب محرك الناقد ويوحه ، ويعلى عليه ما يكتب وما لا يكتب ، إلا أن يكون الأديب متفوقا على معاصريه . سابقا مناهجهم فيكون رائد تجديد . ولا يلتزم بإملاء الناقد ، لأنه حينئذ يكون قد شأه . . . ومن ثم نبض الخطابة الإسلامية

(١) البيان والنبين ج ٢ ص ٦ .

(٢) للرجع السابق ج ١ ص ١١٨ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١١٨ .

بروح غير الروح التي كانت تتحرك بها الخطابة الجاهلية . . استمع إن شئت إلى هذا الجزء من خطبة للصدّيق أبي بكر :

إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم واعلموا أن ما أحلصتم لله من أعمالكم فطاعة أقيمتوها ، وحظ ظهرتم به ، وضرائب أدبتموها ، وسلف قد متموها ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم . أين كانوا بالأمس ، وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ أين الذين لهم ذكر القتال والناية في مواطن الحروب ؟ وقد تضرع بهم الدهر ، وصاروا رميا ، قد تركت عليهم القالات ، الحبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات .

وهكذا كان للقرآن الكريم بنسقه وأسلوبه وصياغته ، ومعانيه وأفكاره ، وأخيلته ، ذلك الأثر البالغ في توجيه الرب المسلمين حيث ترسموه وساروا على هدايه ، وضمنوا أعمالهم الأُدس من آياته ، واقتبسوا منها ما ترقى بفن الخطابة ، وبث فيها روحا تلبيص بالمعاليه والحياة .

أو استمع إلى هذا الجزء من خطبة للإمام طي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أما بعد ، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بدواع ، وإن الآخرة قد أقبلت فأشرقت باطلاع ، وأن المضمار اليوم وغدا السباق . ألا وإنكم في أيام أمل من وراءه أجل ، فمن قصر في أيام أمه قبل حضور أجله فقد خسر عمله . ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرغبة . ألا وإنى لم أركلجنة نام طالها ، ولا كالبار نام هاربها . ألا وإنه من لم ينفعه الحق ضره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى حارب الضلال ألا وإنكم قد أمرتم بالظن ، ودلتم على الزاد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل (١) .

ثم انظر - مع الأفكار والمعاني - إلى هذا النسق الذي قدم فيه الإمام طي خطبته وإلى تلك الانتقالات الرشيدة ، وإلى ذلك المرض الواضح المترابط ، نجد التأثر بالقرآن الكريم بينا ، والتأمل بأسلوبه وطريقته في المرض مقصودا إليه .

٥ - ما جاء به الإسلام في ضمن أنظمتها من حرية في إبداء الرأي ، وهوري في نظام الحكم ، مما جعل طائفة من الأمة تتحرك مع الكلمة وتتحرك معها الكلمة ، لا على وجه الإباحة ولكن على وجه الإلزام ، فمجلس الشورى ميدان للخطابة الواجبة ، ومحك فعال للأفكار والعقول ، ينعقد المجلس ، حيث يمرض الأمر ، ينافش من شق جوانبه ، ويبحث بكل أسباب البحث ، ويحص كل قائل ما يقول حتى يضمن لما يقول السداد ، وينصت كل مستمع حتى لا يترك هنة يقرأها من غير أن يستوضح ويستبين .

وأول من بدأ السير في ذلك الطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان كثيرا ما يجمع محبة يستشيرهم فيما يمرض من الأمور الهامة ، مثل أحد والخندق وكذلك كان شأن خلفائه من بعده حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « لا خير في شيء من غير شورى » .

وابان الأحداث الهامة كل المسلمون يتقدمون بجائس الشورى يتبادلون فيها الرأي ، ويستعرضون الموقف ، يقوم كل صاحب رأى خطيبا يقدم للآخرين ما يرى ، ويدعمه بالحجج ، ويقويه بكل ما يرى من أسباب القوة ، سواء كانت مادية كالحكم والأمثال والوقائع ، أو كانت صوتية بما تحمل من مؤثرات . من ذلك ما حدث يوم السقيفة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما كان من اختلاف حول تليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد كانت ميدان شورى من أخطر ميادين الشورى بما طرح فيها من الموضوعات ، وبما قدم فيها من الآراء حتى إذا تسكلم أبو بكر قدم الحجة المسكتة ، والبيئة الصريحة الواضحة ، وذلك قوله : « نحن المهاجرون . . أول الناس إسلاما ، وأوسطهم دارا ، وأكرمهم أحسابا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثر الناس ولادة في العرب . وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فأنتم إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفداء ، وأنصارنا على العدو ، آؤيتهم وواسيتهم ، فحزناكم الله حيرا ، نحن الأمراء ، وأنتم الورراء ، لا تدب في العرب إلا لهذا الحى من قريش ، وأنتم محققون ألا تنفوسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم » (١) .

ومن ذلك أنه لما كانت وثنة أصحاب الجمل انعقد محاس الشورى في مدينة السكوفة، ووقف بعض أعضائه داعياً إلى عدم المشاركة في الفتنة كآبي موسى الأشعري، ووقف آخرون يدعون إلى نصرة علي وقتال أصحاب الجمل كالقمقاع بن عمرو^(١)

وهكذا يتراءى الإسلام أمام عيوننا في الخطابة العربية من خلال ذلك المبدأ الذي أقام عليه دولته، فأصبح الحال لارتفاع الخطابة وأردناها :

٦ - الصراع بين المسلمين بعضهم مع بعض - على ما حدث بين علي ومعاوية - كان من عوامل نمو الخطابة الإسلامية ، لما يحتاج إليه هذا الموقف من تلوين الخطابة بألوان أخرى غير التي عهدت . تموج - من غير شك - إلى تفكير وبحث ودرس وأناة ، حتى يتمكن القائل من الجمع التي يسهل بها على المسلم أن يجارِب أحباء المسلم ، ولم تكن الحاجة إلى الخطابة أمس منها في ذلك الحين ، فقد كان قادة كل فريق يحرسونه على تقوية ، الروح المعنوية ، وخلق الإيمان في نفس أتباعهم بإسلامية عملهم هم دون غيرهم ، وإقناعهم بأنهم يجارِبون من أجل إقرار الحق ، وأشر دين الله . ثم إن القادة والزعماء ليقدرُون الموقف حق قدره ، ويعلمون أنهم في حاجة إلى الإكثار من القول ، وإعادته وتكراره ، لأن تكرار القول يدخل في النفوس توهم صدقه ومجته . ومن ثم نستطيع أن نقف على السر في كثرة ما وصلنا من خطب هذه الفترة وما تلاها .

ويلاحظ على خطب هذه الفترة - مع كثرتها - أنها تنقسم بالطول والإطالة ، وذلك مراعاة من قائلها لمقتضى الحال ، فالموقف يستدعي البسط والتفصيل ، وقرع الحجة بالحجة ، من كل ما يقتضى الإطالة .

وهكذا أصبحت الفتنة الكبرى التي وقعت بين علي ومعاوية مصدر إراء للخطابة العربية الإسلامية ؛ فالإمام علي خليفة بايعة المسلمون وخرج عليه معاوية ، ومن ثم فهو يعمل على ملء قلوب مناصريه بالحماسة والبسالة ، ويبذل كل ما يستطيع من قوة الكلمة في أن ينزع من قلوبهم عاطفة الإحوة الدينية التي توشجت أواصرها بينهم وبين إخوانهم الذين انضوا تحت لواء معاوية وناصروه ، فلا يجد بدا من أن يلجأ إلى العاطفة الدينية

نفسها فيشرها في نفوس اصحابه ، ويظهر الآخرين في مظهر المارقين على الدين، والمهادنين
لأسسه ومبادئه. استمع إليه في إحدى خطبه إذ يقول : « وایم الله ماوتر قوم قط بشيء
أشد عليهم من أن يوتروا بدينهم . وإن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم
ليمتوا السنة ، ويحيوا البدعة ، ويميدوك في ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن
البصيرة ، فطیبوا عباد الله أنفسا بدمائكم دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله
عنده جنات العمیم . وإن الفرار من الزحف فيه السلب للأمر ، والخيلة على الفء ، وذل
الحما واللمات ، وعاب الدنيا والآخرة ، وسخط الله وأليم عقابه . »

وفي الجانب الآخر يقف معاوية ومناصروه يصنعون نفس الصنيع ، استمع إليه
مخاطب عرسا على قتال على وصحه : « انظروا يا اهل الشام ، انكم غدا تلقون اهل
الله انتم تروا على احدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله في قتال
قوم بغوا عليكم ، وإما أن تكونوا طلبتم ما عند الله ، وإما أن تكونوا قومًا يطلبون
يدم حليفتكم وصهر نبيكم ، وإما أن تكونوا قوماً تدعون عن ساداتكم وأبائكم ،
فعليكم بتقوى الله والصبر الجليل ، واسألوا الله لما ولكم الصبر » .

وفي هذا الليدان ظهرت جماعة من النساء ثارت في نفوسهن عاطفة الحب لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فمعن خطيبات يماون بسلاح الحكمة عليا كرم الله وجهه ، فتسير خطبهن مسار النار في الهيثم، مثل عكرشة بنت الأضرش، وأم الحيريت الحريش، والزرقاء بنت عدى . وبهذا السمع محال الخطابة ، وازدادت ثراء ، سواء كان مظهر ذلك . . الغرض ، أو الداعي لها ، أو القائل الخطيب . . .

٧ - إيجاب الخطابة على المسلمين في بعض حالات العبادة ، واستحبابها في بعض آخر ، مع تحديد الخطيب في ذلك بناية ، وربط الخطبة بأسباب ووسائل كان لها أكبر الأثر في عمو الخطابة وتطورها ؛ فصلاة الجمعة من كل أسبوع لا تتم بدون خطبة ، وفي كل مناسبة أو داعية خطبة يواجه فيها الإمام أو الخليفة جمهور المسلمين . وكل تلك الخطب غير محدودة الموضوع ، بل هي مطلقة على حسب ما يناسب الزمان والواقع والموقف . بيد أن غايتها محدودة ، وقيمتها تكاد تكون كذلك وأوضح نموذج لذلك النمط من الخطابة ما أُرِج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع . قال صلى الله عليه وسلم بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس ، اسمعوا قولي فإني

لا أدري لى ! ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنسكم متلقون ربكم فيصاألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رهوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أن لا ربا . وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . . أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكننه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون . من أعمالكم فاحذروه على دينكم . .

* * *

وهكذا اجتمع للخطابة العربية بمجىء الإسلام كل أسباب النهو والترق ، وباستطاعتنا أن نجمل تلك العوامل فى ثلاثة : أحدها جذرى ، والثانى عرضى ، والثالث تهنئى .

فالأول يعمل على تعميقها وتأصيل أسبابها بعد أن كانت مقصورة على خطاب للشاعر والوجدانات ، كما بدأ ذلك فى الحجاج الموضوعى ، والمناقشة الموضوعية ، والدعوة المذهبية .

والثانى يوسع أبعادها ، ويمدد ميادينها ، وذلك بتكثير الأعراض التى تستخدم فيها ، والثالث يحدد لها النهج ، ويرسم لها الطريق ، ويقسم لها الخطوات ، ويربط بين عناصرها وأفكارها .

ومن ثم تهباً للخطابة - مع الإسلام - من أسباب الذبوع والانتشار ما لم يتهأ لها من قبل ، فقد أصبحت الوسيلة الأولى ، والأداء المبررة عن الدعوة ، تنطق بمحاسنها ، وتشرح لأسرارها ، ويواجه بها أصحاب الآراء والأفكار الجديدة معارضهم بالتوضيح والتشويق والتنفيد .

أم خصائص الخطابة الإسلامية :

نعت تأثير هذه العوامل وغيرها نعت الخطابة وتطورت ، فاكنت سمات وخصائص ميزتها عن الخطابة الجاهلية ، كان من أبرزها :

١ - أن الخطيب أصبح يميل إلى الطول ، حيث مست الحاجة إلى الإطناب فيها ؛ عرضاً لحوانب الفكرة التي يقدمها الداعي ، أو تعليلاً وتفسيراً لما اتخذ من المواقف ، أو بسالماً يأخذه على الخضم من أخطاء وإحراجات ، أو استطراداً في ذكر الحجج والبراهين على قوة ما يرى وترهين ما يراه غيره . . إلى غير ذلك من دواعي الإمالة ، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك في قوله : إن جملة القول في الرداد أنه ليس فيه حد ينهي ~~الخطيب على وجهه~~ وإنما ذلك على قدر السمعين ومن يحضره من المواقف والخواص ، وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود وهارون وشيب وإبراهيم ، ولوط . . لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم (١) . وقد روى الباقلائي أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات ، غير أن ما وصلنا من خطبه صلى الله عليه وسلم إنما هو بقايا تلك الخطب ، فقد سقط منها الكثير قبل أن يتخذها التدوين ، مثال ذلك خطبته صلى الله عليه وسلم في أول جمعة له بالمدينة ، وفيها يقول .

والحمد لله ، أحمدوه وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأوصى به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمد عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والبر والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وصلاة من الناس ، واقطاع من الزمان ، ودور من الساعة ، وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وصل صلالاً بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه . ولا أفضل من ذلك بصيحة . وأصل من ذلك ذكر ، وإن تقوى الله لمن عمل به على وحل ومخافة من ربه ، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الهدى بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا يبدى

بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد المرات حين يفتر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بيده ويده أمدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه . والله رءوف بالعباد ، والذي صدق قوله ، وأبجر وعده لا حلف لذلك ، فإنه يقول عز وجل : « ما يبذل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويظم له أجرا » ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما ، وإن تقوى الله يوقى مقتته ، ويوقى عقوبته ، ويوقى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، حسدوا بحظكم ، ولا تهرطوا في جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه . « وحاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم » وسماكم المسلمين « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بنية » ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكرا الله ، واعملوا لما يمد اليوم ، فإنه من يسلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويهلك من أناس ولا يهلكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم .

٢ - أن الخطيب يحرص على تقسيم الخطبة ، حيث تبدأ بمقدمة توحى بالموضوع ، ثم عرض للموضوع يستخدم فيه كل ما يمكن من وسائل العرض ، ثم خاتمة بالخص فيها ما بسط ، ويحمل ما فصل . ولقد كان للخطاب القرآني أكبر الأثر في توجيه العرب إلى ذلك النهج في خطبته ، حتى إذا اطلع القاد العرب على خطابة أرسطو وجدوه يطلب من الخطيب السير على هذا المنوال ، فلما رجعوا إلى ما بين أيديهم من الخطابة القرآنية الإسلامية وجدوها تسير في نفس الطريق .

٣ - وكما حرص الخطيب على تقسيم خطبته حرص على أن يكون العرض قائما على الترتيب المنطقي الصحيح الذي يتمدد على استخلاص النتائج من مقدماتها ، سواء بدأ بالمقدمات وثم بالنتائج أو عكس . ونظرة إلى ما قدمنا من نماذج تقرر ذلك .

٤ - قوة الأفكار التي تناولها الخطابة ، فلقد أصبحت هي أداة التعبير الأولى لديهم ، وكان عليها أن تحمل ما جد في المجتمع الإسلامي الجديد من مضامين . ومن ثم أصبحت أمكارها في مستوى الخطابين بها ، قوة وعمقا وكثما

٥ - إرسال أسلوبها ، وعدم التزام لون أسلوبى معين فيها ، فجعلها تتردد بين الطول والقصر على حسب الحاجة إلى ذلك ، والسجع فيها غير ملازم ولا مقصود إلا أن نجى عفوا ، إذ لا خطيب من جلال موضوعه ، وترتيب أفكاره ما يشتهه عن الاهتمام بالتحسين اللفظى والتقصيد إليه .

٦ - توضيح الخطبة بآيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والحكم والأمثال السائرة ، تزيينا وإقناعا

(٢) الكتابة

معرفة العرب بالكتابة سابقة على مجيء الإسلام ؛ لكن هذه المعرفة لم يصلنا من مظاهرها ما يدل على أنهم توسعوا في استخدامها ، أو تفننوا في موضوعاتها ، والتصور العقلي لحياة العرب في العصر الجاهلي يحدد مجالات استعمالهم الكتابة وسيلة من وسائل الإبانة ؛ فقد كان معتمد على الأصيل على الشعر الذي يقوم على الإشاد والمشافهة ..

ولما جاء الإسلام ، واتسعت الدولة ، وتوحدت الأمة ، وتشابكت المصالح ، وتوطدت الصلات على البعد المكاني ... في هذه البيئة الحضارية الجديدة مست الحاجة إلى الكتابة ، وأصبحت من أهم مقومات الدعوة الجديدة ؛ فهي مطلوبة لحفظ القرآن الكريم ، ولتوثيق المعهود والاتفاقات ، ولتبليغ الملوك والرؤساء الدعوة الإسلامية ، ولخطابه العمال والولاة بشئون الحكم ، ولتوصية الرسل والقضاة بالحفاظ على مبادئ الإسلام .. إلى غير ذلك مما جد على العرب المسلمين ، ودعاهم إلى مزيد من الحرص على الكتابة ، والإقبال عليها تعلما وتعلما وتنمية

ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن بمكة سوى سبعة عشر كاتباً (١) أسلم أكثرهم في مبتدأ الدعوة مثل أبي بكر الصديق ، وسعد بن أبي وقاص ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعاصم بن فهيرة ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله .. ومن بين هؤلاء الصحابة تخير الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الوحي ، وكتاب الرسائل والمعهود (٢) . ولما أصبح للمسلمين دولة بعد الهجرة إلى المدينة وزادت الحاجة إلى الكتابة وإلى الكتابيين ، أقبل المسلمون على تعلم الكتابة ، وكان في مقدمة هذا التحرك التعليمي ما فرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم على العاجزين عن دفع الفدية من أسرى بدر ، فقد عادل الفدية بتعليم عشرة من فتيان المسلمين ..

(١) متوح البلدان للبلاذري ص ٤٧١ ، ص ٤٧٣

(٢) الزرراء والكتاب للجهمشيارى ص ١٢ طبعة الحلبي .

وهكذا وجدت الأرض الحصينة والجو المناسب تماما لانتشار الكتابة في عصر صدر الإسلام ، ومع انتشار المسلمين في أرجاء الجزيرة العربية وما جاورها انتشرت الكتابة العربية ، حتى أصبحت معلما بارزا من معالم الحضارة الإسلامية المتقدة في تلك الفترة . وكان في مقدمة الدواعي المباشرة إلى الإقبال على تعلم الكتاب ، أن أول ما نزل من وحى السماء تضمن من الله سبحانه وتعالى طى الإنسان بنعمة القلم والتعليم بالقلم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . وأتبع ذلك بقسمه جل وعلا بالقلم وما يكتب بالقلم ، وبالكاتب . . . إلى غير ذلك مثل قوله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون » . وقوله : « والطور وكتب مبطور في ذلك اليوم » . كما أن القرآن الكريم أمر المسلمين أن يكتبوا ما آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالمدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحسب . . . (١) .

وهكذا ارتبطت الكتابة بالإسلام وبالدولة الإسلامية ، كلما ازداد الإسلام اقتشارا ، وازدادت الدولة اتساعا ، ازدادت الكتابة عوا وازدهارا ، ونبتت عن الفصحى الطوى أنغصان ، وتمتقت عن تلك الأغصان أزهار وغار ، أثمرت وبدا نضجها سريما ، فقدمت الأدب العربى جنى طيبا شهيا ، كان نواة صالحة لما أنتجت البيئة العربية بعد ذلك من دنون النثر المكتوب .

والظاهر فيما أثر من كتابة هذا العصر بحدودها - مد أول العصر - الكتابة العربية ذات السمات والخصائص التى تتميز بها عن غيرها بما أضفت البيئة ومتطلباتها عليها من مناهج أسلوبية وبيانية خاصة ؛ هى ليست - كما يتوهم بعض الدارسين - حديثا عاديا يسجل فى كتاب موجه إلى شخص معين ، حاليا من الفية والصنعة الأدبية . وإعاهى عمل فنى ، صادر عمن يقدر البيان التمييزى قدره ، وهو يقدم بين يدى دعوته الجديدة

كتاب السماء يتحدى الإيس والجن أن يأتوا بمثل له مجتهدين متآزرين ، ومن أبرز مظاهر فنية الكتابة في ذلك العهد :

١ - أن السكتب والمراسلات لم يكن يلتزم فيها بشكل معين ولا صورة واحدة . فقد كان صلى الله عليه وسلم يلونها على حسب المرسل إليه ، فإن كان المرسل إليه غير عربي حرص صلى الله عليه وسلم على أن يكون موجزا ، مختار الكلمات بحيث يسهل ترجمتها في بيان قاطع . كما ترى في كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل فارس :

« من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . فأدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الخلق كافة ليسدر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإثم الجبوس عليك . وإن كان المرسل إليه عربيا انتقى من الألفاظ ما يتناسب مع وسطه البيئى ، كما ترى في كتابه صلى الله عليه وسلم المرسل إلى وائل بن حجر الحضرمى :

« من محمد رسول الله إلى الأقبال الباهلة والأرواع المشاييب^(١) . ثم يقول : « وفي التبعة شاة لا مقورة الألياط ولاضناك ، وانطوا التبعة^(٢) ، وفي السيوب^(٣) الخنس^(٤) ، ومن ربي مم بكر فاصقو . مائة ، واستوفضوه عاما^(٥) . ومن ربي مم ثيب مضر جوه بالأضاميم^(٦) ، ولا توصيم في الدين ، ولا غمة في فرائص الله تعالى^(٧) ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترفل على الأقبال ،^(٨) .

(١) الأقبال جمع قبل بفتح مسكون : الملك من ملوك حير وحضرموت . والعباهلة : المقرون على ملكهم ، والأرواع : الذين يرعون بالهبة والحال . والمشاييب جمع محبوب : الجبل الزاهر اللون .

(٢) التبعة : أربعمائة ، وهي نصاب الزكاة في الضأن . والمقورة الألياط بضم الميم وسكون القاف وفتح الواو : المسترخية الجلود . والضناك بكسر الصاد : السمينة ، وانطوا : أعطوا بإبدال الميم نونا في لغتهم . والتبعة بفتح تين : الوسط .

(٣) السيوب جمع سيب : العطية والمراد به الزكار

(٤) مم : من بإبدال الميم نونا في لغتهم . والصفع : الضرب ، والاستيفاض : التنزيه .

(٥) الأضاميم : جمع إصامة : الحجارة الصغار . (٦) التوصيم : التواني .

(٧) يترفل : يترأس .

وقد سار الصحابة في الطريق ذاته ، فاهتموا بتجويد الكتابة ، وحرصوا على اختبار من يتولى الكتابة لهم ، روى الجهمي عن أبي هريرة رضي الله عنه دعا زيدا فقال له ينبغي أن تكتب إلى خليفتك بما يجب أن يعمل به ، فكتب إليه كتابا ودفنه إلى عمر ، فنظر فيه ثم قال أعد ؛ فكتب غيره . فقال له أعد ، فكتب الثالث . فقال عمر : لقد بلغ ما أردت في الأول ولكنني ظننت أنه قد روى فيه ، ثم بلغ في الثاني ما أردت فسكرت أن أعلمه ذلك ، وأردت أن أضع منه لئلا يدخله العجب فبهك (١) .

٢ - الميل إلى الأسلوب التصويري القائم على التحبير والتجويد ، استجابة لما شب في آخريات ذلك العصر من قن وجهت الحكام والكتابين إلى تضمين رسائلهم وسائل التوجيه في الخطوة عند الحكم والترهيب من الخروج عليه ، والتعدير من الإهمال على ما تجدد في رسائل عثمان رضي الله عنه إلى عماله وولاته يبه فيها إلى ما شب في البلاد من قن متمد على الشائعات . وبين سياسة الجديدة . مثل رسالته إلى معاوية حين قام أبو در بدعوته في الشام ، وفيها يقول : « إن أفتنة قد أخرجت حطما وعبيها ، فلم يبق إلا أن تثب فلا تسكأ القرح » (٢) .

٣ - انحاء الكتاب إلى الإطبات والإطالة ؛ فالعصر في مرحله الأخيرة ملء بالمعراج السياسي الذي لم يترك فيه المتصارعون وسيلة من وسائل الحرب إلا استخدموها ، ومن بين وسائلهم في ذلك كانت الكلمة المكتوبة ، يفسدون فيها مزاعم الخصوم ، ويستعرضون آراءهم ، ويتنبهون بها في استقصاء يقنع ، وهذا دون شك يستمد على الإطبات والإطالة ، وقد احتذوا في ذلك بالقرآن الكريم ؛ فهم في ذلك حاضمون للبيئة وأحداثها ، متأثرون بالقرآن الكريم ومنهجه .

٤ - سهولتها ووضوح أحوالها ، وبمدها عن التكلف ، وتأثرها بالقرآن الكريم ، وتحليلها بآياته ، كما ترى في كتاب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله وفيه يقول : « أما بعد .. فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جراه ؛ فاحمل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصيرتك ، فإنه لا عمل

(١) الوراء والكتاب ص ١٩

(٢) الجهرة لأحمد صفوت ج ١ ص ٢٩٦ .

لا بية له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا مال لمن لا رفق له ، ولا جديد لمن لا حلق
— بفتح الحاء واللام — له .

* * *

ويلاحظ المدارس لما أثر من كتابات ذلك العصر أنها رسائل أو عهود ومواثيق ،
وأن الرسائل تتنوع بتنوع أعراسها ، فمنها رسائل الدعوة التي وجهها الرسول صلى الله
عليه وسلم ومحابته إلى الملوك والحكام غدير للمسلمين يدعوهم إلى الإسلام ، ومنها
الرسائل السياسية التي تتضمن توجيهها سياسيا يتماق بأمور الحكم — وقد رأينا فيما أسلفنا
نماذج لمذنب الغرضين — ومنها الرسائل الإحوائية التي تقوم على الإسرائيليات ، كما حاء
في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل ، يبريه في وفاة ابن له مات ، وفيها
يقول : « من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل ، سلام عليك ، يا بني أحمد إليك الله
الذي لا إله إلا هو . أما بعد فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، وورقنا وإياك
الشكر ، ثم إن أنفسنا وأهلينا ومواليها من مواهب الله السنية ، وعوارفه المستودعة ،
نتمتع بها إلى أجل معدود ، وتقضى لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى ،
والصبر إذا ابتلى . وكان أبلك من مواهب الله السنية ، وعوارفه (١) المستودعة ،
متمك به في عبطة وسرور ، وقبضه مملك بأجر كثير ؛ الصلاة والرحمة والهدى إن
صبرت واحتسبت ، فلا تجتمع عليك يا معاذ خصلتين : أن يحبط جزعك صراخ ، فتندم
على ما فاتك ، ولو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده . عرفت
أن المصيبة قد قصرت عنه ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ، ولا يدفع حزنا ، فأحسن
الجراء ، وتجر الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نارل بك ، فسكن قد ، (٢) .

ومنها رسائل المواعظ والنصح والتوجيه ، وهي تختلف عن الإحوائيات ؛ إذ ليس
صروريا أن يكتب بالنصح لآخر بمن تربطه به علاقة أحوة أو صلة قرى ، فقد يكتب
بذلك إلى فرد من عامة الناس ، أو إلى أمير أو عامل أو خليفة . ثم هي قائمة على هذا
الفرض المحدود استجابة لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . متبادله سلمان
الفارسي وأبو الدرداء .

(١) العوارف جمع عارفة : المعروف .

(٢) الحمرة ج ١ ص ٦٥

يقول سلمان في إحداها : « أما بعد فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهى، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره، فليكن كلامك ذكرا، وصمتك سكرا، ونظرك عبرا، فإن الدنيا تنقلب، وبهجتها تتغير، فلا تغتر بها، وليكن بيتك المسجد » .

ومما كتبه أبو الدرداء إلى سلمان : « سلام الله عليك . أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله . وأن تأخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لحرمك، ومن مراغك لشغلك، ومن حياتك لموتك، ومن جفائك لموتك، واذكر حياة لا موت فيها في إحدى اللزتين؛ إما في الجنة وإما في النار، فإنك لا تدري إلى أيهما تصير »^(١) .

ومنها كتب اليهود واللواتيق، وهي كتب تعتمد على الدقة في التعبير، والوقوف على اللفظ المناسب، دون الحاجة إلى المؤثرات العاطفية من تصوير أو تخيل؛ فالدقة الفنية فيها تتطلب اللفظ الذي يؤدي الغرض منه .

ولا ريب في أن هذا النمط البياني لم يكن وليد الحضارة الإسلامية، فقد كان للرب في الجاهلية معاهداتهم واتفاقياتهم المكتوبة، وكان من عادتهم أن يودعوا لهم منها جوف السكبة توثيقا لها وحفظا، كما حدث يوم واجهت قريش بنى هاشم للضغط عليهم وتسليم محمد إليهم، فانفقوا على مقاطعتهم، ودونوا هذا الاتفاق في صحيفة أو دعوها السكبة .

يبد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخل على المعاهدة من التحفظات والاشتراطات والتوضيحات ما نظمها في سلك العمل الفنى، حتى أصبح الناظر فيها يجد نفسه أمام لون بياني يكشف فيه صاحبه عن كثير من الجوانب السياسية والاجتماعية القائمة والمتوقعة، ويبين عن طبائع من يتعامل معهم وأفكارهم، ويواجه الشاذ منها بالتقويم، مثال ذلك معاهدته صلى الله عليه وسلم مع من كان بالمدينة التي جاء فيها : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي - صلى الله عليه وسلم - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، وللهاجرون من قريش على ربتهم^(٢) يتماقلون^(٣) بينهم، وهم يفتدون

(١) الحمرة ج ١ ص ٣٢٤، وحاية الأولياء ج ١ ص ٢١٤ .

(٢) على ربتهم : على استقامتهم، يعنى على أمرهم الذى كانوا عليه .

(٣) يتماقلون : يعقل بعضهم بعضا، ويدفع دية جنايته الخطأ .

عائدهم (١) بالمعروف والقسط (٢) بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتماثلون معاقبهم الأولى ، وكل طائفة نفدى عايبها بالمعروف والقسط بين المؤمنين - ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار : بنو الحارث ، وبنو ساعدة ، وبنو جشم ، وبنو النجار ، وبنو عمرو بن عوف ، وبنو البيت ، وبنو الأوس - وإن للمؤمنين لا يتركون مفرجا (٣) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقتل ، ولا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه . . .

ويسير صلى الله عليه وسلم في المعاهد على هذه الوثيرة من تحديد واجبات المتماهدين قبل الآخرين ، ثم في النهاية ، يحدد معالم الواجبات العامة في قوله : « وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف تساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قریش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلتبسونه فإنهم يصالحونه ويلتبسونه . وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنهم لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظلم ولا آثم ، وأن من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو آثم ، وأن الله جبار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

والناظر في محتوى هذا الكتاب يلاحظ أن الذي صلى الله عليه وسلم التزم فيه سبيل الدعوة إلى الدين والإبانه عن مبادئه ، إلى جوار المقررات السياسية التي تستدعيها نظم الحكم ، واستقرار الحياة في الدولة الناشئة ، فلم يغفل جانباً لحساب الجباب الآخرين ،

(١) العاني : الأسير . (٢) القسط : العدل .

(٣) المفرج - بضم الميم وسكون الفاء وفتح الراء - الذي أنقذه الدين والفرج . يقال : أفرجه إذا أنقذه ، ويروى (المفرج) بالجيم ، وهو القليل الذي لا يدرى من قتله أو الذي لا ولد له ولا مال ولا عشيرة .

واسكنه - صلى الله عليه وسلم - خرج بين كل هذه الغايات في كتابه ، بحيث يجد المتأمل أنه أمام وثيقة سياسية بما تتضمنه من مقررات محددة ، وأنه أمام رسالة تكشف عن أبرز مزايا الدين الجديد بما يشد الناس إليه ، ويحثهم نحوه (١) .

وصفوة القول : إن الكتابة في ظل حصار الإسلام توفر لها - بالقرآن الكريم ، وبالإسلام ومبادئه ونظمه ، ورسول الإسلام ومبادئه ، وبما جد من أحداث في ظلال الإسلام - من أسباب النمو والترقي مامنحها القدرة على النهوض ، وأتاح لها فرصة القيام والتحرك في مجال النمو والترقي في مختلف الاتجاهات . . أسلوبا ، وموضوعا ، وفكرا ، ومنهجيا ؛ فأصبح للكتابة كيان أدبي يؤرخ له في هذا العصر ، فأضيف لقنون الشرفن جديد .

(١) لمزيد من التفصيل راجع المؤلف (تأملات في البيان النبوي) ص ١٢٦ وما بعدها.

الفهرست

الموضوع	الصفحة
للقدمه	٣
تمهيد	٥ - ٣٤
الفصل الأول : الأدب	٥
الفصل الثاني : العرب	١٢
الفصل الثالث : الوطن العربي	١٦
الفصل الرابع : اللغة العربية	٢١
الباب الأول : الأدب العربي	٢٥ - ٨٥
الفصل الأول : البيئة والأدب	٢٧
الفصل الثاني : أجناس الأدب العربي	٣٤
الفصل الثالث : مصادر الأدب الجاهلي	٥١
قضية نحل الشعر وانتقاله	٦٧
الفصل الرابع : المقصود بالبادية والحاضرة	٧٩
الباب الثاني : الشعر البدوي	٨٧ - ١٦٣
الفصل الأول : أعلام من شعراء البادية	٨٨
٩٢ عنتره ، ٩٩ الحارث بن حلزة ، ١٠٦ زهير بن سلمى ، ١٢٠ الشنفرى ، ١٢٦ عروة ابن الورد	
الفصل الثاني : فنون الشعر البدوي	١٣١
١٣٣ الفخر ، ١٤٠ الهجاء ، ١٤٣ للمح ، ١٤٧ الرثاء ، ١٥٢ الغزل ، ١٥٧ الوصف	
الباب الثالث : الشعر الحضري	١٦٥ - ٣٢٦
الفصل الأول : أعلام من شعراء الحاضرة	١٦٦
١٧٥ امرؤ القيس ، ١٩٢ عدى بن زيد ، ٢١٤ النابغة	

الصفحة	الموضوع
	الذياني ، ٢٢٦ العباس ابن مرداس السلي ،
	٢٥٦ حسان بن ثابت ، ٢٦٢ كعب بن زهير
٢٦٦	الفصل الثاني : فنون الشعر الحضري
	٢٧٠ المدح ، ٢٧٠ الهجاء ، ٢٧٤ الاعتذار ،
	٢٧٦ الفخر ، ٢٧٩ النزل ، ٢٨٢ المدينيات والمواضع
	٢٨٤ الرثاء ، ٢٨٨ الوصف .
٢٩٧	الفصل الثالث : الشعر العربي بين البادية والحاضرة
٢٩٨	الخصائص المنوية والخيالية
٣١٢	الخصائص المضمونية
٣١٧	الخصائص الأسلوبية
٣٢٧-٣٩٥	التياب الرابع : المتر بين البدو والحضر
٣٢٨	الفصل الأول : فنون المتر قبل الإسلام وخصائص كل فن
	٣٣١ الحكم والأمثال ، ٣٣٥ الخطابة
٣٤٤	الفصل الثاني : حضارة الإسلام وأثرها في العرب وآدابهم
	٣٤٤ أثر الإسلام في الحياة العربية
	٣٤٨ أثر الإسلام في الأدب العربي
٣٥٤	الفصل الثالث : أعلام من التأثيرين المسلمين
	٣٥٥ القرآن الكريم ، ٣٦٣ الحديث النبوي ،
	٣٦٦ أبو بكر الصديق ، ٣٧٠ عمر بن الخطاب ،
	٣٧٣ علي بن أبي طالب
٣٧٦	الفصل الرابع : فنون المتر الإسلامي وخصائصه
	٣٧٦ الخطابة ، ٣٨٨ السكتانة

رقم الإيداع ٨٢ / ٤٧٠١

